

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٥١)

تفسير القرآن الكريم

سورة فصلت

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٥١)

تفسير القرآن الكريم

سورة فصلت

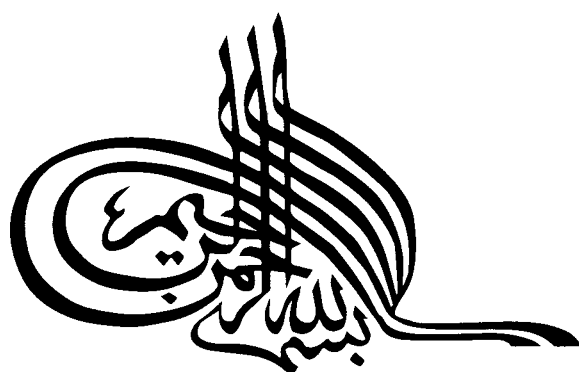
لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية


بسم الله الرحمن الرحيم

ⓒ مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العثيمين، محمد بن صالح

تفسير سورة فصلت. / محمد بن صالح العثيمين ـ ط ١ ـ القصيم، ١٤٣٧هـ

٣٥٧ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٥١)

ردمك: ٣ـ ٧٣ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

١ ـ القرآن ـ سورة فصلت ـ تفسير.

أ ـ العنوان

ديوي: ٢٢٧،٦ ١٤٣٧/١٨٥٠

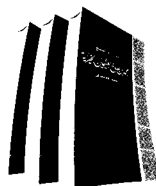
رقم الإيداع: ١٤٣٧/١٨٥٠

ردمك: ٣ ـ ٧٣ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٧ هـ

يُطلب الكتاب من:



مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

المملكة العربية السعودية

القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩

هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩

جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧

www.ibnothaimeen.com

info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية

دار الدُّرة للنشر والتوزيع ـ شارع محمد مقلد ـ متفرع من مصطفى النحاس

بجوار سوبر ماركت أولاد رجب

هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ ـ محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

•• ∞ ••

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحَقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأُمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليَقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين.

أَمَّا بَعْدُ: فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحٍ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في جامِعِهِ بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإِجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَريم كانَت بِدَايَةُ التَّسْجِيلِ الصَّوتيِّ لَـهَا مِن سُورة النُّور وَمَا بَعدَها؛ حتَّى بلَغ فَضيلتُه قَولَه تَعالَى في سُورة الزُّخرف: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في تَفْسيرِه لتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَيِ الطُّلَّاب هُو (تَفْسير الجَلالَيْنِ) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمَدَ بنِ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ،

المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)[١]، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد ابنِ سابِق الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)[٢]. تغمَّدهما الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خَيرَ الجَزاءِ.

وسَعْيًا -بِإِذْنِ اللهِ تَعالَى- لِتَعْمِيمِ النَّفْع بتِلْكَ الجُهُود المُباركة فِي هَذا المَيْدَان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤسَّسةِ الشَّيخ مُحمَّد بنِ صالِح العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهِيز للطِّباعةِ والنَّشْر لِإِخْراج ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إنفاذًا للقَواعِدِ والضَّوابِط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضيلةُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالصًا لِوجهِه الكَريم؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلمِينَ خَيْرَ الجَزاء، ويُضاعِفَ لهُ المثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّنَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأَوَّلِينَ والآخِرينَ، نبيِّنَا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لَهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ

١٤ مُحَرَّم ١٤٣٧هـ



(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

(٢) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

سورة فصلت

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّدٍ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ ومَن تَبِعَهم بإحْسانٍ إلى يومِ الدِّين.

أمَّا بَعْدُ؛ فلا رَيْبَ أنَّ القرآنَ الكريمَ نزَلَ ليتَعَبَّد النَّاسُ بتِلاوَتِه وليَتدبَّرُوا آياتِه، وليتذكَّرَ أُولو الألْبابِ؛ قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

وإذا كان الإنْسانُ لو قرَأَ متْنًا أَلَّفَهُ إنسانٌ منَ البَشَرِ، فلا بُدَّ أنْ يَتدبَّر مَعانيَه ويَتفَهَّمَها، فكذَلِك كَلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مِن باب أوْلَى أنْ يَتدبَّر الإنسانُ مَعانيَه ويَتفَهَّمها؛ لأنَّ قِراءةً بلا معنًى ليستْ قِراءةً، فالقارئُ الذي لا يَفهمُ المعنى؛ بمنزِلةِ الأُمِّيِّ الذي لا يَقرأُ.

ودليلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨]، يعني إلَّا قِراءةً، فوصَفَهمُ اللهُ بأنَّهمْ أُمِّيُّون؛ لأنَّهم لا يَعلَمون الكِتابَ إلا قِراءةً فقطْ.

وقد ذَكَر العلماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ لتفسيرِ كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ قواعدَ مهمَّةً، نَذكرُ مِنها ما يَلي:

١- أَوْلى ما يُفسَّرُ به القرآنُ أنْ يُفسَّر القُرآنُ بالقُرآنِ؛ لأنَّ الَّذي فسَّرهُ هُو الَّذي أَنزَلَه، وهُو أعلَمُ بمُرادِه، فنُفسِّر القرآنَ بالقرآنِ ما وجَدْنا إلى ذلك سبيلًا، ولِهذا

أمثلةٌ كثيرةٌ؛ مِثلُ قولِه تَعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار:١٨]، فسَّر اللهُ ذلك اليومَ بقولِه: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٌ لِّنَفۡسٍ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٩].

فلو سألَنا سائلٌ: ما هو يومُ الدِّينِ؟

نَقولُ: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٌ لِّنَفۡسٍ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾ [القارِعةِ:١-٥]، ولِهذا أمثلةٌ كثيرةٌ.

٢- ثمَّ نفسِّرُ القُرآنَ بتَفسيرِ أعلَمِ الناسِ به، وهو رسولُ اللهِ ﷺ ولِهذا أمثلةٌ:

منها: قولُه تَعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس:٢٦]، الزِّيادةُ لمْ يُبيِّنْها اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ولكِنْ بيَّنَها الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بقولِه: «النَّظَرُ إلى وجْهِ اللهِ»(١).

وكذَلِك مِثالٌ آخرُ: قولُ اللهِ تَعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفالِ:٦٠]، فسَّرَها النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بقولِه: «ألا إنَّ القُوةَ الرَّميُ»(٢)، وكرَّرَها.

وكَما يكونُ تفسيرُ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- للْقُرآنِ بلفظِه، يَكونُ كذَلِك بفعلِه؛ فقولُه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرةِ:٤٣]، لمْ يُبيِّنِ اللهُ تَعالَى كيفيَّةَ هذه الإقامةِ الَّتي أمَر بها، لكنْ فسَّرها النبيُّ ﷺ بفِعلِه، فَقامَ ورَكعَ وسَجدَ وقَعدَ، وقالَ:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رقم (١٨١)، من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الرمي، رقم (١٩١٧)، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«**صلُّوا كما رأيتُموني أصلِّي**»(١).

إذَن: أوَّلُ ما نُفسِّرُ القرآنَ به هو القرآنُ؛ لأنَّ الَّذي فسَّره هو الَّذي تكلَّم به وهو أعلمُ بمُرادِه، ثمَّ بسُنَّة النبيِّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- القوليَّة والفعليَّة؛ لأنَّ النَّبِيَّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- أعلمُ الناسِ بكلامِ اللهِ؛ لأنَّه رسولُه.

٣- ثُمَّ بعدَ ذلكَ بتفسيرِ الصَّحابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وتفسيرُ الصَّحابةِ لا شكَّ أنَّه أَوْلى مِن غيرِهِ؛ لأنَّ الصَّحابةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أعلمُ النَّاسِ بِلُغَةِ القرآنِ بلا مُنازِعٍ؛ ولأنَّ القرآنَ نزلَ في عَصرِهم وفي الأحْوالِ الَّتي يعرِفونها.

ولا ريبَ أنَّ المعنَى يُعرَف في الزَّمنِ والحالِ الَّتي نزلَ بها؛ ولهذا يَنقُلون إلَيْنا أسبابَ النُّزولِ في الآياتِ التي نزَلَتْ على سببٍ؛ لأنَّهمْ كانوا يَعلَمون ذلك.

فيُرجَعُ في تفسيرِ القرآنِ -إذا لمْ يُوجَدْ في كتابِ اللهِ أو سنةِ رسولِه- إلى أقوالِ الصَّحابةِ.

والصَّحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَختلِفون في فَهْمِ القرآنِ اختِلافًا ظاهرًا، كما يَختَلِفون في مَراتِبهم في الفَضائلِ، كذَلِك أيضًا يَختلِفون في العلمِ وفي تَفسيرِ القرآنِ، ومِنْ أعلَمِهم بالتَّفسيرِ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لأنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- دعا له، وقال: «**اللَّهمَّ فقِّهْهُ في الدِّينِ وعلِّمْهُ التَّأويلَ**»(٢)، يعني: التَّفسيرَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة، رقم (٦٣١)، من حديث مالك بن الحويرث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء، رقم (١٤٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب من فضائل عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، رقم (٢٤٧٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. دون قوله: «وعلمه التأويل»، وأخرجه أحمد (١/ ٢٦٦) بلفظه.

٤- وبعْد هذا في المَرتَبة الرَّابِعة: الرُّجوعُ إلى كلامِ التَّابِعين الَّذين أخَذوا عنِ الصَّحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وليسَ كلّ التَّابِعين، بلِ الَّذين اشتُهِرَ عنهمُ الأخْذُ عنِ الصَّحابةِ.

وعلى رأسِهم مُجاهِدُ بنُ جبرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ الذي أخذَ تفسيرَ القرآنِ عن عبدِالله بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فكانَ يَقرأُ القرآنَ على ابنِ عبَّاسٍ، ويقِفُ عندَ كلِّ آيةٍ، يَسألُهُ عنْ تفسِيرِها[1].

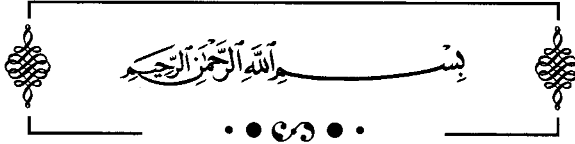
٥- ثمَّ بعدَ ذلكَ يُؤخَذُ بالأمْثلِ فالأمْثلِ من أقوالِ أئمةِ هذهِ الأمَّةِ وعلمائِها.

ثمَّ اعْلَمْ أنَّ تفسيرَ القرآنِ لا يقتَصرُ على تَفسِيرِ الصَّحابةِ والتَّابعين؛ لأنَّه قدْ يَخرجُ للآياتِ معانٍ لم تكنْ تَطْرَأُ على البالِ فيما سبَقَ، كما تُشيرُ بعضُ الآياتِ إلى المختَرَعاتِ الحديثةِ الَّتي وقعَتْ في زمانِنا هذا، وكما تُشيرُ بعضُ الآياتِ إلى ما عُلِم في عِلْمِ الأحياءِ والكائناتِ؛ وذلك لأنَّ القرآنَ كتابٌ عالَـمِيٌّ لا يَزالُ النَّاسُ يَستخْرِجون كُنوزَه وفَوائِدَه إلى يومِ القِيامةِ.

وبِناءً على ذلك: يجبُ علينا أنْ نعتَنيَ بكلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأنْ نتَدبَّرَه ونتفَهَّمَه؛ حتَّى نلْحقَ بالرَّكْبِ.



(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٨٥)، والطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٧٧، رقم ١١٠٩٧).



۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾.

• • • •

البَسمَلةُ تَقدَّمَ الكَلامُ عليها كثيرًا، وبيَّنَّا أنَّها آيةٌ مِنْ كِتابِ الله، ولكِنَّها ليستْ آيةً تابِعةً للسُّورةِ الَّتي بَعدَها ولا الَّتي قَبلَها، بلْ هيَ آيةٌ يُؤتَى بها لابتِداءِ السُّوَرِ، ما عدا سُورةَ (بَراءةَ).

أمَّا مَعناها: فإنَّ الإنْسان يَقولُ: أبتَدئُ بكلِّ اسمٍ مِنْ أسماءِ اللهِ، وإنَّما جعَلْنا المَعنَى بكلِّ اسمٍ مِن أسماءِ اللهِ؛ لأنَّ كلمةَ «اسم» مفردٌ مضافٌ، وكلُّ مفردٍ مضافٍ إلى معرفةٍ فإنَّه يُفيدُ العُمومَ؛ ألمْ ترَوْا إلى قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [النَّحل:١٨] ﴿نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾ لو نَظَرْنا إلى لفْظِها لقُلْنا: إنَّها واحِدةٌ، لكنَّها كثيرةٌ لا تُحصَى؛ فيكونُ هذا المفردُ الَّذي أُضِيفَ: للعُمومِ.

وهذه هي القاعِدةُ: كلُّ مُفردٍ مُضافٍ لَمعرفةٍ فإنَّهُ مُفيدٌ للعُمومِ؛ ولِهذا قُلنا: بكلِّ اسْمٍ مِن أسْماءِ اللهِ.

و«الرَّحمنِ الرَّحِيم» صِفتان للفظِ الجَلالةِ، لكنَّ الأُولى رُوعيَ فيها الوَصفُ، والثَّانيةَ رُوعي فيها الفِعلُ، وهو إيصالُ الرَّحمةِ.

أمَّا مُتعلَّق هذا الجارِّ والمَجرورِ فإنَّه مَحذوفٌ، ويُقدَّرُ مُؤخَّرًا مُناسِبًا للمَقام، فإذا كنتَ تُريدُ أنْ تَقرأَ فقُلتَ: بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ فقَدِّرْ: أقرَأُ، وإنَّما اختِيرَ أنْ

يكونَ فعْلًا لأنَّ الأصْلَ في العمَلِ الأفْعالُ؛ ولهذا يَعملُ الفِعلُ بلا شَرطٍ، والأسْماءُ الَّتي تَعمَلُ عمَلَ الفِعلِ لا بُدَّ لها مِن شُروطٍ- كما هو مَعروفٌ في عِلمِ النَّحوِ.

وإنَّما اخْتَرنا أنْ يَكونَ مُتأخِّرًا لفائِدتيْنِ:

الفائِدةُ الأولى: تيَمُّنًا بذِكْرِ اسمِ اللهِ.

والفائِدةُ الثَّانيةُ: إرادةُ الحَصْرِ؛ لأنَّه إذا تأخَّرَ العامِلُ كانَ ذلك حَصْرًا، فإذا قُلتَ: زيدًا أكرِمْ، فالمعنى: لا تُكرِمِ غيرَه، لكنْ لو قلتَ: أكرِمْ زيدًا، لم يمتنعْ أنْ تُكرمَ غيرَه.

وقدَّرْناه مُناسِبًا؛ لأنَّه أَبْيَنُ للمَقصودِ، فلو قال قائلٌ: «بسمِ اللهِ أبتدئُ»، قلنا: صحيحٌ، لكنَّها لا تُبيِّنُ المرادَ كما تُبيِّنُه: «بسمِ اللهِ أقرأُ»؛ وذلك لأنَّ الابتِداءَ يكونُ للقِراءةِ ولغيرِ القِراءةِ، فلهذا اختِيرَ أنْ يكونَ مناسبًا للمَقامِ.

والخُلاصَةُ: أنَّ مُتعلقَ الجارِّ والمَجْرورِ محَذوفٌ، وهو فِعلٌ مُتأخِّرٌ مُناسِبٌ للمَقامِ.

فإنْ قال قائِلٌ: هَلْ صَحِيحٌ ما يَروي بعضُهم عنْ أبي هُريرةَ أنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- قال: «**إذا قرأتُم: الحمدُ للهِ ربِّ العالَمِين فاقرؤُوا: «بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ»** فإنَّها إحدى آياتِها»[1]؟

فالجوابُ: هذا الحديثُ ليس بصحيحٍ، ويدُلُّ على ذلك:

أوَّلًا: حديثُ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الثَّابتُ في الصَّحيحِ، أنَّ اللهَ تعالى قالَ: «**قَسمتُ الصَّلاةَ بيني وبينَ عبدي نِصفَينِ**»-يعني الفاتِحةَ -«**فإذا قالَ: الحمدُ للهِ ربِّ العالَمِين،**

(١) أخرجه الدارقطني (١/ ٣١٢)، والبيهقي (٢/ ٤٥).

قالَ: حمِدني عبدي...» إلى آخرِ الحديثِ[1]؛ فبَدأ بقولِه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ثانيًا: أنَّ الرَّسول ﷺ كانَ لا يَجهرُ بها في القِراءةِ الجهْريَّةِ على القولِ الرَّاجحِ، ولو كانتْ منَ الفاتِحةِ لجَهَرَ بها، كما يَجهرُ ببقيةِ الآياتِ.

ثالِثًا: أنَّ بقيَّةَ سوَرِ القرآنِ ليستِ البسْملةُ منها، فنحتاجُ إلى دليلٍ قويٍّ يُبيِّنُ أنَّها منَ الفاتِحةِ.

رابِعًا: أنَّ قولَه تَعالى: «قَسمْتُ الصَّلاةَ بيني وبين عَبْدي نِصفيْن»، هي نِصفٌ في السِّياقِ ونِصفٌ في المعنى، ولا يتِمُّ ذلك إذا جعلْنا البسْملةَ منها؛ فقولُه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذِه للهِ، و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ثلاثُ آياتٍ للهِ؛ و﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ للعبدِ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ للعبدِ ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ للعبدِ؛ إذَن: ثَلاثٌ وثَلاثٌ.

وقولُه تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ صارتْ بينهما كما جاء في الحَديثِ: «هَذا بيني وبين عبدي»، فصارتْ ثَلاثَ آياتٍ ونصفًا مِنْها للهِ، وثلاثَ آياتٍ ونصفًا للعبد، ولو قُلنا: إنَّ البَسْمَلةَ مِنْها، ما اسْتَقامَ هذا.

خامِسًا: أنَّك إذا جَعَلْتَ البَسْمَلة مِنَ الفاتِحةِ صارتِ الآيَةُ الأخيرةُ طويلةً لا تتَناسَبُ مَع ما قبلها؛ لأنَّه ستكونُ الآياتُ الأخيرةُ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، وهذه لا تتناسَبُ مَع قولِه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أو ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، فهو خِلافُ البلاغةِ.

فصارَ عندنا خمسةُ أوجُهٍ كلُّها تدُلُّ على أنَّ البسْملةَ ليستْ منَ الفاتِحةِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (١)

••••

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿حمٓ﴾ [فصلت:١].

••••

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: [اللهُ أعلمُ بمُرادِه به]، وهذا هوَ الأدبُ مَع كِتابِ اللهِ وسنَّةِ رسُولِه -صلَّى اللهُ عليَهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- أنَّ الَّذي لا تَعرِفُ معناهُ قلْ: اللهُ أعلمُ بمُرادِه به؛ لقولِ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

ولكن قد يَقول قائِل: إنَّنا نعلَم أنَّه لا معنى لهذه الحُروف الهِجائيَّة الَّتي تُوجَد في كثير منَ السُّوَر؛ ونعلمُ ذلك بدَلالَةِ القرآنِ، فقدْ قالَ اللهُ تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشُّعراء:١٩٣-١٩٥]، واللِّسانُ العرَبيُّ لا يكونُ التَّعبيرُ بمثلِ هذهِ الحُروفِ لهُ معنًى في حدِّ ذاتِهِ لوْ قُلتَ: «أ، ب، ج، ح، خ»؛ فلَيسَت لها معنًى، فإذا لم يكنْ لها معنًى بمُقتضَى اللِّسانِ العَربيِّ، قُلْنا: إنَّ قولَه: ﴿حمٓ﴾ و﴿الٓمٓ﴾ و﴿الٓر﴾، وما أشبهَها، ليسَ لها معنًى في حدِّ ذاتِها.

ويَرِدُ على هذا: إذا لم يكُنْ لها معنًى صارتْ لَغوًا، وكلامُ اللهِ تعالى لا لَغوَ فيهِ!!

---

(١) المقصود بـ(المُفَسِّر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رحمه الله تعالى، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

فيُقالُ: إنَّها ليستْ لَغوًا، وإنَّما المُرادُ إقامةُ الحُجَّةِ على أولئك المُشرِكين؛ حيثُ عجَزوا عنِ الإتْيانِ بمِثلِ القرآنِ، ولا بآيةٍ واحِدةٍ، مَع أنَّ هذا القرآنَ: هل أتى بحُروفٍ لا يَعرِفونها حتَّى يَعتذِروا ويَقولوا: إنَّه جاءَ بحرُوف ليستْ مَعروفةً لنا؟

الجَوابُ: لا؛ فالقرآنُ جاءَ بحُروف يَعرِفونها، قالَ شيخُ الإسلامِ[1] رَحِمَهُ اللَّهُ: ولذلِك لا تَكادُ تَرى سُورةً مَبدوءةً بهذِهِ الحُروفِ إلَّا وبعدَها ذُكِرَ القرآنُ، وابْدأْ مِنْ أوَّلِ البَقرةِ إلى أنْ تأتيَ إلى آخِرِ السُّوَرِ المَبدوءَةِ بهذِه الحروفِ، تَجِدُ أنَّ بعدَها ذِكرَ القُرآنِ؛ وذلكَ إشارةٌ إلى أنَّ هذا القرآنَ الَّذي أَعجزَكم -مَعْشَر العرَبِ- كانَ مِن هذهِ الحُروفِ الَّتي تُكوِّنون مِنها كلامَكم، وهذا الَّذي ذَهبَ إليهِ شيخُ الإسْلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ واضِحٌ جدًّا.

وأمَّا القولُ بأنَّه ليسَ لها معنًى؛ فقدْ قالَه مُجاهِدُ بنُ جبرٍ[2] رَحِمَهُ اللَّهُ أعلمُ التَّابِعين بكِتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.



---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٧١).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٢٠٩)، وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٧٠).

الآيتان (٢، ٣)

• • • •

❁ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت:٢-٣].

• • • •

قَولُه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾، قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿تَنزِيلٌ﴾ مُبتدأٌ، و﴿كِتَابٌ﴾ خبَرُهُ]، وَلَوْ قِيلَ بِالْعكسِ -في غَيرِ القُرآن- لَكانَ أوضحَ، لو قِيلَ: كِتابٌ فُصِّلتْ آياتُهُ تنْزيلٌ مِنَ الرَّحمنِ الرَّحيمِ؛ لأَنَّهُ يُخبرُ بالمعنى عنِ الذَّاتِ، ولا يُخبرُ بالذاتِ عنِ المعنَى؛ وهذا هو الأصلُ، فتقولُ: زيدٌ قائمٌ، قائمٌ خبرٌ، ولا تَقُلْ: زيدٌ خبرٌ، لكنْ ما ذهبَ إلَيهِ المُفسِّر من الإعْراب له وجْهٌ، فليسَ باطِلًا، لكنْ لو قِيلَ: إنَّ ﴿تَنزِيلٌ﴾ هوَ خبرُ مقدَّمٌ و﴿كِتَابٌ﴾ مُبتَـدأٌ مُؤخرٌ لكانَ أوْضحَ وأبْينَ.

وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ يَعني به الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ أيْ تنـزيلٌ منَ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، لكنَّه أَتى بهذَيْنِ الِاسمَينِ الكَريمَينِ إشارةً إلى أنَّ القُرآنَ رحمةٌ؛ لأنَّ إنزالَه منْ مُقتَضى رحمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أليسَ منَ الممكنِ أنْ يُقالَ: تنزيلٌ منَ اللهِ؟ بلَى، كما جاءَ في آياتٍ أخرى، لكنَّه قالَ: ﴿مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، إشارةً إلى أنَّ هذا القرآنَ نزلَ بمُقتَضى رَحمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأنَّ اللهَ رحِمَ بهِ العِبادَ.

والرَّحمنُ الرَّحيمُ: اسمانِ منْ أسْماءِ اللهِ، منْ أشرفِ أسماءِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ويأتيانِ

مُقترِنينِ، ويأتِيانِ مُنفَصلَيْنِ بعضُهما عنْ بعضٍ؛ فإنِ انفَصلَا فكلٌّ واحدٍ مُتضمِّنٌ معنَى الآخَرِ.

فقولُه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، هذا مُنفَرِدٌ عنِ الرَّحيمِ، فيتَضمَّن الصِّفَةَ والفِعلَ؛ أيْ: أنَّ اللهَ تَعالى مَوصوفٌ بِالرَّحمةِ الواسِعةِ، وهوَ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ يَرحَم -بهذِه الرَّحمةِ- مَنْ شاءَ مِن عِبادِه.

وفي قَولِه: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يُونُس:١٠٧]، أيضًا نَقولُ: الرَّحيمُ هُنا تشْمَلُ الوَصفَ والفِعلَ؛ لِأنَّها انفردتْ عنِ الرَّحمنِ.

أمَّا إذا اجْتَمعَ (الرَّحمنُ والرَّحيمُ) كانتِ الرَّحمنُ للصِّفةِ والرَّحيمُ للفِعلِ؛ ولهذا جاءتِ الرَّحمن على وزنِ «**فَعلان**»، وهذا الوزنُ في اللُّغةِ العَربيَّةِ يَقتَضي الِامتِلاءَ وكَمالَ وتَمامَ الوصفِ الَّذي كانَ مُرادًا؛ فَمثلًا يُقالُ: غضبانُ لِمَنِ امْتلأَ غضَبًا، ويُقالُ: غاضِبٌ لِمَنْ كانَ غضَبُه خفِيفًا، وكذَلِك سكْران للمُمتَلِئِ سُكْرًا، فكلُّ هذا الوَزنِ يُفيدُ الِامْتِلاءَ والسَّعَةَ.

أمَّا الرَّحيمُ فغُلِّبَ فيها جانبُ الفِعلِ؛ أيْ: إيْصالُ الرَّحمةِ إلى المَرحومِ؛ ولهذا جاءتْ في القُرآنِ الكَريمِ: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب:٤٣]؛ أي: قدْ وَصلَت رحْمتُه إلى المؤمِنين على وجْهٍ مُطلقٍ، أمَّا غيرُ المؤمنينَ فإنَّهُ يَرحمُهُم بالمعنَى العامّ.

وقد ذَكَر بعضُ المُفسِّرينَ: أنَّ الرَّحمنَ أعمُّ منَ الرَّحيمِ، فتَشملُ الكُفَّارَ، أمَّا الرَّحيمُ فهيَ خاصَّةٌ بِالمؤمنينَ، لكنَّ ما ذَكَرتُه أحسن، وقدْ نبَّهَ عليهِ ابنُ القيِّمِ [١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وخُلاصةُ ما قُلنا في «الرَّحمَنِ الرَّحيمِ»: إمَّا أنْ يُذكَرَ الرَّحمنُ مَع الرَّحيمِ، أو يُفردُ

(١) انظر: مدارج السالكين (١/ ٥٦).

أحدُهما عنِ الآخَرِ، فإنْ أُفرِدَ أحدُهما عنِ الآخَرِ تضمَّنَ الثَّاني، وإنْ ذُكِرَا جميعًا غُلِّبَ في الرَّحمَنِ جانِبِ الصِّفَةِ، وفي الرَّحيمِ جانِبُ الفِعْلِ.

واعلَمْ أنَّ هذَينِ الِاسمَينِ الكَريمَينِ يدلَّانِ على أنَّ اللهَ تعالَى مَوصوفٌ بالرَّحمةِ، كما قالَ تَعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الكَهْف:٥٨] ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الأنعام:١٣٣]، فالرَّحمةُ صِفتُهُ والرَّحيمُ اسمُهُ، وهل هذا الاسْمُ ممَّا يتَعدَّى أو منَ المَصادِرِ اللَّازِمةِ؟

الجَوابُ: يَتعدَّى؛ لقولِه تَعالى: ﴿وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العَنكَبوتِ:٢١]؛ والقاعِدةُ في العَقيدَةِ: أنَّه إذا كانَ الِاسمُ لازِمًا لا يَتعدَّى، فإنَّهُ يَتضمَّنُ أمرَيْنِ: إثْباتَ الِاسمِ، وإثْباتَ الصِّفَةِ، وإذا كانَ يَتعدَّى فإنَّه يَتضمَّنُ ثلاثةَ أشياءَ: إثْباتَ الِاسمِ، وإثْباتَ الصِّفَةِ، وإثْباتَ الفِعْلِ.

فكلِمةُ العَظيمِ اسمٌ منْ أسْماءِ اللهِ لازِمٌ؛ ولهذا يُقالُ: عَظُمَ؛ أي: صارَ عَظيمًا؛ والإيمانُ بِهِ يَتَضمَّنُ الإيمانَ بالعَظيمِ، على أنَّه اسمٌ منْ أسْماءِ اللهِ، ويَتَضمَّنُ أيضًا ثُبوتَ العظَمةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ.

وكلِمة الرَّحمنِ تَتضمَّنُ ثلاثةَ أشياءَ: تَتضمَّنُ «الرَّحمنَ»، اسمٌ من أسماءِ اللهِ، والثَّاني: الرَّحْمةُ؛ صِفةٌ مِن صِفاتِهِ، والثَّالثُ: الفِعلُ؛ أيْ: أنَّهُ يَرحمُ مَن يَشاءُ، وعلى هذا فقِسْ.

فالإيْمانُ بالأَسْماءِ: إنْ كانتْ مُتعدِّيةً لزِمَ أنْ تُؤمِنَ بالاسمِ والصِّفةِ والفِعلِ، وإنْ كانتْ لازِمةً وجَبَ أنْ تُؤمنَ بالِاسمِ والصِّفَةِ.

وقولُه: ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ كِتابٌ فِعالٌ بمعْنَى مَفعُولٍ؛ أي: مَكتوبٌ،

وهو مَكتوبٌ في اللَّوْحِ المَحفوظِ، ومَكتوبٌ بالصُّحُفِ الَّتي بأيدِي الملائكَةِ، ومَكتوبٌ بِالصُّحُفِ الَّتي بأيْدِينا.

أمَّا الأوَّلُ فدَليلُه قولُه تَعالَى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البُروج:٢٢].

وأمَّا الثاني فدَليلُه قولُه تَعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبَس:١٦].

وأمَّا الثَّالثُ فواضِحٌ؛ فكلُّ ما جاءَ من كِتابٍ فهوَ يتَضمَّنُ هذه المعاني الثَّلاثةِ.

قَولُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ بُيِّنت بالأحْكامِ والقصَصِ والمَواعِظِ] التَّفْصيلُ ضدُّ الإجْمالِ، يَعنِي: أنَّ آياتِ القُرآنِ مُفصَّلةٌ، لكِنَّها تأتي أحْيانًا مُجملةً، وتأتي أحْيانًا مُفصَّلةً، وإذا فُصِّلَ المُجملُ صارَ الجَميعُ مُفصَّلًا.

وقولُه: ﴿ءَايَٰتُهُۥ﴾ جَمعُ آيةٍ، والآيةُ في القرآنِ هي كلُّ ما فُصِلَ بينها وبين ما سبقَها ولحِقَها بفاصلٍ؛ ولهذا تَسمَعون في كلامِ العُلَماءِ: «**فَواصِلُ الآياتِ**»، يعنِي الأماكنَ الَّتي تُفصَلُ فيها الآيةُ عمَّا قبلَها وعمَّا بعدَها.

والآياتُ الكَريمةُ مِنها ما هو طَويلٌ، ومنها ما هو قَصيرٌ، ومنها ما هو مُتوسِّطٌ؛ فأطوَلُ آيةٍ في كِتابِ اللهِ آيةُ الدَّينِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ [البقرَة:٢٨٢]، وأقْصَرُ آيةٍ: ﴿طه﴾ [طه:١]، لكنَّ هذه منَ الحُروفِ الَّتي ليسَ لها معنًى، كما قرَّرْنا. فقولُه: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ [المُدَّثر:٢١] أقصرُ آيةٍ في كِتابِ اللهِ، والباقي مُتوسِّطٌ منهُ ما يَميلُ إلى الطُّولِ، ومنهُ ما يَميلُ إلى القِصَرِ.

والسُّنَّةُ في الآياتِ: أنْ تَقرَأها حسْبَ ما فُصِّلَتْ؛ فتُقرَأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:١-٧].

فهذه سبعُ آياتٍ، تَقرَؤها هَكَذا مُفصَّلَةً، وإنْ أُدرِجَتْ فلا بأسَ؛ لأنَّه لم يرِدِ النَّهْيُ عن ذلك، إلَّا أنَّه لا يَنْبَغِي للإنسانِ أنْ يَهُذَّ القُرآنَ هَذًّا، تخْفَى معه الحُروفُ، بل قد يَحْرُمُ عليهِ إذا لَزِمَ أن تخفى بعضُ الحُروفِ. أمَّا الهذُّ الذي يَستكمِلُ فيهِ الإنسانُ الحُروفَ فلا بأسَ، لكنَّ الأفْضلَ الوقوفُ على كلِّ آيةٍ.

فإنْ قالَ قائلٌ: هل تقِفُ على قولِه تَعالى: ﴿فَوَيۡلٌ لِّلۡمُصَلِّينَ﴾ [الماعُونِ:٤]؟

فالجَوابُ: يقِفُ؛ لأنَّها آيةٌ؛ لأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ هو الَّذي أنزَلَها، وجعَلَ هذه آيةً مُنفصِلةً عنِ الأُخرى، وربَّما يَكونُ في الوُقوفِ على الآيةِ هكذا حتَّى يَندهِشَ القلبُ، فيترَقَّبَ بشغَفٍ المعنى المُبيِّنَ لهذا، فتَقولُ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾ [الماعون:٥]، فكَأنَّها مطَرٌ على أرْضٍ قاحِلةٍ، إذَنْ: نقِفُ على هذا ولا مانِعَ.

أمَّا قولُه: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فهذِه لا نقِفُ عليها؛ لأنَّها ليستْ رأسَ آيةٍ بَلْ نَقولُ: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ [النِّساءِ:٤٣].

إذَنْ: فقَولُه تَعالى: ﴿فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾، يَشْملُ التَّفصيلَ اللَّفْظِيَّ والمعنوِيَّ؛ فالتَّفْصيلُ اللَّفْظيُّ: أنَّ اللهَ جعلَ كلَّ آيةٍ مُستقِلَّةً عنِ الأُخرَى، مَفصولًا بعضُها عن بعضٍ، والمَعنوِيُّ: التَّبْيِينُ والإيضاحُ لِما كانَ مُجْملًا؛ ولهذا أشارَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى التَّفْصِيلِ الْمعنوِيِّ فقطْ؛ فقالَ: [بُيِّنَتْ بالأحْكامِ والقَصَصِ والمَواعِظِ]، ولكنْ ينبَغِي أنْ يُقالَ: إنَّها فُصِّلَتْ مِن وَجْهَينِ: لفظِيٍّ ومَعنوِيٍّ. فاللَّفظِيُّ: أنَّ كلَّ آيةٍ فُصِلَتْ عنِ الأُخرَى، والمعنَوِيُّ: أنَّها بُيِّنتْ وبُيِّنَ ما أُجمِلَ منها، سَواءٌ مِنَ الأحكامِ أو غيرِها.

فقولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ [الإنفطار:١٧-١٨]، هذا مُجمَلٌ فصَّلَهُ بِقولِه: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الإنفطار:١٩].

وقَولُه تَعالى: ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾ [القارعة:١-٣] مُجمَلٌ فصَّلَه بِقولِه: ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ﴾. فالتَّفْصيلُ هُنا -أي: التَّفْصيلُ المعنويُّ- يعني بيانَ القرآنِ أنَّه بيَّنَ ووضَّحَ، حتَّى لو جاءَ مُجملًا فلا بدَّ أنْ يُبيَّنَ.

فإذا قالَ قائلٌ: قالَ اللهُ تَعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾، وفي آيةٍ أُخرى قالَ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزُّمَر:٢٣]، فأين الجَمعُ بينَ هذِه الآياتِ؟

الجَوابُ: لا تَعارُضَ؛ لأنَّ قولَه: «مَثانيَ» بمعنى «فُصِّلَتْ»، حيثُ إنَّ معناها تُثَنَّى فيه المَعاني، فيَذكُرُ الخَيرَ ثمَّ الشَّرَّ، يَذكُرُ أهلَ الخَيرِ وأهلَ الشَّرِّ، والجنَّةَ والنَّارَ وما أشبَهَ ذلِكَ؛ هذا هوَ المُرادُ بِقولِه: «مَثانيَ».

أمَّا قوله: «مُتَشابِهًا»، فمَعناه: أنَّه يُشبِهُ بعضُهُ بعضًا في الكَمالِ والحُسْنِ والجَودَةِ.

فإنْ قِيلَ: ما الجَمعُ بينَ ثَناءِ اللهِ على القُرآنِ بأنَّه مُتَشابِهٌ وبيْنَ قولِه تَعالى: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ [آلِ عمرانَ:٧]؟

قُلْنا: الجَمعُ بينهما أنَّه مُتشابِهٌ في الحُسْنِ، يُشبِهُ بَعضُه بعضًا، وأمَّا مُحكَماتٌ ومُتَشابِهاتٌ، فالمُحكَماتُ هي: ما اتَّضحَ مَعناها، والمُتَشابِهاتُ هي: ما خفِيَ مَعناها.

وقولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ حالٌ مِنْ «كتابٌ» بصفَتِه].

مفسِّرُ الجلالَيْنِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ جيد جدًّا، حيث قالَ: إنَّ ﴿قُرۡءَانًا﴾ [حالٌ]، فكأنَّ

إنسانًا أورَدَ عليهِ كيفَ تَقولُ: إنَّه قُرآنٌ، والحالُ وصفٌ، والقرآنُ ليسَ وصفًا، فقالَ: بصِفتِه، وصفْتُه: ﴿عَرَبِيًّا﴾؛ يَعني: لو كانتْ في الآيةِ الكريمةِ قُرآنًا فقطْ، لـمَا صحَّ أنْ تَكونَ حالًا؛ لأنَّ الحالَ لا بُدَّ أنْ تَكونَ مُشتقَّةً: اسمَ فاعلٍ، أوِ اسمَ مَفعولٍ، أو ما أشبهَ ذلكَ، وقرآنٌ غيرُ مشتقٍّ؛ فلهذا قالَ: إنَّما [حالٌ مِن «كتابٌ» بصِفتِه].

إذَن: [بصِفَتـه] عائِدٌ على «قـرآنٍ»، كأنَّه قالَ: صـحَّ أن يَكونَ حالًا لأنَّه مَوصوفٌ.

فإذا قالَ قائِلٌ: كيفَ تجعَلونَهُ حالًا مِنْ كتابٍ وكتابٌ نكرةٌ وصاحبُ الحالِ لا بُدَّ أنْ يكونَ مَعرِفةً؟

قُلنا: إنَّ هذهِ النَّكرةَ خُصِّصَتْ في قولِه: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾، خُصِّصتْ بالصِّفةِ، والنَّكرَةُ إذا خُصِّصتْ صارتْ قريبةً منَ المَعرِفةِ؛ فلِذلك جازَ وقوعُ الحالِ منها.

فلدَينا الآنَ إشْكالانِ:

الإشْكالُ الأوَّلُ: كيفَ جاءتِ الحالُ مِن كِتابٍ وهوَ نكِرةٌ؟

وجَوابُه: أنَّ كِـتابًا الَّذي هو النَّكِـرةُ وُصِفَ بقولِه: ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾، وإذا وُصِفتِ النَّكِرة جازتِ الحالُ منها.

الإشْكالُ الثَّاني: الحالُ ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ إذا أعرَبْنا قُرآنًا حالًا، فكيفَ صحَّ أنْ يكونَ حالًا وليسَ بمُشْتقٍّ؟

فالجوابُ: أنَّه مَوصوفٌ مُشتقٌّ؛ فلذلكَ جازتِ الحالُ منه.

وقولُه: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ معنَى كونِه عرَبيًّا: أوَّلًا: كلِمةُ «قُرآن» على وزنِ فُعْلانٍ،

كشُكرانٍ وغُفرانٍ وما أشبهَ ذلكَ. فهلْ هو بمعنى قارئٍ أو بمعنى مَقروءٍ؟ قِيلَ: إنَّه بمعنى مَقروءٍ، ومَقروءٌ هلْ هو منَ الجَمْعِ أو منَ التِّلاوَةِ؟ قِيلَ: إنَّه مِنْ قَرى يَقري بمعنى جَمَع، ومنه اسمُ القريةِ؛ لأنَّها جامعةٌ للنَّاسِ، وقِيلَ: مِن قرَأَ بمعنى تَلا.

والصَّوابُ: أنَّه جائزٌ أنْ يَكونَ مِنْ هذا ومِن هذا؛ لأنَّه ما دامَ اللَّفظُ صالحًا للمعنيَّينَ ولا مُنافاةَ بينَهما، فإنَّه يُحمَلُ عليهِما جَميعًا؛ وهذا إذا قُلنا: إنَّ ﴿قُرْءَانًا﴾ بمعنى مَقْرُوءٍ.

ويَجوزُ أنْ تَكونَ بمعنى اسمِ الفاعِلِ «قارِئ»؛ فَقُرآنٌ بمَعنى قارِئ؛ أي: جامِعٌ؛ جامِع للأحكام والتَّوْحيد وغير ذلك.

أمَّا «عرَبيًّا» فهو نِسبة للعَرَب؛ لأنَّه جاءَ بلُغَتِهم.

وقولُه تعالى: [﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يَفهَمون ذلك، وهم العرَب]، يعنِي: أنَّ الله جعلَه قرْآنًا عربيًّا لقَوْم يعلَمونَه ويفهَمُونه، ولا حُجَّة لهم في مُعارَضَته والكُفرِ به؛ لأنَّهم يَعلَمُونه، كما قالَ تعالى في آية أُخْرى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزُّخرُف:٣]؛ أي: تَفهَمون معناه، حيثُ جاء بلِسان العَرَب.

فائِدة: ورَدت في القرآنِ آيات تَجرِي على سبيل المَثَل، مِثل: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠] فهل صحيحٌ أنَّه وردَ النَّهي عن استِعمالها في غير مَكانها؟

الجَواب: للاستِشهاد بها لا بأسَ به؛ أمَّا أنْ تَجعَل القرآنَ بدلًا عن الكلامِ فهذا حَرام.

وقد ذَكَر صاحبُ (جواهِرِ الأدَب) قِصَّة عَنوَنها بقولِه: «المُتكلِّمةُ بالقرآنِ

الكريمِ بدَلًا عن الكَلام»[(١)]، وجاءَ بِقِصَّة امْرأةٍ تُخاطِب أولادَها بالقُرآن، إذا قالَت: تَغدُّوا، قالَت: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾، ولو أمَرتَهم يَشتَرون حاجَة منَ السُّوق قالَت: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ [الكهف:١٩]، وما أشْبه ذلك.

ثُمَّ قالَ في آخر القِصَّة: هذه امْرَأة لها كذا من السِّنين تَتكلَّم بالقرآن مَخافَة أنْ تَزِلَّ، فيغضَب عليها الرَّحمَن. والواقِع أنَّها زَلَّت تمامًا، فقد جعلَت تُنزِّل آيات القرآن الكريمِ على أغراضِها الخاصَّة، وهذا لا يَجوز.

أمَّا الاسْتِشهاد بالقُرآن مِثل أنْ تَرى رَجُلًا مَفْتُونًا بالدُّنيا، تَقُول: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ [الكهف:٤٦] هذا لا بأْس به، وقَد جاء في الحَديثِ أنَّ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لـمَّا رَأى الحَسنَ والحُسَينَ وهُما يَعثُران بثَوبٍ جديدٍ نَزَل وأخذَهُما وقالَ: صدَق اللهُ: «﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [التَّغابُن:١٥]»[(٢)].

مِن فَوائدِ الآيتَيْن الكَرِيمَتيْن:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ نُزول القرآنِ من عندِ اللهِ؛ لِقولِه: ﴿تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ إنزالَ القُرآنِ من آثارِ رحمةِ اللهِ؛ حيثُ قالَ: ﴿مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

---

(١) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب لأحمد الهاشمي (١/ ٤٠٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٣٥٤)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب الإمام يقطع الخطبة للأمر يحدث، رقم (١١٠٩)، والترمذي: كتاب المناقب، باب مناقب الحسن والحسين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، رقم (٣٧٧٤)، والنسائي: كتاب صلاة العيدين، باب نزول الإمام عن المنبر قبل فراغه من الخطبة، رقم (١٥٨٥)، وابن ماجه: كتاب اللباس، باب لبس الأحمر للرجال، رقم (٣٦٠٠)، من حديث بريدة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ اسمَين من أسماءِ اللهِ، وهما: الرَّحمنُ الرَّحيمُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ ما دلَّ عليه هذانِ الاسْمانِ مِن صِفة الرَّحمةِ، وقد ذَكَرْنا في التَّفْسير: أنَّ أهلَ التَّعطيلِ نفَوْا أن يَكونَ للهِ رَحمةٌ، وقُلنا: إنَّهم يُفسِّرون الرَّحمةَ إمَّا بالإحْسانِ والثَّوابِ، وهو مُنفصِلٌ، وإمَّا بإرادَة الإحْسانِ والثَّوابِ؛ لأنَّهم كانوا يُقرُّون بالإرادَة، وبيَّنَّا بُطلان هذا القَول، وأنَّ الصَّواب أنَّها -الرَّحمةُ- من صِفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ولكنَّها ليْست كرَحمةِ المَخلوقِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ القُرآنَ فُصِّلتْ آياتُه، والتَّفصيلُ: تَفصيلٌ لفظيٌّ ومَعنويٌّ؛ فالتَّفصيلُ اللَّفظيُّ بالفَواصِل بينَ الآياتِ، والمَعنويُّ بالتَّفصيل في المَعنى، فإذا ذَكَرَ اللهُ تَعالى أمْرًا ذَكَر نهْيًا، وإذا ذَكَرَ ثَوابًا ذكرَ عِقابًا، وإذا ذَكَرَ أهلَ الخير ذَكَرَ أهلَ الشَّرِّ، وهكذا «مَثاني».

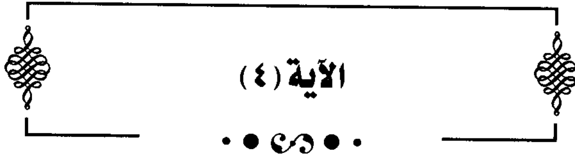
الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ القرآنَ كلُّ آيةٍ منه تُعتَبر آيةً على صِدق الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِقولِه تَعالى: ﴿فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾، وآياته جَمعٌ يعُمُّ كلَّ فردٍ على حِدتِه ويَعمُّ المَجموعَ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ القُرآنَ نَزلَ باللُّغةِ العرَبيَّةِ، ففيه مَنقَبةٌ للعرَبِ؛ لأنَّ هذا القُرآنَ نَزلَ بلغَتِهم، وفيهِ إحياءٌ للُّغةِ العرَبيَّةِ؛ لأنَّ هذا القُرآنَ سيبقى إلى أنْ يأذَنَ اللهُ بخَرابِ العالَمِ. ومنَ المَعلومِ أنَّه إذا بقِي باللِّسانِ العَربيِّ فسوف تَحيَا اللُّغةُ العَربيَّة وتَبقى، وهذا من آثارِ القُرآنِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّه لا يَفقَه هذا القُرآنَ -ولَو كان باللُّغةِ العرَبيَّةِ- إلَّا ذَوُو العِلمِ؛ لِقولِه: ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾، أمَّا مَن ليْسَ مِن أهلِ العِلمِ فإنَّه لا يَستَفيدُ مِن هذا الكِتابِ شيئًا؛ لأنَّه أمِّيٌّ.

والَّذي يَقرأُ القُرآنَ بلا فَهمٍ للمَعنى فهو أمِّيٌّ وإنْ تلاهُ؛ لِقولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨]، فالَّذي لا يَعلمُ القُرآنَ إلَّا قراءةً فقطْ؛ فهوَ كالَّذي لا يَقرأُ القُرآنَ ولا فرقَ.





۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فُصِّلت:٤].

قولُه رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿بَشِيرًا﴾ صِفة «قرآنًا»]، يعني: جعَلْناه قرآنًا عربيًّا؛ بَشِيرًا لِمَن آمَن به، كما قالَ تعالى: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٧]، ونذِيرًا لِمَن كفر به، وإن شِئْتَ فقُل: إنَّه نذِير لجَميع العالمَين، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

المُهِمُّ: أنَّ البِشارة خاصَّة والإنْذار عامٌّ، ورُبَّما يَكون خاصًّا كما قال تعالى: ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم:٩٧] يعني: الَّذين كَفروا به، فصارَت (البَشيرُ) خاصَّة بمَن آمنَ، و(النَّذيرُ) تَكونُ عامَّة، وتَكونُ خاصَّة.

والبَشيرُ هو المُخبِرُ بِما يسُرُّ، وسُمِّي خَبَرُه بِشارَة؛ لأنَّ أثَرَه يَظْهر على بَشَرة الإنْسان؛ ولهذا تَبْرُق أسارِيرُ وجْهِه منَ الفرَحِ.

وقوْلُه: ﴿وَنَذِيرًا﴾ الإنْذار: هو الإعْلام المَقْرون بالتَّخوِيف.

وقولُه: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ الفاءُ عاطِفَة، و«أعرَضَ» مَعْطوفة على «فُصِّلت» يَعنِي: كتابٌ فُصِّلت آياتُه، ومعَ ذلِك أعرَضَ أكثرُهم، ويَحتَمل أن تَكون الفاء للاستِئناف؛ يَعنِي: أنَّها جُملة مُستأنَفة لا تُعطَف على ما قبْلَها: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي: أكثَرُ الَّذين بَلَغَهم.

وقولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ سَماعَ قَبُولٍ]، وهذا نَتيجةُ الإعْراضِ: أنَّهم صارُوا لا يَسْمَعون، ونَفْي السَّماعِ عنْهم؛ لانتِفاءِ فائِدتِه، وهي الاتِّعاظُ والقَبولُ.

واعْلَم أنَّ السَّمعَ يُنفَى تارَةً لِعدَم أصْلِه، وتارَة لعدَمِ ثمرَتِه؛ فقولُه تَعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ هذا نَفيٌ لأصلٍ، فالميْتُ لا يَسمَعُ، وقولُه تَعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢١] لانتِفاءِ ثمَرتِه؛ لأنَّ السَّمعَ الَّذي لا ثمرَة له كالمَعدُومِ.

مِن فَوائِدِ الآيَةِ الكَريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ القُرآنَ فيه البِشارَةُ والنِّذارَةُ؛ لكنْ هلْ هذا مُوزَّعٌ، أم يُمكِنُ أنْ يَكونَ بَشيرًا ونَذيرًا في آنٍ واحدٍ؟

الجَوابُ: يُمكِن هذا وهذا؛ أمَّا عنِ الأوَّل -﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾- فنجِدُ مِن آياتِه ما هو بِشارةٌ للمُؤمِنين، ونجِدُ مِن آياتِه ما هو إنْذارٌ. وأمَّا على الثَّاني -أنَّ الآيَةَ الواحِدةَ قد ينتَفِعُ بها أقوامٌ ويتضرَّرُ بها آخرون- قال تَعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التَّوبة:١٢٤-١٢٥].

ولا تَستَغربْ أنْ يكونَ الشَّيءُ الواحِدُ ضارًّا بوجهٍ ونافعًا من وجْهٍ آخرَ، فالقُرآنُ نافعٌ للمُؤمنين ضارٌّ لغيرِ المؤمِنين، ولا تستَغرِبْ هذا.

وأضرِب لَك مثلًا حِسِّيًّا بالتَّمرِ؛ حُلوُ المذاقِ: فاكِهةٌ، وغِذاءٌ، وقوتٌ يأكلُه واحدٌ فيتضرَّر به، ويأكله آخرُ فينْمو به، مَع أنَّه شيءٌ واحدٌ!.. هكذا القُرآنُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّه مَع وصْفِ القُرآنِ بهذا الوصْـفِ الجلِيلِ بتفصِيلِ الآياتِ، وأَنَّه بلسانٍ عربيٍّ، وأَنَّه بشيرٌ ونذِيرٌ، لم يَسلَمْ مِنَ المُعارَضةِ والإعْراضِ؛ لِقولِه: ﴿فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: جَوازُ نفيِ السَّـمعِ لَمن لا ينتَفِعُ به؛ لِقولِه: ﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾، وكذَلِك يُقالُ في بَقِيَّة الحَـواسِّ، لَمن لمْ ينتَفِعْ بها، نقول: إنَّ وجودَها كالعدَم؛ فمَن لمْ ينتفِع بها رَأى نَقول: هذا لا يُبصرُ ولو كان لهُ عيْنانِ.



الآية (٥)

• ● ◦ ● •

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت:٥].

• ● ◦ ● •

وقولُه: ﴿وَقَالُوا۟﴾: مَعطوفةٌ على ﴿فَأَعْرَضَ﴾، قالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالُوا۟﴾ للنَّبيِّ ﷺ ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾ أغطِيةٌ] ﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ هذا -والعِياذُ باللهِ- من شِدَّة عِنادِهم وكُفرِهم؛ فقالوا للنَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهو يَدعُوهم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ كقولِهم: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ يعني: الأكِنَّة جمْع كنٍّ، وهو ما يُستَتَرُ به.

وقولُه: ﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ أي: مِن التَّوحِيد والطَّاعة، والشَّهادةِ لله تَعالى بالوحدانيَّةِ وللنَّبيِّ بالرِّسالةِ، وإنَّما ذَكَروا القُلوبَ وبدؤُوا بِها؛ لأنَّها مَحلُّ الوعْي.

وقولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ ثِقَل] يعنِي فلا نَسمَع، يَعني أنَّنا نستَمِع إليكَ على كَراهَةٍ وبُغضٍ، فكأنَّ في آذانِنا ثِقَلَ سمْعٍ.

وقولُه تَعالى: ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ أي: حائِل يَحُول بيننا وبينك فلا نَراك، فأتَوْا على كلِّ مَدارِك الإحاطَةِ؛ فالمُدرِك الأوَّل: القلْبُ، والثَّاني: السَّمْعُ، والثَّالِثُ: البَصَرُ، وانتِفاء البصَرِ عنهم؛ لقَوْله: ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾.

وقدْ جمَع اللهُ تَعالى بَين هَذه الثَّلاثَةِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسْراء:٣٦]، وتَأمَّل قولَـهم: ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ لم يَقولوا: «وبينَنا وبينَك حِجاب» إشارَة إلى أنَّ هذا الحِجابَ مُمتدٌّ من عِندِنا إلَيك، وعلَى هَذا فكُلَّما تَباعَدنا عَنك غَلُظَ هذا الحِجابُ؛ لأنَّه إذا كان ابتِداؤه مِن عِنْدهم إلَى الرَّسول، صار كلَّما زادَت المَسافَةُ ازدادَ غِلَظُه؛ لأنَّ (مِنْ) هُنا للابتِداء، فتُفِيد أنَّ هذا الحِجاب مُباشرٌ منهم إلى الرَّسول ﷺ لكنْ لو قالوا: «وبينَنا وبيْنَك حِجاب» لأمكَن أن يَكونَ الحِجاب في الوَسَط، ولو كان بينَه وبينَهم مَسافَة، وهَذا يدلُّ على غِلَظ ما بينَهم وبينَ الرَّسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وبُعدِه.

وقولُه: ﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ هذا -والعِياذُ بالله- التَّحدِّي للرَّسول ﷺ فيما يَظْهرُ، وليس من بابِ الإباحَةِ، بل من بابِ التَّحدِّي، قال المُفسِّرُ: [﴿فَٱعْمَلْ﴾ على دِينِك ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ على دينِنا]، ويَحتَمِل: اعمَل لُمجاهدَتِنا فإنَّنا عامِلون لِمُجاهدتِك، وهذا القَول ممَّا ذَهبَ إليه المُفسِّر؛ فكأنَّهم يَقولون: اعمَلْ ونَحن سنَعْملُ.

مِن فَوائِد الآيَةِ الكَريمَة:

الْفَائِدَة الأُولَى: شِدَّة كَراهةِ المُشرِكين لِـما نَزَل مِن الحَقِّ، والدَّليلُ قولُهم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: شِدَّةُ مُعانَدةِ المُعارِضين ومُعارَضتِهم لهذِه الأوْصافِ.

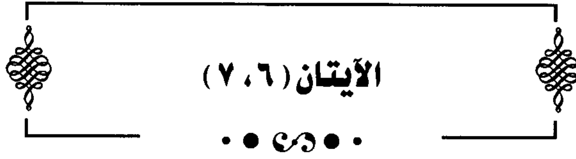
الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تحدِّي هؤلاءِ المُبطِلين على باطِلِهم.

ويَتفرّع عليْها: أنَّ مِنْ أهلِ الباطِل مَن يَتحدَّى أهْلَ الحقِّ إلَى يومِنا هَذا، ولَكِن على أهلِ الحقِّ أنْ يَستَعِينوا بالله عَزَّوَجَلَّ في مُقاوَمةِ هَؤلاء، وأنْ يعلَموا أنَّ كَلِمةَ حقٍّ

تغلِبُ ألْفَ كلِمةِ باطلٍ، لكِنَّ السَّيفَ بِضارِبِه، ربَّما يكونُ السَّيفُ بيَدِ جبانٍ، فإذا رأى العدُوَّ مُقبلًا سقَط السَّيـف مِن يَدِه، فَلا يَنتَفِعُ بالسَّيْـفِ، ولو كان سيفٌ بيدِ شُجاعٍ مُثَلَّمًا لَقَرَعَ به هامَ الأعْداءِ.

فالحَقيقَةُ: أنَّ السَّيفَ بِضارِبِه، فكَمْ مِن إنسانٍ يَحمِلُ مِنَ الشَّريعَةِ أشياءَ كثيرةً، لكنْ لا ينتَفِعُ بها ولا يَنفَعُ، وكمْ مِن إنسانٍ دُونَ ذلِك بكثيرٍ لكِنْ نفَعَ اللهُ به؛ لأنَّه مُجاهِدٌ، يُجاهِدُ أهلَ الباطِلِ بما معَه مِنَ الحقِّ.





الآيتان (٦، ٧)

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [فصلت:٦-٧].



قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [فُصِّلَت:٦]؛ يَعني: فلَسْتُ غَريبًا علَيكُم؛ لِماذا تَكفُرون بِي؟! أنا بَشَر مِثلُكم لسْتُ جِنِّيًّا فتَنفِروا مِنْه، ولا مَلَكًا فتَنفِروا مِنه، وإنَّما أنا بَشَرٌ مِثلُكم.

والبَشَر هُم بَنُو آدَم، وسُمُّوا بَشَرًا؛ لِظُهورِ بَشَرَتِهم؛ حيثُ بدَتْ أجْسامُهم عارِيةً غيرَ مَكسُوَّة، وهَذا مِن نِعمَة اللهِ عَزَّوَجَلَّ علَينا، ومِنْ رَحمَتِه جَعَلَ اللهُ الإنْسانَ عارِيًا إلَّا بِكُسْوَة؛ حتَّى يتَذكَّر أنَّه عارٍ مِنَ الإيمان إلَّا بِكُسْوَة، وكُسْوَة الإيمان هيَ التَّقوى؛ لِقَوْل اللهِ تَعالَى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف:٢٦]؛ فإنَّ الله جَعَلنا نفتَقِر إلى السِّترِ الحسِّيِّ حتَّى نعْلَم أنَّنا أيضًا مُفتَقِرون إلى السِّتْر المعنَوِيِّ، فأنتَ عارٍ مِنَ الإيمان إلَّا بِلِباسِ التَّقوى.

إذَن: البَشَر هُم بَنُو آدَمَ، سُمُّوا بِذلِك لِظُهور بَشْرَتِهم عارِيةً لا غِطاءَ عليها، بِخِلافِ الحَيَواناتِ الأُخرى، فإنَّه مُغطًّى إمَّا بالوَبَر أو بِالصُّوفِ أو بالشَّعْرِ أو بالرِّيشِ أو بغَيْرِ ذلك.

وقَوْله: ﴿مِّثْلُكُمْ﴾ هذِه تَوكِيدٌ لِمعْنى البَشَرِيَّةِ، وإلَّا لَوِ اقتَصر على إنَّما أنا بشَرٌ لكانَ مُقتَضى ذلِك أنْ يَكونَ مِثْلَنا ولا مُخالِفَ، لكِنَّه أكَّدَ هذا المَعنَى بِقوْلِه: ﴿مِّثْلُكُمْ﴾ لَكِنَّه يَمتازُ بأنَّه: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ...إلخ، هذا هُو المَيْزَةُ، والفرْقُ أنَّ مُحمَّدًا ﷺ بشَرٌ يُوحَى إلَيْهِ.

وقَوْلُه: ﴿يُوحَىٰٓ﴾ المُوحِي هُو الله؛ لِقولِ اللهِ تَعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشُّورَى:٧] فالمُوحِي هُو اللهُ، وحُذِفَ لِلْعِلْم به، ورُبَّما يُقالُ: حُذِفَ لِلْعِلم به وَلِلتَّعْميمِ؛ لِأنَّ اللهَ تَعالَى قدْ يُوحِي لنَبِيِّه ﷺ بِواسِطَةِ جِبريلَ، وقدْ يُوحِي إلَيْه بِدُونِ واسِطةٍ.

والإيحاءُ هُو الإعْلامُ بسُرعةٍ وخَفاءٍ، يُسمَّى إيحاءً؛ ولِذلِك إذا كان إلى جَنْبك واحِدٌ، وأرَدْتَ أنْ تَسْألَه والدَّرْسُ مكْتَظٌّ بالطلَبةِ -وخِفْتَ أنْ يُسْمعَ إليكَ- فتكلِّمه ببطء وخُفْية؛ لِئَلَّا يُتَفطَّنَ لَكَ؛ فكُلُّ إعْلام بسُرْعة وخُفيَة يُسَمَّى وَحْيًا، وإنَّما كان كذَلِك؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ يُوحَى إلَيْه وعِنْدَه النَّاسُ جالِسُون لا يَدْرون ماذا قالَ الرَّسولُ.

وقَوْله: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ هَذه الجُملَة في محلِّ رفْع نائِبِ فاعِلٍ؛ أي يُوحَى إلَيَّ هذا الخَبَر.

وقَولُه: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ﴿أَنَّمَآ﴾ أداةُ حَصْرٍ، وعلَى هَذا تَكون الجُمْلةُ مُتَضَمِّنةٌ لنَفْيٍ وإثْباتٍ؛ لأنَّ الحَصْرَ هُو إثْباتُ الحُكْمِ في المَذْكورِ ونَفْيُه عَن ما سِواه.

ومِنْ طُرُقِ الحَصْرِ:

الأوَّلُ: الحَصْرُ بـ«إنَّما».

الثَّاني: النَّفْيُ والإثْباتُ، مِثْلَ: لا قائِمَ إلَّا مُحَمَّدٌ.

الثَّالِثُ: تَقْديمُ ما حقُّه التَّأخيرُ، مِثْلَ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٨٤].

الرَّابِعُ: دُخُولُ ضَمِيرِ الفَصْلِ، مِثْلَ أنْ تَقولَ: زَيْدٌ هُوَ الفاضِلُ، فإنَّ ضَميرَ الفَصْلِ يُفِيدُ الحَصْرَ.

هَذِه أرْبعَةُ طُرُقٍ، وهِي الأكْثَرُ دَوَرانًا.

وقَوْلُه: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ الظَّاهِرُ أنَّها مِنْ تَتِمَّةِ قَوْلِ الرَّسولِ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلَى آلِهِ وسلَّمَ- الَّذي أمَرَ أنْ يَقولَه، ومَعْنى «استَقِيموا إلَيْهِ»: أيِ اسْتَقِيمُوا على دِينِه قاصِدين إلَيْه؛ فهِي تُفِيدُ الإخْلاصَ في الْعَملِ.

فقَوْلُه: «استَقِيموا إلَيْه»؛ أي: اقْصُدُوا، ولِهذا لمْ يَقُلْ: استَقِيموا لَه، بلْ قالَ: «إلَيْه»، فضَمَّنَ «استَقِيموا» مَعْنى اقْصُدوا إلَيْه، فتكونُ أبْلَغ مِن «استقِيموا لَه»؛ لأنَّ المُستَقيمَ لِلشَّيءِ قدْ يَستَقيمُ لَه وهُوَ في مَكانِه دُونَ أنْ يَسْعى إلَيْه؛ أمَّا إذا قِيلَ: «اسْتَقيموا إلَيْه» فتُفيدُ السَّعْيَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ وقَصْدِه؛ فلِهذا عُدِّيَت بـ«إلى»؛ فهَل هُنا نابَ حَرْفٌ عَن حَرْفٍ، أو إنَّ الحَرْفَ على مَعْناه، ولكنْ ضُمِّنَ الفِعلُ ما يُناسِبُ الحَرْفَ؟

الجَوابُ: فيها قَولان:

أحدُهما: أنَّ الاِستِعارَة في الحَرْفِ، يَعنِي: أنَّ الباءَ بِمعْنى «مِن» أي: يَشْرَبُ مِنها عِبادُ اللهِ، والعَينُ يُشرَبُ مِنها باليَدِ، أو بالإناءِ، أو بأيِ وسيلةٍ.

القولُ الثَّاني: أنَّ الاستِعارَة في الفِعلِ؛ أي: أنَّ «يشْرَبُ» ضُمِّنَ فِعلًا يُناسِبُ

الباءَ، والَّذي يُناسِبُ الباءَ هُنا: يَرْوَى بِها عِبادُ اللهِ، يَعنِي: أنَّها عَينٌ تَروِي.

وأيُّها أحسَنُ وأسْهَلُ؟

الجَوابُ: أمَّا إذا قُلْنا إنَّ الباءَ بِمَعنى (مِن) فَهي سَهْلةٌ؛ لأَنَّكَ تَقَدِّرُ أيَّ حرْفٍ مُناسِبٍ ويَنْتَهي المَوضُوعُ، لكِنَّا إذا قُلنا إنَّ الباءَ على بابِها، وإنَّ الفِعْلَ ضُمِّنَ مَعْنًى يَتَناسَبُ مَعها، فحِينَئِذٍ قد يَصْعُبُ على الإنسانِ أنْ يُقدِّرَ الفِعْلَ المُناسِبَ، لكنْ نَقولُ: إنَّ تَضْمينَ الفِعلِ مَعنًى مُناسِبًا للْحَرفِ أوْلَى.

وبَيانُ ذلِك: إذا قُلْنا: يَشْرَبُ بها عِبادُ اللهِ، فإنَّ الباءَ بِمعنى (مِن)، لم نستفِدْ فائِدة لاستِعارةِ الباءِ بدَلَ «مِن»، إذَنْ: فإتيانُنا بهذا الحرْفِ يُوجبُ بعْضَ الإشْكالِ، فنكُونُ قدْ تضرَّرْنا، فضْلًا عن كَونِنا لم نسْتَفِد؛ لأنَّ كَوْنكَ تضَعُ حرْفًا بدلَ حرْفٍ بِدُونِ مُوجِبٍ، فإنَّ هذا يُوجِبُ التَّشْويشَ والإيْهامَ، لكنْ إذا ضَمَّنَّا الفِعْلَ معْنًى يتَناسَبُ مَع الحَرْفِ ازدَدْنا فائِدةً، فإنَّ قولَك: إنَّ التَّقديرَ «يَرْوَى» بِها، يتَضمَّنُ الشُّربَ الَّذي ذُكِرَ، ويتضَمَّنُ الرِّيَّ، فاسْتَفَدنا فائِدَةً.

وهَذا الرَّأيُ -أعنِي: أنَّ الفِعْل يتَضَمَّن معنًى يُناسِبُ الحرْفَ- هُو الَّذي ذهَبَ إلَيْهِ البَصْرِيُّون، وهو اختِيارَ شيْخِ الإسْلامِ ابنِ تيْمِيَةَ[1] رَحِمَهُ اللَّهُ لِهذِه الفائِدة الَّتي ذكَرنا.

وأرْجُو دائمًا منَ الطَّلابِ أنْ يَفهَموا هذِه الفُروقَ الدَّقيقةَ؛ لأنَّها تَشْحَذُ الذِّهنَ مِن وَجْهٍ، وتَفْتحُ آفاقًا بَعيدَةً لِفَهمِ المَعاني، وزِيادَةِ الاستِفادةِ مِن وَجهٍ آخَرَ.

وقَوْلُه: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ اطْلُبوا مِنه المَغْفِرةَ، والمَغفِرةُ تَتضَمَّنُ شيئَيْنِ: سَتْرَ الذَّنْبِ، والعَفوَ عَنه؛ لأنَّها مَأخُوذَةٌ منَ المِغْفَرِ وهُو ما يَلبَسُه المُقاتِلُ على رأسِه يتَّقي به السَّلاحَ،

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢١/ ١٢٤).

وأنَّ يَغفِرَ مُتضمِّن لِلوِقايةِ والسَّترِ.

وعلَى هذا فكُلَّما طَلَبتَ المَغفِرةَ استَحضِرْ أنَّكَ تُريدُ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أنْ يَتجاوزَ عَنك فَلا يُعاقِبكَ، وأنْ يستُرَ ذَنْبكَ؛ إذنْ: قولُه: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ أيِ اطْلُبوا مِنه المَغْفِرةَ، وهِي سَتْرُ الذَّنبِ والتَّجاوزُ عنه.

وقولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَوَيْلٌ﴾ كلمةُ عذابٍ ﴿لِّلْمُشْرِكِينَ﴾] «ويلٌ» هذِه مُبتَدأٌ، وسوَّغَ الابْتِداءَ بِها وهِي نَكِرة أنَّها للتَّهدِيدِ، فهِي كلِمةُ وعيدٍ وتهديدٍ، وقِيلَ: إنَّها وادٍ في جَهنَّمَ، ولكنَّ الأصحَّ الأوَّلُ: أنَّها كلِمةُ تَهديدٍ ووعيدٍ لكلِّ مَن خالَفَ.

وقولُه: ﴿لِّلْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: المُشرِكين باللهِ عَزَّوَجَلَّ سَواءٌ كانَ إشْراكُهم في العُبُوديَّةِ أو في الأُلُوهيَّةِ، أو في الأسْماءِ والصِّفاتِ؛ فمَنِ ادَّعى أنَّ مَع اللهِ خالقًا أو مُعينًا أو مُستقِلًّا بِخلْقِ بعضِ الأشياءِ فَهُو مُشرِكٌ، ومَنْ عَبَدَ مَع اللهِ غَيرَه أو راءَى بِعِبادتِه غيرَه فهُو مُشرِكٌ، ومَن زَعَمَ أنَّ صِفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مُماثِلةٌ لِصفاتِ المَخْلُوقين فهُو مُشرِكٌ.

واعْلَمْ أنَّ الشِّركَ يَنْقسِمُ إلى قِسْمين: أصْغَرَ وأكْبَرَ. ومِن وجْهٍ آخرَ إلَى: خفِيٍّ وجلِيٍّ، وكلُّ هذا معلُومٌ في كُتُبِ التَّوحِيدِ والعَقائدِ.

وقولُه تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فُصِّلَت:٧] هذه صِفةٌ للمُشركين، وقولُه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ﴾؛ أيْ: لا يُعطُون الزَّكاةَ، والزَّكاةُ هُنا يَحتَمِلُ أنْ تكونَ زَكاةَ النَّفْسِ، ويَحتَمِلُ أنْ تكونَ زَكاةَ المالِ، فإنْ كانتْ زكاةَ المالِ ففِيه إشْكالٌ؛ لأنَّ ظاهِرَها يَقْتَضي أنَّ الكُفَّار يلزَمُهم إخْراجُ الزَّكاةِ، ومَعْلُومٌ أنَّ إخراجَ الزَّكاةِ لا يُطالَبُ به العَبْدُ حتَّى يُسلِمَ؛ لِقَوْل النَّبي ﷺ لِمُعاذٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**إنَّكَ تَأتِي قومًا أهلَ كِتابٍ، فَليَكُنْ أوَّلَ ما تَدْعُوهم إلَيْه تَوحيدُ اللهِ، ثمَّ ادْعُهم إلى الصَّلاةِ، ثمَّ ادْعُهم إلى**

الزَّكاةِ...»(١)، وهَذا يدُلُّ على أنَّ الزَّكاةَ لا يُخاطَبُ بِأدائِها الإنسانُ إلَّا بعْدَ أنْ يُسلِمَ.

أمَّا إذا قُلنا: إنَّ المُرادَ بالزَّكاةِ زكاةُ النَّفسِ، فإنَّه لا يَرِدُ على هذا إشْكالٌ، لكنْ يَرِدُ على هذا إشْكالٌ مِن جِهةِ اللَّفْظِ، وهُو قولُه: ﴿لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فهَلْ زكاةُ النَّفسِ شيْءٌ يُعطَى؟ هذا محَلُّ نظَرٍ؛ ولِذَلك الآيَةُ فِيها إشْكالٌ، سَواءٌ فسَّرْتها على هَذا أو على هذا، وإذا كانَ فيها إشْكالٌ بيْن معنيَيْن، فإنَّنا نَطْلُبُ المُرجِّحَ. والرَّاجِحُ: أنَّ المُرادَ بها زَكاةُ النَّفسِ، والمَعْنَى: لا يُؤتُون أنفُسَهم زَكاتَها، وفِي الحَدِيثِ: «آتِ نفسِي تقْواها، وزَكِّها أنت خيرُ مَن زَكَّاها»(٢)؛ فعلى هذا نُرَجِّحُ أنَّ المُرادَ بالزَّكاةِ زكاةُ النَّفْسِ، ويَكونُ المَعْنى: لا يُؤتُون أنْفُسَهم زَكاتَها، بلْ يُهمِلُونها ويَغفُلون عنْها.

وقولُه: ﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ «هُم بالآخِرَة»: «بالآخِرَةِ» جارٌّ ومجرُورٌ مُتعلِّقٌ بـ«كافِرُون»، و«هُم»: مُبتَدَأٌ؛ و«هُمْ» هي الثَّانيَةُ، ويقُولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تَأكيدٌ]؛ أي تَأكِيدٌ لفظِيٌّ لـ«هم» الأولَى، والتَّأكِيدُ اللَّفْظيُّ أنْ تُعادَ الكَلِمةُ بِلفْظِها، كما قالَ ابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣):

ومَا مِنَ التَّوكيدِ لفظِيٌّ يَجِي مُكَرَّرًا كقَوْلِكَ ادْرُجي ادْرُجي

وقولُه: ﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي: جاحِدُون لها غيرُ مُؤمِنين بِها، يَقولُون: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤] يَعنِي: يَمُوتُ قَومٌ ويَحيا آخرُون وما يُهلِكنا إلَّا الدَّهرُ ولا بَعْثَ ولا حِسابَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم (١٣٩٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٢٠٩)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(٣) الألفية (ص:٤٦).

فإنْ قالَ قائِلٌ: إنَّ هُناك أُناسًا مِنَ المُسلمين يُصلُّون ويُزَكُّون، لكنْ إذا ذَكَّرْتَهم مَثلًا بِعَذابِ القَبْرِ وبِأهوالِ يوم القِيامَةِ يَقولُون: هلْ رأيتَ عذابَ القَبْر؟ وهلْ رأيتَ أهوالَ يومِ القِيامةِ؟ وهلْ رأيْتَ الجَنَّة؟ فما حُكْمُ هَؤُلاءِ؟

فالجَوابُ: إذا قُلْتَ لَهم هَكذا قالَ اللهُ ورَسُولُه؛ فَإن قالُوا: لا نُصَدِّق إلَّا ما نَرى فهَؤلاء كُفَّارٌ، ولو يَرْكَعون باللَّيلِ والنَّهارِ، ويُخْرِجون جميعَ ما في صَنادِيقهم مِن النَّفقةِ فهُم كفَّارٌ؛ لأنَّهم يُكذِّبون، فهذا كُفر تَكذِيبٍ!

مِن فَوائدِ الآيتَيْن الكَرِيمتَيْن:

الْفَائِدَة الأُولَى: وُجوبُ إعْلامِ النَّبيِّ ﷺ أمَّتَه بأنَّه بَشَرٌ مِثْلُهم؛ لِقَولِه تَعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: آكديةُ هذا الإعْلانِ؛ حيثُ أُمِرَ النَّبي -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- أنْ يُبلِّغَه على وجْه خاصٍّ، وذَلِك أنَّ القُرآنَ كلَّه أُمِرَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنْ يُبَلِّغه؛ قالَ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧].

لكِنْ -في بعْضِ الأحْيان- يمرُّ بك آياتٌ يُؤمر النَّبي ﷺ بتبلِيغها بذاتِها؛ فيكونُ هذا دليلًا على الاعتِناءِ بها وأهميتِها، وهو كثيرٌ، مثل قولِه تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور:٣٠]، وقوله: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ [النور:٣١] وما أشبهَ ذلك، فيكونُ في هذا توصيةٌ خاصَّةٌ بتبليغه، وهو دالٌّ على العِنايةِ به والاهتِمامِ به.

الخُلاصَةُ: أنَّ القُرآنَ كلَّه قدْ أُمِرَ النَّبيُّ ﷺ بتَبْلِيغه، والدَّلِيلُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، وهُناكَ بعضُ الآياتِ يُؤمَرُ النبيُّ ﷺ بتَبلِيغها على وجْهٍ خاصٍّ؛ فَيُقالُ: «قلْ كذا»، وهَذا يدُلُّ على العِنايةِ بها والاِهتِمامِ بها، وأنَّها ذاتُ

شأنٍ خاصٍّ، وهُنا قال: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾، أُمِرَ أن يُبلِّغَ ويُعلِنَ بأنَّه بشَرٌ مِثلُنا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الرَّدُّ على مَن قال: إنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- خُلِقَ مِن نُور لِقولِه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ وأنَّه لا ظِلَّ له: يَمشِي في الشَّمسِ؛ فلا يَكونُ لَه ظلٌّ.

وجْهُ ذلِك: تحقِيقُ البَشريَّةِ بالمُماثَلَةِ؛ قال تَعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ فأيُّ أحادِيثَ تَأتِي بِمثْلِ هَذه الأمُور الَّتي تُوجِب أنْ يَخْرُجَ النبيُّ ﷺ عَن نِطاق البَشريَّة، فإنَّها مَوضُوعَةٌ مَكذُوبَةٌ؛ لأنَّه بشرٌ مِثْلُنا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ يلْحَقُه الحَرُّ والبرْدُ والجُوعُ والعَطَش والخَوْفُ والأمْنُ، وغيرُ ذلِك منْ مُقتَضَيات البشَريَّة؛ لِعُموم قولِه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾، وتَحقِيقُ البَشَريَّة بالمِثْلِيَّةِ حتَّى لا يَقولَ قائِلٌ: إنَّ هذا مَجازٌ، فأكَّد هذِه البشَريَّةَ بالمِثليَّةِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- لا يعلمُ الغَيْبَ إلَّا ما أُوحِي إليه؛ لأنَّنا نحن لا نَعلَم الغَيبَ وهُو بشَرٌ مِثلُنا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- لا يَملِك لنَفسه نَفعًا ولا ضَرًّا ولا لِغَيْرِه.

وجْهُ ذلِك: أنَّه مِثلُنا، وإذا كُنَّا نحن لا نَمْلِك لأنفُسِنا نفْعًا ولا ضَرًّا ولا لِغَيرنا، فكذَلِك النَّبيُّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ-.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ موْتَ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- مَوتٌ حقيقيٌّ، وأنَّه بمَوْته انقطَعَ عملُه إلَّا ما يأتِيه مِن ثوابِ أجُورِ أمَّته؛ لِقولِه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾، والمُماثَلةُ تَقتَضي المُساواةَ مِن كلِّ وجْهٍ إلَّا ما خصَّه الدَّليلُ، وبِه ينْقَطِعُ أمَلُ

كلِّ مَن طلَبَ منَ الرَّسولِ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- أنْ يَشفَعَ له، فيقِفُ عِندَ قبرِه ويقُولُ: يا رسُول الله، اشْفَعْ لي!! فإنَّ هذا لا يَجُوزُ؛ لأنَّه اعْتِداءٌ في الدُّعاءِ، حيثُ يَطلُبُ الإنْسانُ ما ليْسَ له، ولا يُمكِنُ للرَّسُولِ أنْ يَفعَلَه -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- لأنَّه ماتَ، وإذا ماتَ ابنُ آدَم انقَطَعَ عمَلُه، لا بالدُّعاءِ ولا غيْرِه.

فإنْ قالَ قائِلٌ: بَعضُ النَّاس يَذهَبون إلَى قبْرِ النَّبي ﷺ ويدْعُون اللهَ هُناك وَيَستَدِلُّون بِقول اللهِ تَعالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾، وَيَقولُونَ: إنَّ هذِه الآيَةَ لا تدلُّ على الخُصُوصيةِ، وما ذَنبُ مَن يَأتُون مِن بَعْده أنَّه لا يَستَغفِرُ لهُم النَّبيُّ، ﷺ؟

فالجَوابُ: هذا داخِلٌ في قولِه تعالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آلِ عِمران:٧] إنَّ الَّذي قال له: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [النِّساءِ:٦٤]، يتَحدَّث عَن قومٍ معيَّنِين، بِدليلِ قولِه: ﴿إِذ ظَّلَمُوٓاْ﴾، و«إذ» لِـما مَضَى، وقولُه: ﴿جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ يعني استَغْفَرتَ لهم، لكنَّهُنا أظْهَرَ في مَقام الإضْمارِ؛ تَعظِيمًا لشَأنِ الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وبيانًا لأنَّه أقرَبُ مِنهم إجابَةً، ثمَّ قال: ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء:٦٤-٦٥] إلى آخرِه؛ ولم يقُلْ:

ولو أنَّهم إذا ظَلَموا أنفُسَهم، فإنَّه لو قال: إذا ظَلَموا قُلْنا: هَذه لَهم ولِغَيرِهم، ولكِن قال: ﴿إِذ ظَّلَمُوٓاْ﴾.

ثمَّ إنَّ استِغفارَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بَعْد مَوْتِه مُستَحيلٌ؛ لأنَّ الاسْتغفارَ عَمَلٌ، والعَمَلُ قدِ انقطَعَ بموْتِه.

ثمَّ إنَّ هؤُلاء ليْسُوا أفقَهَ في كِتابِ اللهِ، وليْسُوا أعلَمَ بِحالِ رسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ

الصَّحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فهل أحدٌ مِنهُم جاءَ إلَى قبْرِ الرَّسُولِ، قال: يا رَسُول الله استَغْفِر لي؟.. أبدًا! بلْ إنَّهم لـمَّا أُصِيبُوا بالجَدْب لم يَقولوا: يا رسُول الله، هلَكَـتِ الأمْوالُ وانقَطَعتِ السَّبلُ، فادْعُوا اللهَ يُغيثُنا، مَع أنَّهم إلى جَنْبِه، بل هُم استَغاثُوا، ودعَوُا الله، وطلَبَ عمَرُ منَ العبَّاسِ، أنْ يدعُوَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ[1].

ولكِـنْ لا بدَّ لكـلِّ ذي باطِلٍ أنْ يجِدَ شُبهةً في الكِتابِ والسُّنَّةِ، وهَـذا مِن حِكمةِ الله عَزَّوَجَلَّ وابتلائه وامتِحانِه، ولكِن كما قال شَيْخُ الإسْلام رَحِمَهُ اللَّهُ في كِتابِه (دَرْء تَعارضِ العَقْلِ والنَّقْلِ) وفِي (فتاواه) أيضًا؛ يقولُ: «كلُّ إنْسانٍ يَستدِلُّ بدَليلٍ صَحيحٍ مِنْ كِتابٍ أو سُنَّةٍ على باطِلٍ، فإنَّ هذا الدَّليلَ دَليلٌ على إبْطالِ باطِله لا على إثْباتِ باطِله»؛ والدَّليلُ قَولُ اللهِ تَعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَت:٤٢].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قدْ يَنْسى؛ لأنَّ هذا مُقتَضى البَشَريَّةِ، وكما حقَّقَ ذلِك في قولِه: «إنَّما أنا بشرٌ مِثْلُكم أنْسى كما تَنسَوْن»[2] إثْباتِ باطِله.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ النَّبيَّ -صلى اللهُ علَيْه وعلَى آلِه وسلَّم- يجتَهِدُ، ورُبَّما يُخطِئ في اجتِهاده؛ لأنَّ هذا مُقتَضى البَشرية، وكما هُو الواقِعُ في مِثْلِ قوْلِ اللهِ تَعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة:٤٣]، وفي قولِه تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا، رقم (١٠١٠)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب التوجه إلى القبلة، رقم (٤٠١)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٢) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس:١-١٠].

ولكنه ﷺ يمتازُ عن غيرِه: في أنَّه لا يُقَرُّ على خطأٍ -ولو بالاجتِهادِ- بخلافِ غيرِه، فقدْ لا يُذكَّرُ ولا يَذْكُرُ إذا نَسِي، وقد لا يُعَلَّمُ ولا يَعْلَمُ إذا جهِلَ، يعني: خطؤُنا نحنُ قد نَستمرُّ عليه دون أن نُنَبَّه له أو أن نَنْتَبِه، لكنَّ الرَّسولَ ﷺ لا يُمكنُ أنْ يُقَرَّ على خطأٍ، ولا يمكنُ أن يُقَرَّ على نِسيانِ ما يجبُ، بل لا بدَّ أن يَتنبه أو يُنبَّه.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثْباتُ رِسالَةِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- تُؤخَذُ مِن قولِه: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ لأنَّ الوَحْيَ لا يكون إلَّا لنبيٍّ.

فإنْ قالَ قائلٌ: كَيفَ تَقُولُون: إنَّ الوَحيَ لا يَكون إلَّا لِنبيٍّ، وقدْ أوحَى الله تَعالَى إلَى غيرِ الإنْسانِ فَقال الله تَعالَى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ وقال تَعالَى في غيْرِ الأنْبياءِ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص:٧]؟

قُلنا: هَذا الإشْكالُ لا يَرِدُ إلَّا على مَنْ لا يُفرِّقَ بينَ مَعاني الوَحيِ، فأمَّا مَن فرَّقَ بينَها، وقالَ: إنَّ الوحْيَ إمَّا أنْ يَكونَ بشَرْعٍ، وإمَّا أنْ يَكونَ بغيْرِه، فإنْ كان بشَرْعٍ فهَذا لا يكُونُ إلَّا للرُّسُلِ أوِ الأنْبياءِ، وإنْ كانَ بغَيْرِ الشَّرعِ فإنَّه يكُونُ مِن بابِ الإلْهامِ، فيَكونُ قولُه تَعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل:٦٨] أي: ألْهمَها أنْ تتَّخِذَ مِنَ الجِبالِ بُيوتًا.. إلَى آخِرِه، وكذَلِك قوْلُه تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ يَعنِي: وحْيَ إلْهامٍ، وبذلِك يَزولُ الإشْكالُ.

مسْألة: في تَعريفِ النَّبيِّ أنَّه مَنْ أُوْحي إليْه ولَم يُؤمَرْ بالتَّبْليغ، فَإذا قال قائِلٌ: كَيف ونَحنُ -أُمَّةَ النَّبيِّ ﷺ- لمْ يُبلَّغ إلَيْهم، ومَع ذلِكَ أُمِروا بالتَّبْليغِ؟

الجَوابُ: هذِه مسْألة تنْبَني على اختلافِ العلماءِ، في مَن هو «النَّبيُّ» ومَن هو «الرَّسول»؛ فجُمهورُ العُلَماءِ على أنَّ الرَّسولَ هُو مَن أُوحي إلَيه بالشَّرعِ وأُرسِلَ به، وأُمِرَ أنْ يُبلِّغَه؛ وأمَّا النَّبيُّ فهُو مَنْ نُبِّئَ أي: أُخبِرَ، والإخْبارُ لا يلْزَمُ مِنه التَّكلِيفُ بالإبْلاغِ؛ فهُو مَن أُوحِيَ إلَيْه بشَرْعٍ ولَم يُؤمَرْ بتَبلِيغِه، بلْ أُمِرَ أنْ يفْعَلَه بنَفْسِه، فيَكونُ هذا الإنْباءُ تجديدًا للرِّسالَةِ السَّابقةِ، أو إنْشاءً لِشرِيعة لَم تكن قائِمةً.

وهَذا هو الَّذي قالَه الجُمهورُ وهو الصَّحيحُ؛ لأنَّنا لو قُلنا: إنَّ النَّبيَّ هو من جدَّدَ شريعةً سابِقةً وأمَرَ أنْ يُبلِّغَ النَّاسَ وأنْ يُوقِظَهم. لو قُلنا: النَّبيُّ هو هَذا لَأشْكلَ علينا نُبوَّةُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنَّ آدمَ نبيٌّ مُكلَّمٌ، ومع ذلِك لم يَسبِقْه رسُولٌ.

فإنْ قال قائلٌ: ما الفائدَةُ إذنْ؟

قُلنا: الفائدةُ؛ **أوَّلًا**: مَصلَحةُ هَذا النَّبيِّ هو بنفْسِه فإنَّه أوحِيَ إلَيه بشَرْعٍ.

ثانيًا: أنَّه إنْ كانَ في شَريعةٍ سابقةٍ، فهُو عِبارةٌ عَن تَجديدِ تِلكَ الشَّريعةِ، وإنْ كان في غيرِ شريعةٍ سابقةٍ كآدمَ، فإنَّ النَّاسَ في عهدِه بدائيُّون لم يكثروا ولم يختلفوا ولم تُفتَحْ عليهِم الدُّنيا، فكانوا يَنظُرون إلى ما يَفعَلُه أبُوهم فيَفعَلونه، دُون الحاجَةِ إلى أنْ يُرسَلَ إلَيهم؛ ولهَذا قالَ الله تَعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة:٢١٣] يَعني فاختَلَفوا؛ ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾.

فيَتَرجَّحُ عندي قولُ جمهُورِ العلَماءِ: أنَّ «النَّبيَّ» هو مَن أُوحِي إليه بالشَّرعِ، ولم يُؤمَرْ بتبْلِيغِه؛ وأمَّا نحْن فلمَّا لم يَكُنْ بعدَ رسولِ الله ﷺ نبيٌّ صِرْنا مأمُورين بإبْلاغِ رِسالتِه، فنَحن -في الحَقِيقةِ- رُسلُ رسُولِ الله؛ ولِهذا جاءَ في الحَديثِ: «أنَّ العُلماء

ورَثَة الأنْبِياء»(١).

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أهميَّةُ التَّوحيدِ؛ حيثُ حُصِرَ الوَحيُ بالتَّوْحيدِ؛ قالَ تَعالى: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ﴾ مَع أَنَّه يُوحَى إلَيهِ أشْياءُ أُخرَى كالصَّلاةِ والزَّكاةِ وغَيرِ ذَلِك، لكِن لـمَّا كانَ أهمُّ ما جاء به ﷺ التَّوحيدُ حُصِرَ الوحْيُ بِه؛ فقالَ: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الأنبياء:١٠٨].

وإنِّي أقُول: مَتى حقَّق الإنْسانُ التَّوحيدَ فلا بُدَّ أنْ يَقومَ بشَرائِعِ الإسْلامِ؛ لأنَّه إذا وحَّدَ الله بالقَصْدِ وجَعلَه هو حَياتَه، فلا بُدَّ أنْ يتَّجِه إلَيه، بالطَّرِيقِ الَّذي شرَعَه مُوصِلًا إلَيه؛ ولِهذا نَقولُ: إنَّ حَدِيثَ عَتْبانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إنَّ الله حرَّم على النَّارِ مَنْ قال لا إلَه إلَّا اللهُ يَبْتَغي بذَلِك وجْهَ اللهِ**»(٢)، هُو على ظاهِرِه، فمَنْ قال: لا إلَهَ إلَّا اللهُ يَبْتغي بذلِك وجْهَ الله، فإنَّه محرَّمٌ على النَّارِ، ومُقتَضى تَحْرِيمِه على النَّار ألَّا يَعْملَ كَبيرَةً تُوجِبُ دُخُولَه النَّارَ، أو تَقتَضي دُخولَه النَّارَ.

فكلُّ مَن قال: لا إلَه إلَّا الله يَبْتغي وجْهَ اللهِ، فلَن يَعملَ ما يُغضِبُ اللهَ؛ إذْ كيف تُرِيدُ وَجْهَه ثمَّ تَعمَلُ ما يُغضِبُه؟! فإنَّ عمِلَ ما يُغضِبُه يصُدُّك عنِ الوُصُولِ إلَى وجْهِه، وإذا كانَ يَصدُّك وأنتَ تبتَغِي وجْهَه فلا بُدَّ أنْ تَعدِلَ عنه، إمَّا بالكفافِ مُطْلقًا وإمَّا بالتَّوبةِ مِنْه إنْ وقَعـت فِيه. ولْيُنْتبَهَ لِهذِه النُّقْطةِ؛ لأنَّ بعضَ النَّاسِ يَقـولُ لَنا: أنتُم

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٩٦)، وأبو داود: كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، رقم (٣٦٤١)، والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه: كتاب المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم (٢٢٣)، من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب المساجد في البيوت، رقم (٤٢٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة لعذر، رقم (٣٣).

تُكفِّرون تاركَ الصَّـلاةِ، وقد قالَ النبيُّ ﷺ: «إنَّ اللهَ قَدْ حـرَّمَ على النار مَن قالَ: لا إلَهَ إلَّا اللهِ يَبْتَغي بِذلِك وجْهَ اللهِ»[1] ولَم يَذكُرِ الصَّلاةَ، قُلنا له: بلْ ذَكَرَ الصَّلاةَ وذَكَرَ ما دُون الصَّلاةِ أيضًا في قَولِه: «يَبتَغي بذلِك وجْهَ اللهِ».

ونَحْن نَقُـولُ: لا يُمكِنُ بأيِّ حالٍ منَ الأحْـوالِ أنْ يكُونَ رجُلٌ يَقـولُ: لا إلَهَ إلَّا اللهَ يَبْتَغي بذَلك وجْهَ الله، أنْ يُحافِظَ على تَرْكِ الصَّلاةِ أبدًا، وإنَّ مَن حاوَلَ أنْ يجْمَعَ بيْن ذلِك وبيْن ترْكِ الصَّلاةِ، فقَد حاوَلَ أنْ يجْمَع بيْن الماءِ والنَّارِ، وهَذا أمرٌ ظاهرٌ.

وسأَضرِبُ مَثلًا -ولله المَثَلُ الأعْلَى-: لو كُنتَ تُريد أنْ تَصِلَ إلَى شخْصٍ منَ النَّاسِ، وتَسْعى بكلِّ وَسِيلةٍ أنْ تَصِلَ إلَيه، هلْ تَفْعلْ ما يَحُولُ بينَك وبيْن الوُصُولِ إلَيه مِنْ مَعصِيَتِه؟ أبدًا! بلْ تَنْظرُ ماذا يُحبُّ فتفْعَلُه مِن أجْلِ أنْ تصِلَ إلَيْه، ومِن أجلِ أنْ يكُونَ مُستقبِلًا لك بالتَّرْحيبِ.

أمَّا أنْ تَقولَ: واللهِ أنا أُحِبُّ فُلانًا وأُحِبُّ أنْ أصِلَ إلَيْه، وفُلانٌ يَقولُ: لا تَمْشِ مَع هذا الطَّرِيقِ، وإذا أرَدْتَ أنْ تأتِي إليَّ فائتِني مَع الطَّرِيقِ الأَيْمَنِ؛ فقُلتَ: والله أنا أحِبُّ فُلانًا، وأحِبُّ أنْ أصِل إلَيْه، ولكِن مَع الطَّرِيقِ الأيْسَرِ، فتَمْشي فيه وأنْت تقُولُ: واللهِ أنا أحِبُّ هذا وأعَظِّمُه، وهُو أحَبُّ إلَيَّ مِن نَفْسي. فهَذا كذِبٌ لا شكَّ.

إذَنْ: كلُّ مَن قال: لا إلَه إلَّا الله يَبْتَغي بذلِك وجْه الله، فإنَّه سوْف يَتحاشى المَعاصِي ولَو صَغِيرة؛ ولِهذا جاء حصْرُ الوَحْيِ في هذِه الآيةِ بالتَّوحِيدِ: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وَهُو الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب المساجد في البيوت، رقم (٤٢٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة لعذر، رقم (٣٣).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: وُجُوبُ الإخْلاصِ للهِ والاِسْتِقامَةِ على دِينِه؛ لِقَولِه: ﴿فَاسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾؛ فـ«استَقِيموا» هَذا الْعَمَلُ، و«إِلَيْه» هَذا الإخْلاصُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: تَهديدُ الْمُشرِكين؛ لِقولِه: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾، وهَذا النَّوعُ مِنَ التَّهديدِ يَكونُ فيما هُو شِركٌ، ويَكون فيما هُو دُون ذلِك؛ فقَد قال الله تَعالَى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ [المطففين:١-٢] وَهَؤلاء لَيسُوا بمُشرِكين، يعْني أنَّ عملَهم هَذا لا يُوصلُ إلَى الشِّرك، وقال النبيُّ ﷺ: «**ويْلٌ لِمن حدَّث فكذَبَ لِيُضحِكَ به القَوم، ويلٌ له! ثمَّ ويلٌ له!**»[1]، وهَذا أيضًا ليسَ منَ الشِّركِ.

وعَلى هَذا فَلا يُقالُ: إنَّ كلَّ وعِيد كان بهَذه الكَلِمةِ يُفِيدُ أنَّ الفِعلَ شِركٌ، بَل قَد يَكونُ شِركًا أو ما دُونَه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعةَ عَشْرَةَ: أنَّ التَّوحيدَ تَزْكِيةٌ للنَّفسِ؛ لِقَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ولا شكَّ أنَّ التَّوحيدَ تَزْكِيةٌ للنَّفْسِ؛ لأنَّك تَقْطعُ العَلائقَ مَع غَيْرِ اللهِ إلَّا فيما يُحبُّ اللهُ.

فالمُوَحِّدُ حقِيقةُ قلْبِه دائمًا مَع اللهِ عَزَّوَجَلَّ دائمًا يَتقلَّبُ في قضائِه الكَونِيِّ راضِيًا به كَما يتَقلَّبُ في قضائِه الشَّرعيِّ راضيًا به؛ ولِهذا تَجِدُه إذا أصابَته سرَّاءُ شكَرَ ولَم يَبْطَرْ، وإذا أصابَتْه ضرَّاءُ صبرَ ولَم يتَسَخَّطْ؛ فهو دائمًا مَع اللهِ، يَقولُ لنَفْسِه: أنا عبْدُ اللهِ يَفْعلُ بِي ما شاء، أنا عبْدُ اللهِ إنْ أصابَني بالسَّرَّاءِ شكَرْتُ فكان خيْرًا لِي، وإنْ أصابَني بالضَّرَّاءِ صبَرْتُ فكان خيْرًا لي، أنا عبْدُ اللهِ لا يُمكِنُ أنْ أُعارِض قضاءَ اللهِ، يَقضِي

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٢)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في التشديد في الكذب، رقم (٤٩٩٠)، والترمذي: كتاب الزهد، باب فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس، رقم (٢٣١٥)، من حديث معاوية بن حيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عليَّ اليومَ بالسُّرورِ فأُسَرُّ، وغَدًا بالسُّوءِ فأَسْتاءُ؛ فيَمْشِي مَع اللهِ مَع قضائه وقَدَرِه، وهَذا هو الَّذي يجِدُ الرَّاحةَ تمامًا.

ولهذا مِن ثمَراتِ الإيمانِ بالقدَرِ: أنَّ الإنْسانَ يَكونُ دائمًا مُطمَئنًّا لَيس به قَلَقٌ ولا حُزْنٌ، وإنْ كان ربَّما في الصَّدمةِ الأولى يجِدُ الإنسانُ الحُزْنَ، لكِن بالتَّصْبيرِ -تَصْبير نفسِه- ومُشاهَدةِ القَدَرِ يُسَهِّلُ عليه الأمْرَ، وإلَّا فمِن المَعلُومِ أنَّ الإنسانَ ليسَ حدِيدًا ولا حِجارةً فَلا يَتأثَّرُ! لكِنَّه عِندما يُصَبِّرُ نفْسَه ويَحمِلُها يَصبِرُ فيَطمئِنُّ.

فالمهمُّ: أنَّ التَّوحيدَ كلَّه خيرٌ، وكلَّه زَكاةٌ؛ تَزكِيةٌ للنَّفسِ وتَطْهيرًا لها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ المُشرِكين لا يُؤمِنون بالآخِرةِ؛ ولهذا إذا قِيلَ له: وحِّدِ اللهَ تنْجُ مِن عَذابِه، قال: ليسَ هُناك عَذابٌ؛ فيَكفُرون بالآخِرَةِ.

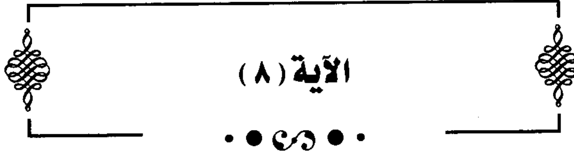
الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الإيمانَ بالآخِرَةِ يدْعُو إِلَى التَّوحِيدِ وتحقِيقِه، وهذا حقٌّ وواقِعٌ، فكلُّ إنسانٍ يُؤمِنُ بأنَّه سَوف يُحشَرُ يومَ القِيامةِ في أرضٍ قاعٍ صفصفٍ، لا يرى فيها عِوجًا ولا أمْتًا، وأنَّه سيُجازَى على عمَلِه، وكلُّ إنسان عاقِلٍ سَوف يستَعدُّ لِهذا اليَومِ؛ ولِذلك يَنْبغي لَنا مَع كَون قُلوبِنا مَع الله عَزَّوَجَلَّ أنْ نتَذكَّرَ السَّاعةَ وقِيامَ النَّاسِ، ولَيس بيْنَ الإنْسانِ وبين هذِه الحالِ وقْتٌ مُحدَّدٌ مَعلُومٌ أبدًا. ولا يَصِلَ إلى هذا إذا مات ومَتى يَمُوتُ ولا يعْلَمُ؛ فقدْ يَخْرجُ الإنسانُ مِن بَيْتِه ولا يَرجِعُ إلَيه، قدْ ينامُ على فِراشِه ويُحمَلُ مَيتًا، قدْ يركَبُ سيَّارَته ولا يَنزِلُ مِنها.

فإذن تَذكَّرْ -يا أخِي- عِنْدما تَستَولي على قلْبِك الغَفْلةُ هذا اليَوْمَ الَّذي تُحشَرُ فيه أنْت وسائِرَ الخَلْقِ حافيًا عارِيًا أغْرَلَ، لَيس عِندَك مالٌ ولا بَنون وَلا أحدٌ يَحمِيك، تَذكَّرْ هَذا! فإذا تَذكَّرتَه فَسَوف تَعمَلُ لِهذا اليَومِ، وإنَّ إخْوانَك وأوْلادَك وآباءَك

الَّذِين فقَدتَهم في الحْياةِ ستَجتَمعُ بهم في هذا اليَومِ، ولَيس هُناك اجْتِماعٌ إلَّا في هذا اليَومِ.

إذن: استعِدَّ لِهذا اليَومِ، فاعْمل صالحًا ولا يفُتكَ الرَّكبُ، وكُن في مُقَدِّمَتِه، واجْعَلِ الدُّنيا وراءَ ظَهْرِك، اجْعَلها تابِعةً لك ولا تَجْعلْ نَفسك تابعًا لَها حتَّى تنْجُوَ، فكُلُّ إنْسانٍ يُؤمِنُ بالآخِرةِ فإنَّه إذا تَذَكَّرها سَوف يَعْمَلُ لها؛ لِقولِ اللهِ تَعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصَّافَّات:٦١]، أسْألِ اللهَ تَعالى أنْ يَجْعلَنـي وإيَّاكُم مِنَ المُتَّقِين الَّذِين يُؤمِنون بالآخِرةِ ويَعْمَلون لها.





الآية (٨)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فُصِّلَت:٨].



لَـمَّا ذَكَرَ عُقُوبَةَ المُشْرِكين بَيَّن ثَوابَ المُؤمنين؛ لأنَّ اللهَ تَعالى أنْزَل هَذا الكِتابَ مَثانيَ، وإنَّما كان الأمْرُ كذَلِك؛ لِيَكونَ الإنْسانُ سائِرًا إلَى ربِّه بين الخَوفِ والرَّجاءِ، فإنَّه إذا سمِعَ عُقوبَةَ المُكذِّبين خاف، وإذا سمِعَ ثوابَ المُؤمنين رجَعَ، وهكذا يَنْبَغي للإنْسانِ أنْ يَكونَ سائِرًا إلَى الله عَزَّوَجَلَّ بيْن الخَوفِ والرَّجاءِ، كما قال تَعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:٩٠].

ولكِن في بعضِ الأحيانِ، قد يَكونُ مِن المَصلَحةِ تغْليبُ الرَّجاءِ، أو مِن المصلَحةِ تغلِيبُ الخوْفِ، فإذا اشتَدَّتْ رَغْبةُ الإنْسانِ في المَعْصيةِ فلْيُغلِّبْ جانِبَ الخَوفِ حتَّى يرتَدِعَ عنها، وإذا فعَل الإنسانُ عِبادةً فلْيغلِّبْ جانِبَ الرَّجاءِ، وهو قَبُولُ الله تَبَارَكَوَتَعَالَى إياها، وكذَلِك أيضًا يَنْبَغـي له في حالِ المَرَضِ أنْ يَرجِـعَ إلى اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى وأنْ يُحسِنَ الظَّنَّ به، كما جاء في الحَديثِ: «**لا يَموتنَّ أحدُكم إلَّا وهُو يُحسِنُ الظَّنَّ بربِّه تَبَارَكَوَتَعَالَى**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، رقم (٢٨٧٧)، من حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

قولُه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ جَمَعَ اللهُ تَعالى بيْن العَقِيدةِ والعَمَلِ، بيْن الإيمانِ والإسْلامِ، فـ﴿ءَامَنُواْ﴾: العَقِيدَةُ، و«عمِلوا الصَّالحاتِ»: الإسْلامُ. وهَذا يقَعُ في القُرآنِ كثِيرًا؛ فالإيمانُ وحدَه لا يَكفِي، بل لا بُدَّ مِن عمَلٍ صالِحٍ حتَّى يَحصُلَ الثَّوابُ، وكلَّما جاءَت «آمَنُوا» فالمُرادُ: آمَنُوا بما يَجِبُ الإيمانُ به منَ الأصُولِ السِّتةِ الَّتي بيَّنها الرَّسولُ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- لجبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ قال: «**الإيمانُ أنْ تُؤمِنَ باللهِ وبمَلائِكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليَومِ الآخِرِ وتُؤمِنَ بالقَدَرِ خيْرِه وشرِّه**»[1]؛ وذَلِك لأنَّ الإيمانَ المُجمَلَ في القُرآنِ يُفسِّرُه تَفصِيلُ السُّنَّةِ؛ لأنَّه لا أحدَ أعْلمُ بكِتابِ اللهِ مِن رسُولِ اللهِ ﷺ.

أمَّا قوْلُه: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾، فمَعلومٌ أنَّ «الصَّالحاتِ» وَصْفٌ لمَوصُوفٍ محذُوف، والتَّقدير: الأعمال الصَّالحات؛ فما هي الأعْمالُ الصَّالحاتُ؟

الجَوابُ: الأعْمالُ الصَّالحاتُ هي ما جَمعَتْ شرطَين:

الأوَّلُ: الإخْلاصُ لله عَزَّوَجَلَّ.

والثَّاني: المُتابعةُ لرسُولِ اللهِ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ-.

فكُلُّ عمَلٍ فيه شِرْكٌ، فإنَّه ليْس بصالحٍ، وهُو مردُودٌ على صاحبِه؛ لقَولِ اللهِ تَعالى في الحَديثِ القُدسيِّ: «**أنا أغنَى الشُّركاءِ عنِ الشِّركِ، مَن عمِلَ عملًا أشرَكَ فيه معِي غيرِي ترَكتُه وشِركَه**»[2].

وكذَلِك أيضًا فلا بُدَّ مِن اتِّباعِ الرَّسولِ، فالعَملُ البِدعيُّ غيرُ مقبُولٍ وإنْ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أخلَصَ الإنسانُ فِيه؛ لِقوْلِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ-: «**مَن عمِلَ عمَلًا ليْس علَيه أمرُنا فهُو ردٌّ**»(١).

إذنْ: الأعمالُ الصَّالحاتُ لا بُدَّ أنْ تتَضمَّـن شيئين، وهُما: الإخْلاصُ للهِ، والمُتابَعةُ لرَسولِ الله -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ-.

وقولُه تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ هذِه الجُملَةُ خبَرُ إنَّ؛ وقدْ نقولُ: إنَّ تقدِيمَ الجارِّ يدُلُّ على الحَصْرِ؛ أيْ: لهُم لا لِغيرهم مِن المُكذِّبين أو الفاسِقين أجْرٌ؛ أي: ثوابٌ. ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [غيرَ مَقطُوعٍ] بلْ هُو دائِمٌ كَما قال تَعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:٦٢] وقِيلَ: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غيـر ممْنُونٍ بِه؛ أي: يُعطُونه بلا مِنَّةٍ، وهَذا مُحتَملٌ.

وإذا كان مُحتملًا ولا يُنافي المَعنَى الأوَّلَ كان المُرادُ بالآيَةِ المَعنيَيْن جمِيعًا؛ إذْ لديْنا قاعِدةٌ في التَّفسيرِ -وكذَلِك في الحدِيثِ- مُهِمَّةٌ، وهِي إذا كان النَّصُّ يحتَمِلُ معنيَين لا يُنافي أحدُهُما الآخَرُ فإنَّ النَّصَّ يُحمَلُ عليهِما جميعًا؛ وذلِك لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَعْلَم ما يَحتَمِلُه كلامُه، وكذَلِك الرَّسولُ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- فلَمَّا لم يُعيَّن أحدُ الاحتِمالَين وجَبَ أنْ يكُونَ شامِلًا لهُما، لكِن إذا كان أحدُهما أرجَحَ منَ الآخَرَ فإنَّه يتْبَعُ الأرْجَحَ؛ ولِهذا نقُولُ: يُقدَّمُ ظاهِرُ النَّصِّ على تأويلِ النَّصِّ، والتَّأويلُ هو اتِّباعُ المَعنَى المَرجُوحِ.

إذنْ: قَولُه تَعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾؛ أي: ثَوابٌ غيرُ مقْطُوعٍ، وثوابٌ غيرُ ممْنُونٍ به.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

مِن فوائدِ الآيةِ الكَرِيمةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَحقِيقُ أنَّ القُرآنَ مثانٍ، تُثنَّى فيه المَعاني المُتَقابِلَةِ، فإذا ذُكِرَ ثوابُ المُجرِمين ذُكِرَ ثَوابُ المُتَّقِين، وإذا ذُكِرتِ الجَنَّة ذُكِرتِ النَّارُ، وهلُمَّ جرًّا؛ مِن أجلِ أنْ يَكونَ الإنسانُ سائِرًا إلَى ربِّه بيْن الخوْفِ والرَّجاءِ، وهكَذا ينبَغي للإنْسانِ في سَيرِه إلى ربِّه أنْ يكُونَ خائِفًا راجِيًا؛ لِقولِه تَعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:٩٠] فما سببُ (الرَّهَب) والخَوفِ؟

الجَوابُ: سببُ الخوفِ ذُنوبُ الإنسانِ، فإذا نَظرَ إلى ذُنوبِه وتَقصِيرِه خافَ كَما قال تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون:٦٠] أي: يَخافون ألَّا يُقبَل منهم. والرَّجاءِ، إذا نَظَرَ إلى عفوِ اللهِ وفضْلِه، وأنَّه جَلَّ وَعَلَا حليمٌ رَجاهُ، وقوِيَ رجاؤه، فيكُونُ دائرًا بينَ الخَوفِ والرَّجاءِ.

وقال بعضُ أهْلِ العِلمِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: في الطَّاعةِ يُغلَّبُ جانِبَ الرَّجاءِ، وفي المَعصِيةِ يُغلِّبُ جانِبَ الخوْفِ، وهَذا لَه نظَرٌ قوِيٌّ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا فعَلَ الطَّاعةَ فينْبَغي أنْ يُحسِنَ الظَّنَّ باللهِ، وأنَّ اللهَ سيقبَلُ مِنه فيقوَى رجاؤه. أمَّا إذا همَّ بالمَعصِيةِ فينَبغي أنْ يُغلِّبَ جانِبَ الخَوفِ حتَّى لا يَقعَ في المَعصِيةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإيمانَ وحْدَه لا يَكفِي حتَّى يقتَرِنَ بعمَلٍ، لكِن إذا أُطلِقَ الإيمانُ شمِلَ العمَلَ، وإنْ ذُكِرَ معَه العمَلُ صارَ العَمَلُ علانيةً والإيمانُ سِرًّا؛ مِثل قولِه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هُنا جمَعَ بيْن الإيمانِ والعمَلِ؛ فيكون الإيمانُ في القَلْبِ، والعَمَلُ في الجَوارِحِ.

فإنْ قال قائلٌ: في قَولِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾

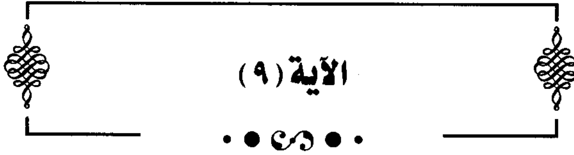
هل هذه الآيَةُ ومَثيلاتُها تَصلُحُ دلِيلًا لِمن أخْرجَ العَمَلَ الصَّالحَ من الإيمانِ بِمُقتَضى أنَّ العَطْفَ يَقْتَضي المُغايرَةَ؟

الجَوابُ: هذا لا يصِحُّ؛ لأنَّ العمَلَ الصَّالحَ دلَّتِ النَّصوصُ على أنَّه مِنَ الإيمانِ، لكِن لا مانعَ أنْ يكُونَ الشَّيءُ الواحدُ مُنقَسِمًا إلَى أنْواعٍ، فالإيمانُ تَدخُلُ فِيه الأعْمالُ لا شكَّ، لكِنَّه يَتنوَّع؛ فمِنه ما هُو عقِيدةٌ، ومِنه ما هو عمَلٌ قولِيٌّ، ومِنه ما هُو عمَلٌ فِعليٌّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: دوامُ نَعيمِ المُؤمنين العامِلين الصَّالِحاتِ؛ لِقولِه: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾؛ أي لا يُقطَعُ، كما قال تَعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:٦٢].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ أجْرَ الآخِرة خيْرٌ مِن أجْرِ الدُّنيا وثوابِها، وجْه ذلِك: أنَّ أجْرَ الآخِرَة غيرُ مقطوعٍ، بلْ هُو مستمِرٌّ دائِمًا وغيرَ ممْنُونٍ به أيْضًا، بلْ يُعطَى الإنسانُ بِدون مِنَّةٍ. وأمَّا ثوابُ الدَّنيا فإنَّه بالعَكْسِ.





الآية (٩)

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [فصلت:٩].

•●○●•

ثمَّ قال تَعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ قُل: أيْ يا مُحَمَّدُ لِهؤُلاءِ المُكذِّبين: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ ...﴾.

وقولُه: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ الجُملَةُ هذِه استِفْهامٌ، بِمعنَى التَّقريرِ، يَعني: إنَّكم لتكفُرون، و«إنَّ» للتَّوكِيدِ، و﴿لَتَكْفُرُونَ﴾ للتَّوكِيدِ أيضًا؛ وذلِك لأنَّ اللَّامَ الواقِعَةَ في خبرِ «إنَّ» أو اسْمَها المُؤخَّرَ تَكون للتَّوكِيدِ؛ فـ«إنَّ» تنْصِبُ المُبتَدأَ وتَرْفَعُ الخَبَرَ، والكافُ اسْمُها، وجُملَةُ ﴿لَتَكْفُرُونَ﴾ خبرُها.

أمَّا مِن حَيثُ القِراءاتِ فيقولُ المُفَسِّر: [بتَحقِيقِ الهَمْزةِ الثَّانيَةِ وتسهِيلِها] تَحقِيقُها أنْ تقولَ: «أإنَّكم»، وتَسهيلُها أنْ تقُولَ: «أإنَّكم» فتمُرَّ بها بسُرعَةٍ، [وإدْخال ألِف بينَهما بوَجهَيها وبيْن الأُولى]، والوجْهان هُما التَّحقِيق والتَّسهِيل، فأدْخَل ألِفَيْنِ بينَهُما على القِراءتَين، فتكونُ القِراءاتُ أرْبَعًا: إدْخال الألِفِ تَقُول: «آإنَّكم» هذا في التَّحقيقِ، «آإنكم» هذا بالتسهيل.

إذَن: تَحقيقٌ وتَسهِيلٌ بألِف، وبدُونِها: اثْنتان في اثنَتيْن: بأرْبَعِ قِراءاتٍ.

مَسْألةٌ: قِيلَ في قَولِه تَعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾: إنَّهم يَقرَؤُونها: «أهِنَّكُم»؛ فَإذا ثَبتتِ القِراءةُ بالهاءِ، فَهذا يُعتَبرُ إبْدالًا ولَيس بِتَسهِيلٍ، إبْدال الهَمزَةِ هاءً.

فإنْ قِيلَ: بعضُ النَّاسِ يَنطِقون التَّسْهيلَ كأنَّه هاءٌ!

فالجَوابُ: بعضُ النَّاسِ يتَشدَّدُ في التَّسهيلِ حتَّى تكونَ هاءً، وربَّما يتَشدَّدُ آخَرُ حتَّى تَكونَ حاءً حقِيقةً؛ لأنَّ بعضَ النَّاس -الله يهدِينا وإيَّاهم -يَفعَلُ هذا عِندَ القِراءَةِ وقَد أنكَر هَذا شَيخُ الإسْلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ في (فتاواه)[1] وغيرِها هَذا التَّشدُّدَ في تَحقِيقِ بعْضِ القِراءاتِ، فبَعْضُ النَّاسِ -مثَلًا في القَلقَلةِ-: يُقلْقِلُ كأنَّه يُقلْقِلُ حصاةً أو حَجرًا؛ يَعني يُؤكِّدُ على الحَرفِ كَثيرًا.

والحَقيقَةُ: أنَّ التَّنطُّعَ ليسَ بحَسَنٍ، والإهْمال ليس بحَسَنٍ، وخَيرُ الأمُورِ الوَسَطُ.

وقولُه تَعالى: ﴿لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ تكفُرون به؛ أي: تَجحَدونَه وتَستكبِرون عن عِبادَتِه؛ لأنَّ الكُفرَ كلَّه يدُورُ على شَيئَينِ: إمَّا جَحدٌ، وإمَّا استِكبارٌ، فمَثلًا الشَّيطانُ إنَّما كفَرَ بالاستِكبارِ، وإلَّا فهُو مُقِرٌّ باللهِ وبعِزَّةِ الله وبقُدرَةِ الله، لكِنه استكبَرَ، وآلُ فِرعَونَ ومَن شابَهَهم كَفروا بالجُحودِ، فمَدارُ الكُفرِ كلِّه على هَذين الأمْرين: الجَحدِ أو الاسْتِكبارِ، فقَوله: ﴿لَتَكْفُرُونَ﴾ يَشمَلُ المعنيَيْنِ؛ لأنَّهم جَحدوا تَوحِيدَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ واستكبَروا عَن عِبادَتِه.

وقال تَعالى: ﴿بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ولم يَقُلْ: بالله، بلْ أتَى بِفعلٍ مِن أفعالِه جَلَّ وَعَلَا بِفعْلٍ لا تَقدِرُ علَيه هَذه الأصْنامُ، والإتْيانُ بالفِعلِ الَّذي لا تَقدِرُ علَيه الأصْنامُ،

---

(١) انظر: جامع المسائل لابن تيمية (٣/ ٣٠٣-٣٠٥)، والآداب الشرعية (٢/ ٣١١، ٣١٥).

هُو إقامةٌ للحُجَّةِ فِي نفْسِ الوَقتِ؛ أي: تَكفُرون بِهذا مَع أنَّ أصْنامَكم لا تَفْعَلُه.

وقولُه: ﴿لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ قال المُفسِّرُ: [الأحَد والاثنين]؛ لأنَّ أوَّلَ يوم ابتَدأ فيه اللهُ الخَلْقَ الأحَدُ.

وقولُه: ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ الواوُ حرْفُ عطْفٍ، و«تَجعَلُون» مَعطُوفةٌ على «تَكفُرون»، لا على الصِّلةِ يَعني: لا على «خَلَقَ».

وقولُه: [﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ شركاء]، أنْدادًا جَمْع نِدٍّ، والنِدُّ في الأصْلِ هُو المُساوي والمُماثِلُ، يُقالُ: هَذا نِدُّ هَذا؛ أيْ: مُماثِلٌ له ونَظِيرٌ له، والمُرادُ بِهم هُنا: الشُّركاءُ الَّذِين يعبُدُونهم كما يَعبدُون اللهَ، والعَجَبُ أنَّ هؤُلاء المُشرِكين مِن سَفَهِهم يَقولون: إنَّما نعْبُدُهم لِيُقرِّبونا إلَى اللهِ، تَعبدُونهم مَع اللهِ وتَقُولون: يُقرِّبونا إلَى اللهِ؟! إنَّ اللهَ غنِيٌّ عنْ هذا، وهَذا لا يَزيدُكم مِن اللهِ إلَّا بُعدًا.

وقولُه تَعالَى: ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ذلِك، أتَى باسِم الإشارة دُون الضَّمِير، ثمَّ جعَلَها إشارةَ بُعدٍ للتَّعْظيمِ والتَّفخيمِ والتَّعلِيةِ؛ لأنَّ البُعدَ هُنا إشارةٌ إلَى المَكانِ العالي ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ولَو قال: «هُو ربُّ العالَمين» استَقام الكَلامُ، لكِن لمْ يَحصُل ما تدلُّ علَيْه الإشارةُ مِنَ التَّعظيمِ، ثمَّ ما يدُلُّ علَيْه صِيغَةُ البُعدِ منَ العُلُوِّ. ونظِيرُ ذلِك: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة:١-٢] ولمْ يَقُلْ: «هوَ الكِتابُ»، ولا: «هَذا الكِتابُ»، إشارةً إلَى ما ذكَرنا.

قولُه: ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال المُفسِّرُ: [مالِك] وفِي هَذا التَّفسيرِ قُصورٌ، بلْ نقُولُ: خالِقٌ ومالِكٌ ومدبِّرٌ؛ لأنَّ الرُّبوبيَّةَ هِي الخَلْقُ والمُلكُ والتَّدبِيرُ، فإذا قُلنا: مالِكٌ، صار في هذا قُصورٌ؛ فقَولُه: ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: خالِقُهم ومالِكُهم ومدبِّرُ أمُورِهم.

وقولُه: [﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جَمْعُ عالَمٍ وهُو ما سِوى اللهِ] عَزَّوَجَلَّ فكلُّ ما سِوى اللهِ فهُو عالَم، وسمِّي عالمًا؛ لأنَّه عَلَم على خالِقِه جَلَّوَعَلَا، فإنَّ كلَّ شيْء فِيه آيَةٌ تدلُّ على وَحْدانيَّة الله وقُدرَتِه وحِكمَتِه وعِزَّتِه، وغيرِ ذلِك.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [وجمَعَ لاختِلافِ أنْواعِه] يَعنِي: لمْ يَقُلْ: العالَم، بلِ أتَى بالعالَمين [بالياءِ والنُّونِ تغْلِيبًا لِلعُقلاءِ]، فإنْ قال قائِلٌ: هلِ العُقَلاءُ أكثَرُ أو غيرُ العُقلاءِ؟

فالجَوابُ: إنْ قِيلَ: إنَّ العُقَلاءَ أكثَر، فيُحتاجُ إلَى دلِيلٍ، ورُبَّما يَكونُ دلِيلُه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «أطَّتِ السَّماءُ وحُقَّ لَـها أنْ تَئِطَّ، ما مِن مَوضِعِ أربَعِ أصابعَ مِنها إلَّا وفِيه مَلَكٌ قائِمٌ للهِ أو راكِعٌ أو ساجِدٌ»[1]، والسَّماءُ واسِعةٌ عظِيمةٌ، كلُّ سماءٍ أوسَعُ ممَّا تحْتَها، فمَن يُحصِي هؤُلاء! هَذا شيْءٌ عظِيم، والبَيْت المَعمُور في السَّماء السَّابعةِ يدْخُلُه كلَّ يوم منَ المَلائِكةِ سبعُون ألْف مَلكٍ لا يعُودُون إلَيه، فمَن يُحصِي الأيَّامَ، كُلُّ يومٍ يُضرَبُ في سَبعِين ألفِ مَلَكٍ! فإذا رأَينا هَذا قُلْنا: العُقلاءُ أكثَرُ.

وإنْ نظَرْنا إلى ما في الأرْضِ قُلنا: غيرُ العُقَلاءِ أكثَرُ؛ فعلى هَذا التَّقدِيرِ -أنَّ المرادَ مثلًا من في الأرضِ- نقولُ: إنه غلَّبَ العُقلاءَ لشرَفِهم، والحاصِلُ: أنَّ تغلِيبَ العُقلاءِ إنْ كانَ العُقلاءُ أكثَرَ فغُلِّبوا لِكثرَتِهم، وإنْ قُلنا: غيرُ العُقلاءِ أكثرُ، فغُلِّبَ العُقلاءُ، يُغلَّبُ مَن لَيْس بمُمَيِّزٍ لِشرَفِهم.

مِن فوائِدِ الآيةِ الكَريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: في هَذا دَلِيلٌ على وُجُوبِ إعْلانِ المُؤمِنِ ما علَيه الكُفَّارُ مِنَ الكُفرِ باللهِ؛ لِقولِه: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾.

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٧٣)، والترمذي: كتاب الزهد، باب في قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا»، رقم (٢٣١٢)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويتَفرَّعُ على هَذه الفائدَةِ: أنَّه لا تجُوزُ مُداهَنةُ الكُفَّارِ، وإنْ كانَت المُداراةُ تجُوزُ لكِنَّ المُداهَنةَ لا تجُوزُ.

والفَرقُ بينَهما: أنَّ المُداهَنةَ سُكوتُ الإنسانِ عَن مَعصِيةِ العاصِي، كأنَّه يَقولُ: لَك مَعصِيتُك ولِي طاعَتي، فأنتَ اعْمَلْ وأنا أعمَلُ، فهَذه مُداهَنةٌ ومُصانعةٌ لا تَجُوزُ؛ قال اللهُ تَعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩]، ولَكِن لا يَجُوزُ لِلمُؤمنِ أنْ يُداهِنَ.

أمَّا المُداراةُ فمَعناها: أنْ يَنقُلَ الإنْسانَ ممَّا هُو عليْه مِن المَعصِيةِ شيئًا فشَيئًا وهُو غيرُ راضٍ بها، بلْ هُو كارِهٌ، ولا يَرى أنَّه يَجُوزُ إقْرارُها، بِخلافِ المُداهِنِ.

وأمَّا المُداهَنةُ في الحَقِيقةِ فأشْبَه ما لَها في وقتِنا الحاضِـرِ ما يُسمُّونه بالمُجامَلةِ أو بالعَلمَنة، فإنَّ العلمانيِّين يقُولُون: دَعْ كلَّ إنْسانٍ وشأنَه، الدَّولةُ دولَةٌ، والدِّينُ دِينٌ، فالدَّولةُ لا بُدَّ أن تتَّحِدَ، وأما الدِّينُ فلكلٍّ دِينُه، فلا تُنكِر على الكافِرِ ولا على الفاسِقِ، دعْ كلَّ إنسانٍ يعمَلُ ما شاء!!

المُهمُّ: أنَّ هذِه الآيَةَ صرِيحةٌ في أنَّه يجِبُ أنْ نُنكِرَ على الكافرين كُفرَهم، وَألَّا نُداهِنهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّه يَنبَغي تأكِيدُ ما يُمكِنُ أنْ يُنْفَى أو يُشَكَّ فِيه؛ وجْهُه: أنَّه أكَّد ذلِك بقَولِه: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾، وإلَّا فيكْفي أنْ يقُولَ: قلْ لقَد كفرْتُم، أو قلْ كفرْتُم، لكِن لـمَّا كان هَذا أمْر يُشَكُّ فِيه ويُقَالُ: هؤُلاء لمْ يكفُـروا بالله بلْ آمَنوا به؛ لأنَّهم يؤمِنُون بأنَّ اللهَ مَوجُودٌ وبأنَّ اللهَ خالِقُ السَّمواتِ والأرْضِ، لكِن إذا لمْ يتَّبِعوا شَرعَه فهُم كافِرون به، ولَو أقرُّوا بِوجُودِه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بيانُ قُدرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وبيانُ حِكمَتِه في خلْقِ السَّمواتِ والأرْضِ، حيثُ خلَقَ هذِه الأجْرامَ العَظيمَةَ الكَبيرَةَ الواسِعةَ في خِلال ستَّةِ أيَّامٍ.

أمَّا الحِكمَةُ فوجْهُها: أنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا كان قادِرًا على أنْ يخْلُقها بلَحظَةٍ واحِدَةٍ: كُن فيكُونُ، لكنَّه جَلَّوَعَلَا ربطَ الأسبابَ والمُسبَّباتَ، وجَعلَها تتفاعَلُ شيئًا فشَيئًا حتَّى تنتَهِي، هَذا مِن وجْهٍ.

ومِن وجْهٍ آخرَ: أنَّه أخَّرَ ذلِك لِيُعَلِّم عِبادَه التَّأنِّي في الأُمُورِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ خلْقَ الأرْضِ قبْل خلْقِ السَّماءِ؛ لأنَّه لـمَّا ذكَرَ خلْقَ الأرْضِ في أربَعةِ أيَّامٍ قالَ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ وَهَذا كقَوْلِه تَعالى في سُورةِ البَقَرةِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البَقرة:٢٩].

ولكِن هَذا يُعارِضُه ظاهِرُ قولِه تَعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النَّازِعات:٢٧-٣٠] فهُنا ذكَرَ أنَّ الأرْضَ دُحِيت بَعدَ خلْقِ السَّماءِ، فهلِ المُرادُ بالدَّحْوِ شَيءٌ سِوى الخلْقِ، أو أنَّ البَعْدِيَّةَ هُنا بَعدِيةُ ذِكرٍ؛ يعنِي كما يَقولُون: هَذا تَرتِيبٌ ذِكريٌّ، ولَيس ترتِيبًا زمَنِيًّا؟

الجَوابُ: في هَذا وجْهان:

الوَجْهُ الأوَّلُ: أنَّ الدَّحو ليْس الخلْقَ، بلْ هُو شَيْءٌ آخَرُ، فسَّرَه اللهُ بِقولِه: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ [النَّازِعات:٣١] فهَذا الدَّحوُ، وإخْراجُ الماءِ والمَرْعى شَيءٌ زائِدٌ على الخلْقِ والتَّكوينِ.

وأمَّا الوجْهُ الثَّاني: فإنَّ البَعدِيةَ هُنا بَعديَّةُ ذِكرٍ، وهُو ما يُعرفُ عِند عُلَماءِ النَّحوِ بالتَّرتِيبِ الذِّكريِّ، ومِنه قَولُ الشَّاعِرِ[1]:

---

(١) البيت لأبي نواس الحسن بن هانئ، يمدح به العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر. انظر: ديوانه ط. آصاف (ص:١٢٢)، وخزانة الأدب (١١/ ٤٠).

إنَّ مَن سادَ ثُمَّ سادَ أَبُوه   ثمَّ سادَ مِن بعْدِ ذلِك جَدُّه

فتجِدُ أنَّ التَّرتيبَ على خِلافِ التَّرتيبِ الزَّمنيِّ، لكِنَّ هَذا يُسمَّى ترتيبًا ذِكريًّا، يَحتَمِلُ الوَجهَين.

ولكنَّ الوجْهَ الأوَّلَ أوْلَى؛ أنْ يُقالَ: إنَّ الدَّحوَ ليْس الخَلْقَ، الخلْقُ والتَّكوِينُ شيْءٌ، والدَّحْوُ شيْءٌ آخَرُ.

والدَّلِيلُ: أنَّ اللهَ تَعالى قال فِي الدَّحوِ مُفسِّرًا إيَّاه: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾.

إذَنْ: لا مُعارَضةَ بيْن الآيتَين؛ لتَنزِل كلُّ واحِدةٍ مِنهُما على وجْهٍ لا يُعارِضُ الوجْهَ الآخَرَ.

واعْلَمْ أنَّه ينبَغي للإنسانِ إذا رأَى آيتَيْن ظاهِرهُما التَّعارُض ألَّا يُسرِعَ في الحُكْمِ بالتَّعارُضِ؛ لأنَّه لا يُمكِنُ أنْ تَتعارَضَ آيتان مِن كلِّ وجْهٍ -كما ذكَرْنا ذلِك في أصُولِ التَّفسِيرِ- ولكِن ليتأنَّى وليَتأمَّل وليُفكِّرْن، فإنَّ أدْرَك أنْ لا تَعارُضَ فهَذا المَطْلُوبُ، وإلَّا وجَب أنْ يَسْأَلَ أهلَ العِلْم، فإنْ لمْ يَتبيَّن لَه الأمْرُ وجَب علَيه التَّوقُّفُ، وصارَتْ هَـذه مِن الآياتِ المُتشابِهاتِ الَّتي يجِـبُ أنْ يقُـولَ فِيها: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آلِ عِمران:٧].

وقد ذَكَـرنا لكُم فِيما مَضَى أنَّ مِن العُلمـاءِ مَن أَلَّف في الآياتِ الَّتي ظاهِرُها التَّعارُض وجَمع بيْنها، وذَكَرْتُ لكُم أنَّ مِن أحْسنِ ما رأيْتُ ما أَلَّفه الشَّيخُ الشّنقِيطيُّ (دَفْع إيْهام الاضْطِراب عَن آيِ الكِتاب).

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ نوْعَ الكُفرِ الَّذي حصَل مِن هؤُلاء المُخاطَبين هو الشِّركُ؛ لِقولِه: ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [فُصِّلَت:٩]، وجعَلوا الأندادَ له أنواعًا كثيرَةً؛ إمَّا أنْ يجعَل

لَه أندادًا في الذَّاتِ، فيَقولَ: إنَّ اللهَ لَه مَثِيلٌ كما فعلَتِ النَّصارَى، حيثُ قالُوا: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾ [المائدة:٧٣]، وكما فعَلَ المُمثِّلَةُ الَّذِين مَثَّلوا صِفاتِ الله بصِفاتِ خَلْقه، فإنَّ هَذا مِن الشِّركِ.

وقدْ يَكون نِدًّا في العِبادةِ يَعبُده وإنْ كان لا يَرى أنَّه مِثل اللهِ عَزَّوَجَلَّ لكِن يَعبُده، ويدَّعي أنَّه إنَّما عبَده لِيُقرِّبَه إلى الله عَزَّوَجَلَّ وقَد يَكون هُناك أنْداد في المَحبَّة بأنْ يُحِبَّ الشَّيْءَ كما يُحِبُّ اللهَ.

والعَجَبُ أنَّ الشَّيطانَ يَجرِي مِن ابْن آدَم مجرَى الدَّم، فيُحِبُّ الشَّخصَ، ويتَعلَّقُ به كَثيرًا، ويَقولُ: أنا أُحِبُّه للهِ، والحَقِيقةُ أنَّه يُحِبُّه مَع اللهِ ولَيسَ للهِ. فالَّذِي يُحِبُّ الشَّخْصَ لله تكونُ المَحبَّةُ الأصلِيَّةُ هي محبَّةَ اللهِ؛ فهَذا أحبَّه؛ لِأنَّه يُحِبُّ اللهَ، لكِنَّ الَّذي يَجعَلُ قَلْبه مُنْصرفًا إلى هَذا المَحبُوبِ لا يُفكِّرُ إلَّا به، ولا ينامُ إلَّا على ذِكْرِه، ولا يَستَيقِظُ إلَّا بذِكْرِه؛ هَذا لَم يُحِبَّه للهِ، بَلْ أحبَّه مَع اللهِ، وهَذا شِركٌ كَما قال تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

وكذَلِك مِن النِّدِّ أنْ يَتعلَّقَ قَلْبُ الإنْسانِ بِالمَخْلُوقِ خَوفًا ورَجاءً، لا محبَّةَ خوفٍ ورَجاءٍ، بِحَيثُ يَعتَمِدُ علَيه في تَحصِيلِ مَعاشِه، أو في دَفْعِ الضَّرَرِ عنْه، وهَذا يَقَعُ كثِيرًا ولا سِيَّما بعْد فتْحِ المُستَشفَياتِ؛ فإنَّ أكثَرَ النَّاسِ يَتَعلَّقُ قلبُه بالمُستَشفى، تَجِدُه إذا مرِضَ أخَذ حبَّةً أو حبَّتيْن، ولا يقُولُ: يا ربِّ عافِني! أو يلْجأُ إلَى اللهِ، مَع أنَّه رُبَّما يَكون هَذا الطَّبِيبُ الَّذي اعتَمدَ علَيه ورَجاه كافِرًا مُلْحدًا، فهَذا أيْضًا مِن اتِّخاذِ النِّدِّ للهِ.

ولِهَذا كان ضَرَرُ بعضِ المُستشفِياتِ الآن -مَع ما فِيها مِن النفْعِ والخَيرِ الكَثيرِ والحَمدُ للهِ-: أنَّ النَّاسَ صاروا يُعلِّقون آمالَهم، ويجُرُّون آلامَهم إلَيْها، فلَو تُصيبُ الإنْسانَ الشَّوكةُ، أو المَرْأةُ إذا جاءَها الطَّلْقُ، وصارَت تُطلِق طلْقًا عاديًّا -واللهِ هذِه

مَسأَلَةٌ خَطيرَةٌ- قالُوا: لا بُدَّ مِن قيْصَريَّة، والقَيصَريَّةُ تعني شَقَّ البَطْنِ، ثمَّ إذا وَلَدتْ عَشرَةَ أولادٍ يَكون في بَطنِها عشْرَةُ شُقوقٍ؛ فلا يَتَحمَّل هذا البطنُ أيَّ حمل، بلْ لو حمَلت لانفجر.

وكلُّ هذا مِن نوعٍ مِن الشِّركِ، فلا تَلجَأُ إلى المُستَشفى إلَّا لِلضَّرُورةِ القُصوى، اجْعَلْ رجاءَكَ دائِمًا مُعلَّقًا بِاللهِ، وقُلْ: إنَّ الَّذي خلَقَنِي وأوجَدَني أوَّلَ مرَّة قادِرٌ على أنْ يُزيلَ ما بِي مِن مرَضٍ، وهُو أقدَرُ مِن كُلِّ أحَدٍ يُزيلُها عَزَّوَجَلَّ بدُون أيِّ عمَليَّة، وبدُون حُبوب، وبدُون مِياه، وبدُون إبَرٍ.

المهِمُّ: أنَّ اتِّخاذَ الأنْدادِ لَيْس خاصًّا بشَيءٍ مُعيَّنٍ، بل يَكونُ في أشْياءَ كَثيرَةٍ، فإيَّاك أنْ يَكونَ لكَ نِدٌّ، حتَّى إنَّ الرَّسُولَ ﷺ قال: «**تعِسَ عبْدُ الدِّينارِ، تعِسَ عبْدُ الدِّرهَمِ، تعِسَ عبْدُ الخَميصَةِ، تعِسَ عبْدُ القَطِيفة**»[1]؛ وهلِ الإنْسانُ يضَعُ الدِّينارَ فَوقَه ويَسجُدُ له ويَركَعُ؟!

الجوابُ: لا، وكذَلِك الدِّرهَمُ والخَمِيصةُ والخَمِيلةُ، لكِن لـمَّا كان قلْبُه معلَّقًا بهَذا الشَّيءِ؛ إنْ أُعطِي رضيَ، وإنْ لمْ يُعطَ سخِطَ، صارَ عَبدًا لها، نَسْأَلُ اللهَ أنْ يُعيذَنا وإيَّاكم مِن ذلِك.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بيانُ امتِناعِ النِّدِّ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِقولِه: ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [فُصِّلَت:٩] وجْهُ الِامتِناعِ أنَّه ربُّ العالَمِين وأيُّ نِدٍّ لا بدَّ أن يكُونَ ربَّ العالَمِين؛ فلا أحدَ يُمكِنُ أنْ يُقالَ: إنَّه ربُّ العالَمِينَ؛ فهُو ربٌّ وما سِواه مرْبُوبٌ؛ إذَن: ما سِواه لا يصِحُّ أنْ يكُونَ نِدًّا له.

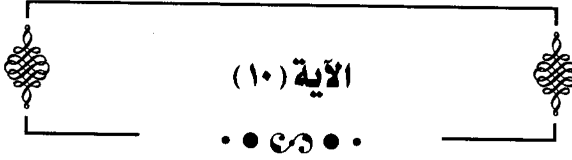
---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، رقم (٢٨٨٦، ٢٨٨٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: عُمـومُ ربُوبيَّةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لكـلِّ العالَمِ؛ لِقـولِه: ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: وُجوبُ الخُضوعِ له شَرعًا كما أنَّنا نخْضعُ لَه قدَرًا؛ لأنَّ هَذا مُقتَضى الرَّبوبيَّةِ أنْ تخضَعَ لِهذا الرَّبِّ شَرعًا كما أنَّك خاضِعٌ لَه قدَرًا، فكلٌّ خاضِعٌ للهِ قدَرًا، قال تَعالَى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرَّعد:١٥]، وهَذا السُّجودُ قَدَريٌّ؛ فيجِبُ أنْ تَخضَع لَه شرعًا، وأنْ تَتذلَّلَ لَه، فتكونَ أمامَه ذلِيلًا كما كُنت أمامه ذلِيلًا في قَدَرِه.





۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت:١٠].

• • ◆ • •

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَجَعَلَ﴾ مُستأنفٌ] يعني: وليْس معطُوفًا على خَلَقَ، والعَجَبُ أَنَّه يقُولُ: [ولا يجُوزُ عطْفُه على صِلَةِ «الَّذي» لِلفاصلِ الأجنَبِيِّ]، هَذا ما ذهَب إلَيْه المُفسِّرُ: أنَّ قوْلَه: ﴿وَجَعَلَ﴾ مُستأنَفٌ، ولا شكَّ أنَّنا إذا جعَلْناه مُستَأنفًا لَم يَكُن الكَلامُ مُنتَظِمًا.

والصَّوابُ: أنَّه على خِلافِ ما قال المُفسِّرُ: أنَّ «جَعَل» مَعطُوفةٌ على ﴿خَلَقَ﴾، يعنِي: بالَّذي خلَق الأرْضَ في يومَيْن وجعَل فِيها رواسيَ. والفاصِلُ الأجنَبيُّ هُنا لا يضُرُّ؛ إمَّا أنَّه لا يضُرُّ مُطلَقًا، كما قِيل به، وإمَّا أنَّه لا يضُرُّ؛ لأنَّه في مَضمُونِ الكَلامِ والكَلامُ واحِدٌ.

فالصَّوابُ: أنَّ قولَه: ﴿وَجَعَلَ﴾ مَعطُوف على ﴿خَلَقَ﴾؛ أي: بالَّذي خلَق الأرْضَ في يومَيْن، وجعَل فيها رواسِي.

وقولُه: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جِبالًا ثوابِت] أوَّلًا: «جعَل» هُنا هلْ هِي مِن أفعالِ التَّصييرِ، أو مِن أفعالِ الإيْجادِ؟

يَحتَملُ المعنَى: وأوجَد فِيها رواسيَ، ويَحتَملُ أنْ تكُونَ مِن أفعالِ التَّصيِيرِ، أي:

صَيَّر فِيها رواسيَ. والمَعنَى لا يختَلِفُ، لكنَّ الإعْرابَ يَختلِفُ، إذا قُلنا «مِن أفعالِ التَّصييرِ» صارَتْ تنصِبَ مفعُولَين، وإذا قُلنا «مِن أفعالِ الإيجادِ» صارَتْ تنْصِبَ مَفعُولًا واحِدًا.

وقولُ المُفسِّرِ: [جِبالًا ثوابِتَ] أفادَنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ ﴿رَوَٰسِيَ﴾ صِفةٌ لَموصُوفٍ محذُوفٍ، والتَّقدِيرُ: جِبالًا رواسيَ، و﴿رَوَٰسِيَ﴾ بمَعنَى ثوابِتَ، وهلْ يجُوزُ أنْ يُحذَفَ المنعُوتُ؟ الجَوابُ: نعَم، وهُو كثِيرٌ، كثِيرٌ جِدًّا.

وما مِنَ المنْعوتِ والنَّعْتِ عُقِل يَجوزُ حَذْفُه وفِي النَّعْتِ يَقِلّ[1]

أي: في المَنعُوتِ يَكثُرُ؛ قال تَعالَى: ﴿ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ ﴾ [سبأ:١١]؛ أي: دُرُوعًا سابِغاتٍ، وقولُه: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ المُهِمُّ أنَّها كثِيرةٌ كما تَقدَّم، فإنَّ المَقصُودَ الصِّفةُ، والصِّفةُ تَكونُ بالنَّعْتِ وهُو موجُودٌ.

وقولُه: ﴿مِن فَوۡقِهَا﴾ أي: هذِه الرَّواسي مِن فوْق؛ يعنِي: صيَّرَ فِيها رواسِيَ، فالمَفعُولُ الأوَّلُ هُو ﴿رَوَٰسِيَ﴾، والثَّاني الجارُّ والمَجرُورُ.

وقولُه: ﴿مِن فَوۡقِهَا﴾ انتبِه لهذِه الكَلِمةِ؛ فلَها فائِدةٌ عظِيمةٌ! إذِ الرَّواسِي قد تكُونُ مِن أسفَلَ، وقدْ تَكونُ مِن فوْق؛ فقَد تكُونُ مِن أسفَلَ، يعنِي يكُونُ مَثلًا يَحفِرُ في الأرْضِ قواعِدَ تُرسِي، وتَكونُ راسِيةً، لكِن هُنا قال: ﴿مِن فَوۡقِهَا﴾؛ وذلِك لفَوائِدَ:

الفائِدةُ الأُولى: ظُهورُ هذِه الرَّواسي وبيانُها للنَّاسِ؛ حتَّى يعرِفوا بذلِك حِكْمةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ورُبَّما لا تَكونُ رواسِيَ إلَّا إذا كانَتْ مِن فوْق؛ بِناءً على أنَّ الأرْضَ تدُور حتَّى تحفَظَ توازُنَها.

---

(١) الألفية (ص:٤٥).

الفائِدةُ الثَّانيةُ: هذِه الرَّواسِي إذا كانَت مِن فوْق حصَل فِيها مِن المَنافِعِ في درْءِ العَواصِفِ وفِي الملاجئِ شَيْءٌ كثِيرٌ، كما هُو معْرُوفٌ في المَغاراتِ، وكما يُعرَفُ مِن سُفوحِ الجِبالِ وخُدودِ الجِبالِ ورُؤوس الجِبالِ، مِن نَوابِتَ لا تُوجَدُ لولا هذِه المُرتَفَعاتُ.

الفائِدةُ الثَّالِثةُ: أنَّها تُوجِبُ أنْ تنْدَفعَ مِياهُ الأمْطارِ بشِدَّةٍ حتَّى تصِلَ إلَى أراضٍ صالِحةٍ للنَّباتِ؛ لأنَّكم تعْرفون أنَّ بعضَ الأرضِ سبَخاتٌ ليْس فيها خَيْرٌ وبعضُها رِياضٌ تُنبِتُ، فإذا نَزَل الماءُ على هذِه الجِبالِ على قِمَمِها وعلَى خُدودِها نزَلَ إلَى الأرْضِ بشِدَّةٍ عظيمَةٍ حتَّى يصِلَ إلَى ما أرادَ اللهُ إيْصالَه.

الفائِدةُ الرَّابِعةُ: أنَّ في قِمَمِ الجِبالِ مِن المَعادنِ الجيِّدةِ أكثَرُ مِمَّا في الأرْضِ السُّفلَى؛ ولِهذا قال تَعالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد:٢٥] أنْزَلْناه مِن قِمَمِ الجِبالِ؛ ولِهذا يَقولُ العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: «إنَّ الحَدِيدَ الَّذي يَكونُ مِن قِممِ الجِبالِ أعلَى وأقوَى مِن الَّذي يَكونُ مِن الأسْفَلِ».

هَذا ما نَعْلَمُه، وما لا نعْلَمُه أكْثَرُ.

المُهِمُّ: أنَّ كلِمةَ ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ لَها فائِدةٌ عظِيمَةٌ ذكَرْنا مِنها أربَعَ فوائِدَ.

وقولُه: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾، قال المُفسِّرُ: [بِكثْرةِ المِياهِ والزُّرُوعِ والضُّروعِ] «بارَك فِيها» أي في الأرْضِ، وما أعظَم برَكاتِ الأرْضِ مِنَ الزُّروعِ والأشْجارِ والأنْهارِ والمَعادِنِ، وغيرِها مِن برَكاتِ الأرْضِ!

وقوْلُ المُفسِّرِ: [الضُّرُوع] يعنِي ضُروعَ البَهائِمِ؛ لأنَّ البَهائِمَ كلَّما شبِعتْ مِن الرَّبِيعِ ازدادَ درُّها، ومَن يتأمَّلْ يجِدْ أنَّ في الأرْضِ برَكاتٍ عظِيمَةٍ؛ فقَد حمَلتِ الأحْياءَ

والأمْواتَ والوُحوشَ والسِّباعَ والبَهائِمَ والحشَراتِ والآدمِيِّين، وكانَت واسِعةً أيْضًا مَع كَثرَةِ ما فِيها؛ فلَو أنَّ هـؤُلاء الأحْياءَ الَّذِين على ظهْرِ الأرْضِ يَحيَون إلَى الآنَ، لرَأيْتَ أمْرًا بَشِعًا وصَعبًا، لكِنْ جعَلَ اللهُ الأرْضَ كِفاتًا أحياءً وأمْواتًا، وهَذِه مِن برَكاتِها.

وقوْلُه: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ «قدَّر» قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قَسَّم ﴿فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ للنَّاس والبَهائِم...] إلخ، قـدَّر فِيها الأقْواتَ؛ يَقولُ: إنَّ «قدَّر» مِن التَّقـدِيرِ وهُو التَّقسِيمُ، قدَّر الأقواتَ ولَم يجْعَل القُوتَ في جانِبٍ واحِدٍ مِنَ الأرْضِ، إذْ لو كان في جانِـبٍ واحِدٍ مِن الأرْضِ لشقَّ هَذا على النَّاسِ كَثِيرًا؛ لَو قُدِّر مَثلًا أنَّ الأقْواتَ لا تكونُ إلَّا في غرْبِ الكُرَةِ الأرْضِيَّةِ، فكَيْف يعِيشُ أهْلُ الشَّرقِ، أو بالعَكْسِ: كيْف يعِيشُ أهلُ الغرْبِ؟ لكنَّه مُقدَّرٌ.

ثمَّ قدَّره مِن ناحِيةٍ أُخرَى: جعَل في هذِه الأراضِي ما لا يصْلُحُ في الأراضِي الأُخرَى والعَكْسَ.

والحِكْمَةُ: مِن أجْلِ أنْ يتَبادَلَ النَّاسُ الأقْواتَ، فيَأتِي النَّاسُ الَّذِينَ ليْس عِندَهم هَذا النَّوْعُ مِن القُوتِ يَذهَبُون إلَى الأراضِي الَّتي فِيها هَذا القُوتُ فيَجلِبونه إلَى الأرْضِ الخالِيةِ مِنْه، وكذَلِك العَكْسُ، ففِي بعْضِ الجِهاتِ مِن الأرْضِ يَكْثُرُ فِيها النَّخِيلُ والعِنَبُ، لكِن تقِلُّ فِيها الحَمْضِيَّاتُ وأشباهُها، وفِيه أيْضًا أشْياءُ كثِيرَةٌ -وأنا لسْتُ مِن أهْلِ الزِّراعَةِ- تصْلُحُ في مكانٍ دُون مكانٍ مِن أجْلِ أنْ يقَعَ التَّبادُلُ بيْن النَّاسِ والضَّرْبُ في الأرْضِ ابْتِغاءَ الرِّزْقِ، وهَذا مِن الحِكمَةِ في قوْلِه: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾.

وقولُه: ﴿فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِيٓ﴾ تمام ﴿أَرْبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ أي الجَعْلُ، وما ذُكِرَ معَه في يوْمِ الثُّلاثاءِ والْأرْبِعاءِ] إذا كانَ خلْقُ الأرْضِ أوَّلُه الأحَدُ والاثْنَينُ،

ثُمَّ قال: ﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ فيكونُ الباقِي؛ الثُّلاثاء والأرْبِعاء، فتكونُ الأرْضُ خُلِقتْ وقُدِّر فِيها الأقْواتُ في أرْبعَةِ أيَّامٍ.

قال الله تَعالى: ﴿سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [مَنْصُوبَةٌ على المَصْدَرِ؛ أيِ: اسْتوَتِ الأربَعَةُ اسْتِواءً لا تَزِيدُ ولا تنْقُصُ]، فأفادَنا بقَوْلِه: «استوَتِ استِواءً»؛ أنَّ سواءً مَنصُوبةٌ على المَصدَرِ؛ وفِيه تجوُّزٌ لأنَّنا إذا قُلنا «سَواءً» مَصْدرُ «اسْتَوى»، فإنَّه لا يَستَقِيمُ مَع القاعِدةِ؛ لأنَّ القاعِدةَ: أنَّ المَصدَرَ ما وافَقَ الفِعْلَ في حروفِه، وهنا «استوى» لا توافقها «سواء»، بَلِ الَّذي يُوافِقُها «اسْتِواء».

إذَنْ «فسَواء» تَكونُ اسْمَ مَصْدرٍ، مِثْل: (كَلَّم)، والمَصْدَرُ (تكلِيمٌ)، واسْمُ المَصْدَر (كَلام)؛ فهُنا (اسْتَوَى)، والمَصْدَر (اسْتِواءٌ)، واسْم المَصْدَر (سَواءٌ).

المُهِمُّ أنَّ قوْلَه: «سواء» يَعنِي: أنَّ هَذا الخَلْقَ استوْعَب الأرْبَعةَ كلَّها، فلَم يَكُن في يوْمَين أو ثلاثَةٍ، بلْ في الأيَّامِ الأرْبَعةِ كلِّها، فعلى هَذا يَكونُ قوْلُه: [مَنصُوبٌ على المَصْدرِ] الصَّوابُ: أنْ يُقالَ على أنَّه مَفعُـولٌ مُطلَقٌ؛ أيِ: استـوَتِ الأرْبَعُةُ استِواءً لا تَزِيدُ ولا تنْقُصُ.

وقَولُه: [﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ عَن خَلْقِ الأرْضِ بِمـا فِيها]. قوْلُه: [﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ هـذِه لا تظُنَّ أنَّها مُتعلِّقةً بسَواءٍ، بَلْ هِي جوابٌ لخَبَرٍ محْذُوفٍ؛ أيْ: هَذا جوابٌ للسَّائِلِين، أوْ نحْوٍ مِن هذِه الكَلِمةِ.

المُهِمُّ أنَّ قوْلَه: ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ يُفِيدُ أنَّ ما ذُكِر جوابٌ لِمَن سَأَل عَن خلْقِ الأرْضِ وتَقْدِيرِ أقواتِها: بأنَّها في أرْبَعَةِ أيَّامٍ سواءً.

مَسْأَلَةٌ: ما الحِكْمَةُ فِي: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ ذَكَرَ السَّماءَ والأرْضَ وقَدَّمَ السَّمـاءَ على الأرْضِ؟

الجَوابُ: الحِكْمةُ في أنَّ اللهَ تَعالَى يَذْكُرُ الأعْلَى قَبلَ الأسْفَلِ، أمَّا التَّحدُّثُ عنِ خلْقِ السَّماءِ فقَدْ بيَّنَ اللهُ تَعالَى أنَّ الأسْفَلَ يُخْلَقُ قبْلَ الأعلَى كالبِناءِ، فعِندَما تُريدُ أنْ تبْنِيَ شَيئًا فلَن تبْنِيَ السَّقْفَ قبْل أنْ تبْنِيَ العمُودَ، فعِنْدَ الذِّكْرِ والتَّحَدُّثِ يَبِينُ الأشْرَفُ والأعْلَى؛ يُقدَّمُ، وعِنْد التَّكوِين والبِناءِ يُبْدأُ بالأسْفَلِ؛ لأنَّه هُو الأصْلُ.

مِن فوائدِ الآيَةِ الكَريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: مِنَّةُ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على عِبادِه؛ حيْثُ جعَلَ في الأرْض رواسِي، أيْ: ثوابِتَ، والحِكمَةُ ذَكَرها اللهُ تعالَى في قوْلِه: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان:١٠]؛ لوْلا هذِه الرَّواسِي لمادَتْ بِنا الأرْضُ، فيستفاد من ذلك: أنَّ الأرْضَ تدُورُ؛ لِقوْلِه: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾؛ لأنَّ نفْي المَيَدانِ دلِيلٌ على وُجُودِ أصْلِ الحَرَكةِ؛ إذْ لَم يَقُلْ: أنْ تَتحرَّكَ بِكَم، ونَفْيُ الأخَصِّ يَقْتَضِي وُجُودَ الأعمِّ، كما قُلْنا في قَوْلِ الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، إنَّه دلِيلٌ على أنَّ اللهَ يُرَى لِكن لا يُدْرَكُ؛ إذْ لَو كان لا يُرى لوَجَبَ أنْ يَقولَ: لا تَراه الأبْصارُ، فلَمَّا نفَى الأخَصَّ صار دَلِيلًا على وُجُودِ الأعمِّ. هَكَذا قرَّرها بعضُهم، وقال: إنَّ في الآيَةِ دَلِيلًا على أنَّ الأرْضَ تَدُورُ؛ لِأنَّ اللهَ ألْقَى هَذه الرَّواسِيَ؛ لِتَكون دَوْرتُها مُتَّزِنةً، لا تَرْتَجُّ فتَضْطَرِبُ بالنَّاسِ.

ولكِنَّ هَذا -وإنْ كان قَوِيًّا مِن حَيْث النَّظر- لَكِنَّه ليْس مُتعَيِّنًا؛ إذْ يَجُوزُ أنْ يَكونَ مَعنَى «أنْ تَمِيدَ بِكُم»؛ تَضطَرِبَ ولَو كانَت واقِفَةً، فالسَّفِينَةُ مَثلًا على الماءِ تَضْطَرِبُ ولَو كانَتْ واقِفةً، فيَكونُ معنى «أنْ تَمِيدَ بِكُم»: أنْ تضْطَرِبَ بِكُم، وسواءٌ كانَتْ تدُورُ أو لا تَدُورُ؛ ولِهذا لَيْس في الآيَةِ دَلالَةٌ قَطعِيَّةٌ على أنَّ الأرْضَ تدُورُ.

فإنْ قال قائِلٌ: إذا قُلْت: إنَّه يَحتَمِلُ أنْ تَكونَ دالَّةً على أنَّ الأرْضَ تُدُورُ؛ فما جوابُك عنْ آياتٍ كثِيرَةٍ تدُلُّ على أنَّ الشَّمْسَ تَجْري وتَطْلُعُ وتَغرُبُ وتَزاوَرُ وتَوارَى

وتذْهَبُ؛ فكُلُّ هذِه الأفْعالِ أُسْنِدت إِلَى الشَّمْسِ، والأصْلُ أنَّ الفِعْلَ إذا أُسنِدَ إِلَى شيْءٍ أنْ يَكونَ قائِمًا بِه، فيَكونُ ظاهِرُ القُرْآنِ أنَّ الشَّمسَ هِي الَّتي تَدُورُ على الأرْضِ: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت﴾ [الكهف:١٧]، إذَنْ مَعناها هِي الَّتي كانَت مُختَفِيةً ثُمَّ طَلَعت علَينا، وهؤُلاءِ الَّذِين يقُولُون: الأرْضُ تدُورُ فيَكون معْنَى ﴿إِذَا طَلَعَت﴾ أيْ إذا طلَعنا علَيْها؛ لأَنَّنا نحْن الَّذِين نأتِي إلَيها، أمَّا الشَّمسُ فهِي ثابِتةٌ قارَّةٌ؟

قُلنا: يَجُوز أنْ تَكونَ الأرْضُ تَدُورُ والشَّمْسُ أيْضًا تدُورُ، وإذا كان الدَّورانُ بِالعَكْسِ فظاهِرٌ أنَّه يَتعاقَبُ اللَّيلُ والنَّهارُ، يعْنِي: إذا كانَتِ الأرْضُ تَدُورُ نحْوَ الشَّرْقِ والشَّمْسُ تَدُورُ نحْو الغَرْبِ، فهَذا مُمكِنٌ بكُلِّ سُهُولةٍ، فإن كانَتا تَدُوران إِلَى اتِّجاهٍ واحِدٍ فإنَّ إحْداهُما إذا كانَت أسْرَعَ مِنَ الأُخْرَى تَحقَّقَ اختِلافُ اللَّيْلِ والنَّهارِ، ومَن قال: إنَّه لا يُمكِنُ أنْ نَقولَ: إنَّ الشَّمسَ تَجْرِي إلَّا إذا قُلْنا: إنَّ الأرْضَ ثابِتةٌ لا تَدُورُ.

فأمَّا إثْباتُ دوَرانِ الأرْضِ مَع دَورانِ الشَّمْسِ فإنَّ هَذا لا يُمْكِنُ، فإنَّه قوْلٌ غيْر صَحِيح، أمَّا الإمْكانُ فمُمكِنٌ، ولَو قُلْنا بِدَورانِهما جَمِيعًا، لكِنَّ الشَّيْء الَّذي نَعْتَقِدُه الآنَ: أنَّ اللَّيْلَ والنَّهارَ يَحْصُلُ بتَعاقُبِ الشَّمْسِ على الكُرَةِ الأرْضِيَّةِ، لا بتَعاقُبِ الكُرَةِ على الشَّمْسِ؛ لأنَّ هَذا هُو ظاهِرُ القُرْآنِ والقُرْآنُ صَدَر عَن الخالِقِ عَزَّوَجَلَّ وهُو أعلَمُ بِما خلَقَ، ولا يُمكِنُ أنْ نَحِيدَ عَن هَذا قِيدَ أُنْمُلةٍ ما دام لَم يَظْهرْ لنا أمْرٌ حِسِّيٌّ لا يُمْكِنُ التَّكْذِيبُ بِه.

وعِنْد بعْضِهم -أيْ: بَعْضِ الَّذِين يَقولُون بِدوَران الأرْض- يَقولُون: عِندنا أمْرٌ قَطْعِيٌّ بِدلِيلِ الصَّوارِيخِ العابِرةِ لِلقَّارَّاتِ؛ فإنَّها تُقَدَّرُ بتَقْدِيرٍ مُعيَّنٍ بِحَيثُ يَتماشَى مَع دَورانِ الأرْضِ، فَيُصِيبُ الهَدَفَ وإلَّا لَما أمْكَنَ.

وعلى كلِّ حالٍ: فهَذِه المَسْألَة -في يوْمٍ مِن الأَيَّامِ- كانَت مَثارًا للْجدَلِ بيْن

النَّاسِ بيْن طلَبةِ العِلمِ وبيْن عامَّةِ النَّاسِ، وبيْن الَّذِين لمْ يَتمكَّنوا منَ العِلمِ كَثيرًا؛ فنَحْن نَقُولُ:

أوَّلًا: البَحْثُ العَمِيقُ في هَذا والجَدَلُ في هَذا، أمْر لا يَنْبَغي وَلا فائِدةَ مِنه.

ثانيًا: عِندما نُريدُ أنْ نُحقِّقَ المَسْألةَ تَحقِيقًا عِلْميًّا نَظريًّا نَنظُر إلَى الآياتِ، فإذا كان ظاهِرُ قَولِه تَعالَى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ يَقتَضي أنَّها تدُور قُلْنا بذلِك ولا حَرَجَ، ولا مانِعَ أنْ نَقُولَ: هِي تَدُورُ، وكذَلِك الشَّمْسُ، فنكُونُ أخذْنا بظاهِرِ القُرْآنِ في الشَّمْسِ وبظاهِرِ ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ في الأرْضِ، وإذا كان قَولُه: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ لا يَتعَيَّنُ أنْ يَكونَ بِحَرَكَتِها، وإنَّما قَد تَضْطَرِبُ وهِي ساكِنَةٌ قارَّةٌ؛ فَلا يَبْقى في الآيَةِ دَلِيلٌ على أنَّ الأرْضَ تَدُورُ.

فَإنْ قال قائِلٌ: ألَا يُمكِن أنْ نُقِرَّهم على قَولِهم بأنَّ الشَّمْسَ ثابِتَةٌ؟

فالجَوابُ: نحْن نَقُولُ: لا نُقرُّهم على أنَّ اختِلافَ اللَّيلِ والنَّهارِ يكُونُ باخْتِلافِ دَورَةِ الأرْضِ، بلْ نَقُولُ بِاختِلافِ طُلُوعِ الشَّمْسِ على الأرْضِ، ولا يَمْنعُ أنْ تكونَ الأرْضُ تَدُورُ، لكِن لَو فُرِضَ أنَّه جاءَنا دَلِيلٌ حِسِّيٌّ مَلمُوسٌ على أنَّ اختِلافَ اللَّيلِ والنَّهارِ بِسَبَبِ دَورَةِ الأرْضِ لَقُلنا بِه، ويَكونُ إضافةُ الأفْعالِ هذِه إلَى الشَّمْسِ على حسْبِ رُؤْيَةِ الإنْسانِ لَها.

والآنَ إذا قَرَأْنا قَوْلَه تَعالَى: ﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف:١٧]، هَذه فِيها أرْبعةُ أفْعالٍ أُضِيفَت كلُّها إلَى الشَّمسِ. والأصْلُ أنَّ الأفعالَ مُضافةٌ إلَى الشَّيْءِ أنَّها قائِمةٌ بِه، فالشَّمسُ هِي الَّتي تَطْلُع، وهُم يَقولون: لا، الشَّمْسُ لا تَطْلُع علَيْنا، بلْ نَحن الَّذِين نَطلُعُ علَيْها بِسببِ دَورانِ الأرْضِ، فالقُرْآنُ لا يُخالِفُ الحِسَّ أبَدًا، وتُفَسَّرُ الأفْعالُ المُضافَةُ إلَى

الشَّمْسِ بِحَسْبِ رُؤيَةِ الرَّائِي.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ اللهَ تَعالَى جعَلَ الرَّواسِيَ فوْقَ الأرْضِ لِما في ذلِكَ مِنَ المَنافِعِ ودَفْعِ المَضارِّ، وأشَرْنا إلَيه في أثْناءِ التَّفسِيرِ.

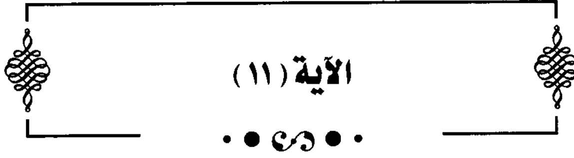
الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ اللهَ تَعالى بارَكَ في الأرْضِ، ووَجْهُ البَرَكَةِ ظاهِرٌ، فقَد حَمَلَتِ الأحْياءَ والأمْواتَ، وحمَلَتْ مِنَ الدَّوابِّ ما لا يَعْلَم أجْناسَه -فَضْلًا عَن أنْواعه، فَضْلًا عَن أفرادِه- إلَّا اللهُ، عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ اللهَ تَعالَى قدَّر في الأرْضِ أقْواتَها؛ أي جعَلها مُقَدَّرةً بِقَدَرٍ مَعلُومٍ، ومِن ذلك التَّقديرِ: أنْ جعَلَ في جِهاتٍ مِن الأرْضِ مِنَ الأقْواتِ ما ليْس في جِهاتٍ أُخْرى، حتَّى يَتبادلَ النَّاسُ هَذه الأقْواتَ وتتَحرَّكَ التِّجارةُ...، إلَى غيْرِ ذلِكَ مِن الفَوائِدِ، ولعلَّه يُشِيرُ إلَى هَذا قَولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾ يَعنِي: المَطَر ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ [الفرقان:٥٠].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ خلْقَ الأرْضِ تمَّ في أرْبَعةِ أيَّامٍ؛ لِقوْلِه تَعالَى: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُجيبُ السَّائِلين أسْئِلَتَهم، سَواءٌ سَألُوا بِلِسانِ الحالِ أو بِلِسانِ المَقالِ؛ فالْإنْسانُ مُتَشوِّفٌ إلَى عِلْمِ المَسْألةِ دُون أنْ يَنْطقَ بِلِسانه، فيُقالُ: إنَّه سائِلٌ بلِسانِ الحالِ، والإنْسانُ الَّذي يَتكلَّمُ باللِّسانِ سائِلٌ بلِسانِ المَقالِ، والسُّؤالُ عَن خلْق السَّمواتِ والأرْضِ؛ فهَذا يَكونُ بلِسانِ الحالِ، ويَكونُ بلِسانِ المَقالِ.





الآية (١١)

• ● ۞ ● •

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١].

• ● ۞ ● •

﴿ثُمَّ﴾ أيْ: بعْد خلْقِ الأرْضِ وتقْدِيرِ أقواتِها، اسْتَوى إِلَى السَّماءِ.

قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قصَد ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾]، وهَذا أحَدُ القَوْلَيْن في هَذه الجُملَةِ: أنَّها بِمعنَى قصَد، لكِن قصْدًا كامِلًا؛ وذلِك لأنَّ «استَوى» تدُلُّ على الكَمالِ، كما قال تَعالَى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص:١٤].

والقَوْلُ الثَّاني: أنَّ «استَوَى إِلَى السَّماء» بمَعنَى «استَوى على السَّماء»؛ أيْ عَلا علَيها، ولكِنَّ المَعنَى الَّذي سلكَه المُفسِّرُ أرْجَحُ، أنَّه قصَد إِلَى السَّماءِ بإرادةٍ تامَّةٍ مُستَوِيَةٍ؛ لأنَّ «إِلَى» تُفِيدُ الغايَةَ، و«على» تُفِيدُ الِاسْتِعلاءَ.

ومَعلُومٌ أنَّ السَّمواتِ لَم تَكُنْ خُلِقتْ في تِلك السَّاعَةِ، ثمَّ إنَّنا لو قُلْنا: إنَّ اسْتَوى بِمَعنَى عَلا: «ثُمَّ اسْتَوى على السَّماء»، كان قَبْل ذلِك حِينَ خلَق الأرْضَ ليْس عاليًا على السَّماءِ، مَع أنَّ عُلُوَّ اللهِ تَعالَى وَصْفٌ لازِمٌ لِذاتِه.

وقَولُه: [﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ بُخارٌ مُرتَفِعٌ]؛ جُمْلَةُ ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ حالِيَّةٌ، والسَّماءُ هُنا بمَعنَى العُلُوِّ؛ لأنَّها لَم تكُنْ خُلِقتْ بعْدُ، لَكنَّها كالدُّخانِ، أيِ: البُخارُ المُرتَفعُ؛ قِيل: إنَّ هَذا البُخارَ المُرتَفِعَ تَصاعَدَ مِن الماءِ الَّذي كان قَبلَ أنْ تُخلَق

الأرْضُ؛ لأنَّ اللهَ تَعالَى قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هُود:٧]، فكان قَبْلَ خلْقِ السَّمواتِ والأرْضِ ماءٌ فوْقه عرْشُ الرَّحمَنِ عَزَّوَجَلَّ ثمَّ خُلِقتِ الأرْضُ، وقدِ انْدفعَ مِن هَذا الماءِ بُخارٌ مُتصاعِدٌ كَثِيفٌ صار مِثلَ الدُّخانِ.

وقولُه: [﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا﴾ إلَى مُرادي مِنكُما ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ في مَوضِعِ الحالِ أيْ: طائِعتَيْن أو مُكرَهتيْن ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا﴾ بمَن فِينا ﴿طَآئِعِينَ﴾] إلَى آخِرِه. قوْله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا﴾ هَذا الأمْرُ هَل هُو أمْرُ تَكوِينٍ أو أمْرُ تَكلِيفٍ؟

الجَوابُ: إنْ قُلْنا: إنَّه تكلِيفٌ، لَم يَكُن هُناكَ فرْقٌ بيْن أنْ يكُونَا طائِعتَيْنِ أو مُكرهتَيْن؛ وظاهِرٌ أنَّه أمْرُ تكلِيفٍ؛ ولِهَذا قال: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

وإنْ قُلنا: إنَّه أمْرُ تَكوِينٍ فإنَّه لا يسْتَقيمُ أنْ يكُونَ طوْعًا أو كرْهًا؛ لأنَّ أمْرَ التَّكوينِ كائِنٌ لا محَالةَ.

فالظاهِرُ -واللهُ أعلم- أنَّه أمْرُ تكلِيفٍ، وللهِ تَعالَى أنْ يُكلِّفَ ما شاء مِن خلْقِه.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا﴾ بمَن فِينا﴿طَآئِعِينَ﴾] احْتاجَ المُفسِّرُ إلَى أنْ يُقدِّرَ «بمَن فِينا» لِوَجْهيْن:

الوَجْهُ الأوَّلُ: أنَّ ﴿طَآئِعِينَ﴾ جمْعٌ، و﴿قَالَتَآ﴾ مُثنًى، ولا مُطابَقةَ بيْن المُثنَّى والجَمْعِ، ولَو أرادَ المُطابَقةَ لقال: «قالَتا أتيْنا طائِعتيْن».

الوَجْهُ الثَّاني: أنَّه جمَعه بالمُذكَّرِ العاقِلِ، فكان لا بُدَّ أنْ يُقدَّرَ بـ«مَن فِينا» لِيَدخُلَ فِيهِ العُقَلاءُ، ويَكونُ هَذا مِن بابِ التَّغليبِ.

وقولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِيه تَغلِيبُ المُذكَّرِ العاقِلِ] ذَكَرْنا فِيما سبَقَ أنَّه غلَّبَ المُذكَّرَ

لشَرَفِه، أو لكَثْرَتِه إذا قُلْنا: إنَّ العاقِلَ أكْثَرُ.

وقَولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أوْ أُنْزِلَتا لِخطابِهما مَنْزِلَته] يَعنِي: أن المَسْألَةَ فِيها إمَّا تَغليبُ، وإمَّا أنَّ الأرْضَ والسَّماءَ أُنْزِلَتا مَنزِلَةَ العاقِلِ لِخطابِهما؛ أي: لِكَونِهما خُوطِبا، ولا يُخاطَبُ غالِبًا إلَّا العاقِلُ.

مِنْ فوائِدِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ السَّماءَ كانَتْ قبْلَ أنْ تُخلَقَ دُخانًا، ثمَّ حَوَّل اللهُ هَذا الدُّخانَ إلَى سَمواتٍ؛ لِقَوْلِه تَعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثْباتُ علُوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ على أحَدِ القَوْلَين في تَفسِيرِ «اسْتَوى»، وهُما قصَدَ أو ارتَفَعَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ كلَّ شَيْءٍ قابِلٌ لُمخاطَبَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أيْ: قابِلٌ أنَّ اللهَ يُخاطِبُه؛ لأنَّ اللهَ خاطَبَ السَّماءَ والأرْضَ -وهِي جَماد- فقالَ: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، لكِنَّنا لَو خاطَبْنا الجَمادَ لَعُدَّ ذلِك سَفَهًا ونَوعًا مِن الجُنونِ؛ أمَّا الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ فإنَّه يُخاطِبُ ما شاءَ مِن عِبادِه مِن عاقِلٍ وغَيره وجَمادٍ وغَيرِه؛ لأنَّ كلَّ مَن خاطَبه اللهُ فإنَّه يَفْهمُ خِطابَ اللهِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ كلَّ شَيْءٍ خاضِعٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ سَواءٌ كَرِهَ أمْ رَضِيَ؛ لِقَولِه تَعالى: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: كَمالُ خُضُوعِ الأرْضِ والسَّمواتِ للهِ عَزَّوَجَلَّ حَيثُ قالَتا: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّهُ يصِحُّ أنْ يُعبَّرَ عَن غيْرِ العاقِلِ بما يُعبَّرُ به عَن العاقِلِ،

إذا نُزِّلَ غيْرُ العاقِلِ مَنزلةَ العاقِلِ لِقَولِه: ﴿طَآئِعِينَ﴾، فإنَّ هَذا الجَمْعَ جمْعُ المُذكَّرِ السَّالِمِ لا يَصْدُرُ إلَّا مِنَ العاقِلِ وغيْرِه، يُقالُ: «طائِعاتٍ»، وما أشْبَهَ هَذا، لَكِنْ إذا نُزِّلَ غيْرُ العاقِلِ مَنزِلتَه بالخِطابِ صحَّ أنْ يُعامَلَ مُعامَلةَ العاقِلِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثْباتُ الطَّواعِيةِ والكراهيَةِ لغيْرِ العاقِلِ؛ لقَولِه تَعالَى: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، فهَلْ هَذا يَعنِي أنَّ لغَيْرِ العاقِلِ إرادةً؟ الجوابُ: نعَمْ؛ لأنَّ الطَّائِعَ لَه إرادةٌ، ومَنْ يُتَصوَّرُ إكْراهُه فلَه إرادةٌ أيْضًا، وإرادةُ كلِّ شيْءٍ بحَسَبِه، وقَد ورَدَ أنَّ الحَصَى تَسبِّحُ بيْنَ يدَي الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولا تسْبِيحَ إلَّا بَعْدَ إرادَةٍ، وثبُتَ عَنِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- أنَّه قالَ في أُحُدٍ: «**يُحِبُّنا ونُحِبُّه**»[1]، والمَحبَّةُ أخَصُّ مِنَ الإرادَةِ؛ وعلَى هذا: فهَذه الجَماداتُ الَّتي نحْن لا نفْقَه تسْبِيحَها لها إرادَة، وتسَبِّحُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب فضل الخدمة في الغزو، رقم (٢٨٨٩)، ومسلم: كتاب الحج، باب أحد جبل يحبنا ونحبه، رقم (١٣٩٣)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (١٢)

• ● ● •

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت:١٢].

• ● ● •

قولُه: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ يقول المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الضَّميرُ يَرجِعُ إلَى السَّماءِ؛ لأنَّها في معنَى الجمعِ الآيلَةِ إلَيْه؛ أي صيَّرَها ﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾]؛ قولُه: [﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾، الضَّمير يَرجِع إلَى السَّماءِ] حِينَئذٍ يرِدُ إشْكالٌ، فإنَّ السَّماءَ مُفرَدٌ و«قَضاهُنَّ»، الضَّميرُ جمْعٌ، فكيْف كان الأمْرُ كذَلِك؟

يَقولُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَرجِعُ إلَى السَّماءِ؛ لأنَّها في معنَى الجمْعِ الآيلَةِ إلَيه]؛ لأنَّ هَذه السَّماءَ المُفرَدَ يَؤُولُ إلَى جمْعٍ، ومِقدارُه: سبْعُ سَمواتٍ، فكأنَّه عبَّرَ عَنِ السَّماءِ بِاعْتِبارِ مَآلِها أنَّها سَتكونُ سبْعِ سَمواتِ.

وقَوْلُه: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ أيْ صيَّرهُنَّ، وعلَى هَذا فيَكونُ الضَّمِيرُ في «قَضاهُنَّ» المَفْعُولُ الأوَّل، و﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ المَفْعُولُ الثَّاني، ويَحتَمِلُ أنْ تكونَ «قَضاهُنَّ» بمَعنَى: فَرَغَ مِنهُنَّ، وعلَى هَذا فيَكونُ الضَّمِيرُ الأوَّلُ مَفعُولًا بِه و﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ حالًا؛ أيْ: حالَ كَونِها سبْعَ سَمواتٍ.

وعلَى كلٍّ: فَإنَّ السَّمواتِ كانتْ سَبْعًا.

وقَولُه: ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ قال المُفسِّرُ: [الخَمِيسُ والجُمُعةُ فُرِغَ مِنها في آخِرِ ساعةٍ

مِنه، وفِيها خُلِقَ آدَمُ؛ ولِذلِك لمْ يَقُلْ هُنا: «سَواءٌ»، ووافَقَ ما هُنا آياتُ خَلْقِ السَّمواتِ والأرْضِ في سِتَّـةِ أَيَّامٍ]؛ أيْ: قَضاهُنَّ سَبْع سَمـواتٍ في يَومَيْنِ، و«فِي» للظَّرفِيَّةِ، والظَّرْفُ يَكونُ أوْسَعَ مِنَ المَظْرُوفِ، فيَحتَملُ أنَّه قضاهُنَّ في يومَيْن مِن أوَّلِ اليَومَيْنِ إلَى آخِرِهُما، ويَحتَمِلُ أنَّه قَضاهُنَّ في يومَيْن؛ أي: في هَذا الظَّرْفِ، وإنْ كانَ القَضاءُ لَم يَستوعبْ هَذا الظَّرْفَ، وهَذا هُو الَّذي مَشى عليَه المُفسِّرُ، وسيَتبَيَّن ما فِيه إنْ شاءَ اللهُ.

وقَولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فُرِغَ مِنها في آخِر ساعَةٍ مِنه، وفِيها -أيْ في آخِرِ ساعَةٍ خُلِق آدَمُ- ولِذلِك لمْ يَقُلْ سَواءً]، بَينَما قال في خَلْقِ الأرْضِ: ﴿فِىٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ﴾، وهُنا لمْ يَقُلْ: «في يومَيْن سَواءً»؛ لِأنَّ بَعْضَ اليَومَيْنِ خُلِقَ فِيه آدَمُ، هَذا ما ذَهَب إلَيْه المُفسِّرُ، وفِيه نَظَرٌ ظاهِرٌ؛ لِأنَّ هَذا يَقتَضِي أنَّ آدَمَ خُلِقَ حِينَ خَلَقَ السَّمواتِ والأرْضَ، يَعنِي في الأيَّام السَّتَّة الَّتي خُلِقتْ فِيها السَّمواتُ والأرْضُ، وهَذا لا شكَّ أنَّه خَطأٌ، بلْ إنَّه خُلِقَ بَعد ذلِك، لا أقُول: بمَلايِينَ، بَلْ بِمِئاتِ السِّنِين؛ لأنَّ آدَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ -كَما هُو مَعلُومٌ- جَعلَه اللهُ تَعالَى خَلِيفَةً لأُناسٍ قَبْلَه أَو لِلجِنِّ الَّذِين سَكَنُوا الأرْضَ قَبْلَه، ولِهَذا لَـمَّا قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ [البقرة:٣٠]، قالَتِ المَلائِكةُ: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة:٣٠]إلَى آخِرِه.

فدَعْوَى المُفسِّرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ آدَمَ خُلِقَ في آخِرِ ساعَةٍ مِن يَوْمِ الجُمُعةِ الَّتي تمَّ فِيها خَلْقُ السَّمواتِ والأرْضِ غيْرُ صَحِيحٍ.

نَعم؛ خُلِقَ آدَمُ يومَ الجُمُعةِ لا شكَّ في هَذا، كَما ثَبُتَ عَنِ النَّبيِّ[1] عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لكِنَّها ليْسَتِ الجُمُعة الَّتي تمَّ بها خلْقُ السَّمواتِ والأرْضِ؛ إذَنْ: خلَقَهنَّ في يومَيْن؛ يقُولُ المُفسِّرُ: [وَوافَقَ هُنا آياتُ خلْقِ السَّمواتِ والأرْضِ في ستَّةِ أَيَّامٍ] لأنَّ أرْبعَة

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة، رقم (٨٥٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

أيَّام كانَتْ لِخلْقِ الأرْضِ، ويَومَيْن كانَتْ لخَلْقِ السَّماء، فيَكونُ المَجمُوعُ ستَّة أيَّامٍ، وهَذا أمْرٌ مُتَّفقٌ عليه بيْن المُسلِمين أنَّ خلْقَ السَّمواتِ والأرْضِ في ستَّةِ أيَّامٍ.

وفِي بعْضِ الآياتِ يَقولُ: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ لِأنَّ بيْن السَّمواتِ والأرْضِ مِنَ الآياتِ العَظِيمةِ ما اسْتَحقَّ أنْ يَكونَ قَسِيمًا لخَلْقِ السَّمواتِ والأرْضِ، قال تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ وقَد كُنَّا نَقولُ: كَيْف يَكونُ خَلْقُ ما بيْن السَّماءِ والأرْضِ قَسِيمًا لخَلْقِ السَّمـواتِ والأرْضِ مَع أنَّه في نَظَرِنا لا يُساوي شَيئًا بالنِّسبَةِ إلَى خلْقِ السَّمواتِ والأرْضِ، إذْ كُنَّا لا نَعْلَمُ إلَّا أنَّ الَّذي بيْن السَّماءِ والأرْضِ هُو الغُيُومُ والهَواءُ فقَطْ، وكُنَّا نَقولُ: إنَّ القَمَرَ والنُّجُومَ والشَّمسَ كانَت في السَّماءِ. وكُنَّا نَقولُ: القَمَرُ في السَّماءِ الدَّنيا، والشَّمْسُ في السَّماءِ الرَّابعةِ وزُحَلُ في السَّماءِ السَّابِعةِ، وكُنَّا نُنْشِدُ قوْلَ الشَّاعِرِ[1]:

زُحلُ شَرَى مِرِّيخَه مِن شَمْسِه فَتزاهَـرَت بِعُطـارِد الأقْـمارُ

هَذه الكَواكِبُ السَّبْعةُ؛ والمَعنَى: مِن أعْلى إلَى أسْفَل، فـ«زُحَل» هَذا أعْلاها، «شَرى» المُشْتَرى، «مِرِّيخَه» المِرِّيخ، «مِن شَمسِه» الشَّمسُ، «فتَزاهَرت» الزّهرة، «بِعُطارد» عُطارد، «الأقْمار» القَمَر هُو الأخِيرُ، وعَلى هذا فتكونُ الشَّمْسُ في السَّماءِ الرَّابعةِ، وكُنَّا نَظُنُّ أنَّ هَذه مُرَصَّعةً بالسَّماءِ كَما يُرصَّعُ المِسْمارُ على الخَشَبةِ!

لكِن تَبيَّنَ الآنَ أنَّ هَذه في أجْواءٍ بيْن السَّماءِ والأرْضِ ولَيْسـت مُرَصَّعةً في السَّمواتِ والأرْضِ، وأنَّ السَّماءَ مِن فَوقِها بأمَدٍ بَعِيدٍ، وحِينَئِذٍ تَبين الحِكْمَةُ مِن كَوْنِ الله عَزَّوَجَلَّ يَجْعَلُ خَلْقَ ما بيْنَ السَّماءِ والأرْضِ عَدِيلًا لخَلْقِ السَّماءِ والأرْضِ.

---

(١) غير منسوب، وانظره في: الفروق للقرافي (٢/ ١٨٣)، المواعظ والاعتبار للمقريزي (١/ ١٣)، حاشية ابن عابدين (١/ ٢٩).

ثمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ الَّذي أمَر به مَن فِيها مِن الطَّاعةِ والعِبادةِ] «أوْحَى في كلِّ سَماءٍ أمْرَها»، يَعنِي: قدَّرَ بِما أوحاه في كلِّ سماءٍ أمْرَها، فكُلُّ سَماء لَها مَلائِكةٌ خاصَّةٌ، وعِباداتٌ خاصَّةٌ، وأجْواءٌ خاصَّةٌ، وكُلُّ سَماءٍ تَختَلِفُ عَنِ السَّماءِ الأُخْرَى، حتَّى إنَّ بَعْضَهم يَقولُ -وَهُو مِن الإسْرائِيلِيَّاتِ الَّتي لا تُصَدَّقُ وَلا تُكذَّبُ-: إنَّ جِرْمَ السَّماءِ الدَّنيا يَختَلِفُ عَن جِرْمِ السَّماءِ الثَّانيَةِ، والثَّانيةُ عَنِ الثَّالِثةِ، كُلُّ واحِدةٍ مِن مادَّةٍ أُخرَى غَيرِ مادَّةِ السَّماءِ الأُخْرَى، والله أعْلَمُ.

وقَولُه: ﴿أَمْرَهَا﴾ مُفْرَدٌ مُضافٌ فيَعُمُّ جَمِيعَ الأُمُورِ، فجمِيعُ ما يَتعلَّق بكُلِّ سماءٍ قَد أوْحاه اللهُ بِها.

وَقولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ [﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ الَّذي أَمَـرَ بِه مَن فِيها مِنَ الطَّاعَـةِ والعِبادَةِ] صَرَفَ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأمْرَ هُنا إلَى الأمرِ الشَّرْعيِّ لا الأمْرَ الكَوْنيَّ؛ ولِذلِكَ قال: [﴿أَمْرَهَا﴾ الَّذي أمَرَ بِه مَن فِيها مِنَ الطَّاعَةِ والعِبادَةِ] ويَحتَملُ أنْ يَكونَ المُرادُ بالأمْرِ هُنا الشَّأنُ، أيْ أوْحَى في كُلِّ سماءٍ شَأنَها، فيَشْمَلُ أحْوالَ السَّماءِ وأحْوالَ مَن فِيها، وهَذا أعَمُّ مِمَّا ذَكَره المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وإنَّنا نُقرِّرُ قاعِدةً في التَّفسِيرِ: إذا ورَدَ تَفْسِيرانِ في الآيَةِ أحَدُهما أعمُّ أخَذْنا بالأعمِّ؛ لأنَّ الأعمَّ يدْخُلُ فِيه الأخصُّ ولَا عَكْسَ؛ فإذا قُلْنا: «شَأنُها» صارَ أعمَّ مِن أنْ نَقُولَ: «إنَّه أمْرُها الشَّرْعيُّ»؛ لأنَّ هَذا أخصُّ، فالحَمْلُ على الأعمِّ أوْلَى.

وقولُه: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ انْظُرْ إلَى خَصائِصِ السَّمـاءِ الدَّنْيا ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [بنُجُوم] ﴿وَحِفْظًا﴾ [مَنْصُوبٌ بِفعلِه المُقدَّرِ؛ أي: حَفِظْناها مِنِ استِراقِ الشَّياطِين السَّمْعَ بالشُّهُبِ] «زيَّنَّا السَّماءَ الدَّنيا»، «الدُّنيا» يَعنِي: القُربَى، وسُمِّيَـتْ دُنيا لأنَّها قَريبَةٌ مِنَ الأرْضِ، فِهي أقْرَبُ السَّمـواتِ، زيَّنَها بمَصابِيحَ،

والمَصابِيحُ هِي النَّجُومُ، وسُمِّيتْ مَصابِيحَ؛ لأنَّها بمَنزِلةِ القَنادِيلِ المُعلَّقةِ بالسَّقْفِ، فإنْ قال قائِلٌ: ظاهِرُ الآيَةِ أنَّ هَذه المَصابِيحَ مُرصَّعةٌ بالسَّماءِ!

قُلْنا: إنْ كان هَذا ظاهِرُها فالواقِعُ خِلافُ ذلِك؛ ولا مانِعَ مِن أنْ تُـزيِّنَ بمَصابِيحَ وإنْ لمْ تَكُنْ مُلتَصِقةً بها، أرَأيْتَ لَو أنَّك دَلَّيْتَ مَصابِيحَ مِن سَقْفٍ عالٍ، ثُمَّ كُنْت تَحْت هَذه المَصابِيحِ، أفَلا تَكونُ هَذه المَصابِيحُ زِينَةً لِلسَّقْفِ، وإنْ كانتْ غيْرَ لاصِقةٍ به، بَل جِهتَها -أي جِهةَ هَذا السَّقف- مُزيَّنةً بِهَذه المَصابِيحِ، فلا يَلزَمُ مِن قوْلِه: «زيَّنَّا السَّماءَ الدَّنْيا بمَصابِيحَ» أنْ تكونَ مُرصَّعةً بالسَّماءِ، بلْ نَقولُ: هِي مُزيَّنةٌ بِها وإنْ كان بَينَها وبيْن السَّماءِ مَسافةٌ.

وقَولُه: ﴿وَحِفۡظًا﴾ أي: حَفِظْناها حِفْظًا، فالسَّمـاءُ مَحفُوظَةٌ، كما قال تَعالَى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفًا مَّحۡفُوظًـا﴾ [الأنبياء:٣٢]، ولِهَذا لمْ يَستَطِعْ جِبريلُ أنْ يَدْخُلَ مِن السَّمواتِ مَع أنَّه نازِلٌ مِنها حِين كان مَعه مُحمَّدٌ ﷺ حتَّى استَأذَن له، ففي حدِيثِ المِعْراجِ(١): «إنَّ جِبرِيلَ لـمَّا وصَل بالنَّبيِّ ﷺ إلَى السَّماءِ الدُّنيا اسْتَفتَح؛ فقِيل: مَن هذا؟ قال: جِبرِيلُ، قِيل ومَن مَعَك؟ قال: مُحمَّد، فقِيل لَه: هَل أُوحِي إلَيْه؟ قال: نَعَم، ففُتِح لَه»؛ لِأنَّ السَّماءَ محَفُوظةٌ، لا يُمكِن أنْ يَدخُل أحَدٌ فيها إلَّا بإذْنِ الله؛ فإنَّ جِبْريلَ قال: «مَعِي مُحَمَّدٌ، فقِيلَ: له: وقَد أُرسِلَ إليه؟ قال: نعَم، قالوا: مَرْحبًا بِه؛ فنِعْم المَجِيءُ جاء»، ثمَّ فَتَحوا لَه، فدَخَل السَّماءَ الدَّنيا ثمَّ الثَّانيَةَ والثَّالِثةَ...، وهكَذا، ممَّا يدُلُّ على إتْقانِ حِفْـظِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للسَّمـواتِ، وأنَّها مُتقَنةٌ، علَيْها مَلائِكـةٌ لا يُمكِنُ أنْ يَتجاوَزها أحَدٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات، رقم (١٦٤)، من حديث مالك بن صعصعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقَولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَحِفْظًا﴾ مَنْصُوبٌ بفِعلِه المُقدَّرِ؛ أي: حَفِظناها حِفْظًا مِن اسْتِراقِ الشَّياطِين السَّمْعَ بالشُّهُبِ...] إلَى آخِره؛ فقَوْله: ﴿وَحِفْظًا﴾ مَصْدرٌ عامِلُه مَحْذُوفٌ، والتَّقدِيرُ: حَفِظْناها حِفْظًا؛ ومِن أيِّ شَيْءٍ حَفِظْناها؟ قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر:١٦-١٧]، فيَكونُ المُرادُ بالحِفْظِ حَفِظُها مِنَ الشَّياطِين؛ لِأنَّ القُرْآنَ يُفسِّرُ بَعضُه بَعضًا.

وأمَّا شَأنُ الشَّياطِين بالنِّسْبةِ للسَّمْعِ فإنَّها تَصْعَدُ فيَرْكَبُ بعضُها بعْضًا، إلَى أنْ تَصِلَ إلَى السَّماءِ، فتَستَمِعُ إلَى أخْبارِ السَّماءِ، وما تَتحدَّثُ به المَلائِكةُ، ثمَّ تنْزِلُ بِه إلَى الأرْضِ، وتُلقِيه إلَى الكُهَّانِ الَّذين لكُلِّ واحِدٌ مِنهُم رَئِيٌّ مِن الجِنِّ، والكاهِنُ يأخُذُ هَذا الخَبرَ ويُضِيفُ إلَيهِ أخْبارًا أُخرَى، ثمَّ يُحدِّثُ النَّاسَ بذلِك؛ ومِن المَعلُومِ أنَّ ما سُمِعَ في السَّماءِ لا بُدَّ أنْ يَكونَ، فتَكونُ هَذه الكَلِمةُ الواحِدة -التي هي صدق- مَثارًا لإعْجابِ النَّاسِ بالكُهَّانِ والرُّجوعِ إليهم؛ ولِهذا كانُوا بالجاهلِيَّةِ يَتحاكَمُون إلَى الكُهَّان؛ فهَذه هِي قَضِيَّةُ استِراقِ السَّمْعِ.

ثمَّ إنَّ اللهَ تَعالَى حَفِظ السَّماءَ وقْتَ بَعثَةِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- وصارَتِ الشَّياطِينُ إذا حاولَت الاستِماعَ أرْسَلَ اللهُ تعالى عليها شهابًا يحرقُها وتهلِكُ.

وهَل بَقِي هَذا الحِفْظُ بعْد موْتِ الرَّسُولِ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- أو لا؟

الجَوابُ أنْ يُقالَ: اللهُ أعْلَمُ، وَلا نَدرِي، لكِنَّها حُفِظتْ في عَهْدِ النُّبوَّةِ مِنِ اسْتِراقِ السَّمْعِ، أمَّا الآنَ فاللهُ أعْلَمُ فقَدْ يَكونُ ذلِك وقَد لا يَكونُ؛ لأنَّه ليْس هُناك نبِيٌّ حتَّى يَختَلِطَ المَسمُوعُ المُستَرَقُ بالوَحْيِ الصَّحِيحِ.

وقَولُه تَعالَى: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ المُشارُ إلَيْه ما سَبَق مِن قَولِه: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ إلى آخره؛ قَولُه: ﴿تَقۡدِيرُ﴾ أيْ مُقدَّرٌ ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾، أو ﴿تَقۡدِيرُ﴾ مَصدَرٌ على بابِه، ويَكونُ المُشارُ إلَيْه فِعْلَ اللهِ لهَذا الشَّيْءِ، فعِندَنا الآن كَلِمةُ ﴿تَقۡدِيرُ﴾ مَصْدَرٌ، يَجُوزُ أنْ تَكونَ بمَعنَى اسْمِ المَفعُولِ، ويَكونُ المَعنَى: ذلِك مُقدَّرُ العَزِيزِ، ويَجُوزُ أنْ تَكونَ مَصْدرًا وهُو فِعْلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ويَكونُ هَذا أيْضًا مَعنًى صَحيحًا وكِلاهما مُتلازِمان؛ لِأنَّه إذا كان هَذا الشَّيْءَ مُقدَّرُ اللهِ فَهُو مِن تَقدِيرِه يَعنِي ناتِجٌ عَن تَقدِيرِه.

فقَولُه: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ أي: الَّذي قَدَّره هُو ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ عَزَّوَجَلَّ ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾، و﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ هُنا مُناسَبتُها، أنَّ المَسْأَلَةَ تَحتاجُ إلَى عِزَّةٍ وقُوَّةٍ.

والعِزَّةُ؛ يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ في مُلْكه] يَعنِي الَّذي لَه العِزَّةُ التَّامَّةُ في مُلْكه، وفِيه شَيْءٌ مِن القُصُورِ، فلَم يُبيِّن لنا ما هِي العِزَّةُ، والعِزَّةُ قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنَّها تَنْقسِمُ إلَى ثَلاثَةِ أقْسامٍ: عِزَّةُ القَدْرِ، وعِزَّةُ القَهْرِ، وعِزَّة الِامْتِناعِ؛ ثَلاثَة مَعانٍ.

١- أمَّا عِزَّةُ القَدْرِ فمَعناها الشَّرفُ، يَعنِي: أنَّه ذُو قَدْرٍ عَظيمٍ بالِغِ العِظَمِ.

٢- وعِزَّةُ القَهْرِ يَعنِي: أنَّه قاهِرٌ ولا يُغلَبُ.

٣- وعِزَّةُ الِامْتِناعِ؛ أيْ يَمتَنِعَ أنْ ينالَه سُوءٌ جَلَّوَعَلَا بأيِّ حالٍ مِن الأحْوالِ.

ولِمُلاحَظةِ هَذا المَعنَى الثَّالِثِ نَقولُ: إنَّه مُشتَقٌّ مِن قَولِه: أرْضٌ عَزازٌ، عَزازٌ يَعنِي: قَوِيَّةٌ صُلْبَةٌ، ونَحْن نُسمِّيها باللُّغَةِ العامِّيَّةِ: «الأرْض عزا»، يَعنِي: صُلْبَةٌ لَيْست لَيِّنةً كالرَّمْلِ والرَّوْضِ، ولكِنَّها صُلْبةٌ.

أمَّا ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾ فهِي صِفَةٌ مُشبَّهةٌ، ويَجُوزُ أنْ تَكونَ مِن بابِ المُبالَغةِ؛ لِأنَّ فَعِيلٌ

يَصِحُّ أنْ تَكونَ صِفَةً مُشبَّهَةً، ويَصِحُّ أنْ تكونَ صِيغَةَ مُبالَغةٍ، ومَعناها ذُو العِلْمِ، فهُو ذُو العِلم، وعِلْمُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى واسِعٌ؛ قال اللهُ تَعالَى: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطَّلاق:١٢]، فعِلْمُه تَعالَى واسِعٌ شامِلٌ لكُلِّ شَيْءٍ، يَعلَمُ ما كان فَلا يَنْساهُ، ويَعلَمُ ما يَكون فَلا يَجْهلُه، ويَعْلم مَا لم يَكُن لو كانَ كيفَ كانَ يكُونُ، يَعنِي لَيس يَعلَمُ أنَّ هَذا الشَّيءَ يَقَعُ فقَطْ، بلْ يَعلَمُ أنَّه يَقَعُ ومَتَى يَقَعُ وكَيفَ يَقَعُ وأينَ يَقَعُ، مِن كلِّ جِهَةٍ.

وقَد فصَّل اللهُ تَعالَى دَقائِقَ العِلْمِ في قَولِه تَعالَى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

وعِلْمُنا بأنَّه عَلِيمٌ يَستَوجِبُ مِنَ النَّاحِيةِ المَسلَكِيَّةِ بالنِّسبَةِ للْعَبدِ: أنَّه إذا عَلِم أنَّ اللهَ بكُلِّ شَيْءٍ عليم: أنْ يَخافَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ وأنْ يَقومَ بِطاعَتِه وأنْ يَدَعَ مَعصِيَتَه؛ لأنَّه يعْلَمُ أنَّ اللهَ تَعالَى عالِمٌ به، حتَّى وإنْ خَفِيتَ على النَّاسِ؛ فإنَّك لَن تَخفَى على اللهِ، بَلْ إنَّ اللهَ يَعلَمُ مِنْ نَفْسِك ما لا تَعْلَمُه أنْت، فأَنْت تَعْلَم مِن نَفسِك ما يُمكِنُ أنْ تُحِيطَ به، لكِنَّ اللهَ يَعلَمُ مِن نَفسِك ما لا تُحِيط بِه، فيَعلَم مُستَقبَلَك ومَآلَك وحالَك وأنْت لا تَعلَمُ، وهَذا يُوجِبُ لِلعَبدِ المُؤمِنِ بذلِك: أنْ يَخافَ ربَّه في السِّرِّ والعَلَنِ، حتَّى لَو كُنْت بِحُجرَةٍ مُظلِمةٍ لَيس عِندَك أحَدٌ، وأَرَدْتَ أنْ تُغضِبَ اللهَ، فاعلَم أنَّ اللهَ تَعالَى يَراك.

مِن فوائِدِ الآيَةِ الكَريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ مُدَّةَ خَلْقِ السَّمواتِ أقلُّ مِن مُدَّةِ خلْقِ الأرْضِ مَع أنَّ السَّمواتِ أعظَمُ، لكِن لـمَّا كانَت الأرْضُ مَوضُوعةً لِلأنامِ- كَما قال تَعالَى: ﴿وَٱلْأَرْضَ

وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ [الرَّحمن:١٠] -كان خَلقُها أكثَرَ مُدَّةً؛ لبيانِ عِنايةِ اللهِ تَعالَى بِهَذه الأرْضِ الَّتي وضَعها لِلأنامِ، وليعلَمَ الأنامُ الَّذِين على الأرْضِ أنَّ العِبرَةَ بالإتْقانِ لا بِالسُّرْعةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ اللهَ أتمَّ خَلْقَ السَّمواتِ حِين أوْحَى في كلِّ سَماءٍ أمْرَها، ورتَّبها التَّرتِيبَ المُحكَمَ المُتقَنَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ اللهَ تَعالَى خَلَقَ هَذه النُّجومَ لثَلاثِ فوائدَ:

الفائِدةُ الأُولَى: زِينَةُ السَّماءِ.

والفائِدةُ الثَّانيَةِ: حِفْظُ السَّمواتِ مِنَ الشَّياطِينِ.

والفائِدةُ الثالِثة: ذَكَرَها اللهُ تَعالَى في سُورَةِ النَّحْلِ في قَولِه تَعالَى: ﴿ وَعَلَامَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ [النَّحل:١٦]؛ ولِهَذا قال قَتادةُ -وهُو مِن أئِمَّةِ التَّابِعِين رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: خَلَق الله هَذه النُّجُومَ لِثَلاثٍ؛ زِينَةً لِلسَّماءِ، ورُجومًا لِلشَّياطِينِ، وعَلاماتٍ يُهتَدى بِها(١).

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: كَمالُ إتْقانِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لِمَخْلُوقاته؛ لِقَولِه: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾، وَهَذا التَّقْدِيرُ لا شكَّ أنَّه تَقْدِيرٌ مُحكَمٌ مُتْقَنٌ مِن جَمِيعِ الوُجُوهِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثْباتُ اسمَيْن مِن أسْماءِ اللهِ وهُما «العَزِيزُ، العَلِيمُ»، وهَذان الِاسْمان يَتَضمَّنان صِفتَيْن، هُما العِزَّةُ والعِلْمُ.

وهَلْ في «العَزِيزِ» ما يُسمَّى بالحُكْمِ أوْ بِالأَثَرِ؟

الجَوابُ: نَعَم، بِناءً على أنَّ مِن مَعناه عِزَّةِ القَهْرِ، والقاهِرُ لا بُدَّ مِن شَيْءٍ مَقْهُورٍ

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤/ ١٩٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٩/ ٢٩١٣)، وعبد بن حميد كما في فتح الباري (٦/ ٢٩٥)، وعلقه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب في النجوم.

حتَّى يتِمَّ بِه القَهْرُ، فعلى هَذا يَكونُ الإيمانُ بهَذَين الِاسْمَيْن يَتَضَمَّنُ ثلاثَةَ أُمُورٍ:

الأوَّلُ: الإيْمانُ بالِاسْمِ اسْمًا للهِ.

والثَّاني: الإيمانُ بِالصِّفَةِ.

والثَّالِثُ: الإيمانُ بالأثَرِ، وإنْ شِئْتَ فَقُلْ: بِالحُكْمِ.



الآيتان (١٣، ١٤)

• • ● • •

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [فُصِّلَت:١٣-١٤].

• • ● • •

قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ أيْ كُفَّارُ مَكَّةَ]، ومَعلُومٌ أنَّ الآيَةَ لمْ تَنُصَّ على كُفَّارِ مَكَّةَ، لكِنَّ السِّياقَ يدُلُّ على ذلِك، حيْثُ قال: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾؛ أي: كُفَّارُ مَكَّةَ عَنِ الإيمانِ بعْد هَذا البَيانِ ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ﴾ خَوَّفْتُكم ﴿صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾؛ أيْ: عَذابًا يُهلِكُكم مِثْلَ الَّذي أهْلَكَهم].

قَولُه تَعالَى: ﴿أَنذَرْتُكُمْ﴾ الإنْذارُ فَسَّره المُفسِّرُ بأنَّه [التَّخوِيفُ]، وهُو كذَلِك؛ لِأنَّ المُنْذِرَ هُو مَن تَكلَّم بِكلامٍ يُخوِّفُ به غَيْرَه؛ ولِهَذا قِيل: إنَّ الإنْذارَ هُو الإعْلامُ المُتضَمِّنُ للتَّخوِيفِ.

وقَولُه: ﴿صَاعِقَةً﴾ الصَّاعِقةُ ما يَصْعَقُ المَرْءَ؛ أي: يُهلِكُه ﴿مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾. والمِثْلِيَّةُ هُنا لا تَقتَضِي -واللهُ أعْلَمُ- المُماثَلةَ مِن كُلِّ وَجْهٍ، بَلْ مِثْلِيَّةٌ في أصْلِ الإهْلاكِ، أو في مَآلِ العَذابِ، ويَحتَمِلُ أنَّ اللهَ تَعالَى أنْذَرَهم مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وثَمُودَ.

وصاعِقَةُ عادٍ وثَمُودَ نَوعان؛ الرَّجْفَةُ، والرِّيحُ الشَّدِيدةُ، الَّذِين أُهلِكوا بالرِّيحِ الشَّدِيدَةِ هُم عادٌ، والَّذِين أُهلِكوا بالرَّجْفَةِ والصَّيحَةِ هُم ثَمُودٌ، وإنَّما ذَكرَ اللهُ عادًا

وَثَمُودَ لِأَنَّ العَرَبَ يَعرِفُونَهما، فَهُم يَمُرُّون بِدِيارِ ثَمودَ إذا ذَهَبوا إِلَى الشَّامِ، وهُم كذَلِك يَعرِفون مَحَلَّ عادٍ بِالأَحْقافِ، ويَذْكُرون ويَتَناقَلون ما جَرى لَهم مِن العَذابِ، وإِلَّا فَهُناك أُناسٌ أيضًا أهلكهم اللهُ عَزَّوَجَلَّ ولَكِن لـمَّا كان هؤلاءِ القَومُ -أَعْنِي: عادًا وَثَمُودَ- هُم الَّذِين تَعرِفُهم العَرَبُ؛ أي: كُفَّارُ مكَّةَ، نَصَّ علَيْهم.

قَولُه: ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾، عادٌ هُم قَومُ هُودٍ، وثَمُودُ هُم قَومُ صالِحٍ؛ فَأُهلِكتْ عادٌ بالرِّيحِ. والحِكْمَةُ مِن ذلِك أَنْ يُرِيَهم اللهُ عَزَّوَجَلَّ ضَعْفَهم، وكانُوا قَد افْتَخَروا بِقُوَّتِهم فَقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، فَقالَ اللهُ تَعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾. وَأَمَّا ثَمُودُ فأَهْلَكَهم اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِرَجْفَةٍ وصَيحَةٍ، صِيحَ بِهِم ورَجَفَتْ بِهِم الأَرْضُ فهَلَكوا.

وقَولُه: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [فُصِّلَت:١٤] إِلَى آخِرِه، ﴿إِذْ﴾ هَذه ظَرْف للتَّعليل، يَعنِي أَنَّ تَعليلَ الصَّاعِقةِ الَّتي، أَهْلَكَتْهم سَببُ ذلِك أَنَّ الرُّسُلَ جاءَتْهم مِن بَيْنِ أَيدِيهِم ومِن خَلْفِهم، قال المُفسِّرُ: [أيْ مُقبلين علَيْهم ومُدبِرين عَنْهم فكَفَروا- كَما سيَأتِي- والإِهْلاكُ في زَمَنِه فقَط].

وقَولُه: ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ يقولُ المُفسِّرُ: [أيْ مُقبِلين علَيْهم ومُدبِرين عَنْهم] يَعنِي: تارَةً يُقبِلُون فيَدعُون وتارَةً يُدبِرون فيُهدِّدون إذا لمْ يُؤمِنوا، ويَحتَمِلُ أنْ يَكونَ المُرادُ: ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾؛ أي: أَتَوْهُم بِالآياتِ الماضِيةِ والآياتِ المُستَقبَلةِ، فلمْ يُقصِّروا في بَيانِ الحَقِّ، بَلْ جاؤُوا بِبَيانِ الحَقِّ مِن كُلِّ وجْهٍ.

وقَولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فكَفَروا] هَذا هُو المَقْصودُ مِنَ الإِنْذارِ، أَنَّهم كَفَروا فَأُهلِكوا؛ ولِهَذا قال: [والإِهْلاكُ في زَمَنِه فقَط]؛ أيْ: في زَمَنِ الكُفْرِ ولَيْس في زَمَنِ المَجِيءِ؛ لِأَنَّ الرُّسُلَ جاءَتْ أَوَّلًا ثُمَّ دَعَتْ ودَعَتْ، فلَمَّا أَصَرُّوا على كُفرِهم أُهلِكُوا.

وقولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أيْ بِأنْ لا ﴿تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُوٓاْ﴾] أفادَنا المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ (أنْ) هُنا مَصْدَرِيَّةٌ، والتَّقدِيرُ: أنْ لا تَعبُدوا، أي: جاءَتْهم بِعَدمِ عِبادةِ غيرِ اللهِ. ويَحتَمِلُ أنْ تَكونَ (أنْ) تَفسِيريَّةً؛ لِأنَّه سَبقَها مَعنَى القَولِ دُون حُرُوفِه؛ لِأنَّ الرُّسُلَ جاؤُوا بِكَلامٍ وَوَحْيٍ يَتكلَّمون به، فِفيه مَعنَى القَولِ دُون حُرُوفِه، وكُلَّما جاءَتْ (أنْ) بَعْد ما فِيه مَعنَى القَولِ دُون حُرُوفِه، فَإنَّهم يُسمُّونَها تَفْسِيرِيَّةً، مِثْل قَولِه تَعالَى: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [المؤمنون:٢٧] أَوْحَينا أنِ اصْنَعِ الفُلْكَ ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي﴾ [النَّحل:٦٨]، فـ(أنْ) هُنا تَفسِيريَّةٌ، فكُلَّما جاءَتْ بَعد ما تَضمَّن مَعنَى القَوْلِ دُون حُروفِه؛ فإنَّها تَكونُ تَفسِيريَّةً.

إذَنْ: (أنْ) هُنا يَحتَمِلُ أنْ تكونَ مَصدَرِيَّةً كَما مَشَى عَلَيها المُفسِّرُ، وأنْ تَكونَ تَفسِيرِيَّةً، يَنبَنِي على هَذا الخِلافِ كَيف نُعرِبُ (لا)، إنْ أعْرَبْنا (أن) مَصدَرِيَّةً فـ(لا) نافِيةٌ والفِعْلُ مَنصُوبٌ بأنْ، وإنْ أعرَبْناها تَفسِيريَّةً فـ(لا) ناهِيةٌ، والفِعْلُ مجزُومٌ بـ(لا)، فإعْرابُ (تَعبُد) إذَن يَتنزَّلُ على الخلافِ في (أنْ)، إذا جَعلْناها تَفسِيريَّةً يَكونُ الفِعلُ مجزُومًا بـ(لا) النَّاهيةِ، وإذا أعربْنا (أنْ) مَصدرِيَّةً فـ(تَعبُد) مَنصُوبةٌ بـ(أنْ)، وتَكونُ على هَذا (لا) نافِيةً بالفِعْلِ، وعلى الأوَّلِ تَكونُ ناهِيةً.

قال اللهُ تَعالَى: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُوٓاْ﴾ إلَى آخِره، لا تَعبُدوا إلَّا اللهَ هُو مَعنَى قَولِ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ؛ لِأنَّ (لا إلَه) بمَعنَى لا مَعبُودَ حَقٌّ إلَّا اللهُ، وهَؤُلاء يَقولُونَ: لا تَعبُدوا إلَّا اللهَ فهِي بمَعنَى لا إلَهَ إلَّا اللهُ، وهِي بمَعنَى قَولِه تَعالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، ومتَى حقَّقَ الإنْسانُ هَذه الكَلِمةَ؛ لا إلَهَ إلَّا اللهُ، فلا بُدَّ أنْ يَقومَ بطاعَةِ اللهِ، لا بُدَّ، ما دُمْتَ تَشْهدُ بأنَّه لا إلَهَ إلَّا اللهُ فَلا بُدَّ أنْ تَتَّخِذَ الوَسائِلَ الَّتي تُوصِلُكَ إلَى هَذا الإلَه الَّذي شَهِدْتَ أنَّه لا إلَهَ سِواه.

قال اللهُ تعالَى: ﴿قَالُوا۟﴾ الفاعِلُ قَومُ عادٍ وثَمُودَ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ﴾ علَيْنا ﴿مَلَـٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ علَى زَعمِكم ﴿كَـٰفِرُونَ﴾ [فُصِّلَت:١٤]]، هَذا الجَوابُ جَوابٌ غايَةٌ في السُّقُوطِ، لَو شاءَ رَبُّنا أنْ نَهتَدِيَ وألَّا نَعبُدَ إلَّا اللهَ لَأنْزَلَ مَلائِكَةً، وعلَى هَذا التَّقدِيرِ الَّذي قُلْتُ لكُم يَكونُ مَفعُولُ شاء مَحْذُوفًا؛ أيْ: لَو شاءَ ربُّنا ألَّا نَعْبُدَ إلَّا إيَّاه لَأنْزَلَ مَلائِكَةً. فـ﴿لَوْ﴾ شَرْطِيَّةٌ، و﴿شَآءَ﴾ فِعْلُ الشَّرْطِ، وجَوابُ الشَّرْطِ ﴿لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً﴾، ومَفعُولُ شاء مَحذُوفٌ، التَّقْدِيرُ: لَو شاءَ ألَّا نَعبُدَ إلَّا إيَّاهُ لَأنْزَلَ مَلائكةً، هَذه الحُجَّةُ حُجَّةٌ باطِلةٌ؛ لِأنَّ المُرسَلَ إلَيْهم بَشَرٌ فكَيف يُنزِلُ اللهُ مَلائكةً على بَشَرٍ؟!

ثُمَّ إنَّ اللهَ قالَ في جَوابِ هَذا: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام:٩]، يَعنِي بِصُورَة رَجُلٍ، فَلا يُمكِنُ أنْ نُنزِّل مَلَكًا بِصُورَةِ المَلَك على بَشَرٍ، ولَو فُرِضَ أنَّ اللهَ أنْزَلَ مَلَكًا لَجَعلَه بصُورَةِ البَشَرِ، وحِينَئذٍ تَعودُ الشُّبْهةُ ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩]، أرَأيْتُم لَو أَرْسَلَ الله إلَى بَنِي آدَمَ جِبرِيلَ ولَه سِتُّ مِائةِ جَناحٍ قَدْ سدَّ الأُفُق، أيَتطابَقُ هَذا مَع النَّاسِ؟ أبدًا، بلْ يَهرَبون مِنه ولا يَقِفون أمامَه، فَإذا كان كذَلِك بَطَلَتْ هَذه الحُجَّةُ؛ لأنَّنا نَقولُ لِهَؤُلاء ولِمَن قال مِثْلَ قَولِهم: لَو أنْزَل اللهُ مَلَكًا لجَعلَه رجُلًا، وحِينَئذٍ تَعودُ الشُّبهَةُ، إذَن الحُجَّةُ باطِلةٌ.

وقَولُه: ﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ﴾ الفاءُ هُنا للتَّفريعِ؛ أيْ: فبِناءً على أنَّه لمْ يُنزِلْ مَلائِكةً إنَّا بما أُرسِلْتم به كافِرون -نَسْأَلُ اللهَ العافِيَةَ!- أكَّدُوا كُفرَهم وقالُوا: ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ﴾، فقَدَّم المَفعُولَ؛ لأنَّ ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿كَـٰفِرُونَ﴾، وقُدِّمَ علَيه؛ لِوجهَيْن:

الوَجْهُ الأوَّلُ: مُراعاةُ فَواصِلِ الآياتِ؛ فلَو قال: فإنَّا كافِرُون بما أُرسِلْتم بِه

لمْ تَتناسَبِ الفَواصِلَ، ولَمَّا قال: ﴿بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ تَناسَبتِ الفَواصِلُ، ومُراعاةُ المُناسَبةِ أمْرٌ ثابِتٌ؛ أرَأيتُم مُوسَى وهارُون؟ الأفْضَلُ مُوسَى عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهُو الَّذي يُقدَّمُ في القُرآنِ إلَّا في آيَةٍ واحِدةٍ مِن أجْلِ التَّناسُبِ في سُورةِ طه، ذَكَرَ اللهُ عَن السَّحَرةِ أنَّهم قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:٧٠]، مَع أنَّهم كَانوا قالوا: «آمَنَّا برَبِّ مُوسى وهارُون»، هَذا قَولُ السَّحَرةِ، لكِن لـمَّا نقلَه اللهُ عَنْهم في سُورَةِ طه، قَدَّم ذِكْرَ هارُون لِتَناسُبِ الآياتِ مَع أنَّ مُوسى أفْضَلُ، ومُوسَى هُو الَّذي نَطَقَ بتَقدِيمِه السَّحَرةُ، كَما في آياتٍ عدَّةٍ، لكِن الله عَزَّوَجَلَّ نَقَل كَلامَهم في سُورَةِ طه مُقدِّمًا هارُون على مُوسى لِتَناسُب الفَواصِلِ هُنا.

الوَجْهُ الثَّاني: الحَصْرُ، كَأنَّ هؤُلاء المُكذِّبين المُعانِدين قالُوا: لَو أنَّا آمنَّا بكُلِّ شَيْءٍ لكَفَرنا بما أُرسِلتُم به، فكَأنَّهم يَقولُون: لا نَكفُرُ بأيِّ شَيْءٍ إلَّا بِما أُرسِلتُم به، وتَقدِيمُ ما حقُّه التَّأخِيرُ يُفِيدُ الحَصْرَ، انْظُر إلَى العِنادِ، قالُوا: ﴿بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ كَأنَّهم قالُوا: لا نكفُر إلَّا بما أُرسِلتُم به، هَذا مَعنَى الحَصْر، فيَكونُ هَذا أبْلَغُ في العِنادِ، كأنَّهم يَقولُون: لو آمنَّا بكلِّ شَيْءٍ، فلَن نُؤمِن بِما أرْسِلتم به.

ثُمَّ إنَّ قَولَه: ﴿بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾، قالُوه على سَبِيل التَّنزُّلِ؛ ولِهَذا قال المُفَسِّرُ: [على زَعمِكُم]، وإنَّما قُلْنا: إنَّهم قالُوه على سَبِيلِ التَّنزُّلِ؛ لأنَّهم لَو قالُوه على سَبيلِ الإقْرارِ لكانُوا مُؤْمِنين.

في هَذه الآيَةِ أُمِرَ النَّبيُّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- أنْ يُنذِرَ هَؤلاء المُكذِّبين بِعذابِ مَن قَبْلِهم لِقَولِه: ﴿فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ﴾ [فصلت:١٣].

فإنْ قالَ قائِلٌ: كَلامُ الله عَنْ قَومِ عادٍ وثَمُودَ ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ هَل هُو اللَّفْظُ الَّذي قالَه القَومُ أمْ أنَّ هذا لِسانُ حالِهم؟

فالجَوابُ: لا، قالُوه هُم ولُغَتُهم غَيرُ عَربِيَّةٍ، لكِنَّ اللهَ يَنقُلُ عَنهم بالمَعنَى.

وقَولُهم هَذا كما يُقالُ: تَصوُّرُ هَذا القَولِ كافٍ في ردِّه وإبْطالِه، يَعنِي حتَّى كُفَّارُ قُريشٍ قالُوا هَكذا في سُورةِ الأنْعامِ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام:٨-١٠].

مِن فَوائِدِ الآيَتَينِ الكَرِيمَتَينِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثْباتُ القِياسِ؛ لِأنَّ إنْذارَ المُكذِّبين إذا لمْ يَكُنِ المُرادُ بذَلك قِياسُ حالِ المُكذِّبين للرَّسُولِ ﷺ على حالِ المُكذِّبين لِهُودٍ وصالِحٍ لمْ يَكُنِ لِهَذا الإنْذارِ فائِدةٌ، لَولا القِياسِ ما كان لِهذا الإنْذارِ فائِدةٌ.

إذَن فِفيه جَوازُ القِياسِ والِاعتِبارِ بالنَّظِيرِ والمُماثِلِ، ولقَد قال اللهُ تَعالَى في آيَةٍ أُخرَى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١] وإثْباتُ القِياسِ دَلِيلًا، مِن محاسِنِ الشَّرِيعَةِ؛ لِأنَّ إثْباتَ القِياسِ دَلِيلًا، هُو مُقتَضى العَقلِ السَّلِيمِ إذْ إنَّ العَقْلَ لا يُمكِنُ أبدًا أنْ يُفرِّقَ بيْن مُتَماثِلَيْن، وعلَى هَذا، فالَّذِين أنْكَروا القِياسَ وقالوا: لا قِياسَ في الشَّرِيعةِ خالَفوا الدَّلِيلَ السَّمعِيَّ والدَّلِيلَ العَقليَّ.

وسُبحان اللهِ! القُرآنُ كلُّه يُشِيرُ إلَى هَذا، كُلُّ الأمْثالَ المَضْرُوبةُ في القُرْآنِ كُلُّها دَلِيلٌ على القِياسِ لا شكَّ، وإلَّا لمْ تَكُنْ فائِدةٌ في المَثَلِ، السُّنَّةُ أيضًا أتَتْ بالقِياسِ: «أرَأيْتَ لَو كان على أُمِّك دَيْن أكُنتِ قاضِيتِه؟... اقضُوا اللهَ فاللهُ أحَقُّ بالْوَفاءِ»(١).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب جزاء الصيد، باب الحج والنذور عن الميت، رقم (١٨٥٢)، من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

هُم أيْضًا مُخالِفون لِلعَقلِ؛ لِأنَّه لَولا ثُبُوتُ القِياسِ لَكانتِ الشَّرِيعةُ ناقِصةً، حَيْث لَم تَجمَعْ بيْن المُتماثِلين. إذَن في الآيَةِ إثْبات القِياسِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الرُّسُلَ أتَوا قَومَهم مِن كُلِّ جانِبٍ، مُقبِلِين ومُدبِرين، يُرونَهم الآياتِ الماضِيةِ والآياتِ المُستَقبَلةِ، ولكِن لا فائِدةَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الرُّسُلَ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه علَيْهم أتَوا بتَحقِيقِ التَّوحِيدِ لِقَولِه: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، وهَذِه هِي الأصْلُ الأصِيلُ الَّذي دَعَت إلَيْه الرُّسُلُ جَمِيعًا، والدَّلِيلُ على ذَلِك ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النَّحل:٣٦]. وآيَةٌ أصْرَح مِنْها: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ أهْلَ الباطِلِ يُشبِّهون بما لَيس لَه حَقِيقةٌ، وذَلِك حِين رَدُّوا دَعْوةَ الرُّسُلِ بما لا يَصِحُّ أنْ يَكونَ رَدًّا، فـ﴿قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾، فَهَذه الشُّبهَةُ لَيْست بِحُجَّةٍ، بِدَلِيلِ أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يقولُ في آيَةٍ أُخرَى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩]، وحِينَئذٍ لَو أنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مَلَكًا لَجَعلَه رَجُلًا ولَعادَتِ الشُّبْهةُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: شِدَّةُ عِنادِ المُكذِّبين لِصالِحٍ وعادٍ وهُودٍ، ووَجْهُه: أنَّهم حتَّى مَع إثْباتِ الرِّسالةِ لَهُم، فهُم مُصِرُّون على عِنادِهم، وعَدَم إيمانِهم بهَؤُلاء الرُّسُلِ، ووَجْهٌ آخَرَ كَأنَّهم يَقولون لِعِنادِهم: لَو آمَنَّا بكُلِّ شَيءٍ، لمْ نُؤمِن بما أُرسِلْتم بِه، يَعنِي: بما أُرسِلتُم به خاصَّة، ووَجْه الخُصُوصِيَّةِ تَقدِيمُ الجارِّ والمَجْرُورِ على مُتعَلِّقه، وأيْضًا مِن مَظاهِر العِنادِ لِهؤُلاء أنَّهم أكَّدُوا كُفرَهم بـ«إنَّ» ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، فَصارَ

تَأكِيدُهم لِكُفرِهم وعِنادِهم مِن عِدَّة أوجُهٍ:

أوَّلًا: التَّأكِيدُ بـ«إنَّ».

وثانيًا: الحَصْرُ، وذَلِك بتقديمِ ما حقُّه التَّأخيرُ؛ أي: بتقديمِ الجارِّ والمجرورِ على متعلِّقه.

وثالثًا: أنَّهُم أتَوا بِه بالجُملَةِ الاسْمِيَّةِ الدَّالَّةِ على الثُّبوتِ والاستِمرارِ، بِخِلافِ الفِعلِيَّةِ؛ فهِي دالَّةٌ على الحُدُوثِ وعَدَمِ الاستِمرارِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ المُكذِّبين للرُّسُلِ -وهُم كُفَّارٌ- يُؤمِنون بالمَلائِكةِ؛ لِقولِه: ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ المُقرَّ بالرُّبوبيَّةِ لا يُعتبَر مُؤمِنًا حتَّى يُقِرَّ بالألُوهيَّةِ؛ لِقَولِهم: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾، وهَكَذا الكُفَّارُ الَّذِين بُعِثَ فِيهم الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كانوا مُقِرِّين بالرُّبُوبيَّةِ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزُّخرُف:٩] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧].

ولكِنَّ الإيمانَ بالرُّبُوبيَّةِ لا يكفِي في كَوْنِ الإنسانِ مُسلمًا، لا بُدَّ مِنَ الإيمانِ بالألُوهِيَّةِ إضافَةً إلَى الإيْمانِ بالرُّبوبيَّةِ، فهُما مُستَلزِمٌ أحَدُهُما للآخَرِ ومُتضمِّنٌ، المُستلزِمُ للآخَرِ مَن آمَنَ بالرُّبُوبيَّةِ لَزِمَه أنْ يُؤمِنَ بالألُوهيَّةِ، إذَن المُستَلْزَمُ هُو الرَّبُوبيَّةُ، ومَن آمَنَ بالألُوهيَّةِ فقَد تضَمَّنَ إيمانُه بالألُوهيَّةِ الإيمانَ بالرُّبُوبيَّةِ، فأحَدُهما مُتضَمِّنٌ للآخَرِ، والثَّاني مُستلزِمٌ للآخَرِ.

فَإِنْ قالَ قائِلٌ: هَلْ قَولُه: ﴿خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف:٩]، **يَدُلُّ** على أنَّ الكُفَّارَ كانُوا يُوقِّرُون اللهَ في الأسْماءِ والصِّفاتِ؟

فالجَوابُ: لا، قَد يَكونُ ذَلِك، وقَد يَكونُون أقرُّوا ببَعضِ الأسْماءِ والصِّفاتِ، وهُم يُنكِرُون الرَّحْمَنَ، أيْ: أنَّ البَعْضَ يُثبِتُونها لا شكَّ.



الآيتان (١٥، ١٦)

• ● ● •

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت:١٥-١٦].

• ● ● •

لـمَّا ذَكَرَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَى أمْرَ النَّبيِّ عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ أنْ يُنذِرَ قُريشًا بصاعِقةٍ مِثل صاعِقةِ عادٍ وثَمُودَ، بيَّن ماذا كان مِن عادٍ، وماذا كان مِن ثَمُودَ، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.

(أمَّا) أداةُ شَرْطٍ وتَفصِيلٍ؛ أمَّا كَونُها أداةَ شَرْطٍ؛ فَلأنَّ لها شَرْطًا وجَزاءً؛ ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾، وأمَّا كَونُها أداةَ تَفصِيلٍ؛ فلأنَّها تأتي كذلِك في التَّفصِيلِ؛ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ [اللَّيل:٥-٦] ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ [اللَّيل:٨-٩]. فَهي إذَنْ حَرْفُ شَرْطٍ وتَفصِيلٍ.

قَولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ اسْتكبَروا أيْ أصابَهم الكِبْرُ، وإنَّما أتَتِ السِّينُ والتَّاءُ لِلمُبالَغةِ؛ أيْ: تكبَّروا تكبُّرًا عظِيمًا.

وقَولُه: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ هذه لَيستْ صِفةً مُقيَّدةً، ولَكِنَّها صِفةٌ كاشِفةٌ؛ لأنَّ كُلَّ استِكْبارٍ في الأرْضِ فإنَّه بغَيْرِ الحَقِّ، فالِاستِكبارُ لا يَنقَسِمُ إلَى قِسمَين، بل هُو قِسْمٌ

واحِدٌ، فكُلُّ استِكبارٍ فإنَّه بغَيْـرِ حقٍّ، ويُسمَّى مِثْلُ هَذا القَيْدِ صِفةً كاشِفةً؛ أيْ: تَكشِفُ ما سَبَقَ وتُبيِّنُ حقيقتَه.

فإنْ قالَ قائِلٌ: هَل مِثلُه قَولُه تَعالَى: ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٣٣]؟

فالجَوابُ: نَعَم مِثلُها، فهِي صِفَةٌ كاشِفَةٌ.

إذَن: فحَقِيقَةُ الاِستِكبارِ أنَّه بغَيْرِ حقٍّ، والحقُّ ضِـدُّ الباطِلِ، والباطِلُ إمَّا أنْ يَكونَ في الخَبَرِ، وإمَّا أنْ يَكونَ في الطَّلَبِ. فأمَّا الباطِلُ في الخَبَرِ فَأنْ يَكونَ كَذِبًا، وأمَّا الباطِلُ في الحُكم فَأنْ يَكونَ جَوْرًا، وقَولُه تَعالَى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحجّ:٦٢]، يَشمَلُ الأمْرَيْن؛ يَشْمَلُ دَعْواهم أنَّ هَذه آلِهةٌ وهَذه دَعوَى كاذِبَةٌ، ويَشمَلُ عَمَلَهم لِهذِه الآلِهَةِ، وهُو جَورٌ وظُلمٌ، حَيثُ يَعدِلون المَخلُوقَ بالخالِقِ.

وقولُه: ﴿وَقَالُوا۟﴾ يَعنِـي: مِن جُملَةِ ما اسْتَـكبَروا بِه؛ يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالُوا۟﴾ لـمَّا خُوِّفُوا بالعَذابِ ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، أي: لا أحد]، و﴿مَنْ﴾ هُنا استِفْهامٌ بمَعنَى النَّفْي والإنْكارِ.

وقَدْ كرَّرْنا مِرارًا أنَّ الاِسْتِفهامَ إذا كان بمَعنَى الإنْكارِ والنَّفي صارَ أبْلَغَ مِن النَّفيِ المُجرَّدِ؛ لأنَّه يَتَضمَّنُ التَّحدِّيَ.

﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ ﴿مَنْ﴾ اسْمُ استِفْهام مُبتَدأٌ، و﴿أَشَدُّ﴾ خَبَرُ مُبتَدإٍ، و﴿قُوَّةً﴾ تَمييزٌ لـ﴿أَشَدُّ﴾، ومِنَ الضَّوابِطِ الغالِبَةِ: أنَّه إذا أتَى الاِسْمُ مَنصُوبًا بَعْدَ اسْمِ التَّفضِيلِ كان تَمييزًا.

يَقولُ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؛ أي: لا أحَدَ]، ثُمَّ ذَكَرَ المُفَسِّرُ نَمُوذَجًا مِن قُوَّتِهم، فقال: [كان واحِدُهم يَقلَعُ الصَّخْرَةَ العَظِيمةَ مِن الجَبَلِ يَجعَلُها حَيثُ

يَشاءُ]، وهَذا المِثالُ قَد يكونُ حَقًّا وقَد يَكونُ إسْرائِيلِيًّا؛ لأنَّه مِنَ المَعْرُوفِ أنَّ عادًا كانُوا يَعمَلُون بالنَّحت، وإذا ثَبتَ فيمكِن أنْ يَحمِلُوا الجَبَلَ؛ ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف:٢١]، والمَعرُوف أنَّ الأحْقافَ كُلُّها جِبالٌ رَملِيَّةٌ.

لَكِن سَواءٌ صَحَّ هَذا المِثالُ أوْ لَم يَصِحَّ، فإنَّهم كانوا -بلا شكٍّ- أقوِياءَ أشِدَّاءَ.

﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ رادًّا عَلَيهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾، يَقولُ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أيْ: [يَعلَموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾]، وَهَذا تَقرِيرٌ لِكَونِ اللهِ تَعالَى هُو أشَدَّ مِنْهُم قُوَّةً.

قال تَعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾ وَلمْ يَقُلْ: (إنَّ اللهَ أشَدُّ)، بلْ قالَ: ﴿خَلَقَهُمْ﴾؛ لِيُبيِّن ضَعفَهم، وأنَّهم مَخلُوقُون، وأنَّ الخالِقَ سَوفَ يَكونُ أقْوى مِنهم، فالَّذِي خَلقَهم أشَدُّ مِنْهُم قُوَّةً؛ لِأنَّه هُو الَّذي أعْطاهم القُوَّةَ، ومُعْطِي الكَمالَ أوْلَى به، وهَذه هِي الحِكمَةُ مِن كَونِه تَعالَى قال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾، ولَم يَقُل: أولَم يَعلَموا أنَّ اللهَ الَّذي خَلَقَ السَّمواتِ والأرْضَ، أوْ أنَّ اللهَ هُو أشَدُّ مِنْهم قُوَّةً لِيُبيِّن ضَعفَهم وأنَّهم مَخلُوقُون ضُعفاءُ.

قال اللهُ تَعالَى: ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾، قَولُه: ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ مَعطُوفةٌ على قَولِه: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ المُعجِزات ﴿يَجْحَدُونَ﴾] يَعنِي يُكذِّبون؛ لأنَّ الجَحْدَ هُو التَّكذِيبُ والإنْكارُ، لا سيَّما وهُو مُعدًّى بالباءِ الدَّالَّةِ على ذلِك. وقَولُ المُفسِرِ: [﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ المُعجِزات] فِيه نَظَرٌ؛ لأنَّ الآياتِ هِي العَلاماتُ والدَّلالاتُ على الخالِقِ عَزَّوَجَلَّ ولَيْست مُعجِزاتٍ.

وقَد ذَكَرنا أنَّ المُعجزاتِ تَأتِي آياتٌ، وتَأتِي مِن الشَّياطِينِ بِواسِطةِ السَّحَرةِ وغَيْرِ ذلِك، لكِن إذا قُلْنا: «آياتٍ» صار مَعناها عَلاماتٌ دالَّةٌ على الحَقِّ.

يَقولُ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾، بارِدةٌ شَديدَةُ الصَّوْتِ بِلا مَطَرٍ].

قَولُه تَعالَى: ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾، ﴿رِيحًا﴾ هُنا نَكِرةٌ يُرادُ بِها التَّعظِيمُ؛ أيْ: رِيحٌ عَظِيمةٌ صَرْصرٌ شَدِيدَةُ الصَّوْتِ، تَسْمَعُ لها صَوتًا كالرَّعدِ مْن شِدَّتِها وشِدَّةِ اصْطِدامِها بالهَواءِ والأشْجارِ والأحْجارِ والبُيوتِ.

وقَولُ المُفَسِّرِ: [بِلا مَطَرٍ] الظَّاهِرُ أنَّها لا يَدُلُّ علَيْها السِّياقُ المَوجُودُ الآنَ، المَوجُودُ في هَذه الآيَةِ لا يدُلُّ على أنَّها بِلا مَطَرٍ -فِيما ظَهَر لِي- لَكِنَّه قَدْ دَلَّ علَيْه قَولُه تَعالَى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذَّاريات:٤١]، يَعنِي: الَّتي لَيسَ فيها مَطَرٌ؛ لأنَّ المَطَرَ مِن أسْبابِ الرِّياحِ، يُرسِلُها اللهُ تَعالَى ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [الرُّوم:٤٨]، لَكِنَّ رِيحَ عادٍ لَيسَ فِيها ذَلِك.

يَقولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ بِكَسر الحاءِ وسُكُونِها، مَشؤُوماتٌ عَلَيهِم].

قَولُه تَعالَى: ﴿فِيٓ أَيَّامٍ﴾ هَذِه الأيَّامُ بيَّن اللهُ قَـدْرَها في آياتٍ أُخرَى في قَولِه: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقَّة:٧]، ابْتدَأت بِالفَجْرِ، وانْتَهت بِه أو بِالغُرُوب. ابْتدَأتْ بِالفَجْرِ، فانْظُرْ: الأوَّلُ والثَّاني والثَّالثُ والرَّابعُ والخامِسُ والسَّادِسُ والسَّابعُ، سَبْعُ لَيالٍ وثَمانيةُ أيَّامٍ تَنتَهي بالغُرُوبِ، وسَبْعُ لَيالٍ؛ لِأنَّ اللَّيلَةَ الأُولَى حُذِفَت.

فَإِنْ قالَ قائِلٌ: قَولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ فِيه إضافَةُ النَّحْسِ إِلَى الأَيَّامِ؟

فالجَوابُ: لا بَأْس بِه، كَما قال لُوطٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾ [هُود:٧٧]، وَهَذا إذا كان المُرادُ بِه مُجَرَّدُ الخَبَرِ، كَما هُنا، وأَمَّا إذا كان المُرادُ بِه العَيْبَ والسَّبَّ فإِنَّه لا يَجُوزُ. فَإِذَن يَكونُ هَذا السَّبُّ أَوِ العَيْبُ إمَّا أَنْ يَكونَ على سَبِيلِ الإِخْبارِ أو على سَبِيلِ السَّبِّ، على الأَوَّلِ جائِزٌ وعلى الثَّاني غَيْرُ جائِزٍ.

نَظِيرُ ذلِك: إخْبارُ المَرِيضِ بما يَجِدُ، فأَحْيانًا يَسْأَلُه الصَّاحِبُ: كَيف أَنْتَ البارِحةَ؟ فَيَتَشكى ويَقولُ: واللهِ ما نِمْتُ البارِحةَ؛ آلامٌ في الرَّأسِ، في الرَّقبةِ، في الظَّهْرِ، في البَطْنِ، في الرِّجلَيْن، هَذا إذا قالَه على سَبِيلِ التَّشَكِّي فَلا يَجُوزُ؛ لأَنَّه يُنافي الصَّبْرَ، وإذا قالَه على سَبِيلِ الإخْبارِ فَلا بَأسَ بِه؛ ولِهَذا بَعْضُ المَرَضى يُقدمُ فَيَقولُ إخْبارًا لا شَكوى: حَصَل لِي كَذا وكَذا.

يَقولُ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ﴾ الذُّلَّ ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾]، اللَّام لِلعاقِبةِ، ويَحتَمِلُ أَنْ تَكون للتَّعلِيلِ وكِلاهُما صَحِيحٌ، فإِنَّ اللهَ تَعالى أَرْسَل علَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ لِهَذا الغَرَضِ، أَوْ أَرْسَلَ علَيهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ حتَّى كانَتْ عاقِبتُهم أَنْ ذاقُوا ﴿عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ يَعنِي: هَذه الحَياةُ الَّتي نَحياها، وسُمِّيَتْ دُنيا لِوَجهَيْن:

الوَجْهُ الأَوَّل: لدَناءَتِها وحَقارَتِها بالنِّسْبَةِ للآخِرَةِ؛ لأَنَّ مَوضِعَ سَوْطِ الإِنْسانِ في الجَنَّةِ خيْرٌ مِن الدُّنْيا وما فِيها؛ ولِأَنَّها أَيْضًا دُنْيا مُنَغَّصةٌ لا تَكادُ يَمُرُّ بِكَ الشَّهْرُ إِلَّا وقَد وَجَدتَ تَنْغِيصًا، بَلْ أَقَلَّ مِن ذَلِك، كَما قال الشَّاعِر[(١)]:

(١) البيت للنمر بن تولب، انظر: الكتاب لسيبويه (١/ ٨٦)، وشرح الكافية الشافية لابن مالك (١/ ٣٤٦).

فَيَــومٌ عَلَينــا ويَــوْمٌ لَنــا ويَــوْم نُســاءُ ويَــوْم نُسَــرُّ

الوَجْهُ الثَّانِي: لدُنُوِّها لأنَّها سابِقَة للآخِرَةِ فهِي أدْنَى إلَى المَخْلُوقاتِ مِن الآخِرَةِ، كما قال تَعالَى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:٢٣]؛ أي قَرِيبَةٌ.

يَقولُ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ أشَدّ ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾، بمَنْعه عَنْهم]، اللَّام في قَولِه: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ﴾ يُسمُّونها لامَ الابْتِداءِ وهِي للتَّوكِيدِ؛ ولِذلِك إذا جاءَتْ (إنَّ) تُزَحْلِقُ اللَّامَ فتؤَخَّرُ عَن مَكانِها وتَكونُ في المُتَأخِّرِ مِن اسْمِ (إنَّ) أوْ لخَبَرِها، وإنَّما زَحلَقْناها لِئَلَّا يَجتَمِعَ في أوَّلِ الكَلامِ مُؤكِّدان مُتَوالِيان؛ ولِهَذا نَقولُ: إنَّ اللامَ في قَولِه: ﴿وَلَعَذَابُ﴾ هِي لامُ الِابْتِداءِ وتُفِيدُ التَّوكِيدَ، ويَدُلُّ هَذا على أنَّها مَع (إنَّ) تُزَحْلَق حتَّى تَبْعُد عَنْها.

قال اللهُ تَعالَى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ يَعنِي: أشَدَّ خِزْيًا والعِياذُ باللهِ؛ لِأنَّ عَذابَ الدُّنْيا لا يَسْمَعُ به مَن سَبَقَ، ولا يَراه مَن لَحِقَ، لا يَسْمَعُ بِه مَن سَبَقَ؛ لِأنَّه جاء بَعْدَهم، فالقَوْمُ الَّذِين قَبْلَ عادٍ ما عَلِموا بذَلِك، والقَوْم الَّذِين بَعْدَهم ما رَأوْه، سَمِعوا بِه ولَم يَرَوه، لَكِن في الآخِرَةِ سَماعٌ ورُؤيَةٌ والعِياذُ باللهِ، الَّذي يُعَذَّب في الآخِرَةِ سَماعًا ورُؤيَةً يَسمَعُه كُلُّ أحَدٍ؛ السَّابِقُ واللَّاحِقُ، ولِهَذا قال: ﴿أَخْزَىٰ﴾، ثُمَّ هُو أيْضًا ﴿أَشَدُّ﴾ كَما قال تَعالَى في آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه:١٢٧] أشَدُّ وأعْظَمُ مِن عَذابِ النَّارِ، أعاذَنا اللهُ وَإِيَّاكم مِنْها.

قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾، هَذِه استِئْنافِيَّةٌ يَعنِي: إنَّهم في الآخِرَةِ لا أحَدَ يَنْصُرُهم، فَفِي الدُّنيا رُبَّما يُنصَرُ الإنْسانُ مِن العَذابِ بِدَفْعِه قَبْل وُقُوعِه أوْ رَفْعِه بَعْد وُقُوعِه، لَكِن في الآخِرَةِ لا ناصِرَ.

مِنْ فوائِدِ الآيَتينِ الكَرِيمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيانُ عِظَمِ استِكْبارِ هَؤلاء الْمُكذِّبين لنَبيِّهم، أعْنِي: عادًا؛ لِقَولِه: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيانُ طُغيانِ الإنْسانِ وأنَّ الإنْسانَ لا حَدَّ لِطُغيانِه؛ لأنَّ وُصولَه إلَى هَذِه الدَّرَجةِ ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ يَدُلُّ على الطُّغيانِ العَظِيمِ والكِبْرِياءِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: حِكْمَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بأَخْذِهم بِالعَذابِ؛ حَيْثُ أُخِذوا بِما هُو أَلْطَفُ الأشْياءِ وَهُو الرِّيحُ، الرِّيحُ اللَّطِيفةُ الَّتي يَكونُ بِها إنْعاشُ البَدَنِ وتَقْوِيَتُه ونَشاطُه، هِي الَّتي أُهْلَك بِها عادًا؛ لِأنَّهم قالُوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، وانْظُر إلَى فِرعَونَ حِينَ قال: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزُّخرُف:٥١-٥٢]، عُذِّبَ بِالماءِ الَّذي كان بالأمْسِ يَفْتَخِرُ به.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَلاغَةُ القُرآنِ في الإقْناعِ وإقامَةِ الحُجَّةِ؛ لقَوْلِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، وجْهُ ذلِك أَنَّه قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: جَوازُ عَقْدِ الْمُفاضَلَةِ بَيْن الخالِقِ والمَخْلوقِ؛ لِقَولِه: ﴿أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ مَع أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَشَدُّ مِن كُلِّ أحدٍ، لَكِن المَقامَ مَقامُ مُحاجَّةٍ، ومَقامُ الْمُحاجَّةِ لا بَأس أنْ تُذْكرَ فِيه الْمُفاضَلةُ بيْن الْمُفَضَّلِ والْمُفَضَّلِ عَلَيه، ونَظِيرُ هَذا -بلْ أبْلَغ مِنه- قَولُ اللهِ تَعالَى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩]، لَيس في أصْنامِهم خيرٌ، لَكِنَّ هَذا مِن بابِ الْمُحاجَّةِ، وأنَّ الإنْسانَ يُحاجُّ الخَصْمَ بِما يُقِرُّ به.

يَتفرَّعُ على هذا مِن الفوائِدِ: خطأُ مَن يُفسِّرُ قَولَ اللهِ تَعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤] ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء:٥٥]

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل:١٢٥] وما أَشْبهَ ذلك؛ حيثُ يُفسِّر أعلمَ بعالم -كالجلالَين رَحِمَهُمَاٱللَّهُ- هذا خَطأٌ عَظيمٌ وتَحريفٌ لِلقُرآنِ، أَعْلَمُ أَبلغُ من عالمٍ؛ لأنَّ أَعْلَمَ يَمنعُ المُشاركَةَ، وعالمٍ لا يَمنعُ المُشاركَةَ، تَقولُ: فُلانٌ عالمٌ، وفُلانٌ عَالمٌ، وفُلانٌ عالمٌ، لكن إذا قُلتَ: فُلانٌ أَعلمُ، معناها أنَّه لا يُساويه أحدٌ في دَرجتِه، فتَفسيرُ أَعلم بعالمٍ لا شكَّ أنَّه تَحريفٌ للقُرآنِ وقُصورٌ عَظيمٌ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيانُ أنَّ هؤلاءِ المُكذِّبين لهُودَ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وهم عادٌ جَمَعوا بينَ الأمرَينِ، جَمَعوا بين الاستِكبارِ وبَينَ التَّكذيبِ، الاسْتِكْبارُ في قولِه: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فُصِّلَت:١٥]، والتَّكذيبُ في قولِه: ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فُصِّلَت:١٥].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَرسَلَ الرُّسلَ بالآياتِ وأَقامَ البيِّناتِ والبَراهينَ على أنَّه الحقُّ، وأنَّ رَسولَه حقٌّ؛ لقولِهِ: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الرِّياحَ تَجري بأَمرِ اللهِ؛ لقولِه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾[فُصِّلَت:١٦]، ولا شكَّ أنَّ كلَّ شَيءٍ يَجري بأَمْرِ اللهِ، حتَّى أَفعالُ البَشرِ تكونُ بأَمْر اللهِ عَزَّوَجَلَّ كما هو مَذهَبُ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ، فكُلُّ شيءٍ يَسيرُ بأَمْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ الرِّياحُ السَّحابُ البِحارُ الأنْهارُ، كُلُّها تَجْري بأمرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: بَيانُ حال هـذه الرِّيحِ الَّتي أَهلكَ اللهُ بها عادًا، وأنَّها ريحٌ صَرْصَرٌ شَديدةٌ، وفي آياتٍ أُخرَى ما يَدُلُّ على أنَّها ليس فيها مَطَرٌ وليس فيها خَيرٌ، بل هي عَقيمَةٌ مِن الخَيرِ كُلِّه.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: حِكمَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ في مُجازاةِ مَن يستَحِقُّ الجَزاءَ؛ حيثُ يُجازَى بمِثْلِ عَملِهِ، ولـهذا يَقولُ العُلماءُ: الجَـزاءُ مِن جِنسِ العَمَلِ، ووَجهُ ذلك أنَّ اللهَ

أَرسلَ على هَؤلاءِ المستكبِرين الَّذين يَقولون مَن أَشَدُّ منَّا قُوَّةً الرِّيحَ اللَّيِّنة الهَيِّنَة، ومن حِكمةِ اللهَ عَزَّوَجَلَّ في هذا العَذابِ أنَّها لم تَكُنْ تَجرُفُهم في آنٍ واحدٍ، بل سُلِّطت عليهم سبعَ لَيالٍ وثَمانيَةَ أيَّامٍ؛ ليَكونَ هذا أَشَدَّ في استِمْرارِ العُقوبَةِ؛ لأنَّ الإنْسانَ المُعاقَبَ لو عوقِبَ بما يُهلِكُه فورًا لكان ينتهي من العُقوبَةِ، لَكِنْ إذا كانت العُقوبَةُ تأتي عليه في ساعاتٍ أو أيَّامٍ صار هذا أَشَدَّ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: بَيانُ أنَّ أفعالَ اللهِ تَعالَى مَقرونَةٌ بالحِكمةِ؛ لقوله: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ﴾ [فُصِّلَت:١٦]، وهذا مَذهبُ أهلِ السُّنَّة والجماعَةِ: أنَّ أفعَالَ اللهِ تَعالَى مَقرونَةٌ بالحِكمةِ، وأنَّ شرعَه مَقرونٌ بالحِكمةِ، فكُلُّ ما شَرَعه أو قدَّرَه، فإنَّه لحِكمةٍ، منها ما هو مَعلومٌ، ومنها ما ليس بمَعلوم، مِثْلَ: الصَّلواتِ الخَمسِ ما نعلمُ الحِكمَةَ في أنَّها خَمسٌ؛ لأنَّ عُقولَنا قاصِرةٌ، لكنَّنا نعلمُ أنَّ اللهَ لا يَفعلُ شيئًا إلَّا لحِكمةٍ، ولهذا كان جَوابُ عائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا لمُعاذَةَ أن قالت: «**كان يُصيبُنا ذلك فنُؤمَرُ بقَضاءِ الصَّومِ ولا نُؤمَرُ بقَضاءِ الصَّلاةِ**»[1] يعني: وإذا كان الأَمرُ كذلك نُؤمَرُ بقَضاءِ هذا دون هذا فهذا لا بُدَّ أن يَكونَ لحِكْمةٍ.

ومن عُلماءِ الأُمَّة وفِرَقِها مَن يَقولُ: إنَّ أفعالَ اللهِ لا تُعَلَّلُ، ليس لها حِكمةٌ، وشَرْعَه ليس له حِكمَةٌ، يُفعلُ لمجرَّدِ المَشيئَةِ، يُحكَمُ بالشَّرعِ لمُجرَّد المَشيئَةِ، وهؤلاء لا شكَّ أنَّهم وَصَفوا اللهَ بالنَّقصِ والسَّفَهِ، وقد أَنكَرَ اللهُ على ذلك بقولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧] وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾[الدخان:٣٨] وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب لا تقضي الحائض الصلاة، رقم (٣٢١)، ومسلم: كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، رقم (٣٣٥).

أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[المؤمنون:١١٥]، والآياتُ في هذا كَثيرةٌ، وكُلُّ آيةٍ فيها لامُ التَّعليلِ فإنَّها تَدُلُّ على الحِكمةِ.

وآخَرونَ عَكَسوا وقالوا: إنَّ أفعالَ اللهِ مُعلَّلةٌ بحِكمةٍ، وأنَّه يَجِبُ عليه أن يَفعلَ ما تَقتَضيه الحِكمةُ، وأن يُشرِّعَ ما تقتَضيه الحِكمَةُ، وهؤلاء أصابوا مِن وَجهٍ وأخطَؤوا مِن وَجهٍ، فإنْ أَرادوا بذلك أنَّنا نُوجبُ على اللهِ أن يَفعلَ ما تَقتَضي عُقولُنا أنَّه الحِكمةُ فهذا غَلطٌ، وإنْ أرادوا أنَّ اللهَ أَوجَبَ على نَفسِه أن يَفعلَ ما بِه الحِكمةُ؛ لأنَّه حَكيمٌ، فهذا صَحيحٌ.

ونحنُ لا نشكُّ أنَّ الحكمَةَ هي مُرادُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأنَّه لا يَفعلُ شيئًا ولا يَحكُمُ شيئًا إلَّا لحِكمَةٍ، لكن هل نحنُ الَّذين نُقدِّر الحكمةَ ثمَّ نُوجبُ على اللهِ أن يَفعلَ؟ هذا هو الخَطأُ.

فالثَّاني هذا مَذهَبُ المُعتزِلَةِ، والأَوَّل مَذهبُ الأشاعِرَةِ وأَتْباعِهم.

والصَّوابُ الوَسَطُ، ودائمًا خيرُ الأُمورِ الوَسَطُ، وهو أنَّ اللهَ يَجِبُ عليه أن يَفعلَ لإيجابِه على نفسِه الحِكمَةَ؛ لأنَّه نفى أن يَكونَ فعلُه عبثًا أو لَعِبًا أو باطلًا، وهذا يَقتَضي أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَفعلُ الأَشْياءَ لحِكمَةٍ، لكنَّنا لَسنا نَحنُ الَّذينَ نوجبُها على اللهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ عذابَ الآخِرَةِ أَشدُّ من عَذابِ الدُّنيا؛ لقولِهِ: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الكافِرَ يُعاقَبُ بالعُقوبتَينِ: عُقوبَةِ الدُّنيا وعُقوبَةِ الآخِرَةِ؛ لقولِه: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾. أَمَّا المُؤمنُ فإنَّ اللهَ تَعالَى لا يَجمعُ عليه عُقوبتَينِ، إذا عوقِبَ بالذَّنبِ في الدُّنيا لم يُعاقَبْ به في الْآخرَةِ؛

لقولِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى:٣٠]؛ ولأنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليه وعَلَى آلِه وسلَّم- «أَخبَرَ أنَّ مَن أتى شيئًا مِن هذه القَاذوراتِ -يَعني المَعاصي-، فعوقِبَ به في الدُّنيا لَمْ يُعذَّبْ به في الْآخرَةِ»[1]، فالمُؤمنُ إذا عوقِبَ في الدُّنيا على عَمَلِه لَمْ يُعاقَبْ في الآخِرَةِ، والكافر يُعاقَبُ بهذا وهذا.

وانظُرْ إلى قولِه تَعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الفرقان:٦٨-٦٩] حيثُ قال: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ﴾ فإمَّا أنْ يَكونَ المُرادُ أنَّ عَذابَ الآخِرَةِ أَشدُّ فيَكونُ بالنِّسبَةِ لشِدَّتِه مُضاعفًا، وإمَّا أنْ يَكونَ هو الجَمعُ له بَينَ عَذابِ الدُّنيا وعَذابِ الآخِرَةِ.

وقولُنا: «إنَّه يَجمعُ له بَينَ عَذابينِ» ليس مَعْناه أنَّه حتميٌّ، لكن نَقولُ: إنَّه إذا عُذِّب بذَنْبِه في الدُّنيا لم يَسلَمْ من تَعذيبِه به في الآخِرَةِ، حتَّى لا يَرِدُ علينا أنَّ الكُفَّار الآنَ يَموتون وهم في غايةِ ما يَكونُ من السُّرورِ والعافيةِ والأَمْوالِ والأَولادِ ولم يَجِدوا عَذابًا، والمَعْنى أنَّهم لم يَجِدوا عَذابًا يُشاهدُ لكنَّ العَذابَ القَلبيَّ عندهُمْ لا شكَّ أنَّه مَوجودٌ، فأَشَدُّ النَّاس عذابًا قَلبيًّا وقلقًا هم الكُفَّار، وكلَّما كان الإنسانُ أَعْصى لربِّه كان أَشدَّ قلقًا وأقلَّ راحةً، وكُلَّما كان أَشدَّ إيمانًا وعملًا صالحًا كان أَشدَّ طُمأنينةً.

واستمعْ إلى قَولِه تعالى: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[النحل:٩٧] ولم يَقُلْ عَزَّوَجَلَّ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب وفود الأنصار إلى النبي ﷺ بمكة، رقم (٣٨٩٢)، ومسلم: كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها، رقم (١٧٠٩)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لنُعطينَّهم مالًا كثيرًا، لا لنُحيينَّه حياةً طيِّبةً ولو كان فقيرًا، فتَجِدُ حياتَه طيِّبةً مُطمئِنَّ البالِ مستريحًا لا يَهتمُّ بشيءٍ إلَّا بما يُرضي اللهَ عَزَّوَجَلَّ.

فإنْ قال قائِلٌ: هل مُعاقَبَةُ المُؤمنِ على الذَّنْبِ في الدُّنيا دون الآخِرَةِ يَشملُ حتَّى ولو لم يَتُبْ فعوقِبَ وهو مُصِرٌّ على ذَنْبِه كالزَّاني مَثلًا؟

فالجَوابُ: نَعَمْ، لأنَّه إذا تاب فلا يُعاقَبُ لا في الدُّنيا ولا في الآخِرَةِ.

وإن قيل: أليس التَّائبُ مِن الذَّنْب كمَنْ لا ذَنْبَ له، عَكْسُها أنَّه كَمَنْ عليه ذَنْبٌ، يعني ما استفاد مِن هذه العُقوبَةِ وما ارتدع؟

فالجَوابُ: أنَّه إذا عوقِبَ مُحِيَ عنه إثْمُ ما سَبَقَ؛ لأنَّه أَخَذَ جزاءَه وانتهى، لكن قد يُؤَخَّرُ له العَذابُ إلى يوم القيامة، ولهذا إذا أَحَبَّ اللهُ قومًا عجَّل لهم العُقوبَةَ في الدُّنيا حتَّى لا يُخزَونَ بها يومَ القيامَةِ.

وإن قيل: لو عوقب الآنَ ثُمَّ مات مُباشرةً قبل أن يَفعلَ الذَّنبَ الآخَرَ هل يُعاقبُ بنِيَّةِ عدمِ التَّوبَةِ؟

فالجَوابُ: إنِ استمرَّت النِّيَّةُ بعدَ العُقوبَةِ، فهذا رُبَّما يُعاقَبُ على نِيَّته لا على فعله.

وإن قيل: الَّذي يُعاقَبُ في نيَّته هل يُعاقَبُ إذا لم يُباشِرِ الفِعلَ؟

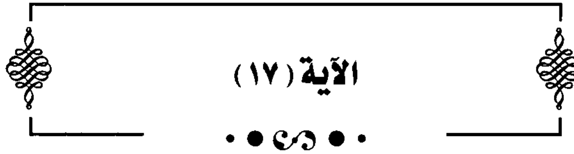
فالجَوابُ: لا، العِقابُ على النِّيَّة إذا نوى الإنسانُ فِعْلَ المَعصيَةِ، إمَّا أن يُدافِعَ هذهِ النِّيَّةَ ويَدَعُ المَعصيَةَ لله عَزَّوَجَلَّ فهذا يُثابُ، وإمَّا أن يستمرَّ على نِيَّته ويَعزِمُ ولكنَّه يَعجَزُ فهذا يُعاقَبُ على نِيَّتِهِ.

وإنْ قال قائلٌ: هل عَذابُ القبرِ مُتَّصِلٌ إلى يوم الْقيامَةِ؟

فالجَوابُ: عَذابُ القَبرِ بالنِّسبَةِ للمُؤمنِ قد يَنقطِعُ، فيُعذَّبُ بقَدْرِ ذُنوبِه ثُمَّ يَنقطِعُ، وبالنِّسبَةِ للكافِرِ فإنَّ الظَّاهرَ استمرارُهُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّه لا ناصِرَ للمُعذَّبين يومَ القيامَةِ؛ لقولِه: ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ وهذه لها شواهِدُ، ومنها قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق:٩-١٠]، وكذلك هم يُقِرُّون: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء:١٠٠-١٠١]، ثم قال: ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾.





قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت:١٧].

• ● ● •

أمَّا التَّقسيمُ الثَّاني فقال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ بيَّنَّا لهم طَريقَ الهُدى.

﴿ثَمُودُ﴾ بِلا تَنوينٍ و(عادٌ) بتَنوينٍ؛ لأنَّ (ثمودَ) مَمْنوعَةٌ مِن الصَّرفِ و(عاد) ليست مَمْنوعَةً مِنَ الصَّرفِ، والصَّرفُ جرُّ ما لا يَنْصرِفُ بالفَتْحةِ أو عَدمُ التَّنوينِ، قال ابنُ مالكٍ(١):

الصَّرفُ تَنوينٌ أتى مُبيِّنًا   مَعْنى به يكونُ اسمٌ أَمْكَنا

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ بيَّنَّا لهم طَريقَ الهُدى]، فالهِدايَةُ هنا هِدايَةُ بيانٍ، يعني بَيَّنَ لهمُ الحَقَّ.

واعلم أنَّ كُلَّ مَن كَفَرَ فإنَّه كَفَرَ بعدَ أن تَبيَّنَ له الحَقُّ إذا جاءَه الرَّسولُ؛ لأنَّ الرُّسلَ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- يُبيِّنون الحَقَّ لا يَدعونَ شيئًا يَحتاجُ إلى بيانٍ إلَّا بيَّنوه، قال هُنا: ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ أي: بَيَّنَّا لهم طَريقَ الحقِّ، فالهِدايَةُ هُنا هِدايَةُ بيانٍ وإرْشادٍ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ﴾ اختاروا الكُفْرَ عَلى الهُدَى]؛ أي:

---

(١) الألفية (ص:٥٥).

هِدايَةُ التَّوفيقِ، يَعني على الاهْتِداءِ، استحبُّوا العَمَى الَّذي هو الكُفْرُ على الهُدَى الَّذي هو الإسلامُ.

قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فُصِّلَت:١٧]، أَخَذَتْهم صاعِقَةُ العَذابِ يَعني عَذابَ الصَّاعقَةِ؛ لأنَّ ثَمودَ صِيحَ بهم ورُجِفَ بهم، فصُعِقوا هَلَكوا هَلَكَةَ رَجلٍ واحدٍ ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾[هود:٦٧] والعِياذُ باللهِ على رُكَبِهِمْ هامِدينَ.

وقولُهُ: ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ أيِ العَذابُ [المُهينُ] لأنَّ الهونَ هو الإذلالُ.

وقولُهُ: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ (الباءُ) للسَّببيَّة، و(ما) إمَّا موصولَةٌ، وعليه فيَكونُ عائدُها محذوفًا، التَّقديرُ: بما كانوا يَكسِبونَهُ، وإمَّا أن تَكونَ مَصدريَّةً فلا تَحتاجُ إلى عائدٍ، ويَكونُ التَّقديرُ: بِكَسْبِهِمْ.

مِن فوائِدِ الآيَةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ اللهَ تعالَى أَبْلغَ رِسالاتِه كُلَّ أحدٍ ولم يَدَعْ أحدًا بلا هِدايةِ دَلالَةٍ؛ لقولِهِ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ وهذه الجُملةُ التَّفصيليَّةُ كما سبق في التَّفسيرِ معطوفةٌ عَلَى ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الهِدايةَ ليست مَقْصورَةً على هِدايةِ التَّوفيقِ، ولكنَّها تُطلَقُ على هِدايةِ الدَّلالَةِ والبَيانِ؛ لقولِهِ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ أي: دَلَّلناهُمْ على الحَقِّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الرَّدُّ على الجَبريَّةِ الَّذين قالوا: إنَّ الإنسانَ مُجْبَرٌ على عَملِهِ، يُؤخَذُ من قَولِ اللهِ تَعالَى: ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ﴾ لأنَّ استَحبُّوا تَدُلُّ على اخْتيارِهِمْ لهذا الشَّيءِ، وأنَّهُمْ آثَروه على الهُدَى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ من لم يَتَمَشَّ على هُدَى اللهِ فإنَّه أَعْمى، يُؤخَذُ من قول اللهِ تَعالَى: ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ﴾، وإذا كانوا مُبْصرينَ بأَعينِهِمْ فهُمْ عُمْيُ البَصائِرِ، إذن نَأخُذُ من ذلك فائدةً، وهي أنَّ العَمى نَوعانِ: عَمَى بَصَرٍ وعَمَى بَصيرَةٍ، وأَشدُّهُما عَمَى البَصيرَةِ، فكم مِن إنسانٍ أَعْمى البَصَرِ، لكنَّه مُبْصِرُ البَصيرَةِ، وكم من إنسانٍ مُبْصِرِ البَصَرِ لكنَّه أَعْمى البَصيرَةِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَعجيلُ العُقوبةِ لِمَنْ آثَرَ العَمَى على الهُدَى، يُؤخَذُ مِن قولِه تَعالَى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ أنَّ الفاءَ للتَّرتيبِ والتَّعقيبِ هذا وَجْهٌ، ووَجْهٌ آخَرَ أنَّ الفاءَ هنا للسَّببيَّةِ والمُسبَّبُ يَعْقُبُ السَّببَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: التَّحذيرُ من إيثارِ العَمَى على الهُدَى، وأنَّ الإنسانَ إذا بُيِّنَ له الحقُّ، ولكنَّه عَمِيَ عنْه فإنَّه جَديرٌ بأن يُعاقِبَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ لأنَّ اللهَ أَخْبرنا بأَخْذِهِمْ لنَحْذَرَ من ذلك، فأَخْبَرنا اللهُ تَعالى بعُقُوبتهمْ حينَ خالفوا لِنَحْذَرَ من ذلك، ودَليلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١] هذا دَليلٌ، ودَليلٌ آخَرُ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد:١٠].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ ثَمودَ أُهلِكوا بِصاعِقَةٍ أي بشيء صُعِقوا به، وهَلَكوا، وقد بَيَّنَ اللهُ في آيَةٍ أُخْرَى أنَّهم أَخَذَتْهُمُ الرَّجفَةُ، فيَكونُ أُخِذوا بالرَّجفَةِ، حتَّى صُعِقوا وهَلَكوا.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ هؤلاءِ الَّذين غَرَّهم الْكِبْرُ أُهينوا وأُذِلُّوا، نَأْخُذُها مِن قولِه تَعالَى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ يَعني: عَذاب الذُّلِّ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثباتُ الأَسبابِ، لقولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ والباءُ هنا للسَّببيَّةِ.

واعلمْ أنَّ اللهَ تعالى لن يَحكمَ حُكمًا شرعيًّا ولا حُكمًا قَدريًّا ولا حُكمًا جزائيًّا إلَّا لسببٍ، هذه خُذْها قاعِدَةً لن يَحْكُمَ حُكمًا شرعيًّا كالإيجاب والتَّحريمِ والإباحَةِ، ولا قَدَريًّا كالخَلْقِ والتَّكوينِ، ولا جَزائيًّا إلا لسببٍ نعلمُ ذلك عِلْمَ اليَقينِ، ونَأخُذُه من أنَّ اللهَ تَعالَى حَكيمٌ، والحَكيمُ هو الَّذي يَضَعُ الأشياءَ مَواضعَها لا يُمكنُ أن يَكونَ فعلُ اللهِ فَلتةً ولا صُدفةً ولا لَغوًا ولا لَعِبًا، بل لا بُدَّ له من سَببٍ اقتَضاه، لكن هل كُلُّ سببٍ اقتَضى حُكمَ اللهِ يَكونُ مَعلومًا للخَلقِ؟

الجواب: لا، لأنَّ الخَلقَ أَعجزُ مِن أن يُدْرِكوا حِكمةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وكم من أَحْكامٍ شَرعيَّةٍ وكَونيَّةٍ وجَزائيَّةٍ لا نَعلمُ حِكمتَها؛ لأنَّنا أَقْصرُ من أنْ نُحيطَ بحِكمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثباتُ أنَّ العَمَلَ كَسْبٌ للإنسانِ؛ لقَولِهِ: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾.

ويَتَفَرَّعُ على هَذِهِ الفائِدَةِ: أنَّه إذا كان العَمَلُ كَسْبًا للإنسانِ، فإنَّه يَجِبُ عليه بمُقْتَضى العَقْلِ كما هو مُقْتَضى الشَّرعِ أنْ يَسعَى إلى الكَسْبِ المُفيدِ لا إلى الكَسْبِ الضَّارِّ، كما كان يَفعلُ في الدُّنيا، أليس الواحِدُ منَّا في الدُّنيا يَسعَى إلى الكَسْبِ النَّافعِ، بَلَى، إذن يَجِبُ أن تَسعَى إلى الكَسْبِ النَّافعِ في الآخِرَةِ، ولهذا ضَلَّ مَنْ ضَلَّ في عَقلِه ودينِه مَن احتَجَّ بالقَدَر على مَعاصي اللهِ، ولم يَحتَجَّ بالقَدَر على أُمورِ الدُّنيا، ففي أُمور الدُّنيا يعمَلُ ويَكْدَحُ ويَسعَى لِما فيه المَنْفَعَةُ والمَصلحَةُ، لكن في أُمورِ الآخِرَةِ يَتكاسلُ، ثُمَّ يَقولُ هذا القَدَرُ، فنَقولُ: قد ضَلَلتَ، كيف تَحتَجُّ بالقَدَر على كَسْبِ الآخِرَةِ ولا تَحتَجَّ به عَلَى كَسْبِ الدُّنيا.



الآية (١٨)

• ● ۞ ● •

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [فصلت:١٨].

• ● ۞ ● •

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَنَجَّيْنَا ﴾ منها] أي: من صاعِقَةِ العَذابِ الهونِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾[فُصِّلَت:١٨] نَجَّينا من هذا العَذابِ الَّذين آمَنوا، وكانوا يَتَّقونَ، جَمَعوا بَينَ الإيمانِ والتَّقْوى، وهذا هو سَبَبُ النَّجاةِ.

من فوائِدِ الآيَةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: عَدْلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يُؤخَذُ من قولِه: ﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ فيها إِثباتُ العَدْلِ لله عَزَّوَجَلَّ والعَدْلُ مَعناه عَدَمُ الجَوْرِ وعَدَمُ الظُّلْمِ، ووَجهُ الدَّلالَةِ في الآيَةِ والَّتي قَبلَها إِثباتُ النَّجاةِ لِلمُؤمِنينَ والعَذابُ لِلمُعرضينَ هذا دَليلٌ على الْعَدْلِ؛ لأَنَّه أَعْطى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كلَّ إنسانٍ ما يَستحِقُّ، ولا شكَّ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أحكمُ الحاكِمينَ، ومن كونِه أَحكم الحَاكمينَ لازِمٌ أنْ يكونَ أَعْدلَهم؛ لأَنَّه كُلَّما كان الحُكْمُ أَعدلَ كان أَحْكمَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإيمانَ والتَّقْوى سببٌ للنَّجاةِ؛ لقولِهِ: ﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ ومثلُه قولُه تَعالَى: ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾[الزُّمَر:٦١].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الإيمانَ وَحدَه لا يَكفي بَلْ لا بدَّ من إيمانٍ وتَقْوى؛ لقولِهِ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ ووَجْهُ الْمُقارَنَةِ بَيْنَ هذِهِ الآيَةِ وبَيْنَ قولِه تَعالَى:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢] أنَّ الَّذين آمَنوا وكانوا يَتَّقونَ والَّذين يُنَجِّيهُمُ اللهُ هم أولياءُ اللهِ؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ يُطابقُ تمامًا هذِهِ الآيَةَ حتَّى في اللَّفظِ هُناكَ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ وهذه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: جَوازُ حَذْفِ ما يُعلمُ، يُؤخَذُ مِن قولِهِ: ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ والمَحذوفُ مَفعولُ ﴿يَتَّقُونَ﴾؛ أي: وكانوا يَتَّقون اللهَ، وإن شِئتَ فقُلْ: وكانوا يَتَّقونَ ما يَجِبُ اتِّقاؤُهُ؛ لأنَّ اللهَ تَعالَى أحيانًا يَقولُ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، وأحيانًا يَقولُ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا لَّا تَجۡزِى نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٍ﴾ [البقرة:٤٨]، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١] فإذا قُلنا: وكانوا يتَّقون ما أُمِروا باتِّقائِه صار ذلك أَعَمَّ، وقد أَمَرنا بتَقْوى اللهِ، وتَقْوى النَّار وتَقْوَى يَوم القيامَةِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فَضيلَةُ الإيمانِ والتَّقوَى وأنَّه سَببٌ للنَّجاةِ؛ لقولِهِ: ﴿وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ فإذا قال قائلٌ: أَلَيْسَ اللهُ تعالَى يُنزِلُ عُقوبَةً أحيانًا في أَقْوامٍ فيهم المُتَّقي وفيهم غَيْرُ المُتَّقي؟

فالجَوابُ: أنَّ اللهَ تعالى يَأخُذُ المُتَّقيَ بذَنْبِ غير المُتَّقي في الدُّنيا، ففي الدُّنيا يُعذَّبون جَميعًا ويُبْعثون في الآخِرَةِ على نِيَّاتهم وأعمالِهِمْ، دَليلُ هذا قولُه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً﴾ [الأنفال:٢٥] يعني: احْذَروا هذه الفِتْنَةَ، وهذا يَعني أنَّنا نَأمُرُ بالمَعروفِ ونَنْهى عن المُنْكرِ لنتَّقِيَ بها ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾.



الآيات (١٩-٢٤)

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا
جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ
شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾
وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا
يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ
﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾ [فُصِّلَت:١٩-٢٤].

قوله تعالى: ﴿يُحْشَرُ﴾ فيها قِراءتانِ: ﴿يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ وعلَى هذه القِراءةِ يَكونُ الفِعلُ مَبنيًّا لِما لَمْ يُسَمَّ فاعلُه، ﴿يُحْشَرُ﴾ يكونُ مبنيًّا لما لم يُسَمَّ فاعلُهُ، وكلَّما رَأَيتَ فِعلًا مُضارعًا مَضمومَ الأَوَّل مَفتوحَ ما قَبْلَ الآخِرِ فهو مَبنيٌّ لِما لم يُسَمَّ فاعلُهُ، فإنْ رأيتَه مَضمومَ الأَوَّل فقط فلا يَكونُ مبنيًّا لِما لم يُسَمَّ فاعلُهُ؛ لأنَّ المُضارِعَ من الرُّباعيِّ يَكونُ مَضمومَ الأَوَّل مثل: يُقْدِمُ الرَّجلُ، يُكرِمُ الرَّجلَ وما أَشْبَهَ ذلك.

إذن هذا اللَّفظُ إِحْدى القِراءتَينِ ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ ﴾ وعلى هذا فيَكونُ ﴿يُحْشَرُ﴾ فِعلًا مُضارعًا مبنيًّا لِما لم يُسَمَّ فاعلُهُ، ولاحِظْ أنَّ قولَنا لما لَمْ يُسمَّ فاعلُه أولى من قولنا مبنيٌّ للمَجهولِ؛ لأنَّه قد يَكونُ الفاعِلُ معلومًا كقولِه تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ الخالقُ اللهُ، مَعلومٌ مع أنَّ الفِعلَ مبنيٌّ لِما لم يُسَمَّ فاعلُهُ، ولهذا

فالتَّعبيرُ بقولِكَ: (خُلِقَ) فِعلٌ ماضٍ مبنيٌّ لـما لم يُسَمَّ فاعلُهُ، أَولَى مِن قولِكَ: (خلق) فِعلٌ ماضٍ مبنيٌّ للمَجهولِ، وكذلك ﴿يُحۡشَرُ﴾ فِعلٌ مُضارعٌ مَبنيٌّ لِـما لم يُسَمَّ فاعلُهُ، وقولُهُ: ﴿أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ﴾ ﴿أَعۡدَآءُ﴾ نائبُ فاعلٍ.

وفيها قِـراءةٌ أُخْرى: «ويَومَ نَحشُرُ أَعداءَ اللهِ» أشار إليه المفسِّر ما حاجَةٌ للتَّعليقِ، ويومَ نَحشُرُ أَعداءَ اللهِ، وعلى هذه القِراءةِ تكونُ (نَحشُرُ) فعلًا مضارعًا مبنيًّا للفاعلِ، والفاعلُ هنا مُستتِرٌ وُجوبًا، و(أعداءَ) مَفعولٌ به مَنصوبٌ.

والفاعلُ إذا كان تَقديرُه أنا أو أنت أو نحن فهو مُستتِرٌ وجوبًا، وإذا كان تَقديرُه هو أو هي فهو مستتِرٌ جوازًا. مَثَلًا: (أَقُومُ) مُستتِرٌ وجوبًا تَقديرُه: أنا، (تَقُومُ) تُخاطِبُ رجلًا تَقولُ أنت تَقومُ وجوبًا؛ لأنَّ تَقديرَه أنت، (نَقومُ) وجوبًا؛ لأنَّ تَقديرَه: نحن، (قام) جوازًا؛ لأنَّ تَقديرَه: هو، (قامت) جوازًا؛ لأنَّ تَقديرَه هي، (تقوم) إذا كان تَتحدَّث عن امرأةٍ فقلت: هندُ تَقومُ فهو مستتِرٌ جوازًا؛ لأنَّ التَّقديرَ: هي، وإذا كنت تُخاطِبُ رجلًا فهو مُستتِرٌ وجوبًا؛ لأنَّ التَّقديرَ: أنت، إذن هذا الضَّابطُ ما كان تَقديرُه هو أو نحن أو أنت فهو مستتِرٌ وجوبًا، وما كان تَقديرُه هو أو هي فهو مستتِرٌ جوازًا.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ﴾ (يوم) ظرفٌ، وكُلُّ ظرفٍ لا بدَّ له من مُتعلِّقٍ؛ لأنَّ الظَّرفَ اسمُ مفعولٍ فيه، فلا بدَّ من فِعلٍ، ولهذا قال ناظمُ الجُمَلِ:

لا بـدَّ للجـارِ مِـن التَّعلُّـق بِفِعلٍ أو معنـاه نحـو مُرتَقـي

والعامِلُ في (يوم) مَحذوفٌ، التَّقديرُ كما قال المفسِّر: [واذكر يومَ يُحشَرُ] ﴿أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ﴾ و﴿يُحۡشَرُ﴾ بمعنى يُجمَعُ ويُساقُ، وفيها قِراءتانِ: بالياءِ والنُّون المَفتوحَةِ، يَعني يُحشَرُ بالياءِ والنُّونِ المَفتوحَةِ وضَمِّ الشِّينِ. يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِالياءِ والنُّون المَفتوحَةِ وضَمِّ الشِّينِ وفَتحِ الهَمْزَةِ].

لم يُكمِلِ المفسِّر في الواقِعِ القِراءةَ الثَّانيةَ، ﴿يُحۡشَرُ﴾ فيها قِراءتانِ: الأُولَى ضَمُّ الياءِ وفتحِ الشِّينِ، وعلى هذه القِراءَةِ يَجِبُ أن تكونَ ﴿أَعۡدَآءُ﴾ مَرفوعَةً على أَنَّها نائبُ فاعِلٍ.

القِراءَةُ الثَّانيةُ: بفَتحِ النُّون (نَحشُرُ) وضَمِّ الشِّين وعلى هذِهِ القراءَةِ فيَجِبُ أن تَكونَ (أعداءَ) مَنصوبَةً على أَنَّها مَفعولٌ به، «ويَومَ نَحشُرُ أعداءَ اللهِ».

والقِراءتانِ اللَّتانِ تَكونانِ في القُرآنِ الَّذي بَيْنَ أَيدينا ليس هما الحُروفَ السَّبعةَ، فالحُروفُ السَّبعَةُ الآنَ غَيرُ مَعلومَةٍ؛ لأَنَّه قُضِيَ عليها بتَوحيدِ المُصحفِ في عَهدِ عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لكنَّ القِراءاتِ السَّبعَ المَوجودَةَ في حَرفٍ واحِدٍ وهو حَرفُ قُريشٍ الَّذي تَوحَّدت المَصاحِفُ عليه في عَهْدِ عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولهذا لا حاجَةَ إلى التَّفتيشِ والتَّنقيبِ عن الحُروفِ السَّبعَةِ في وقتنا هذا؛ لأَنَّها انتهت وقُضِيَ عليها.

قال اللهُ تَعالَى: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ ﴿أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ﴾ يُمكنُ أن نَعرفَهم بمَعرِفَةِ أولياءِ اللهِ، وأَوْلياءُ اللهِ تعالَى قال اللهُ في بَيانِهِمْ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢-٦٣]، ضِدُّ الإيمانِ الكُفْرُ، وضِدُّ التَّقوى المَعاصي والفُسوقُ، فأعداءُ اللهِ إذن هُمُ الكُفَّارُ والفَسَقَةُ يُحشَرونَ ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: يُساقونَ إليها ويُجمَعون إليها.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾: يُساقونَ] ولها معنًى آخَرَ أيضًا: يُساقونَ بالتَّوزيعِ؛ يَعني أنَّهم طَوائِفُ وأُمَمٌ كُلَّما دَخَلت أُمَّةٌ لعنت أُخْتَها، فهم يُوزَعونَ بالسِّياقِ أي يُساقونَ، ويُوزَعونَ أيضًا بالتَّفريقِ، كُلُّ أُمَّةٍ وَحْدَها فهُمْ يُوزَعونَ.

قال اللهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ﴾ إلخ [فُصِّلَت:٢٠].

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ زائدَةٌ] يَعني: كَلِمَةَ ﴿مَا﴾ زائدَةٌ؛ لأنَّها وقعت بَعْدَ ﴿إِذَا﴾، وكُلَّما وقعت (ما) بعدَ (إذا) فهي زائدَةٌ، وعليك بحِفْظِ البيتِ:

يــا طالبًــا خُــذْ فائــدَه (مــا) بَعــدَ (إذا) زائــدَه

قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ ﴿جَآءُوهَا﴾ أي وصلوا إليها ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ قَبْلَ أن يَدخُلوها تَستَشْهِدُ عليهم هذه الجَوارحُ حتَّى يَدخُلوا وهم موقِنونَ أنَّهم عومِلوا بالعَدْلِ والإنصافِ.

ويَشْهَدُ عليهم سَمْعُهم، فهل يَشْهَدُ بمـا سَمِعوا مِن اللَّغوِ والكَلامِ المُحرَّمِ، أو يَشهدُ السَّمْعُ بجَميعِ الأعمالِ؟ يَحتَمِلُ وَجْهَينِ: إمَّا أن يَكونَ المَعنَى: شَهِدَ عليهم سَمْعُهم بما سَمِعوا مِنَ الباطِلِ، وأبصارُهُم بما شاهَدوه مِن الباطِلِ، وجُلودُهم بما لَمسوا مِنَ الباطِلِ، أو أنَّ هذه الأعضاءَ تَشْهَدُ على كُلِّ عَمَلٍ عَمِلوه، يَحتَمِلُ هذا وهذا، والثَّاني أَعظَمُ، أن يَكونَ السَّمعُ يَشهَدُ بما حَصَلَ عن طَريقِهِ، وبما حَصَلَ عن طَريقِ البَصَرِ، وبما حَصَلَ عن طَريقِ اللَّمْسِ، هذا أعظَمُ مِمَّا لو شَهِدَ بما حَصَلَ منه فقط.

وهَلْ هذا الإِشْهادُ بعد إِنكارٍ أو لِلتَّحقيقِ والتَّوكيدِ؟

الجواب: ليس في الآيَةِ ما يَدُلُّ على ذلك، لكن قيلَ -كما في آيَةٍ أُخْرَى- أنَّ هذا إنَّما يَكونُ بعدَ إنكارِهِم أن يَكونوا أَشْركوا كما قال تَعالَى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣].

وقولُهُ: ﴿وَجُلُودُهُم﴾ بما مَسَّــت، وهي أَعَمُّ من شَهادَةِ السَّمعِ والبَصَـرِ؛ لأنَّه يَدْخُلُ في ذلكَ اليدُ والرِّجلُ والشَّمُّ وغيرُ ذلك، كُلُّ هذا عَن طَريقِ المُلامَسَةِ.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ ولم يَقُلْ: لأبصارِهِم؛ لأنَّ شَهادَةَ الجُلودِ أَعْظَمُ وأعَمُّ، ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: أعداءَ اللهِ، ﴿لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ وهذا الاسْتِفهامُ اسْتِفهامُ إِنكارٍ، كأنَّهم يَقولونَ: نَحنُ نُجادِلُ عنكم فكيفَ تَشهدونَ عَلينا.

﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ يَعني أنْ شَهِدْنا؛ لأنَّ اللهَ أَنطَقَنا واللهُ عَزَّوَجَلَّ بيدِه مَلكوتُ السَّمواتِ والأَرْضِ يُنْطِقُ كُلَّ شيءٍ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: أراد نُطقَهُ] ولا حاجَةَ إلى هذا القَيدِ؛ لأنَّ اللهَ تَعالَى لا يَكرهُه أحدٌ حتَّى نَقولَ إنَّ هذا الفِعْلَ مُقَيَّدٌ بالإرادَةِ، ونَقولُ: أَنْطقَ كُلَّ شيءٍ ولا نَقولُ أراد نُطْقَه لأنَّه لا يُمكِنُ أن يَنطِقَ الشَّيءُ إلَّا بعدَ إرادَةِ اللهِ، ومثل هذا القَيْدِ غيرُ مُناسبٍ؛ لأنَّنا لو اعتبَرناه لقلنا: كُلُّ فِعلٍ ذَكَرَه اللهُ عن نَفْسِه يَجِبُ أن نُقيِّدَه بالإرادَةِ، وهذا أَمْرٌ مُستكرَهٌ إذ إنَّنا نَعلَمُ أنَّ كلَّ فِعلٍ فَعَلَه اللهُ فإنَّما هو عن إرادةٍ، كما قال تَعالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

فاللهُ تعالى أَنْطَقَ كلَّ شيءٍ، أنطَقَ الحَجَرَ والشَّجَرَ، وسُمِعَ تَسبيحُ الحَصا والطَّعامِ بين يَدَيِ النَّبيِّ[(١)] -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم-، بل قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤] كُلُّ شيءٍ يُسبِّحُ اللهَ بِلِسانِ المَقالِ إلَّا الكافِرَ فإنَّه لا يُسبِّحُ اللهَ بلسانِ المَقالِ؛ لأنَّه كافِرٌ يَصِفُ اللهَ تعالى بكُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، وكُلُّ شيءٍ يُسَبِّحُ اللهَ بِلِسانِ الحالِ حتَّى الكافِرُ يُسبِّحُ اللهَ بلسانِ الحالِ، بما أَودَعَ اللهُ فيه مِنَ الآياتِ في الخِلقَةِ والخَلْقِ وما أَشبَهَ

(١) أخرجه البزار في مسنده رقم (٤٠٤٠)، والطبراني في الأوسط رقم (١٢٤٤)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٦٤)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ذلكَ، كُلُّه يُسبِّحُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ؛ أي: يُستَدَلُّ به على تنزيهِ اللهِ عن كُلِّ نقصٍ وعَيبٍ.

فإنْ قال قائلٌ: هل عُمومُ قولِه تَعالَى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ ينطبق على قول الصحابة أن الطعام كان يسبح بين أيديهم ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ بأن يكونَ سَبَّحَ ولكن لم يَفْقَهوا تَسبيحَه إلَّا بإخبارِ النَّبيِّ ﷺ، أو أنَّه سَبَّحَ حقيقةً يَفهمُه أيُّ أحدٍ.

فالجَوابُ: ظاهرُ النُّصوصِ أنَّه يُسبِّحُ حَقيقةً، لكنَّ التَّسبيحَ ﴿لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ باعتِبارِ المَجموعِ لا بِاعتِبارِ كُلِّ فردٍ، فإنَّ مِنَ الأشياءِ ما نَسمَعُ تَسبيحَه يُسبِّحُ تمامًا ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص:١٨] فالظَّاهرُ أنَّها تُردِّدُ كما قال تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ:١٠].

فإن قيلَ: هل التَّسبيحُ كما نقولُ نَحنُ أو خاصٌّ بها؟

فالجَوابُ: أنَّه تَقولُ سبحانَ اللهِ.

وإن قيل: هل صوتُ غَديرِ الماءِ هو تَسبيحُهُ؟

فالجَوابُ: لَا، هذا خطأٌ، فخَريرُ الماءِ ليس صوتَ تَسبيحٍ، بل هذا طَبيعيٌّ، فهل نَقولُ حركةُ الإنسانِ بالأرضِ إذا وَطِئت أقدامُه الأرضَ وسَمِعَ لها الصَّوتَ هذا تَسبيحٌ؟!

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قيل: هو مِن كلامِ الجلودِ، وقيل هو مِن كَلامِ اللهِ تَعالَى كالَّذي بَعدَهُ، وموقِعُه قَريبٌ مِمَّا قَبلَه، بأنَّ القادِرَ على إنشائِكم ابتداءً وإِعادَتِكم بعدَ الموتِ أَحياءً قادرٌ على إِنطاقِ جُلودِكم وأَعضائِكم].

وقولُهُ: ﴿خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يحتمِلُ أنَّه مِن كَلام اللهِ يُخاطِبُ به هَؤلاءِ المكذِّبينَ والأعداءَ، ويَحتمِلُ أنَّه تَتِمَّةُ كَلامِ الجلودِ، يعني أنَّ الجلودَ تَستدِلُّ على قُدرةِ الله تعالَى على إنطاقِها بأنَّه خَلَقَهم أوَّل مَرَّة.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان ذلك: [قيل: هو مِن كَلامِ الجُلودِ، وقيل: هو مِن كَلامِ اللهِ]، وإذا قال المُؤَلِّفونَ: قيل كذا وقيل كذا، فالخِلافُ هنا مُطلَقٌ لا تَقديمَ فيه ولا تَأخيرَ، وإذا قيل: هو مِن كَلامِ الجُلودِ، وقيل: مِن كَلامِ الله هنا يَكونُ قَدَّمَ الأَوَّلَ، أمَّا إذا قال المُؤَلِّفون: قيل وقيل، فهذا لَيسَ فيه تَقديمٌ، بل هو نَقْلُ خِلافٍ على وَجهِ الإطْلاقِ.

وعلى هذا فالقَولانِ لَدى المفسِّر مُتساويانِ؛ وأَن نَجعلَه من كَلامِ الجُلودِ حتَّى يَتَّصِلَ الكَلامُ بَعضُه ببَعضٍ: أَقْربُ من حيثُ اللَّفظِ، أَقْربُ أنَّ الجُلودَ تَقولُ: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾، وتَقولُ لِهؤلاءِ: هو الَّذي خَلَقَكم أَوَّل مَرَّةٍ وإليه تُرجَعونَ.

لكنَّ القَولَ الثَّاني أَقوَمُ للمَعْنى، يَعني: أنَّ اللهَ لـمَّا بَيَّنَ أنَّ هؤلاءِ يُعادونَ يومَ القيامَةِ ويُحاسَبونَ وتَشهَدُ عليهمُ السَّمعُ والأبصارُ والجُلودُ بَيَّنَ عَزَّوَجَلَّ أنَّه قادرٌ على الإعادَةِ؛ لأنَّ هؤلاءِ الَّذينَ كَذَّبوا يُنكِرونَ البَعْثَ فقال: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، والقادِرُ على الخَلْقِ أَوَّلَ مَرَّةٍ قادرٌ على إعادتِهِ، دَليلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧] فهو يَقولُ: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، والقادِرُ على ذلك قادِرٌ على الإعادَةِ.

وقولُهُ: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هذا فيه أيضًا إشارَةٌ إلى الحِكْمةِ مِن خَلْقِ الخَلْقِ أنَّهم يُبتَلونَ فيُؤمَرونَ ويُنهَونَ، ومَآلُهُم إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، يُجازيهم بِحَسَبِ أعمالِهم الَّتي كَلَّفهم بها.

فإنْ قال قائلٌ: هَلِ العَذابُ الواقعُ على الأعضاءِ تَأثيرُه في نَفْسِ الأعضاءِ؟

فالجَوابُ: لا، الواقِعُ أنَّ العذابَ على أَهْلِ النَّارِ واقعٌ على كُلِّ البَدَنِ، ولـهذا قال اللهُ تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦] لكن هم يتَعَجَّبون، ويُوَبِّخون السَّمعَ والأبصارَ والجُلودَ، لِمَ شَهِدْتُم علينا ونحن نُجادِلُ عنكم.

ثُمَّ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾.. إلى آخرِهِ، هذا هو معنى قولِ المفَسِّر: [كالَّذي بعده]، وهذا لا شكَّ أنَّه من كَلامِ اللهِ ولَيْسَ من كَلامِ الجُلودِ، وقولُ المفسِّرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: [ومَوقعُه قَريبٌ مِمَّا قَبْلَه] يعني: مَوقعُ هذا الكَلامِ ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قَريبٌ مِمَّا قَبلَهُ، يعني: يُبَيِّنُ مُناسَبَةَ هذه الجُملَةِ لِـما قَبلَها، وهو أنَّ القادِرَ على إنشائِكُم ابتداءً وإِعادَتِكم بَعدَ المَوتِ أحياءً قادرٌ على إِنْطاقِ جُلودِكم وأَعْضائِكم.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ عنِ ارتكابِكم الفَواحِشَ من ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾]، يعني: ما كُنتُم تَستَخفونَ في مَعاصيكُم وكُفرِكم، وغَيرُ ذلك مِمَّا يَستَرونَ به خوفًا من: ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾، يعني: أنَّ الكُفَّارَ يَستتِرونَ أحيانًا بِالمَعاصي لكن لا يَستَتِرونَ خوفًا مِن أن تَشهَدَ عليهم سَمْعُهم وأبصارُهم وجُلودُهُم؛ لأنَّ هذه الأشياءَ لا استِتارَ عنها إطلاقًا إذ إنَّها هي الإنسانُ، ولا يُمكِنُ الاستِتارُ عنها، وأيضًا هُم لا يُؤمنـونَ بأنَّها سوف تَشهَدُ عليهم يومًا من الأَيَّامِ، فصاروا لا يَستَتِرونَ عن هذه الأشياءِ لوَجهينِ:

الأَوَّلُ: أنه لا انفكاكَ عنها، وَجهُه أنَّها هي مُكوِّناتُهم.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّه ما كان يَطرأُ على بالِهم يومًا مِن الأَيَّام أنَّ هذه سوف تَشهدُ عليهم؛ لأنَّهم يُنكِرونَ البعثَ، وإنكارُ البَعثْ يَستلزِمُ أَلَّا يُؤمنوا بأنَّها تَشهَدُ عليهم.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ معنى ﴿تَسْتَتِرُونَ﴾: تستخفون، وقولُهُ: ﴿أَن يَشْهَدَ﴾ هي على تقديرِ محذوفٍ، التَّقديرُ: خَوفَ أن يَشهَدَ عليكُمْ سَمْعُكم وأبصارُكم.. إلى آخِرِه.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لأنَّكم لم توقِنوا بالبَعثِ]، هذا التَّعليلُ أضفنا إليه تعليلًا آخَرَ، وهو عَدَمُ انْفِكاكِ جُلودِهِمْ وسَمْعِهم وأبصارِهِم.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ﴾ عند استِتارِكم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾] هذا الَّذي ظَنُّوه باللهِ فظَنُّوا باللهِ تَعالَى ظَنَّ السَّوءِ، وأنَّهم إذا استَتَروا عَنِ الخَلْقِ استَتَروا عن اللهِ، ولهذا قال: ﴿كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ والكَثيرُ الثَّاني: ما يَفعَلونه عَلانيَةً ولا يَهتمُّون به.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ مبتدأٌ ﴿ظَنُّكُمُ﴾ بَدَلٌ منه ﴿ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ نَعتٌ والخَبَرُ ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾] المفسِّر أعرَبَ الآيَةَ على وَجهِ التَّفصيلِ.

﴿وَذَٰلِكُمْ﴾: (ذا) اسْمُ إشارَةٍ و(اللَّام) للبُعْدِ و(الكافُ) حَرفُ خِطابٍ وجاءت بالجَمْعِ؛ لأنَّ المُخاطَبَ جَماعَةٌ.

وهنا يَجِبُ أن نَعرِفَ أنَّ اسمَ الإشارَةِ يَعودُ إلى المُشارِ إليه، و(الكافُ) تَعودُ إلى المُخاطَبِ، فإذا خاطبت ذَكَرًا تُشيرُ إلى شيءٍ مُذكَّرٍ تَقولُ: ذلك، وإذا أشرت إلى اثنين مُخاطبًا ذَكَرًا تَقولُ: ذانِكَ، وإذا أشرت إلى واحدٍ تُخاطِبُ اثنين تَقولُ: ذلكما، وإذا أشرت إلى واحدٍ تُخاطِبُ جماعَةَ نساءٍ تَقولُ: ذلكن، وإذا أشرت إلى واحدةٍ تُخاطِبُ جماعةَ إناثٍ، تَقولُ: تِلْكُنَّ، وإذا أشرت إلى جَماعَةٍ مُخاطِبًا جماعَةَ ذُكورٍ، تَقولُ: أولئكم، ففي القُرآنِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء:٩١]، وإذا أَشَرت إلى مُؤَنَّثتينِ تُخاطِبُ اثنتَينِ، تَقولُ: تَانِكُما، والأمثِلَةُ كَثيرةٌ، لكنَّ المُهِمَّ ألَّا يَلتَبِسَ المُشارُ

إليه بالمُخاطَبِ، فاسْمُ الإشارَةِ يَكونُ بِحَسَبِ المُشارِ إليه، والكافُ بِحَسَبِ المُخاطَبِ.

وفي (كافِ المُخاطَبِ) في الإشارَةِ أَقوالٌ ثَلاثَةٌ وكُلُّها لُغاتٌ:

١- نُلزِمُها طَريقةً واحدَةً بالإفرادِ والفَتْحِ، فنقول: ذلكَ تانكَ ذانكَ.

٢- أو نُلزِمُها الإفرادَ مع الفَتْحِ للمُذكَّر والكَسرِ للمُؤَنَّث، هذانِ وَجهانِ.

٣- أو نَقولُ: هي حَسَبُ المُخاطَبِ المُفرَدِ المُذكَّر له كافٌ مفتوحةٌ والمُفردَةُ المُؤَنَّثةُ كافٌ مكسورةٌ، والمُثَنَّى كافٌ مَقرونَةٌ بعَلَم التَّثنيَةِ، وجماعَةُ النِّساءِ كافٌ مقرونَةٌ بنونِ النِّسوَةِ، وجماعَةُ الذُّكورِ كافٌ مقرونَةٌ بميمِ الجَمْعِ، الأخيرِ هو الأفصَحُ، لكن يَجوزُ الوَجهانِ الآخرانِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ مبتدأٌ ﴿ظَنُّكُمُ﴾ بدلٌ منه ﴿ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ نعتٌ، والخَبَرُ ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾]، يعني مَعناه أنَّ قولَه: ﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ وما عُطِفَ عليها أو صار صِفَةً لها في مقامِ المبتَدَأِ، و﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ في مقامِ الخَبَرِ.

ويُمكِنُ احتِمالَ وَجْهٍ آخَرَ أن نَجعلَ (ذا) مُبتدأً و﴿ظَنُّكُمُ﴾ خَبرُهُ، و﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ خَبَرٌ ثانٍ، وهذا الوَجهُ أَقْوَى في المعنَى، يعني: ذلكم ظَنُّكُم الَّذي ظَنَنتم بـرَبِّكم -ولم تَظنُّوا به سـواه- أنَّه لن يُعيدَكم، ثُمَّ أخبَرَ عن هذا الظَّنِّ خَبـرًا آخَرَ فقال: ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾، فهذا المعنى أَقْوى من قَولِ المفسِّر رَحِمَه اللهُ تعالَى.

قال اللهُ تَعالَى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ وهو اللهُ عَزَّوَجَلَّ وأَضـافَ الرُّبوبيَّة إليهم؛ لأنَّهم يُقِرُّون برُبوبيَّة اللهِ لا يُنكِرونها ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون:٨٦-٨٧] وفي قِراءةٍ أُخْرَى سَبعيَّةٍ: «سيقولون الله».

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ أي [أَهْلَكَكُمْ].

وقولُه تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: صِرتُمْ مِن الخاسِرينَ، وهُنا (أَصْبَحَ) لو نَظَرنا إلى مُجَرَّدِ لَفْظِها لكانت دَالَّةً على الإِصْباحِ، لكنَّها تُستَعْمَلُ في اللُّغة العربيَّة بمعنى الصَّيرورَةِ، تَقولُ: أصبَحَ لا يَعلَمُ شيئًا أي صار لا يَعلَمُ شيئًا، وهُنا أصبحتم مِنَ الخاسِرينَ ليس المَعْنى دَخَلْتم في الصَّباح خاسِرينَ، ولكنَّ المَعْنَى: صِرتُمْ مِن الخاسِرينَ، والخاسِرُ ضِدُّ الرَّابحِ، وإنَّما قال: ﴿مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ لأنَّ هؤلاءِ الَّذين أَنْكَروا البَعثَ خَسِروا الدُّنيا والآخِرَةَ في الواقِعِ، فدُنياهُمْ لم تَنفَعْهم وهُمْ في الآخِرَةِ في النَّار، وهذا غَايةُ الخُسْرانِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟﴾ على العَذابِ ﴿فَٱلنَّارُ مَثْوًى﴾ مأوى ﴿لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾ يَطلُبوا العُتْبَى؛ أَيِ: الرِّضا ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ المَرضِيِّين].

﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ (الفاءُ) رابطَةٌ لجَوابِ الشَّرطِ، (ما) نافِيةٌ تعمَلُ عَمَلَ (ليس)، واسم (ما): (هم) مَبنيٌّ على السُّكونِ، ﴿مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ جارٌّ ومَجرورٌ مُتعلِّقٌ بالمَحذوفِ خبرُ (ما).

وهنا تَتَّفِقُ اللُّغتانِ الحِجازِيَّةُ والتَّميمِيَّةُ من حيثُ اللَّفظِ، وتختلفان من حيثُ الإعرابُ، أمَّا في قولِه تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف:٣١] فلا تَتَّفِقُ اللُّغتانِ، فلُغةُ تميمٍ أن يُقالَ: (ما هذا بَشَرٌ)؛ لأنَّ (ما) مُهمَلَةٌ عند التَّميميِّينَ، وعامِلَةٌ عَمَلَ (ليس) عند الحِجازِيِّينَ، فتَقولُ مَثلًا: (ما زَيدٌ قائمًا)، وإذا كُنْتَ خاطبت إنسانًا وقلت: (ما زَيْدٌ قائمًا) عرفنا أَنَّك حِجازِيٌّ، وإذا خاطبت إنسانًا وقلت: (ما زَيْدٌ قائمٌ) عرفنا أَنَّكَ تَميميٌّ؛ ولهذا قال الشَّاعِرُ[1]:

(١) غير منسوب، وانظر: نفح الطيب للمقري التلمساني (٥/ ٢٢٧).

ومُهفهَف الأعطافِ قلت له انتسب فأجـابَ مـا قَتْـلُ المُحِـبِّ حـرامُ

قوله: «انتسب» يعني: مِنْ أين أنت؟؛ فأخبَرَه بنَسَبِه أنَّه تَميميٌّ إذ لو كان غيرَ تَميميٍّ لقال: (ما قَتْلُ المُحِبِّ حَرامًا).

والاستِعتابُ طَلَبُ العُتْبَى، والعُتْبَى مَعناها قَبولُ العُذْرِ والرِّضا، فالمفسِّر فَسَّرها في النِّهايَةِ بالغايَةِ الَّتي هي الرِّضا؛ لأنَّ الإنسانَ إذا استُعْتِبَ وقُبِلَ عُذْرُه رَضِيَ عنه المُستَعتِبُ.

وهُنا وَعيدٌ شَديدٌ، إن يَصْبِروا فَالنَّارُ مَثوًى هم، لم يَقُلْ إن يَصْبِروا فلْيَنْتَظِروا الفَرَجَ، بل قال: ﴿فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾، أي: لَيْسَ لهم إلَّا النَّارُ، وهذا كقولِه تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطور:١٦] فَالعَذابُ سِوَى عَذابِ الآخِرَةِ يُنتَظَرُ الفَرَجُ له؛ لأنَّ دوامَ الحالِ مِنَ المُحالِ، فإذا صَبَرَ الإنسانُ على البَلاءِ فَالنِّهايَةُ الزَّوالُ، لكن في الآخِرَةِ إن يَصبِروا فلن يَسلَموا مِنَ العذابِ ﴿فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾، وهي مَثْوًى لهم قَبْلَ الصَّبرِ وبعد الصَّبرِ، لكنَّ هذا من بابِ التَّيئيسِ لهم، وأنَّ صَبرَهم لا يُفيدُهم شيئًا.

ومُناسَبَةُ جَوابِ الشَّرطِ لفعل الشَّرطِ هنا تَيئيسُ هؤلاءِ مِنَ الفَرَجِ، وقد تخفى مُناسبَتُه إذ إنَّ الإنسانُ يَتوقَّعُ أن يَكونَ الجَوابُ خِلافَ ذلك؛ لأنَّ ظاهِرَ الحالِ أن يَقولَ: فإن يَصبِروا فَالفَرَجُ قَريبٌ مَثَلًا، لكنَّه قال: فالنَّارُ مثوًى لهم، أي: فلن يَتخلَّصوا منها.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ﴾ يَطلُبوا العُتْبى أي: الرِّضا ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾] لأنَّهم يَسألونَ الله تعالى فيقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٧]، والجَوابُ: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨]، في الدُّنيا لو طالَبوا

العُتْبى وتابوا إلى اللهِ لحَصَلَ لهم ذلك، لكن في الآخِرَةِ قد فات الأَوانُ، وقولُهُ: ﴿فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: مأوى، وكُلُّ إنسانٍ مأواه النَّارُ فلا حَظَّ له في الجَنَّةِ.

مسألة: إِخبارُ الله عَزَّوَجَلَّ عن نفسِه في القُرآنِ بصيغَةِ الغائِبِ يَقولُ: قال اللهُ قال اللهُ..، أليسَ الأَفْضَلُ في اللُّغةِ الإِخْبارَ بصيغَةِ المُخاطَبِ؟

الجَوابُ: لا هذا له أَحْوالٌ، لكن يَقولُ العُلَماءُ إنَّ المُتكلِّمَ إذا عَـبَّر عن نفسِه بصيغَةِ الغائِبِ، فهذا دَليلٌ على العَظَمَةِ والتَّعظيمِ، ففَرْقٌ بَينَ أن يَقولَ المَلِكُ مَلِكُ الدُّنيا: إنَّ المَلِكَ يَأمُرُكم أن تَفعَلوا كذا، أو يَقولَ: إنِّي آمُرُكم، الأَوَّلُ أَعْظَمُ في التَّفخيمِ، وهذا من قَواعِدِ البَلاغَةِ تَعبيرُ المُخاطِبِ عن نفسِه بصيغَةِ الغائِبِ يدُلُّ على التَّعظيمِ لا سِيَّما إذا كان بوَصْفٍ يَقتَضي ذلك.

من فوائدِ الآياتِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ حَقيقَةِ النَّارِ؛ لقولِهِ: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ أعداءٍ للهِ كما أنَّ له أَولياءَ، وعَدُوُّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مَن كان كافِرًا فاجِرًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ أهلَ النَّارِ والعياذُ باللهِ يُساقونَ إلى النَّارِ أَوْزاعًا؛ أي مُتفرِّقينَ أُممًا؛ لقولِهِ: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ حَقيقَةِ النَّارِ وأنَّ هؤلاءِ يَصِلونَ إليها حَقيقَةً؛ لقولِهِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: دُخولُ التَّوكيدِ في كَلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ لأَنَّنا قلنا: (ما) زائدَةٌ لكنَّها للتَّوكيدِ، فإن قال قائِلٌ: كَلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مُؤَكَّدٌ بدونِ أداةِ

تَوكيدٍ، فما الفائدةُ مِن أنَّ اللهَ تعالَى يأتي كَثيرًا في كلامِه بأدواتِ التَّوكيدِ؟

فالجَوابُ: القُرآنُ لا شكَّ أنَّه مؤكَّدٌ، وأنَّ أخبارَه لا تحتاجُ إلى توكيدٍ، لكنَّ القُرآنَ نَزَلَ بلسانٍ عَربيٍّ مُبينٍ واللِّسانُ العَربيُّ يَقتضي أن يَكونَ الكَلامُ الهامُّ مُؤكَّدًا بأنواعٍ مِنَ التَّأكيداتِ؛ إذن تَأكيدُ ما يُؤَكَّدُ في القُرآنِ دَليلٌ على بُلوغِ القُرآنِ الفَصاحَةُ في أَعلَى مَعانيها؛ لأنَّه مُتَمشٍّ على قواعِدَ اللُّغةِ العَربيَّةِ الفُصحى.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إِثباتُ النُّطقِ للسَّمعِ والبَصَرِ والجُلودِ؛ لقولِهِ: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ﴾ والشَّهادَةُ تَكونُ بالنُّطقِ، وقد تَكونُ بغَيْرِ النُّطقِ، ولكنَّها في الأَصْلِ بالنُّطقِ، ولذلك قالوا لجُلودِهِمْ ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ أعضاءَ الْإِنسانِ تَكونُ يومَ القيامَةِ خُصومًا لَهُ، وَجهُ ذلك أنَّ هؤلاءِ أَنكَروا على سَمْعِهم وأَبصارِهم وجُلودِهم أن شَهِدوا عليهم.

وما ظَنُّك بأعضاءٍ تَكونُ يومَ القيامَةِ خُصومًا لك؛ فيَتَفَرَّعُ على هذه الفائدَةِ أنَّ الواجِبَ على الإنسانِ أنْ يَرعى هذه الأعضاءَ حَقَّ رِعايتِها، وألَّا يُورِّطَها فيما تَكونُ خَصمًا له به يَومَ القيامَةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الأعضاءَ مُنْفرِدةٌ تَعرِفُ رَبَّها عَزَّوَجَلَّ؛ لقولِها: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: عُمومُ قُدرَةِ اللهِ تعالى؛ لقَولِها: ﴿أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ ابتِداءَ الخَلْقِ مِنَ اللهِ لم يُشْرِكْ أحدٌ رَبَّ العالَمينَ في الخَلْقِ لا أُمٌّ ولا أَبٌ ولا سُلطانٌ ولا رَئيسٌ ولا وَزيرٌ، المُنْفَرِدُ بالخَلْقِ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: جَوازُ استعمالِ الأدِلَّةِ العَقليَّةِ، يُؤخَذُ مِن استِدلالِ اللهِ

تَعالى بالمَبْدَأ على المَعادِ، فَإِنَّ هذا دَليلٌ عَقليٌّ.

فإن قال قائلٌ: وهل تُقدَّمُ الأدِلَّةُ العَقليَّةُ على الأدِلَّةِ السَّمعيَّةِ؟

فالجَوابُ: لا؛ لأنَّ العَقلَ قد يُخطِئ، فيَظنُّ الإنسانُ أنَّ هذا عَقلٌ وليس بعَقْلٍ، وأمَّا الأدِلَّةُ السَّمعيَّةُ الثَّابتَةُ عن اللهِ ورَسولِه فهذه لا تُخطِئُ، ولهذا أَخْطَأَ مَن استَعْمَلَ العَقلَ، بل قَدَّمَه على السَّمعِ والنَّقلِ فيما يَتَعلَّقُ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ، وحَكَموا بعُقولِهم القاصِرَةِ على أُمورِ الغَيبِ استحالةً أو وجوبًا أو جوازًا، وأَعْرَضوا عن نُصوصِ الكِتابِ والسُّنَّةِ، ومن هؤلاء جَميعُ المُتكلِّمينَ مِنَ الأشاعِرَةِ والمُعتزِلَةِ والجَهمِيَّةِ وغيرِهم؛ حيثُ جَعلوا التَّلَقِّي فيما يَتَعلَّقُ بأسماءِ اللهِ وصِفاتِه على الاعتِمادِ على العَقْلِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ الرُّجوعِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فاستَعِدَّ لهذا الرُّجوعِ واعْلَمْ أَنَّك مُلاقٍ ربَّك، ولكن أَبْشِرْ إن كُنتَ مُؤمنًا، قال اللهُ تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٢٣] يعني لا يَخافُ المُؤمنُ من هذه المُلاقاةِ، بل له البِشارَةُ في الدُّنيا قَبْلَ الآخِرَةِ، لكنَّ حَقيقَةَ هذه البِشارَةِ لِلْمُؤمنِ خَاصَّةٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ هؤلاءِ المُجرِمينَ لا يُؤمنونَ بالبَعثِ؛ لقولِهِ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: تَمامُ قُدرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأنَّه قادرٌ على إنطاقِ كُلِّ شيءٍ حيثُ أَنطَقَ السَّمعَ والأبصارَ والجُلودَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ هؤلاءِ المُجرِمينَ يَظنُّون أنَّ اللهَ لا يَعلَمُ كَثيرًا مِمَّا يَعمَلونَ، وهو الَّذي يُخفونَه، فلهذا كانوا يُخفونَ عن اللهِ عَزَّوَجَلَّ ما يَقعونَ فيه مِنَ الكُفرِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ مثلَ هذا الظَّنِّ سببٌ لهلاكِ المَرْءِ -أن يَظُنَّ أنَّه لن يُبْعَثَ- بل هو هَلاكُه حَقيقَةً؛ لأنَّ الَّذي يُنكِرُ البَعثَ كافِرٌ، والكافِرُ لا حظَّ له لا في الدُّنيا ولا في الآخِـرَةِ لقولِ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزُّمَر:١٥].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّ هـؤلاءِ المُجرِميـنَ يظُنُّونَ أنَّهم رَبِحـوا المَعرَكَةَ باستِخفائِهم، وهذا يَنْطَبِقُ تمامًا على المُنافِقينَ، ولكنَّ حَقيقَةَ الأَمْـرِ أنَّهم خَسِـروا؛ لقولِه تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: أنَّ أهلَ النَّارِ لن يَخرُجوا منها سَواءٌ صَبَروا أم لم يَصْبِروا؛ لقولِه: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ ويُبيِّنُه قولُه تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور:١٦] وقولُه تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم:٢١].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: الإشارَةُ إلى أنَّ النَّار لا تَفنى؛ لقولِهِ: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ وهذا -أعني أنَّ النَّار لا تَفنى- هو قَولُ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ كما أنَّ الجَنَّةَ أيضًا لا تفنى.

وقد زَعَمَ بعضُ العُلَماءِ أنَّ النَّارَ تفنى في آخِرِ النِّهايَةِ، لكنَّ هذا الزَّعْمَ باطلٌ، يعني لا يَستَحِقُّ مَنزلَةً أن نَقولَ: إنَّه ضعيفٌ، بل نَقولُ إنَّه باطلٌ لا يَنْبَغي أن تُسوَّدَ به الصَّحائفُ، وذلك لأنَّ كَلامَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ الَّذي خَلَقَ النَّارَ، وهو عالمٌ بها وبمَصيرِها فيه التَّصريحُ بالتَّأبيدِ في ثَلاثَةِ مَواضِعَ من كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ:

المَوضِعُ الأَوَّلُ في سورَةِ النِّساءِ قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا﴾ [النساء:١٣٧].

والمَوضِعُ الثَّاني في سورَةِ الأحزابِ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥].

والمَوضِعُ الثَّالثُ في سورَةِ الجِنِّ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

ولهذا الإنسان يَعجَبُ أن يَقَعَ من بعضِ العُلَماءِ القَولُ بأنَّ النَّارَ تفنى مع وُجودِ الآياتِ الثَّلاثِ.

وقولُه: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ قد يَكونُ فيها إشارَةٌ إلى أنَّها ستَبقى أَبَدَ الآبِدينَ لأنَّه لو كان لها مُنتَهى فسوف يَعْتَبون في النِّهايَةِ.

فإنْ قال قائلٌ: هل يَثبُتُ عن ابنِ القَيِّمِ القَولُ بفَناءِ النَّارِ؟

فالجَوابُ: ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ تَجِدُ كَلامَه في (مِفتاحِ دارِ السَّعادَةِ) وفي (شِفاءُ العَليلِ)[١] تَشَمُّ منه رائحَةَ أنَّه يُرَجِّحُ ذلك بأنَّه ذَكَرَ القَولَينِ وذَكَرَ الأَدِلَّةَ، وهو رَحِمَهُ اللَّهُ إذا تَكلَّمَ يشفي ويُطيلُ النَّفَسَ، فكَلامُه في هذين الكِتابَينِ تَشَمُّ منه رائحَةَ أنَّه يَميلُ إلى ذلك، لكن له كَلامٌ آخَرُ في (الوابلُ الصَّيِّبُ)[٢] يدُلُّ على أنَّه يَرى أنَّ النَّارَ نارانِ؛ نارُ الكُفَّارِ هذه لا تفنى لأنَّهم خالدين فيها أبدًا، ونارُ العُصاةِ الَّذينَ يُعذَّبونَ بقَدْرِ ذُنوبِهم ثُمَّ يُخرَجون تفنى؛ لأنَّ أهلَها خَرَجوا منها، فإذا خَرَجوا منها ما بَقِيَ لبَقائِها فائدَةٌ.

وهذا التَّقسيمُ مِن النَّاحيَةِ العَقليَّةِ تَقسيمٌ قَوِيٌّ -أن يَميلَ إليه الإنسانُ من النَّاحيَةِ العَقليَّةِ-، لكن قد يبقى النَّظَرُ بأَنْ يَقولَ القائِلُ ما الدَّليلُ على أنَّ هناك نارين؟

---

(١) شفاء العليل (ص:٢٦٤).

(٢) الوابل الصيب (ص:٢٠).

الجواب: هذا يَحتاجُ إلى دَليلٍ، والَّذي يَظهَرُ مِنَ الأدِلَّةِ أنَّ النَّارَ واحدةٌ، وأنَّ العُصاةَ يُعذَّبونَ بِالنَّارِ الَّتي يُعذَّبُ بها الكُفَّارُ، لكن عقلًا كَلامُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا التَّفصيليُّ كَلامٌ جَيِّدٌ، حتَّى لو قال قائِلٌ أيضًا: العَقْلُ يَدُلُّ على أنَّه لا بُدَّ أن تَكونَ النَّارُ نارين؛ لأنَّه لا يُمكنُ أن يُعَذَّبَ المُؤمنُ الفاسِقُ بنارٍ شَديدةِ الحَرارَةِ كُلَّما نَضجَ جِلدُه بُدِّلَ جلدًا آخَرَ كما تَكونُ نارُ الكُفَّارِ مِنَ النَّاحيَةِ العَقليَّةِ يُوافِقُ العَقْلَ تمامًا، فإن كان صوابًا فمِنَ اللهِ وإن كان خطأً فاللهُ يَعفو عنه.

ولا يَجوزُ أبدًا أن نَعرِفَ الحَقَّ بالرِّجالِ، يَجِبُ أن نَعرِفَ الحَقَّ بالدَّليلِ، فما دام بين أيدينا كَلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ كيف نُفكِّرُ أن نُرَجِّحَ أو أن نَقولَ: قال فُلانٌ أو قال فُلانٌ، لو قال أَكبَرُ النَّاسِ ما عدا الرَّسولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قلنا: لا سَمْعَ ولا طاعَةَ ولا تَصديقَ ولا إيمانَ، بين أيدينا كَلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وهو الخالِقُ عَزَّوَجَلَّ والعالِمُ بكُلِّ شيءٍ.

الْفَائِدَةُ العِشْرُونَ: إثباتُ النَّارِ؛ لقولِه: ﴿فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾، وأنَّها هي المَثْوى وليس كما يَزْعُمُ بعضُ الكُتَّابِ اليومَ يَقولون: إنَّ المَيِّتَ إذا مات صار إلى مَثْواه الأخيرِ، وقد بَيَّنَّا أنَّ هذه الكَلِمَةَ كَلِمَةُ كُفْرٍ لو اعتَقَدَ الإنسانُ مَدلولَها، يعني لو اعتَقَدَ أنَّ القَبْرَ هو المَثْوى ولا قِيامَ بَعدَه لكان كافِرًا، فيُقالُ: إنَّ القَبْرَ ليس المَثْوى الأخِيرَ.



الآية (٢٥)

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ [فصلت:٢٥].

• • • •

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَقَيَّضْنَا﴾ سببنا] والصَّوابُ: أنَّ معناها هَيَّأنا؛ أي هَيَّأْنا لهم قُرناءَ، وذُكِرَ الفاعِلُ بضَميرِ الجَمْعِ للتَّعظيمِ؛ لأنَّ ضَميرَ الجَمْعِ يُرادُ به تَارَّةً التَّعظيمُ وتَارَّةً التَّعدُّدَ، وهُنا لا يُمكِنُ أن يَكونَ المُرادُ به التَّعدُّدَ؛ لأنَّ اللهَ إلَهٌ واحدٌ.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [من الشَّياطينَ]، والمُرادُ شَياطينُ الإنسِ وشَياطينُ الجِنِّ؛ لأنَّ هُناك قَرينًا خَفيًّا وهو قَرينُ الجِنِّ يَأمُرُ الإنسانَ بالسُّوءِ ويَنهاه عنِ الخَيرِ، وهُناكَ قَرينُ سوءٍ مِنَ الإنسِ، ولهذا مَثَّلَ النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم- قَرينَ السُّوءِ بأنَّه كَنافِخِ الكيرِ، إمَّا أن يَحرِقَ ثِيابَك وإمَّا أن تَجِدَ منه رائِحَةً كريهَةً[1].

قال اللهُ تعالى: ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فُصِّلَت:٢٥] زَيَّنوا أي القُرناءُ، ﴿لَهُم﴾ أي للمُقْتَرِنينَ بهم، ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم (٥٥٣٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين، رقم (٢٦٢٨)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أَمْـرِ الدُّنيا واتِّباعِ الشَّهواتِ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مِن أمْرِ الآخِـرَةِ بقَولِهِم: لا بَعْثَ ولا حِسابَ] هؤلاءِ القُرناءُ حَسَّنوا لهم ما بين أيديهم مِنْ أمْرِ الدُّنيا، وقالوا لهم: اتَّبِعوا الشَّهواتِ، كَيِّفوا كما شِئْتُمْ، أَتْرِفوا كما شئتم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة:٤٥] ومَنُّوهم وما خَلْفَهم، أي: ما أمامهم؛ لأنَّ الخَلْفَ والوَراءَ قد يُرادُ به الأَمامُ كما في قولِه تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف:٧٩] يعني: أَمامَهم.

إذن: زَيَّنوا لهم الآخِرَةَ أيضًا بأنْ مَنُّوهم بأَحَدِ أَمْرينِ: إمَّا بالنَّجاةِ منَ العَذابِ في قولِهِم: لا بَعْثَ ولا حِسابَ، وإمَّا أن يَنْتَقِلوا إلى خَيرٍ من ذَلِكَ، ويقولوا: إنَّ الَّذي أَتْرَفَنا في الدنيا سوف يُتْرِفُنا في الآخِرَةِ، كقول بعضهم: ﴿هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فُصِّلَت:٥٠]، وكقولِ صاحِبِ الجَنَّتينِ: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف:٣٦]، فهكذا يُمَنِّي الشَّيطانُ أولياءَه يَقولُ: انبَسِطوا بالدُّنيا أَتْرِفوا أنفُسَكم، وفي الآخِرَةِ سوف تَنْتَقِلونَ إلى ما هو أَفْضَلُ، زَيَّنوا لهم ما بين أيديهم وما خَلْفَهم ومَنَّوا لهمُ الأمانِيَّ.

قال تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فُصِّلَت:٢٥]، حقَّ عليهم أي: وَجَبَ القولُ، قَولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، والقَولُ الَّذي حَقَّ فَسَّرَه المفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: [وهو ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ السجدة:١٣]. وقيل: القَولُ: هو قولُه تَعالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

ونَقولُ -كما أَسْلَفنا في القاعِدَةِ في التَّفسيرِ- أنَّ الآيَةَ إذا كانت تَحتَمِلُ مَعنيينِ لا مُرَجِّحَ لأَحَدِهِما على الآخَرِ، ولا مُنافاةَ بينهما، فإنَّها تُحمَلُ على المَعنَيينِ جميعًا،

نَقولُ: حقَّ عليهم قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ وهذا في الدُّنيا، يعني: مهما عالجتَ الإنسانَ الَّذي حَقَّت عليه كَلِمَةُ اللهِ، فلن يهتَديَ، وحَقَّت عليهم كَلِمَةُ اللهِ في الآخِرَةِ وهي: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، إذن لا فائِدَةَ.

إنَّ أَبْرَزَ مَثَلٍ لنا في هذا ما حَصَلَ للنَّبيِّ ﷺ مع عَمِّه أبي طالِبٍ الَّذي كان -أعني: عَمَّه- يُدافِعُ عنه أَشَدَّ المُدافَعَةِ ويُؤويه ويَنْصُرُه ويَشْهَدُ أنَّه حقٌّ، لكنَّه لم يَنقاد لذلك ولم يَتَّبِعْ، فما أَغْنَى عنه مِنَ اللهِ شيئًا، عند موتِه يَقولُ: «يا عَمِّ، قل: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ كَلِمَةً أُحاجُّ لك بها عِنْدَ اللهِ»[1]، ولم يَنْفَعْه ذلك كان آخِرَ ما قال: أنَّه على مِلَّةِ عَبدِ المُطَّلِبِ؛ لأنَّ أبا طالِبٍ عِندَ مَوتِه حَضَرَه النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وحَضَرَه رجُلانِ من كِبارِ قُرَيشٍ، فكان الرَّسولُ يَقولُ: «يا عَمِّ قُلْ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وهما يقولانِ له: أَتَرْغَبُ عن مِلَّةِ عَبدِ المُطَّلبِ يَعني عن مِلَّةِ الكُفْرِ»، فآخِرُ ما قال هو على مِلَّةِ عَبدِ المُطَّلِب، وأبى أن يَقولَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مع العِلْمِ بأنَّه يُقِرُّ ويَعترِفُ بأنَّ الرَّسولَ حَقٌّ، يَقولُ[2]:

ولقد عَلِمْتُ بأنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِن خَيرِ أَديانِ البَرِيَّةِ دِينًا

ويقولُ في لامِيَّتِه المَشهورةِ[3]:

لقد عَلِموا أنَّ ابْنَنا لا مُكَذَّب ... لَدَينا ولا يُعنى بقَولِ الأباطِلِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، رقم (١٣٦٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله، رقم (٢٤)، من حديث المسيب بن حزن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: تهذيب اللغة (١٠/ ١١١)، وخزانة الأدب (٢/ ٧٦)، وديوان أبي طالب (ص:٨٧، ١٨٩).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢٨٠)، وديوان أبي طالب (ص:٨٤).

أي: بقولِ السَّحَرَةِ، يعني: ليس بِساحِرٍ، ومع ذلك فقد حَقَّتْ عليه الكَلِمَةُ نَسأَلُ اللهَ العافِيَةَ، وأن يُحسِنَ لنا ولكم الخاتِمَةَ، حَقَّت عليه الكَلِمَةُ فلم يُؤمِنْ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فِىٓ﴾ جُمْلَةِ ﴿أُمَمٍ﴾] يَعني في جُمْلتِها، واحتَجْنا إلى قَولِ في جُمْلَةٍ، يعني: إِدخالَ جُمْلَةٍ مع أنَّها مَعروفَةٌ في السِّياقِ، لأنَّه لو قال: في أُمَمٍ، لكان هؤلاءِ مُشارِكينَ لكُلِّ الأُمَمِ الماضيةِ والمُستَقْبَلَةِ مع أنَّهم في أُمَّتِهم وَحدَهم، فيكونُ المعنى: ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ أيْ [﴿فِىٓ﴾ جُمْلَةَ ﴿أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ﴾ هَلَكَـتْ ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾.. إلخ].

قولُه تعالى: ﴿مِن قَبْلِهِم﴾؛ أي: قَبْلَ هؤلاءِ المُكذِّبينَ، ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، الجِنُّ هم عالَمٌ غَيبيٌّ خَلَقَهمُ اللهُ تعالى من نارٍ؛ لأنَّ أباهم إبليسَ كان مِن نارٍ، ولهذا كان شأنُهم، أو كانت حالُهم الطَّيْشَ والسُّرعَةَ والإنْدِفاعَ كالنَّارِ في لَهَبِها، فهم خُلِقوا مِنَ النَّارِ، وهم مُكلَّفون بالإيمانِ باللهِ ومَلائِكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليومِ الآخِرِ، ولكن هل الأعمالُ الَّتي كُلِّفوا بها، هَلْ هي الأَعْمالُ الَّتي كُلِّفتْ بها الإنسُ أو غَيرُها؟

إن نَظَرنا إلى عُموماتِ الأدِلَّةِ قُلنا: إنَّ الجِنَّ مُكلَّفَةٌ بما كُلِّفَ به الإنسُ؛ لأنَّ الشَّريعَةَ الَّتي بين أيدينا لم تأتِ بشَريعَةٍ للجِنِّ، بَلِ الشَّريعَةُ واحدَةٌ والرَّسولُ واحدٌ، فهم مُكلَّفون مَثلًا بصَلاةٍ كصَلاتِنا ووُضوءٍ كوُضوئِنا وحَجٍّ كحَجِّنا وصَومٍ كَصَومِنا وصَدَقَةٍ كصَدَقَتِنا، كُلُّ ما نَحنُ مُكلَّفون به فَهُمْ مُكلَّفون به، إذ إِنَّنا لا نَرى في الشَّريعَةِ الَّتي بينَ أيدينا تَشريعاتٍ لِلجِنِّ هذا إذا نظرنا إلى عُمومِ الأدِلَّةِ.

وإذا نَظَرنا إلى حِكْمَةِ اللهِ تعالى في شَـرْعِه قُلنا: إنَّهم مُكلَّفون بِشَريعَةٍ تَليقُ بهم، فكما أنَّ الإنسَ إذا اختَلَفوا يُجعَلُ لكُلِّ صِنفٍ ما يَليقُ به فكذلك الجِنُّ، والجِنُّ مُخالِفونَ تَمامًا للإنسِ في الحَدِّ والحَقيقَةِ، فتكونُ شَريعَتُهُمْ خاصَّةً تَلِيقُ بهم، لكنَّ

تَحريمَ الشِّركِ والظُّلم والعُدوانِ وما أَشْبَهَ ذلك هذا عامٌّ على الجِنِّ والإنسِ، إنَّما أُريدَ التَّكليفاتُ البَدَنيَّةُ كالصَّلاةِ مثلًا، هل صَلاتُهُمْ كصَلاتِنا أو صِيامُهم كصِيامِنا، هذا هو مَحَلُّ الخِلافِ بينَ العُلَماءِ.

فمنهم مَنْ يَقولُ: إنَّ الجِنَّ مُكلَّفونَ كما كُلِّف الإنسُ تمامًا، وحُجَّةُ هَؤلاءِ عُمومُ الأَدِلَّةِ الَّتي بين أَيدينا الَّتي أُرسِلَ بها الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا نَجِدُ فيها أحكامًا تَخُصُّ الجِنَّ، فالأصلُ العُمومُ، وَالأصلُ أنَّ كُلَّ ما كُلِّفَ بهِ الإنسُ هو ما كُلِّفَ به الجِنُّ.

فإنْ قال قائلٌ: حُجَّتُهم أنَّهم خَلْقٌ من خَلْقِ اللهِ! **قلنا**: تَرِدُ عليه المَلائِكَةُ.

القَولُ الثَّاني: أنَّ الجِنَّ يَختَلِفونَ عن الإنسِ في العِبادَةِ وما كُلِّفوا به، ووَجهُ ذلك أنَّنا نَجِدُ مِن حِكمَةِ اللهِ أنَّ التَّشريعاتِ مُناسِبَةٌ للمُكَلَّف بها، فالمَريضُ يُصلِّي قاعدًا، والمُسافِرُ يُؤخِّرُ الصَّومَ، والَّذي لا يَستطيعُ الرُّكوبَ على الرَّحلِ لا يَحُجُّ، فإذا كانت هذه الِاختِلافاتُ تَكونُ بين الإنسِ لاختلافِ أحوالِهم، فما بين الإنسِ والجِنِّ من باب أَوْلَى.

لكنَّ هُناك أشياءَ لا إِشكالَ فيها وهي: تَحريمُ الشِّركِ والظُّلمِ والعُدوانِ وما أَشْبَهَ ذلك؛ ولذلك نَجِدُ كَثيرًا مِنَ العُلماءِ الَّذين يَقْرَؤونَ على مَنْ مَسَّهم الشَّيطانُ يُذَكِّرونهم بتَحريمِ الظُّلمِ، وأنَّه حَرامٌ، وأنَّهم مُعتَدونَ، وما أَشْبَهَ ذلك ممَّا يدُلُّ على أنَّهم مُلتَزِمون بهذا.

فإنْ قال قائلٌ: مِنَ المَعلومِ أنَّ العِباداتِ تَوقِيفِيَّةٌ فكيفَ سيَعْبُدون اللهَ عَزَّوَجَلَّ إذن؟

فالجَوابُ: يَعْبُدونَه بشَريعَةٍ مِنَ اللهِ يَكونُ الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد عَلَّمَهُمْ؛ لأَنَّهُ اجتَمَعَ بهم وعَلَّمَهم ما يَلْزَمُهم.

يَقولُ اللهُ تَعالَى: ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، إذن الجِنُّ عالَمٌ غَيبيٌّ، خُلِقوا مِن نارٍ، مُكلَّفون بشَريعَةِ النَّبيِّ ﷺ إلزامًا؛ لأَنَّه مُرسَلٌ إلى الجِنِّ والإنسِ، لكنَّ غَيْرَ الرَّسولِ لا نَعلَمُ هل هُمْ مُلْزَمونَ بذلك أو لا، لكنَّهم مَأذونٌ لهم أن يَعْمَلوا بها كما قال تَعالَى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف:٢٩-٣٠] ممَّا يدُلُّ على أنَّهم انْتَفَعوا بكِتابِ موسى: ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف:٣٠]، فهم مُلْزَمون بالعَمَلِ بِشَريعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

قُلنا: إنَّهم عالَمٌ غَيبيٌّ، لكن رُبَّما يَبْرُزونَ لبَعضِ النَّاسِ يَتَلَوَّنونَ، فقد يَتَراءَى الجِنُّ للإنسيِّ بصورَةِ إنسانٍ فَخْمٍ كَبيرٍ عَظيمٍ، أو بصورَةِ هيكلٍ له قُرونٌ وله آذانٌ وله أَرْجُلٌ طَويلَةٌ وما أشبه ذلك، وأمَّا ما زَعَمَ بَعضُ النَّاسِ أنَّهم أَجسادٌ ليس فيها عِظامٌ، وأنَّهم إذا لَمَسْتَه وَجَدتَه رَقيقًا جدًّا، وأنَّ أعينَهم مَشقوقَةٌ طولًا هكذا، فهذا لا أَصْلَ له.

إذن؛ نَقولُ: هُمْ عالَمٌ غَيبيٌّ، ويَدُلُّ لذلك المادَّةُ الَّتي يوصَفونَ بها يعني: الجِنَّ؛ لأَنَّ الجيمَ والنُّونَ تَدُلُّ على الاِستِتارِ والخَفاءِ، أرأيتم الجَنَّةَ، الجَنَّةُ: هي البُستانُ الكَثيرُ الأَشجارِ، والجِنَّةُ: الجِنُّ، والجُنَّةُ: ما يَتَّخِذُه المُقاتِلُ لحِمايَةِ نَفسِه مِنَ السِّهامِ يَستَتِرُ به.

فإنْ قال قائِلٌ: الجِنُّ هل فيهم رَسولٌ؟

فالجَوابُ: يَقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٣] وقال العُلَماءُ: إنَّ الرِّجالَ لا يَكونونَ مِنَ الجِنِّ، لكن في هذا التَّعليلِ نَظَرٌ؛

لأنَّ اللهَ يَقولُ في سورَةِ الجِنِّ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن:٦]، قالوا: الآيَةُ الأُخرى: ﴿إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف:١٠٩]، فيُقالُ: الجِنُّ أيضًا من أَهْلِ القُرى، لكنَّ الأحقَّ بالأرضِ الإنسُ لا شكَّ، ولهذا لو اعتَدى أحدٌ مِنَ الجِنِّ ونزل بيتَكَ فلك أن تُخرِجَهُ، والدَّليلُ هو أنَّ الرَّسولَ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم- جعَلَ الأرضَ لمالكِها: «مَنِ اقتَطَع شِبرًا مِنَ الأرضِ ظُلمًا طَوَّقه اللهُ بها يَومَ القِيامَةِ من سَبْعِ أَرَضِينَ»[(١)].

فأنا أَستطيعُ أن أَحْرُثَ في الأَرْضِ وأَزرَعَ وأَبني وأَعْمَلَ ما شِئتُ ولا مُعارِضَ لي، ولكن: كيف لو جاءوا واعتدوا على بَيتِك وحَفَروا فيه وأصبحت، وإذا السَّطْحُ مَملوءٌ مِنَ الزَّرعِ والمَجالِسُ مملوءةٌ مِنَ النَّخيلِ!

قال اللهُ تعالَى: ﴿وَٱلْإِنسِ﴾ هُم هَؤلاءِ البَشَرِ مِن بَني آدَمَ وسُمُّوا إنسًا؛ لأنَّ بَعضَهم يأنسُ ببَعضٍ، ولهذا قيل: إنَّ الإنسانَ مَدنيٌّ بالطَّبْعِ.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ ﴿إِنَّهُمْ﴾، أيِ الَّذين حَقَّ عليهم القَولُ ﴿كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ كانوا في عِلمِ اللهِ وليس يَومَ القيامَةِ؛ لأنَّه لو كان كذلك لقال: يَكونون، لكن ﴿كَانُوا۟﴾ في عِلمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وتَقديرُهُ: ﴿خَٰسِرِينَ﴾.

فإنْ قال قائِلٌ: ألا يَجوزُ أن يَكونَ قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ على أنَّه يومُ القيامَةِ من باب قولِهِ تَعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]؟

فالجَوابُ: لا، ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ لو لا أنَّهُ قال: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ لكان على ظاهِرِه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض، رقم (٢٤٥٢، ٢٤٥٣)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠)، من حديث سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولكن اعْلَموا بارَكَ اللهُ فيكم أنَّه لا يُمكِنُ لأحدٍ أن يَضِلَّ إلَّا وهو السَّببُ في ضلالِ نفسِه، لَدينا آيَةٌ من كِتابِ اللهِ حاكِمَةٌ على كُلِّ ذلك، على كُلِّ مَن يَتوهَّمُ أنَّ الضَّلالَ مُقدَّرٌ من عِندِ اللهِ تَعالَى ابتلاءً وامتحانًا، وإن كان الأَمْرُ كذلك، لكان سَببُ ضَلالِ الإنسانِ هو نَفسُهُ، قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف:٥]، وقال تَعالَى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦]، فماذا نَفعَلُ إذا كان هو الَّذي أَخلَدَ إلى الأَرضِ واتَّبَعَ هَواهُ فماذا نَفعلُ؟

فاعْلَمْ أنَّ كُلَّ شيءٍ مِنَ المَعاصي فأنت سَببُه، وإن شِئتَ فاقْرَأْ قولَ اللهِ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡ﴾ [المائدة:٤٩] يا لها من مَوعِظَةٍ في هذه الآيَةِ، أنَّك إذا تَولَّيت عن أَمرِ اللهِ فاعْلَمْ أنَّ ذلك مِن ذَنبِك، فاعْلَمْ أنَّ اللهَ إنَّما يُريدُ أن يُصيبَهم ببَعْضِ ذُنوبِهم، فصار الإعْراضُ عُقوبَةً، وهذا أَمْرٌ قد لا يَتَفَطَّنُ له بَعضُ النَّاسِ، إعراضُك عَنِ اللهِ وعن دينِ اللهِ هو عُقوبَةٌ منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لقولِهِ: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٩].

من فوائِدِ الآيَةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيانُ عَظمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لقوله: ﴿وَقَيَّضۡنَا﴾، لأنَّ (نا) تُفيدُ العظَمَةَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الرَّدُّ على الْمُعتزِلَةِ الَّذين يَقولون: إنَّ الإنسانَ مُستَقِلٌّ بعَمَلِه، وأنَّه لا عِلاقَةَ للهِ تَعالَى به.

والنَّاسُ في هذا البابِ على ثَلاثَةِ أقسامٍ:

القِسْمُ الأَوَّلُ: مَن قال: إنَّ الإنسانَ مُجبَرٌ على عَمَلِه وليس له إرادَةٌ ولا اختيارٌ،

وأنَّ فِعلَه الاختِياريَّ كفِعْلِه الاضْطِراريِّ، فالَّذي يَذهَبُ ويَجيءُ باختِيارِهِ كالَّذي يَرتَعِشُ أو يَمْشي مجنونًا في الأرضِ، وهذا مَذهبُ الجَبْريَّةِ وزَعيمُهم الجَهْمُ بنُ صَفوانَ الَّذي تَتَلمَذَ على الجَعْدِ بنِ دِرهَمٍ.

القِسْمُ الثَّاني: مَن قال: إنَّ العَبدَ مُستقِلٌّ بعَمَلِه وليس للهِ فيه عَلاقَةٌ، فالإنسانُ مُريدٌ مُختارٌ ولا لأَحدٍ عليه سُلطَةٌ، وهذا مَذهَبُ القَدريَّةِ وهم المُعتَزِلَةُ، والقَدَريَّةُ يُسَمَّونَ مَجوسَ هذه الأُمَّةِ؛ لأنَّهم ادَّعَوْا أنَّ للحَوادثِ خالِقَينِ، فالحَوادثُ الَّتي هي من فِعْلِ اللهِ هي مِن فِعلِهِ، والحَوادثُ الَّتي هي مِن فِعلِ العَبدِ هي مِن فِعلِه استقلالًا، وهؤلاء هُمُ المُعتزِلَةُ ومَن ظاهَرَهم، وزُعماؤُهم عَمْرُو بنُ عُبَيْدٍ وواصِلُ بنُ عَطاءٍ.

القِسم الثَّالثُ: مَن قالوا: إنَّ العَبدَ له إرادةٌ واختيارٌ، ولكنَّ إرادتَه واختيارَهُ تابعَةٌ لإرادَةِ اللهِ تَعالَى ومَشيئتِهِ، وهَؤلاءِ هُمُ السَّلَفُ الصَّالحُ أَهْلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ، فقالوا: إنَّ العَبدَ هو الصَّائمُ القائمُ الرَّاكعُ السَّاجدُ الذَّاهبُ الجَائي هو العَبدُ وليس اللهُ، وقالوا: إنَّ هذه الأفعالَ تُنسَبُ إليه، وما أَكثرَ ما في القُرآنِ: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف:١٤]، ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة:٨٢]، وما أَشبَهَ ذلك؛ ولكنَّها لم تَقعْ خارجَةً عن قُدرةِ اللهِ تعالى ومَشيئتِهِ، بل هي تَحتَ قُدرَةِ اللهِ تعالى ومَشيئتِه، وفائِدَةُ ذلك أنَّه إذا وَقعَ الفِعلُ مِنَّا عَلِمْنا أنَّ اللهَ قد شاءَه وأَرادَه، ولسنا مُستقِلِّين به.

وهذه الآيةُ: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم﴾ تَرُدُّ على الطَّائفتَينِ جميعًا. ﴿وَقَيَّضْنَا﴾ تَرُدُّ على القَدَريَّةِ، و﴿فَزَيَّنُوا۟﴾ نَسبَت الفِعلَ إليهم تَرُدُّ على الجَبريَّةِ.

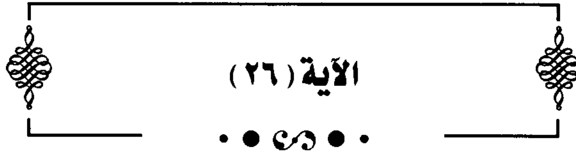
الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الحَذَرُ مِنَ الوَساوسِ الَّتي يُلقيها الشَّيطانُ لفاعلِ المَعصيَةِ ويُزيِّنُها له، ويَقولُ: هذه سَهلَةٌ، اللهُ غَفورٌ رَحيمٌ، افعَلْ هذا ثُمَّ تُبْ وما أَشْبَهَ ذلك، احذَرْ من هذا، فإنَّ هذا وَعدُ الشَّيطانِ، ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء:١٢٠].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ هؤلاءِ الَّذين تابَعوا القُرناءَ قد خَسِروا؛ لقولِهِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾[فُصِّلَت:٢٥].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ هؤلاءِ الَّذين استَحْسَنوا ما زَيَّنَه لهمُ القُرناءُ حَقَّ عليهم القَولُ، وسَبَقَ أنَّ القَولَ على رَأي المفسِّر هو: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف:١٨]، وهو على ما ذَكَرْناه هو قَولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[يونس:٩٦]، ولا يَبعُدُ أن يَكونَ الُمرادُ به بذلك الأَمْرانِ جميعًا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: كَثرةُ الضَّالِّينَ مِن هؤلاء القُرَناءِ؛ لقولِه: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ﴾.





۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦].

• ● ● •

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عِندَ قِراءَةِ النَّبيِّ ﷺ] يعني: للقُرآنِ: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ يعني: أنَّ بَعضَهم يوصي بَعضًا يَقولُ: لا تَسْمَعوا لهذا القُرآنِ، أي: لا تُنْصِتوا له ولا تَستَمِعوا إليه، وابتَعِدوا عنه؛ وذلك لأنَّ القُرآنَ يُؤثِّرُ في قَلبِ مَنْ يَسمعُه، حتَّى إنَّ بَعضَ المُشركينَ مِن كُبَرائِهم يَأتونَ إلى النَّبيِّ ﷺ يَستَمِعون قِراءَتَه اختِفاءً في اللَّيلِ لئلَّا يَطَّلِع عليهم؛ لأنَّهم يَسمَعون قَولًا يَسلُبُ العُقولَ ويَأخُذُ بالنُّفوسِ، فهُم يوصي بَعضُهم بعضًا يَقولُ: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾.

و﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾ هو كَلامُ اللهِ وهو على وَزنِ فَعلانَ، وفَعْلانُ مَصدَرٌ كالغُفْرانِ والشُّكرانِ.

وهل هو مِنْ قَرَأَ أو مِن قَرَى أو منهما جَميعًا؟ نَقولُ: هو صالِحٌ للجَميعِ، فإنْ كان مِن (قَرَأَ) فهو مِنَ القِراءةِ وهي التِّلاوَةُ، وإن كان مِنْ (قَرَى) يَقري بمعنى جَمَعَ، ومنه القَرْيَةُ لأنَّها تَجمَعُ أقوامًا، فالقُرآنُ جامِعٌ.

ثُمَّ هل هو فاعِلٌ أو مَفعولٌ؟ نَقولُ: إذا كان مِنْ (قَرَأَ) فهو مَفعولٌ؛ لأنَّه قُرآنٌ مَقروءٌ، فهو مَصدرٌ بمعنى مَفعولٍ، وإن كان مِن (قَرَى) فهو بمَعنى فاعِلٍ وبمعنى

مَفعولٍ؛ أي: إِنَّه مُشتَرِكٌ بين فاعِلٍ ومَفعولٍ، فهو جامِعٌ وهو مجموعٌ؛ لأَنَّه يُكتَبُ وتُجمَعُ حُروفُه بَعضُها إلى بَعضٍ، والمُرادُ به ما نَزَلَ على مُحَمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم-.

﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ ﴿لِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾، المُرادُ بالإِشارَةِ هنا التَّحقيرُ يعني: هذا لا يُساوي شيئًا لا تَسمَعوا إليه، ويُشْبِهُ هذا مِن بَعضِ الوُجوهِ: ﴿أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء:٣٦] احتِقارٌ، يعني: أهذا الَّذي يَسُبُّها مَنْ هو، ﴿أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان:٤١]، وهذا للاحتِقارِ لكنَّه مُستَفادٌ مِنْ الاستِفهامِ. أمَّا هُنا فهو مُستَفادٌ مِنَ الإِشارَةِ الدَّالَّةِ على التَّحقيرِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ ائتوا باللَّغطِ ونَحْوِه وصيحوا في زَمَنِ قِراءتِه].

﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ يعني: عِندَما تَسمَعون رَسولَ اللهِ ﷺ يَقرأُ صَوِّتوا وتَصايَحوا؛ لأَجْلِ أن تَخْلِطوا عليه قِراءَتَه وتَحولوا بينَهُ وبين السَّماعِ.

يَعني: فَهُمْ يَفعَلون ذلك لأَمْرينِ:

الأَوَّلُ: التَّخليطُ على النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في قِراءتِهِ.

والثَّاني: أَلَّا يَسمَعَ أحدٌ قِراءتَه من أَجْلِ الضَّوضاءِ واللَّغَطِ.

﴿وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فُصِّلَت:٢٦] (لعلَّ) للتَّعليلِ، وتَأتي لِلإشفاقِ، وللتَّرَجِّي، وللتَّمَنِّي. كُلُّ هذه المَعاني تَختَلِفُ بِحَسَبِ السِّياقِ؛ لأَنَّ السِّياقَ هو الَّذي يُعَيِّنُ مَعاني الكَلِماتِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ فيَسكُتُ عنِ القِراءةِ]؛ لأَنَّه إذا سَمِعَ

الأصواتَ والضَّجَّةَ والضَّوضاءَ واختَلَطَت عليه قِراءَتُهُ؛ فإنَّه لا يَرى فائدَةً مِنَ القِراءَةِ، وحينَئذٍ يَسكُتُ هذا ما يَفعَلُه هَؤلاءِ المُشركونَ.

فإنْ قال قائلٌ: إنَّ كثيرًا مِنَ النَّاسِ يَشغَلونَ القُرآنَ في المَنازِلِ والمَتاجِرِ، ولم يَعتادوا اللَّغَطَ والسَّبَّ والشَّتمَ، لكن رُبَّما حَدَّثوا أَحاديثَ جانِبيَّةً كأن يَكونَ في المَطبَخِ مثلًا أو ما أشبه ذلك.

ثُمَّ إنَّ القُرآنَ على إذاعَةِ القُرآنِ الَّتي يَأتي مَرَّةً حَديثٌ ومرةً قرآنٌ، وهم يُحِبُّون القُرآنَ ويَأنَسونَ به ويَستفيدونَ فوائِدَ كَثيرةً، ويَقولون: إذا لم نُشَغِّلِ القُرآنَ تَأتي هَواجِسُ؟

فالجَوابُ: المَحظورُ اللَّغو فقط، أمَّا إن كانوا لا يَنْتَبِهون أحيانًا فإنَّ الإنسانَ الَّذي يَقرأُ والمُصحَفُ بين يديه أحيانًا يَقْرَأُ بفَمِه وقَلْبه ليس بِقارِئٍ، فالمَحظورُ مثلًا أنَّ ناسًا مَشغُولونَ بدُنياهم والقُرآنُ يُقْرَأُ، أمَّا مثلًا امْرأَةٌ تَطْبُخُ أو تَغسِلُ ثِيابَها وتَستَمِعُ لِلقُرآنِ، فهذا لا يوجِبُ التَّلَهِّي عنه.

فإنْ قال قائِلٌ: ما حُكْمُ مَن يُشَغِّلُ القُرآنَ في المُسَجِّلِ ويُرَدِّدُ معه للتَّحَفُّظِ وتَحسينِ النُّطْقِ؟

فالجَوابُ: لا بَأسَ به، ليس هناك مانِعٌ.

فإنْ قال قائِلٌ: بالنِّسبَةِ لَمَنْ يَقرأُ القُرآنَ في غَيرِ الصَّلاةِ، هل يَجِبُ الاستِماعُ إليه أم لا؟

فالجَوابُ: لا، الصَّحيحُ لا يَجِبُ الاستِماعُ، لكن لا يَجوزُ اللَّغَطُ، ولهذا قال الإِمامُ أَحْمَدُ في قولِهِ تَعالَى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

[الأعراف:٢٠٤] قال: أَجْمَعوا على أنَّ هذه في الصَّلاةِ، أمَّا غَيرُ الصَّلاةِ فلا يَجِبُ أن نَستَمِعَ؛ لأنَّنا لو قُلنا بِوجوبِ الِاستِماعِ لقُلنا: إذا شَرَعَ قَارئٌ يَقرَأُ وأنت إلى جَنْبِه حَرُمَ عليك أن تَقومَ؛ لِوجوبِ الِاستِماعِ، وهذا ما أَظُنُّ أحدًا مِنَ العُلماءِ يَقولُ به، المَمنوعُ اللَّغو واللَّغَطُ.

من فوائِدِ الآيَةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: خَوفُ المُشركِينَ وانزِعاجُهم مِن تَأثيرِ قِراءَةِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم-، وَجهُ ذلك أنَّ بَعضَهم يوصي بَعضًا أن لا يَسمَعوا لهذا القُرآنِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قُوَّةُ تَأثيرِ القُرآنِ على سامِعِه، وهذا هو الواقِعُ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧]، لكنَّ القُرآنَ إنَّما يُؤَثِّرُ على مَن يَفهمُ اللُّغَةَ العَربيَّةَ ومَعاني الكَلِماتِ، وأمَّا الأَعْجَميُّ حَقيقَةً أو حُكْمًا فإنَّه لا يَتأَثَّرُ بها، ثانيًا: إنَّما يُؤَثِّرُ القُرآنُ وهو كَمالُ التَّأثيرِ على المُؤمنِ به، أمَّا المُكَذِّبُ المُستكْبِرُ فلا، حتَّى إنَّه يَقولُ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام:٢٥].

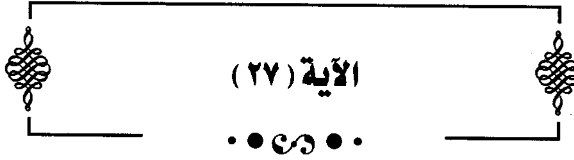
الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّه لا يَجوزُ اللَّغطُ والضَّوضاءُ حينَ قِراءَةِ القُرآنِ، فإمَّا أن تَستَمِعَ إليه وإمَّا أن تَقومَ، أمَّا أن تَجلِسَ إلى قارِئِ القُرآنِ وتُثيرُ الأصواتَ واللَّغطَ والضَّوضاءَ، فهذا أَقَلُّ ما فيه أنَّه شَبيهٌ بصَنيعِ المُشرِكينَ، يعني: لو قَدَّرنا أنَّ هَؤلاءِ القَومَ الَّذين عِندَهم اللَّغَطُ والضَّوضاءُ لا يُريدونَ أن يُشَوِّشوا على القارِئِ، ولا يُريدون ألَّا يَسمَعَ قِراءتَه أحدٌ، لكن نقول: أدنى ما فيه أنَّه مُشابِهٌ لعَمَلِ المُشرِكينَ.

ويَتَفَرَّعُ على ذلك: ما يَفعَلُه بعضُ النَّاسِ في مَتاجِرِهم ومَساكِنِهم، حيث يَفتحونَ القُرآنَ على المُسَجِّلِ ويَجعَلونَه يَقرَأُ وتَجِدُهم في ضَوضاءَ وفي كَلامٍ قبيحٍ وفي كَذِبٍ، وهذا إِهانَةٌ للقُرآنِ.

فنَقولُ: إمَّا أن تَستَمِعَ إلى كَلامِ اللهِ، وإمَّا أن تَغلِقَه أمَّا أن يَبْقى يَقرَأُ وهذا يَشْتُمُ وهذا يَلعَنُ وهذا يَغِشُّ، فهذا في غايَةِ الامتِهانِ لكَلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وإن لم يُرِدِ الإنسانُ، فإنَّ صورَتَه صورَةُ الامتِهانِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ التَّشويشَ على الدَّاعيَةِ قد يَظُنُّ فاعلُهُ أنَّه يَغلِبُ، ويَصِلُ إلى مَقصودِهِ، ولكن ليس الأمرُ كذلك، وَجهُ الدَّلالَةِ مِنْ هذا أنَّ هؤلاء المُشرِكينَ لم يَحصُلْ لهم مَطلوبُهم مِنَ الغَلَبَةِ.





الآية (٢٧)

• قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [فُصِّلَت:٢٧].

• • • •

﴿فَلَنُذِيقَنَّ﴾، الجُملَةُ هذه مُؤكَّدَةٌ بثَلاثَةِ مُؤَكِّداتٍ: القَسَمُ المُقَدَّرُ، ويَدُلُّنا على القَسَمِ تَوكيدُ الفِعلِ واللَّامُ أيضًا، والثَّاني: اللَّامُ، والثَّالثُ: النُّونُ.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: لَنُعذِّبَنَّهم عَذابًا يَذوقونَ أَلَمَه، وهو كِنايَةٌ عن شِدَّةِ هذا العَذابِ الَّذي يَصِلُ إلى مَذاقِهم حتَّى كأنَّه شَيءٌ محسوسٌ يَتذَوَّقونه بأَفواهِهم.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، المُرادُ بـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مَن سَبَقَ، وهُم الَّذين قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾، وحينَئذٍ قد يَقولُ قائل: لماذا لم يُضْمِرْ فيقول: «فلَنُذيقَنَّهم»، نَقولُ: هُنا إظهارٌ في مَوضِعِ الإضمارِ، والإظهارُ في مَوضِعِ الإضْمارِ له فَوائِدُ:

الفائِدَةُ الأُولى: تَنبيهُ المُخاطَبِ؛ لأنَّه جَرَت العادَةُ أنَّ الكَلامَ إذا كان السِّياقُ يَقتَضِي الإضمارَ، فإنَّه يَأتي الإِضْمارُ، فإذا جاء الإِظْهارُ صار هذا على خِلافِ العادَةِ، فَالعادَةُ أنَّ الكَلامَ إذا كان في سياقِ الإِضْمارِ، فإنَّ الَّذي يَأتي هو الإِضْمارُ، يَعني: الضَّميرُ، فإذا جاء الظَّاهِرُ مَوضِعَ الضَّميرِ فسوف يَتوقَّفُ الإنسانُ، لماذا جاء الظَّاهِرُ مَوضِعَ الضَّميرِ؟ فيكون في ذلك انتباهٌ له هذه فائدَةٌ.

الفائدَةُ الثَّانيةُ: الحُكْمُ على مَرجِعِ الضَّميرِ بمُقْتَضى هذا الاسمِ الظَّاهرِ، ففي الآيَةِ الَّتي معنا: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، إذن تَكونُ الفائِدَةُ الحُكمَ عليهم بالكُفرِ، وهكذا كُلَّما جاء الإظْهارُ في مَوضِعِ الإضْمارِ فاحكُمْ عليه بهذه الفائدَةِ.

الفائدَةُ الثَّالثَةُ: العُمومُ لو قال: فلَنُذيقَنَّهم، صار هذا الوَعيدُ خاصًّا بالَّذين قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾، فإذا قال: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ صار عامًّا لهم ولغيرهم.

قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ هنا ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ مَنصوبٌ نَصبَهُ ﴿فَلَنُذِيقَنَّ﴾ وهي تَنْصِبُ مَفعولَينِ؛ لأنَّ لَدينا قاعِدَةً: أنَّ الفِعلَ إذا تَعَدَّى لواحِدٍ فأُدخلت عليه هَمْزَةُ التَّعدِيَةِ تَعَدَّى لاثنَينِ، وإذا كان يَتَعَدَّى لاثنينِ فأُدْخِلت عليه الهَمْزَةُ تَعَدَّى إلى ثَلاثَةٍ، مِثالُ ذلك مثلًا (ذاق) تَتَعَدَّى إلى واحِدٍ، (ذاقَ طَعمَ الإيمانِ ورَضِيَ باللهِ ربًّا)، فإذا أُدخِلت عليها الهَمْزَةُ تَعَدَّت إلى مَفعولَينِ.

و(رأى) تَقولُ: (رَأيتُ الرَّجُلَ قائمًا) تَنْصِبُ مَفعولَينِ، فإذا أُدْخِلت عليه الهَمْزَةُ تَعَدَّت إلى ثَلاثَةٍ، تَقولُ: (أَريتُ زيدًا الرَّجُلَ قائمًا). هذه قاعِدَةٌ عَربيَّةٌ مُطَّرِدَةٌ، أنَّ الفِعلَ إذا كان لازمًا فدَخَلَت عليه الهَمْزَةُ تَعَدَّى لواحِدٍ، وإذا كان مُتَعَدِّيًا لواحِدٍ فدَخَلَت عليه الهَمْزَةُ تَعَدَّى لاثنينِ، وإذا كان متعدِّيًا لاثنينِ فدَخَلت عليه الهَمْزَةُ تَعَدَّى لثَلاثَةٍ.

قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، ﴿عَذَابًا﴾ أي: عُقوبَةً، ﴿شَدِيدًا﴾: قويًّا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ معطوفَةٌ على ﴿فَلَنُذِيقَنَّ﴾، ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ هذه تَنْصِبُ مَفعولَينِ؛ الأَوَّلُ الهاءُ والثَّاني ﴿أَسْوَأَ﴾.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: أَقْبَحَ جَزاءِ عَمَلِهم].

فهم يُجزَونَ الجَزاءَ، أَمَّا العَمَلُ منهم فليسوا مُجْزيِّين به، هُمُ الَّذين عَمِلوا، فإذا قال: ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ صار المُرادُ بذلك: أَسوَأَ الجَزاءِ، وليس المُرادُ: أَسوَأَ العَمَلِ؛ لأنَّ العَمَلَ فِعْلُ العَبدِ، والجَزاءُ فِعلُ اللهِ بهم، والمُرادُ هنا فِعلُ اللهِ بهم، ولهذا قال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾.

فإذا قال قائلٌ: لماذا عَبَّرَ بالعَمَلِ عن جَزائِهم؟

نَقولُ: إشارةٌ إلى أَنَّ الجَزاءَ بِقَدْرِ العَمَلِ، ولهذا قالَ العُلَماءُ: «الجَزاءُ مِن جِنسِ العَمَلِ»، لكنَّه بالنِّسبَةِ للسَّيِّئاتِ عَدْلٌ، وبالنِّسبَةِ للحَسَناتِ فَضْلُ الحَسَنَةِ بعَشْرِ أَمثالِها إلى سَبعِ مئَةِ ضِعفٍ إلى أضعافٍ كَثيرةٍ، والسَّيِّئةُ بمِثلِها.

وقولُهُ: ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ظاهِرُ الآيةِ أنَّ اللهَ يَجزيهم أَسوَأَ أعمالِهم، وغَيرُ الأَسوَأِ ما دون الأَسْوأِ، يَعني: السَّيِّءَ، فهل يُجازَى الكافِرُ بأَقْبَحِ أعمالِه أو بِكُلِّ أعمالِهِ؟ هذا يَنْبَني على: هلِ الكافِرُ مُخاطَبٌ بالفُروعِ أو لا؟ يعني: مثلًا الكافِرُ هل هو مُخاطَبٌ بِصِلَةِ الرَّحمِ؟ هل هو مُخاطَبٌ بالصِّدْقِ؟ هل هو مُخاطَبٌ بالصَّلاةِ؟ هل هو مُخاطَبٌ بالزَّكاةِ؟ وما أَشبَهَ ذلك، في هذا خِلافٌ بينَ العُلماءِ، والصَّحيحُ أَنَّه مُخاطَبٌ، مُخاطَبٌ بِفُروعِ الأعمالِ؛ لأَنَّه إذا كان المُسلِمُ مُخاطَبًا بها، فالكافِرُ من باب أَوْلى، كيف نَقولُ: إنَّ المُسلِمَ يُجازَى ويُعاقَبُ على عُقوقِ الوالِدينِ والكافِرُ لا يُعاقَبُ، لا يُمكِنُ هذا، فالصَّوابُ أنَّهم مُخاطَبونَ بِفُروعِ الشَّريعَةِ، لكنَّهم غَيرُ مُخاطَبينَ بفعلِها. يَعني لا يُقالُ للكافِرِ مثلًا: لماذا تَشرَبُ الدُّخانَ؟ حَرامٌ عليكَ، هذا غَيرُ لائِقٍ، هذا كافِرٌ، ادعُه أَوَّلًا للإسلامِ ثُمَّ كَلِّمْهُ.

إذن يُخاطَبُ بفُروعِ الشَّريعَةِ ليس مَعناها أنَّه يُؤمَرُ بفِعلِها، ولا يَعني أنَّه يَقضيها إذا أَسلَمَ؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨].

إذن ما الفائِدَةُ؟ قال العُلماءُ الفائِدَةُ بقولنا: إنَّ الكافِرَ مُخاطَبٌ بفُروعِ الشَّريعَةِ هو زيادَةُ عُقوبَتِهم في الآخِرَةِ أنَّهم يُعاقَبونَ عَليها، وهذا حَقٌّ، أصحابُ اليَمينِ يَتَساءلونَ عَنِ المُجرِمينَ: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾ [المدَّثر:٤٢] يعني: ما الَّذي أَدْخلَكم في النَّارِ؟ ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾ [المدثر:٤٣-٤٧] فذَكَروا الصَّلاةَ وإطعامَ المِسكينِ، وهما مِن فُروعِ الشَّريعَةِ، فعلى القَولِ بأنَّهم لا يُجازَونَ بفُروعِ الشَّريعَةِ نَقولُ: نعم، يَومَ القِيامَةِ لا يُجازَون إلَّا على أَسوَأِ أَعمالِهم وهو الكُفْرُ، ولكن على القَولِ الرَّاجحِ أنَّهم يُخاطَبون بفُروعِ الشَّريعَةِ ويُعاقَبونَ عليها، ويَكونُ هنا ذِكْرُ الأَسوَأِ؛ لأنَّه هو الأَشَدُّ، والمَقصودُ هُنا التَّهديدُ، وهل الإنسانُ يُهَدَّدُ بالأَشَدِّ، هذا هو الظَّاهِرُ واللهُ أعلَمُ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: أَقبَحُ جَزاءِ عَمَلِهم].

في الآيَة الكَريمَةِ هُنا وَعيدٌ لهؤلاءِ الكُفَّارِ بالعَذابِ الشَّديدِ، وهذا مِن أَساليبِ القُرآنِ، أنَّ اللهَ تعالى يُهَدِّدُ الكافِرَ والمُجرِمَ وغَيرِهما مِمَّن أَساؤوا، وفيه دَليلٌ على أنَّه ليس مِنَ القَدْحِ أنْ يَقومَ الإنسانُ بطاعَةِ اللهِ خوفًا من عَذابِ اللهِ، أنَّه لا حَرَجَ، وليس مِنَ القَدْحِ أن يَتَجَنَّبَ الإنسانُ مَعصيَةَ اللهِ خوفًا من عِقابِهِ، خِلافًا لمَن قال: أَعبُدُ اللهَ لا طَمَعًا في ثَوابِهِ ولا خوفًا من عِقابِهِ، وهَؤلاءِ تَرُدُّ عليهم النُّصوصُ كُلُّها، بل إنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ عُقوبَةَ الدُّنيا سَببًا للرَّدعِ عَنِ المَعاصي، قال اللهُ تعالَى في قَضيَّةِ السَّارِقِ

﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:٣٨]، فلم يُشَرِّعِ اللهُ الحُدودَ إلَّا من أَجْلِ أن يَخافَ النَّاسُ منها ويَجتَنِبوا المَعاصي، والقَريَةُ الَّتي دَمَّرت قَريَةَ بَني إسرائيلَ حتَّى صار أَهْلُها قِرَدَةً خاسِئينَ لِماذا: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة:٦٦].

فالحاصِلُ: أنَّه لا حَرَجَ على الإنسانِ أن يَدَعَ المَعاصيَ خوفًا مِن عُقوبَةِ اللهِ الدُّنيويَّةِ والأُخْرويَّةِ، ولا يُعَدُّ ذلك قَدْحًا في سُلوكِهِ ومَنهجِهِ.

من فوائِدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثباتُ العَذابِ، ويَكونُ في الدُّنيا وفي القبرِ وفي الآخِرَةِ، في الجَميعِ قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ [السجدة:٢١]، وهو عَذابُ الدُّنيا: ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ وهو عَذابُ الآخِرَةِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، وهذا يَتَعَيَّنُ أن يَكونُ المُرادُ بـ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾، ليس عَذابُ القَبْرِ كما قيل، بل هُو عَذابُ الدُّنيا؛ لأنَّ عَذابَ القَبرِ لا يُمْكنُ فيه الرُّجوعُ، فإذن: ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ هو عَذابُ الدُّنيا و﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ هو عَذابُ الآخِرَةِ، ولهذا جاء في الحَديثِ حَديثِ المُتلاعِنينِ أنَّ الرَّسولَ قال: «عَذابُ الدُّنيا أَهونُ من عَذابِ الآخِرَةِ»[1].

فإنْ قال قَائلٌ: بَعضُ أَهلِ العِلمِ استَدَلَّ بقولِهِ تَعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ [السجدة:٢١] على عَذابِ القَبرِ، ما وَجهُ استِدْلالِهم؟

فالجَوابُ: ظَنُّهم أنَّ العَذابَ هُنا عَذابُ عُقوبَةِ الآخِرَةِ وقالوا: إنَّ عُقوبَةَ القَبرِ قَبْلَ عُقوبَةِ يومِ القِيامَةِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب اللعان، رقم (١٤٩٣)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وإن قيل: فكيف يُوجِّهون قولَهُ تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

فالجوابُ: يُمكنُ أن يُوجِّهوها بأن يُحرِّفوها عن ظاهِرِها، يقولون: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يعني: أَخْبَرْناهم بذلك لعلَّهم يَرجِعون، لكنَّ هذا خِلافُ ظاهِرِ اللَّفظِ.

فإن قيل: إذا قُلنا إنَّ هذا عَذابُ الدُّنيا، كيف نُثْبِتُ أنَّ القُرآنَ أَثْبَتَ عَذابَ القَبرِ؟

فالجَوابُ: كَثيرٌ في القُرآنِ، قولُهُ تَعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦]، وقولُهُ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ [الأنفال:٥٠]، وقولُهُ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣].

فإن قيل: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ البَعضُ يَستدِلُّ بهذه الآيةِ على عَذابِ القَبرِ يَقولُ: إنَّ ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ هو عَذابُ الدُّنيا، ولكن ﴿مِّنَ﴾ في الآيةِ للتَّبعيضِ، فهل تَبقَى لهم بَقِيَّةٌ من هذا العَذابِ يُعذَّبونَ بها في القَبرِ؟

فالجَوابُ: لا، ﴿مِّنَ﴾ للبَيانِ، مِن بَيانِيَّةٌ، هذا هو الأقربُ، ويَجوزُ أن تَكونَ للتَّبعيضِ ولنُذيقَنَّهم بعضَ العَذابِ الأَدْنَى، ولا حاجَةَ له، فإثباتُ عَذابِ القَبرِ -والحمدُ لله- جاء في آياتٍ صَريحَةٍ ما يَحتاجُ أن نَأتيَ إليه بآياتٍ تَحتَمِلُ هذا وهذا، وهي في غَيرِهِ أَرْجَحُ.

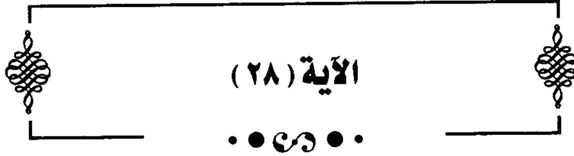
الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ الجَزاءِ بالأَسْوَأِ؛ لقولِه: ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الجزاءَ من جِنسِ العَمَلِ، فالجزاءُ الصَّالحُ للعَمَلِ الصَّالحِ والجزاءُ السَّيِّئُ للعَمَلِ السَّيِّئِ، وهذا -سُبحانَ اللهِ- حتَّى في مُجازاةِ الدُّنيا، قال اللهُ تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠]، فإذا أساء إليك إنسانٌ بسيِّئةٍ فلَكَ أن تُقابِلَه بمِثلِها، وإنْ عَفوتَ وأَصلحتَ فأَجرُكَ على اللهِ.

فإنْ قال قائلٌ: أمَا يُمكِنُ أن نَأخُذَ من قَولِهِ تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أنَّهُ يُجازيهم أَسوَأَ عَمَلِهم هذا، وهُو اللَّغو بألَّا يَهتَدوا إلى مَعانيهِ الَّتي تَهديهِمْ إلى الخَيرِ فتكونُ مُجازاتُهم مِن جِنسِ عَمَلِهم كذلك؟

فالجَوابُ: لا؛ لأنَّ: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ هذا في الآخِرَةِ، الوَعيدُ هُنا في الآخِرَةِ.





قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت:٢٨].

• • ● • •

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ذَٰلِكَ﴾ العَذابُ الشَّديدُ وأَسوَأُ الجَزاءِ: ﴿جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾ بتَحقيقِ الهَمزَةِ الثَّانيَةِ وإبدالِها واوًا]، يعني: أنَّ في ذلكَ قِراءتَينِ الأُولَى تَحقيقُ الهَمزَةِ، ﴿جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾ والثَّانيَةُ قَلبُها واوًا: «جزاو أعداءِ الله» وهذا مُطَّرِدٌ في كُلِّ هَمزَةٍ بعدَ واوٍ أن تُحقَّقَ أو تُقلَبَ واوًا، ومن ذلك قَولُ المُؤذِّنِ: اللهُ أكبرُ، يَعني: أنَّه يَجوزُ إبْدالُ الهَمْزَةِ واوًا وتحقيقها اللهُ أكبَرُ، وهذه اللُّغَةُ تُهَوِّنُ علينا ما يَفعَلُه بعضُ المُؤذِّنينَ من قَلبِ الهَمزَةِ واوًا، فتَجِدُهم يَقولونَ: اللهُ وكبر، كما أنَّه يُهَوِّنُ علينا اللُّغَةَ الَّتي تَنْصِبُ الجُزْأَينِ في إنَّ وأَخواتِها؛ حيثُ إنَّ بَعضَ المُؤَذِّنينَ يَقولُ: أَشهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ، فإنَّ نَصبَ الجُزأينِ بـ(أنَّ) لُغةٌ عربِيَّةٌ ثابتَةٌ.

قَولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾ أعداءُ اللهِ تَعالَى هُمُ الَّذين نَصَبوا لَهُ العَداوَةَ وذلك بمُحاربتِهِ بالمَعاصي، ومِنهم الَّذين آذَنوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ ورَسولِهِ أَكَلَةُ الرِّبا؛ لقَولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة:٢٧٨-٢٧٩].

المُهِمُّ: أنَّ عَدُوَّ اللهِ مَن نَصَبَ له العَداوَةَ وذلك بمُحاربتِهِ بمَعاصيه.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلنَّارُ﴾ عَطفُ بَيانٍ للجَزاءِ المُخبَر به عن ذلك: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾] يعني: أنَّ كَلمةَ ﴿ٱلنَّارُ﴾ بَدَلُ عَطْفِ بيانٍ لِلجَزاءِ المُخبَرِ به عن ذلك.

فأَفادَنا أنَّ (ذا) مُبتدأٌ، و﴿جَزَآءُ﴾ خَبَرُ المُبتدأِ، و﴿ٱلنَّارُ﴾ عَطفُ بيانٍ له ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾، كأنَّ الكَلامَ على إعرابِ المفسِّر انتهى، ثُمَّ قال: ﴿ٱلنَّارُ﴾ عَطْفُ بيانٍ لهذا الجَزاءِ، ويَحتمِلُ أن تَكونَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مُبتدأٌ و﴿جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾ عَطفُ بيانٍ له، لكن ما مَشي عليه المفسِّر أَقربُ للقَواعِدِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ أي إقامَةٍ لا انتقالَ منها]، ﴿دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ أَضافَ الدَّار للخُلْدِ من بابِ إضافَةِ المَوصوفِ إلى صِفتِهِ يعني: دارَ الخُلودِ الَّتي ليسَ فيها انتِقالٌ، ويَجوزُ أن تَكونَ من بابِ إضافَةِ الشَّيءِ إلى نَوعِهِ؛ لأنَّ الدُّورَ تَنقَسِمُ إلى أَقسامٍ، دُورٌ هي دُورُ انتقالٍ ودُورٌ هي دارُ خُلدٍ، فيَدورُ الانتقالُ الأوَّلُ بَطنُ الأُمِّ والثَّاني الحَياةُ الدُّنيا والثَّالثُ البَرزخُ، ودارُ الخُلدِ هي الأخيرَةُ، ويُذكَرُ أنَّ أعرابيًّا سَمِعَ قارئًا يَقرأُ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ فقال: واللهِ ما الزَّائرُ بمُقيمٍ، وإنَّ هناك دارًا أُخرى، وهذا لا شَكَّ أنَّه من قُوَّة الاستِنباطِ والفَهمِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿جَزَآءً﴾ مَنصوبٌ على المَصدرِ بفِعلِهِ المُقدَّر]، والمَصدَرُ لا بُدَّ له مِن عاملٍ، والعامِلُ تارَّةً يَكونُ من لفظِ المَصدرِ، وتارَّةً يَكونُ من مَعناه، فإذا قلت: قُمتُ وقوفًا، فالعامِلُ مِن معناه، وإذا قلتَ: وقفتُ وقوفًا، فالعاملُ مِن لَفظِه المُقَدَّرِ، ويُقدَّرُ مِن لَفظِه، ولا يُقدَّرُ من مَعناه؛ لأنَّنا لا نَلجأُ إلى تَقديرِ المَعنى إلَّا إذا وُجِدَ أَمامَنا ما يَختَلِفُ في لَفظِه، وأمَّا إذا لم نَجِدْ فيُقَدَّر مِنَ اللَّفظِ، وعلى هذا فيَكونُ التَّقديرُ يُجْزَونَ جَزاءً.

قال اللهُ تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي: بِكونِهم يَجحَدون، وعلى هذا فـ(ما)

هُنا مَصدَرِيَّةٌ، ولا تَصِحُّ أن تكونَ مَوصولَةً.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ القُرآنُ ﴿يَجۡحَدُونَ﴾] أي يُكذِّبون، وإنَّما قدَّرنا يُكذِّبون من أَجْلِ تَعدِّيها بالباءِ؛ لأنَّ جَحَدَ تَتعَدَّى بنَفسِها، فيُقالُ: جَحَدتُ الشَّيءَ يعني: أَنْكَرتُه، لكن إذا عُدِّيَ المَعمولُ بالباءِ صار الجَحدُ مُضمَّنَ معنى التَّكذيبِ؛ أي: بما كانوا يَكذِبون بآياتِنا.

من فوائدِ الآيَةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ جزاءَ أعداءِ اللهِ هي النَّارُ ولا بدَّ، ولذلك قال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ﴾ وبَيَّنَ أنَّ هذا الجزاءَ هو النَّارُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيانُ خُلدِ أهلِ النَّارِ فيها؛ لقَولِه: ﴿دَارُ ٱلۡخُلۡدِ﴾ وهلِ التَّخليدُ مُؤبَّدٌ أو مُؤَقَّتٌ؟ المَقطوعُ به أنَّه مُؤبَّدٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى صَرَّحَ به في آياتٍ ثلاثةٍ؛ في النِّساءِ وفي الأحزابِ وفي الجِنِّ.

ففي النِّساءِ قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩]، وفي سورَةِ الأحزابِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥]، وفي سورَةِ الجِنِّ ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ عَدلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأنَّه لا يُعذِّبُ أحدًا إلَّا بذَنبٍ؛ لقَولِه: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ الأَسبابِ يُستفادُ من قَولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾؛ لأنَّ الباءَ هنا للسَّببيَّةِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ التَّكذيبَ بآياتِ اللهِ رِدَّةٌ؛ لأنَّ اللهَ وَصَفَ المُكذِّبين بأنَّهم أعداءٌ وأنَّ جَزاءَهم دارُ الخُلدِ، وهذا أَمْرٌ مُتَّفقٌ عليه، أنَّ مَن كَذَّبَ اللهَ ورَسولَه فإنَّه مُرتدٌّ كافِرٌ يُستَتابُ، فإن تاب وأَقَرَّ وإلَّا قُتِلَ.

فإن قال قائلٌ: مِن المَعلومِ أنَّ مَن كذَّب شيئًا مِن القُرآنِ فهو مُرتدٌّ؛ لأنَّ القُرآنَ ثَبتَ بالتَّواتُرِ، فهل مَن كذَّب بشيءٍ مِنَ السُّنَّةِ يكونُ كذلك؟

قُلنا: إذا صَحَّت السُّنَّةُ وقال القائلُ: أنا أَعلَمُ أنَّ هذا من كَلامِ الرَّسولِ لكنَّه ليس بصَحيحٍ، فهذا مُرتدٌّ؛ لأنَّه أقرَّ بصِحَّةِ نِسبتِه إلى الرَّسولِ ثُمَّ كَذَّبه، أمَّا لو كَذَّبه بِناءً على استِبعادِ أن يَكونَ صَدَرَ مِن الرَّسولِ ﷺ فهذا لا يُكفَّرُ؛ لأنَّه متأوِّلٌ، لكنَّه يَجِبُ عليه أن يَنظُرَ مرَّةً بعد أخرى حتَّى يتبيَّنَ له الأمرُ.

إذن مَن كذَّب شيئًا مِن القُرآنِ فهو كافِرٌ بدونِ تَفصيلٍ لثُبوتِ القُرآنِ ثُبوتًا مُتواتِرًا لا تَواتُرَ مثلَه في أيِّ كتابٍ مِن الكُتبِ، ومَن كذَّب شيئًا مِن سُنَّةِ الرَّسولِ ﷺ فهو كافِرٌ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بَيِّنةٌ ظاهرةٌ لا يُمكنُ أن يُكذِّبَ بها أحدٌ؛ لقَولِه: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾، وتَخصيصُ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك بالقُرآنِ فيه شَيءٌ من النَّظرِ، بل يُقالُ: إنَّه أعَمُّ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثباتُ عَظمَةِ اللهِ حيثُ أَتى بضَميرِ الجَمعِ، ولم يَقُلْ: بآياتي، بل قال: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾، ولا شكَّ أنَّ اللهَ تعالى له العَظَمَةُ المُطلَقَةُ من كُلِّ وجهٍ.



الآية (٢٩)

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [فُصِّلَت:٢٩].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا﴾ كَفروا باللهِ عَزَّوَجَلَّ بسببِ إضلالِ الشَّيطانِ منَ الجِنِّ والإنسِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في النَّارِ: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾]، قَولُه: في النَّارِ، هذا قَيدٌ لا يَدُلُّ عليه القُرآنُ، فإنَّه يَحتمِلُ أنَّهم يَقولونَ ذلك في النَّارِ أو في عَرَصاتِ القِيامَةِ -اللهُ أعلمُ-، لكنَّهم لا بدَّ أن يَقولوا هذا القَولَ: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾.

قَولُه تعالى: ﴿أَرِنَا﴾ أي: اجعَلنا نَرى، و﴿ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، ﴿ٱلَّذَيْنِ﴾ اسمٌ موصولٌ مُثنًّى، والمُرادُ الجِنسُ لا الواحِدُ.

وقَولُه: ﴿أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ بَيانٌ للَّذي قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي إبليسُ وقَابيلُ سنَّا الكُفْرَ والقَتْلَ]، يعني: مَعناها أنَّ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ حَمَلَ هذا العُمومَ على التَّعيينِ، فقال: ﴿ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ مُثنَّى اثنينِ، أحدُهما إبليسُ سَنَّ الكُفْرَ، هو أوَّلُ مَن كَفَرَ، والثَّاني قابيلُ سَنَّ القَتْلَ، فالأوَّلُ عُدوانٌ في حقِّ اللهِ، والثَّاني عُدوانٌ في حَقِّ عِبادِ اللهِ.

أمَّا إبليسُ فأوَّلُ مَن سَنَّ الكُفْرَ؛ لأنَّ اللهَ أَمَرَه أن يَسجُدَ لآدَمَ فأبى واستكبَرَ وكان مِن الكافِرينَ، وأمَّا قابيلُ فأوَّلُ مَن سَنَّ القَتلَ بِغيرِ حَقٍّ؛ لأنَّه قتَل أخاه حَسدًا وبَغيًا، قَرَّبا قُربانًا فتُقُبِّلَ من أحدِهما ولم يُتقبَّلْ مِن الآخرِ، وكيف علِما أنَّه تُقُبِّلَ من أَحدِهما دون الآخَرِ؟ اللهُ أعلمُ، إمَّا أن يَكونَ بنارٍ نَزَلَت فأكَلَت ما تُقُبِّلَ كما يَكونُ ذلك في الغَنائمِ سابقًا، وإمَّا بغَيرِ ذلك مِن العَلاماتِ. المُهمُّ أنَّ أحدَهما تُقُبِّل منه والثَّاني لم يُتقَبَّلْ منه، الَّذي تُقُبِّل منه هو هابيلُ، والثَّاني قابيلُ لم يُتقَبَّلْ منه فحَسَدَه وقال: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ لماذا؟ حَسدًا؛ لأنَّ اللهَ تقَبَّل منه، فقال له أخوه هابيلُ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] كأنَّه يَقولُ له: اتَّقِ اللهَ فيَتقبَّل منك؛ ثُمَّ قال لَهُ: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة:٢٨] يَعني: أنَّك إن أَردتَ أن تَقتُلَني ما أَنا بباسِطٍ يدي لأَقتلَك لأنِّي أَخافُ اللهَ.

ولعلَّ هذا كان في شَريعَةِ مَن سَبَقَ أنَّه لا يَجوزُ للإنسانِ أن يُدافِعَ عن نفسِهِ، أو أنَّه خاف مِن مَفسدَةٍ أَكبَرُ، ومَعلومٌ أنَّ دَفْعَ المَفسدَةِ الكُبرى أَمْرٌ واجِبٌ: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة:٢٩-٣٠] فكان قابيلُ أَوَّلَ مَن سَنَّ القَتلَ بغَيرِ حَقٍّ، وصارت كُلُّ نفسٍ تُقتَلُ بغيرِ حَقٍّ فعلى قابيلَ شيءٌ مِن وِزرِها والعِياذُ باللهِ؛ لأنَّهُ أوَّلُ مَن سنَّ القَتلَ، ومَن سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فعليه وِزرُها ووِزرُ مَن عَمِلَ بها إلى يومِ القِيامَةِ.

فإنْ قال قائلٌ: قَولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ حكايةً عن ابنِ آدمَ الأوَّلِ: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ هل يَكونُ هذا في شَرعِنا فيما يَخُصُّ الفِتَنَ؟

فالجَوابُ: بلى، هذا في الفِتنَةِ لكن في مَسأَلَةِ قابيلَ وهابيلَ ليس فيها فِتنَةٌ،

ولهذا أَمَرَ الرَّسولُ عند الفِتنَةِ أن يَكونَ الإنسانُ كخيرِ ابنَيْ آدمَ، كما فَعلَ عُثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينَ ثارَ عليه الثُّوَّارُ، وأراد الصَّحابَةُ أن يُدافِعوا عنه، أَمَر بالإمساكِ.

لكن هل الأمرُ كما قال المفسِّر: إنَّه الشَّيطانُ، يعني: إبليسُ الَّذي أبى واستكبرَ عنِ السُّجودِ لآدمَ أوِ المُرادُ الجِنسُ؟ الصَّوابُ الثَّاني بِلا شَكٍّ؛ لأنَّ كَثيرًا مِن الكافِرينَ لا يَخطُرُ ببالِهِم أنَّهم كَفَروا تَأسِّيًا بالشَّيطانِ الَّذي أبى واستكبَرَ، وكَثيرٌ منَ القَتَلَةِ لا يَتأَتَّى ببالِه أنَّه فَعَلَ ذلك تَأَسِّيًا بقابيلَ.

فإذا كانت الآيَةُ تَدُلُّ بلَفظِها على العُمومِ والمَعنى يَقتَضي ذلك، فإنَّه لا وَجهَ لكونِنا نَخُصُّها بمُعَيَّنٍ. وهذه قاعِدَةٌ يَجِبُ أن نَفهَمَها من قَواعِدِ التَّفسيرِ: أنَّ اللَّفظَ العامَّ لا يَجوزُ أن يَقتصِرَ فيه على بعضِ أفرادِهِ إلَّا بدَليلٍ، فإن لم يَكُن دَليلٌ فالواجِبُ العُمومُ.

هُنا نَقولُ الواجِبُ العُمومُ؛ لأنَّ اللَّفظَ عامٌّ ولأنَّ المَعنى يَقتَضيه؛ لأنَّ كُلَّ إنسانٍ كافِرٍ قد لا يَخطُرُ ببَالِه أنَّه مُتأَسٍّ بالشَّيطانِ بإبْليسَ، كُلُّ إنسانٍ يَقتُلُ عمدًا بِلا حقٍّ لا يخطُرُ ببالِه أنَّه قتَل تأسِّيًا بقابيلَ، وحينَئِذٍ فاللَّفظُ والمَعنى لا يُساعدانِ على التَّخصيصِ بإبْليسَ وقابيلَ.

وقولُهُ: ﴿أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، ﴿ٱلْجِنِّ﴾ على كَلامِ المفسِّر هو إبليسُ: ﴿وَٱلْإِنسِ﴾ قابيلُ، والصَّوابُ العُمومُ.

فإن قال قائِلٌ: نَحنُ نَعلمُ أنَّ الإنسانَ يُضِلُّه البَشَر يَأتي إنسانٌ سَيِّئٌ ويُضِلُّه، لكن كيف يَكونُ مِنَ الجِنِّ؟

قُلنا: لأنَّ الجِنَّ وعلى رَأسِهم الشَّيطانُ يَأمرُ الإنسانَ بالفَحشاءِ، ويَأمُرُه بالمُنكَرِ،

ويَأمُرُه بالكُفرِ، فيَكونُ بذلك مُضلًّا له، أرأيتم ما حَصَلَ من آدَمَ وزَوجِه ألم يَكُنِ الشَّيطانُ قد أَضَلَّهما؟ بلى، قد أَضلَّهما، نَهاهما اللهُ عن الأَكلِ مِنَ الشَّجرَةِ، فجاء لهما الشَّيطانُ بغُرورٍ، وجعل يُقسِمُ لهما أنَّه ناصحٌ، ووَسوسَ إليهما حتَّى أَكَلا مِنَ الشَّجَرةِ.

فإنْ قال قائلٌ: هلِ الجِنُّ المُضِلُّ للإنسِ يَكونُ مِن جَميعِ الجِنِّ أم مِن جِنسٍ خاصٍّ؟

فالجَوابُ: مِن المَعلومِ أنَّ الجِنَّ فيهم الصَّالحونَ وفيهم دونَ ذلك، وفيهم المُسلِمونَ وفِيهم الكُفَّارُ، فالَّذي يُضِلُّ إنَّما هو الكافِرُ، أمَّا الجِنِّيُّ المُؤمنُ فلا يُضِلُّ.

وإن قيل: هل جَميعُ كُفَّارِ الجِنِّ مَكَّنَهم اللهُ عَزَّوَجَلَّ من إغواءِ الإنسِ؟

فالجَوابُ: لا، لكن أَصلُ كُفرِ الإنسانِ منَ الشَّيطانِ والنَّفسِ، والشَّيطانُ منَ الجِنِّ لا شكَّ في هذا: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ [الكهف:٥٠].

قال اللهُ تعالى: ﴿نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا﴾، ﴿نَجۡعَلۡهُمَا﴾ بالجَزمِ جَوابُ الأمرِ في قَولِه: ﴿أَرِنَا﴾ يعني: إن أَريتَنا إيَّاهما: ﴿نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا﴾، يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في النَّارِ]، ولا شكَّ أنَّ الَّذي يَجعَلَه الإنسانُ تحتَ قدمِه قد أذلَّه أعظَمَ الإذلالِ، ولهذا مِن الأمثالِ السَّائرَةِ أنَّ الإنسانَ إذا أرادَ إعزازَ شَخصٍ قال: أنت مِنِّي على الرَّأسِ، وإذا أَرادَ إذلالَه قال: أنت تَحتَ قَدَمي.

فهم يَقولونَ: ﴿أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾. يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: أَشَدَّ عذابًا منَّا] كما كانا عالِيَينِ علينا مِن قَبلُ فلْنَجْعَلْهما نحنُ الآنَ تَحتَ أقدامِنا؛ ليَكونا مِن الأسفَلِينَ.

فإنْ قال قائلٌ: الدُّعاءُ في قولِهِ تعالَى: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا﴾، هل هو خاصٌّ

بكَفَرَةِ الإنسِ أم شاملٌ لكَفَرَةِ الإنسِ والجِنِّ؟

فالجَوابُ: يَشملُ هذا وهذا؛ لأنَّ الجِنَّ يَدخلُ كافِرُهم النَّارَ بالإجماعِ.

وإنْ قِيل: لماذا أتتِ الآيَةُ بصيغَةِ الماضي؟

فالجَوابُ: أنَّ هذا القَولُ لم يَحصُلْ لكنَّه على حِكايةِ الحالِ، أو يُقالُ: إنَّه لـمَّا تَحقَّقَ وُقوعُه صار بمَنزِلةِ الماضي كقَولِه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، فإنَّ أمْرَ اللهِ لم يأتِ بَعدُ بدليلِ قولِهِ: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾.

فإنْ قال قائلٌ: ألا يُمكنُ أن يُقالَ: إنَّ قَولَ الكافِرينَ: ﴿أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا﴾ كذلك في النَّارِ بدَليلٍ قولِهم بعدَ ذلك: ﴿نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا﴾؟

فالجَوابُ: لا يـدُلُّ عليه؛ لأنَّه يُمكـنُ أن يَجعَلونهم تَحـتَ أقدامِهم وهم في عَرَصاتِ القِيامَةِ لا يَلزَمُ أن يَكونَ هذا في النَّارِ.

من فوائِدِ الآيَةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: إقرارِ الكُفَّارِ برُبوبيَّةِ اللهِ، وأنَّه المُجيبُ للدُّعاءِ؛ لقولِهم: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا﴾ وهذا كَلامُ الكُفَّارِ.

فإنْ قال قائلٌ: قَولُهم: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ﴾ أليس فيه إقرارٌ بالأُلوهِيَّةِ وتَوحيـدِ العِبادَةِ؟

فالجَوابُ: لا، دُعاءُ اللهِ تعالَى يَكونُ بالدُّنيا لكنَّهم يَدعونَ اللهَ تعالَى بالضَّرَّاءِ ويَنسونَه في السَّرَّاءِ، وهُناكَ أيضًا في الآخِرَةِ رُبَّما يُقِرُّونَ بأنَّه حقٌّ، لا إِلَهَ إلَّا اللهُ، لكن لا يَنفَعُهم هذا الإِقْرارُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإنسانَ يَنبَغي له أن يَبتَعِدَ، بل يَجِبُ عليه أن يبتَعِدَ عن قُرناءِ السُّوءِ؛ لقولِه: ﴿ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، وقد حَذَّرَ النَّبيُّ ﷺ مِن جَليسِ السُّوءِ فقال: «**المَرءُ على دينِ خَليلِه فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُم مَنْ يُخالِلْ**»[(١)] أي: على دينِ صَديقِه ومُحِبِّه فَلْيَنْظُرْ أحدُكم مَن يُخالِلُ، وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَثَلُ الجَليسِ السُّوءِ كنافِخِ الكيرِ، إمَّا أن يَحرِقَ ثيابَك وإمَّا أن تَجِدَ منه رائِحةً خَبيثَةً**»[(٢)]، فاحذَرْ قَرينَ السُّوءِ لا تَجتَمِعْ به، لا تُصادِقْه، لا تَستأمِنْه على أيِّ شيءٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَبَرُّؤ التَّابعينَ مِن المَتبوعينَ يومَ القيامَةِ، ويَشهَدُ على ذلك قولُهُ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [البقرة:١٦٦]، فالمَتبوعون في آيَةِ البقرَةِ يَتبرَّؤونَ مِنَ التَّابعينَ، كما أنَّ التَّابعينَ أيضًا يَتبرَّؤون مِنَ المَتبوعينَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الإضلالَ يَكونُ مِنَ الجِنِّ والإنسِ؛ لقولِه: ﴿أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ فمُصاحبَةُ الإنسيِّ للإنسيِّ واضِحَةٌ، مُصاحبَةُ الجِنِّيِّ للإنسيِّ أيضًا مُستفادَةٌ من قولِه تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فُصِّلَت:٢٥].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: شِدَّةُ حَنَقِ هؤلاءِ الضَّالينَ على المُضلِّينَ؛ لقولِه: ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾.



---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٣٠٣)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، رقم (٤٨٣٣)، والترمذي: كتاب الزهد، رقم (٢٣٧٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم (٥٥٣٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين، رقم (٢٦٢٨)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيات (٣٠-٣٢)

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فُصِّلَت:٣٠-٣٢].

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، قالوا بألْسِنَتِهم وقُلوبِهم، ولا يَكفي مُجرَّدُ القَولِ باللِّسانِ؛ لأنَّ القَولَ باللِّسانِ يَقعُ مِن الْمُنافِقِ ومِنَ الْمُخلصِ، لكنَّ المُرادَ: القَولُ باللِّسانِ والقَلبِ.

﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ وهذا القَولُ الَّذي قالوه ليس مُجرَّدَ قَولٍ باللِّسانِ أو اعتِقادٍ بالجَنانِ، بل هو مُستلزِمٌ لطاعَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ أي: استَقاموا على طاعَةِ اللهِ، في الإيمانِ في القَلبِ والاستِقامَةِ في الجَوارحِ، فلم يَكتَفِ اللهُ بالثَّناءِ عليهم وبَيانِ جَزائِهم على الإيمانِ بالقَلبِ، بل لا بدَّ مِنْ الاستِقامَةِ، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾، وقول الْمُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [على التَّوحيدِ وغَيرِه ممَّا وَجبَ عليهم] صَحيحٌ، يعني: استَقاموا على التَّوحيدِ فلا إِشْراكَ، استَقاموا على الاتِّباعِ فَلا بِدعةَ، استَقاموا على الطَّاعَةِ فلا مَعصيَةَ، استَقاموا على الخَيرِ فلا شَرَّ، وهَلُمَّ جرًّا.

وتَأمَّلْ قولَه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ أتى بـ﴿ثُمَّ﴾ الدَّالَّةِ على التَّرتيبِ بمُهلَةٍ يعني:

أنَّ إيمانَهم لم يَكنْ إيمانًا خاطِفًا، آمَنَ ثُمَّ زال، بل إيمانٌ مُستقِرٌّ؛ لأنَّهم استَقاموا على دينِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وقد سُئِلَ النَّبيُّ ﷺ سأله رَجلٌ فقال: «**يا رَسولَ اللهِ، قُل لي في الإسلامِ قولًا لا أَسألُ عنه أحدًا غيرَك** -يعني: قَولًا فَصلًا-، **فقال لَه: قُل آمَنتُ باللهِ ثُمَّ استَقِمْ**»(١) وهو مَأخوذٌ من هذه الآيةِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾.

وقولُه: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، ﴿تَتَنَزَّلُ﴾ مَدلولُها يُخالِفُ مَدلولَ تَنزَّلُ؛ لأنَّ ﴿تَتَنَزَّلُ﴾ فيها زِيادَةُ (التَّاء)، فهذه الزِّيادَةُ تَقتَضي مَعنيينِ: المَعنى الأَوَّلُ أنَّ تَنزُّلَهم يَكونُ شيئًا فشيئًا. ﴿تَتَنَزَّلُ﴾ لا تَنـزَّلُ دُفعةً واحدَةً، والثَّاني: أنَّ التَّنـزُّلَ أو النُّزولَ مُتكرِّرٌ، ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ﴾، يعني: كُلَّما دَعت حالُهم إلى تَنزُّلِ المَلائِكةِ عليهم تَنزَّلت عليهم، فصار الفَرقُ الآنَ بين تَنزَّلُ و﴿تَتَنَزَّلُ﴾ من وجهين:

الوَجهُ الأَوَّلُ: أنَّ تَنزَّلُ تَعني النُّزولَ مَرَّةً واحدةً.

والوَجهُ الثَّاني: دُفعَةً واحدةً.

و﴿تَتَنَزَّلُ﴾ تَقتَضي تَكرارَ النُّزولِ، وأنَّه يَكونُ شيئًا فشيئًا.

قولُه تعالَى: ﴿عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ سَبَقَ الكَلامُ على ذِكـرِ المَلائِكَةِ، وقَولُ المُفسِّرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عندَ المَوتِ] فيه نَظرٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى لم يُقيِّدْ ذلك، فالظَّاهرُ أنَّ المَلائكةَ تَتَنزَّلُ عليهم كُلَّما دعت الحالُ إلى النُّزولِ عندَ المَوتِ وعِندَ الخَوفِ وعندَ المَعارِكِ، وفي كُلِّ حالٍ تَقتَضي أن تَنزِلَ المَلائكةُ عليهم؛ لأنَّ اللهَ أَطلقَ: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ﴾، ويَشهَدُ لهذا قولُه تعالَى: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الأنفال:١٢].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام، رقم (٣٨)، من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فإنْ قال قائلٌ: قولُنا نَستفيدُ نُزولَ المَلائكَةِ في الآخِرَةِ عندَ المَوتِ مِن قَصْرِ الآيةِ، هل يَصدُرُ هذا عن قولِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٤]، يعني أنَّ أكثرَ المُفسِّرينَ على أنَّها في القَبرِ في الآخِرَةِ وهُنا الآيَةُ عامَّةٌ؟

فالجَوابُ: وهو كذلك الآيَةُ عامَّةٌ، ويدُلُّ لعُمومِها قولُه تَعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧]، فإنَّ مَفهومَها أنَّ مَن لم يَتَّصِفْ بذلك فَليسَ لَه حَياةٌ طَيِّبةٌ.

فإن قيل: فما الَّذي حَمَلَهم -على كَثرَتِهم- على هذا؟

فالجَوابُ: لعلَّهم فَهِموا أنَّ السِّياقَ يدُلُّ على هذا، فهُنا مثلًا: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ البِشارَةُ بالجَنَّةِ حقيقَةً إنَّما تَكونُ عندَ المَوتِ، فلعلَّه السِّياقُ ظَنُّوا أنَّه يَقتَضي التَّخصيصَ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَ﴾ بأنْ لا ﴿تَخَافُوا۟﴾ مِن المَوتِ وما بَعدَهُ ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ على ما خَلَّفتم من أهلٍ وولدٍ، فنحن نَخلُفُكم فيهم].

نحن نَقولُ: ألَّا تَخافوا مِن مُستقْبَلِكم ولا تَحزنوا على ماضيكم؛ لأنَّ الإنسانَ عندَ الخوفِ إمَّا أن يَخافَ من المُستقبَلِ أو يَحزنَ على ما مَضى فيَقولُ: لو أنِّي فَعلتُ كذا لكان كذا، لم يَحدُثْ لي الخَوفُ مثلًا، فالمَلائِكةُ تَتنزَّلُ عليهم فتَقولُ: لا تَخافوا مِنَ المُستقبَلِ ولا تَحزنوا مِنَ الماضي، وقَدَّمَ الخَوفَ مِنَ المُستقبَلِ؛ لأنَّه أَهمُّ مِن الحُزنِ على ما مضى؛ لأنَّ مُستقبَلَ الإنسانِ هو الَّذي يَجعَلُه يَسيرُ أو يَتوقَّفُ؛ فلهذا بَدَأَ به قَبْلَ ذِكرِ الحُزنِ.

وإذا جعلناها مَثلًا ممَّا يَدعو إلى التَّنزُّلِ حالَ المَوتِ، فالإنسانُ عندَ المَوتِ حالُه

يَقتَضي أن يَزدادَ قُوَّةً ونشاطًا على الإيمانِ والتَّوحيدِ، فتَتنزَّلُ عليهمُ المَلائِكَةُ عندَ المَوتِ أيضًا وتُبشِّرُهم بها: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ وهي مِن البِشارَةِ، والبِشارَةُ هي الإخبارُ بما يَسُرُّ، وسُمِّيت بِشارَةً؛ لأنَّه إذا سُرَّ الإنسانُ ظَهَرت عَلامَةُ السُّرورِ على وَجهِه فتَغيَّرت بشَرَةُ الوَجهِ.

وقد تُطلَقُ البِشارَةُ على الإخْبارِ بما يَسوءُ من بابِ التَّهكُّمِ، قال اللهُ تَعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء:١٣٨]، وقال تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة:٣٤]، مع أنَّ هذا مِمَّا يَسوءُ، لكنَّه على سَبيلِ التَّهَكُّمِ بهم كما تَقولُ أنت لِلعاصي: أَبشِرْ بِسوءِ العاقِبةِ أبشِرْ بالنَّارِ وما أَشْبَهَ ذلك ممَّا يَكونُ تهكُّمًا به، ومثلُ قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٨-٤٩].

قال اللهُ تَعالى: ﴿وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ الجَنَّةُ هي الدَّارُ الَّتي أعدَّها اللهُ لأوليائِه، وفيها كما في القُرآنِ الكريمِ: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ [السجدة:١٧]، وفيها كما جاءَ في الحديثِ القُدسيِّ: «**ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سَمِعت، ولا خَطَرَ على قَلبِ بشرٍ**»(١).

﴿بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ وعَدَهم بها اللهُ عَزَّوَجَلَّ قال اللهُ تَعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [التوبة:٧٢].

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾] أي: نَحفَظُكم فيها ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: نَكونُ معكم فيها حتَّى تَدخلوا الجَنَّةَ ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، رقم (٣٢٤٤)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، رقم (٢٨٢٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ تطْلُبون].

تَقولُ لهم المَلائِكَةُ: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ يعني: أنَّ المَلائكَةَ تَتولَّى المُؤمنينَ، تَحثُّهم على الخَيرِ، وتُحذِّرُهم منَ الشَّرِّ، وقد قال النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم-: أنَّ «للمُلكِ في قَلبِ ابنِ آدمَ لَـمَّةً وللشَّيطانِ لَـمَّةً، فلَمَّةُ المُلكِ إيعادٌ بالخَيرِ وحثٌّ على الطَّاعَةِ، ولَـمَّةُ الشَّيطانِ بالعَكسِ»(١).

فإنْ قال قائلٌ: هل تَرِدُ اللَّمَّتانِ في آنٍ واحدٍ؟

فالجَوابُ: نعم، قد تَرِدُ اللَّمَّتانِ في آنٍ واحدٍ فيَهوى الإنسانُ الخَيرَ وإذا بالشَّيطانِ يَصُدُّه عنه، وقد يَكونُ لم يَطرأْ على بالِه فِعلُ الخَيرِ، والشَّيطانُ قد وَسوسَ له بالشَّرِّ.

وقولُه: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: نَحفَظُكم فيها؛ وذلك أنَّ الإنسانَ إذا كانت المَلائِكَةُ معه فإنَّها تُسدِّدُه وتَدُلُّه على الخَيرِ وتَحثُّه عليه، ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ يَتولَّونَهم أيضًا، فإنَّ المَلائِكَةَ تَتلقَّاهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٣]، وفي الجَنَّةِ تَدخُلُ عليهم المَلائِكةُ من كُلِّ بابٍ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٤]، فهُمْ أولياءُ المُؤمنينَ في الدُّنيا وفي الآخِرَةِ، جَعلَنا اللهُ منهم وإيَّاكم.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الآخِرَةِ ﴿مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ كُلُّ ما اشتَهاهُ الإنسانُ وإن لم يَطلُبْه فإنَّه يَحصُلُ بين يَديه، وكذلك أيضًا كُلُّ ما طَلَبَه فإنَّه يَحضُرُ بين يَديه.

في الدُّنيا لا يَتسَنَّى للإنسانِ ما يَطلُبُه حتَّى لو طَلَبَ وكرَّرَ الطَّلبَ فإنَّه قد

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة، رقم (٢٩٨٨)، من حديث عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

لا يَأتيه، لكن في الآخِرَةِ مُجَرَّدُ ما يَقعُ في قَلبِ الإنسانِ أنَّه يَشتَهي كذا يحضُرُ، كذلك أيضًا ما يَطلُبون يَحضُرُ أيضًا، ويَأتيهم أيضًا ما لا يَخطُرُ على بالِهم كما قال تَعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ [ق:٣٥] يعني يَأتيك منَ النَّعيمِ ما لم تَطلُبْه وما لم تَشتَهِه نفسُك وما لم يخطُرْ على بالِك.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿نُزُلٗا﴾] رِزقًا مُهيَّأً منصوبٌ بجُعِلَ مُقَدَّرًا]؛ أي: جُعِل نُزلًا [﴿مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾ أي اللهِ] عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّهم لم يَصِلوا إلى الجَنَّةِ إلَّا بمغفِرتِه ورَحمتِه.

يعني على تَقديرِ المفسِّر: أنَّ ﴿نُزُلٗا﴾ مفعولٌ ثانٍ لجُعِلَ المَحذوفِ، أي: جُعِل ﴿نُزُلٗا﴾ ومَفعولُها الأوَّلُ هو نَائبُ الفاعِلِ؛ لأنَّ نائبَ الفاعِلِ يَنوبُ عن المَفعولِ به. يَقولُ: ﴿نُزُلٗا﴾، أي: جُعِلَ ﴿نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾ وهو اللهُ عَزَّوَجَلَّ وذَكَرَ المغفرةَ والرَّحمةَ؛ لأنَّهم بمَغفِرَةِ اللهِ ورحمتِهِ وصَلوا إلى هذا، فبِمَغفِرتِه للذُّنوبِ نقُّوا منها وبرحمَةِ اللهِ تَعالى صاروا أهلًا لدُخولِ الجَنَّةِ.

من فوائدِ الآياتِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ مُجَرَّدَ العَقيدَةِ لا يُغني شيئًا حتَّى يَكونَ معه عَملٌ؛ لقولِه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾، وما يَقولُه كَثيرٌ منَ النَّاسِ: نحن على العَقيدَةِ هذا حَقٌّ ولا شكَّ، ويَمدَحونَ عليه لكن لا بُدَّ مِن أن يُقالَ: نحن على العَقيدَةِ والعَملِ الصَّالحِ، إذ لا بُدَّ منَ العملِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الحثُّ على الاستقامَةِ، والاستقامَةُ على دينِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أن يَثبُتَ عليه، ويَستَقيمَ عليه ولا يَتغيَّرَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إِثباتُ المَلائكَةِ؛ لقولِه: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ اللهَ تَعالى سَخَّرَ المَلائكَةَ لبَني آدَمَ في مَواطنَ كَثيرةٍ كما في هذه الآيَةِ، وكما في قولِهِ تَعالى: ﴿وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد:٢٣-٢٤]، وكما سَخَّرهم اللهُ تعالى يَجلِسونَ على أبوابِ المَساجِدِ يومَ الجُمُعةِ يَكتُبونَ الأَوَّلَ فالأَوَّلَ، إلى غَيرِ ذلك مِنَ المَواطنِ الَّتي جاءت في الكِتابِ والسُّنَّةِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ المَلائكَةَ الَّتي تَتنزَّلُ على هَؤلاءِ المُؤمنينَ المُستَقيمينَ تُبشِّرُهم بثَلاثَةِ أُمورٍ: أَوَّلًا: أنَّه لا خَوفَ عليهم، والثَّاني: أنَّهم لا يَحزنونَ، والثَّالثُ: أنَّ الجَنَّةَ مَأواهم، وقد سَبَقَ الفَرْقُ بين الخَوفِ والحُزْنِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تَحقيقُ البُشرى بما يُؤيِّدُها، يعني: لا يَكفي أن تَقولَ: يا فُلانُ أَبشِرْ بالخَيرِ حتَّى تُبيِّنَ ما يُؤيِّدُ هذه البُشْرى، يُؤخَذُ من هذه الآيَةِ وهي قولُه: ﴿الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ وذلك لِعِلمِهم بأنَّ وعدَ اللهِ لا يُخلَفُ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ المَلائكَةَ أَولياءُ لَمِن آمَنَ واستقامَ في الحَياةِ الدُّنيا وفي الآخِرَةِ.

أمَّا في الحَياةِ الدُّنيا فهِيَ حِفظُهم مِنَ المَعاصي والزَّللِ وتَهيئَتُهم للعَملِ الصَّالحِ ومَعونَتُهم على ذلك وتَثْبيتُهم عليه.

وأمَّا في الآخِرَةِ فلا تَسألْ، فإنَّ المَلائكَةَ تَتلقَّاهم، وكذلك أيضًا يَدخُلونَ عليهم مِن كُلِّ بابٍ في الجَنَّةِ إلى غيرِ ذلك مِمَّا ذَكَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ للَّذين آمَنوا باللهِ واستَقاموا في الجَنَّةِ ما تَشتَهيهِ الأنفُسُ، وفي آيَةٍ أُخْرى: ﴿مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزُّخرُف:٧١] فيكونُ لأهلِ الجَنَّةِ فيها مُتعَتانِ؛ المُتعَةُ الأُولى بالذَّوقِ والطَّعمِ، والمُتعَةُ الثَّانيةُ بالرُّؤيَةِ والنَّظرِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ في الجَنَّةِ كُلَّ شيءٍ يَطلُبُ؛ لقولِه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾،

فكُلُّ ما يَطلُبون فإنَّه موجودٌ في الجَنَّةِ، نَسألُ اللهَ أن يَجعلَني وإيَّاكم من أَهلِها.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّهم يُؤتَونَ هذا الرِّزقَ في الجَنَّةِ على أنَّه إكرامٌ وكَرامةٌ؛ لقولِهِ: ﴿نُزُلًا﴾، وأصلُ النُّزُلِ ما يُقدَّمُ للضَّيفِ مِنَ الكَرامَةِ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّهم إنَّما وَصَلوا إلى ذلك بمَغفِرةِ اللهِ ورَحمَتِه؛ لقولِه: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾، ولولا ذلك ما وَصَلوا إلى ما وَصَلوا إليه، ولهذا أَخْبَرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّه «**لن يَدخُلَ الجَنَّةَ أحدٌ بعَمَلِه**»، قالوا: ولا أنت يا رَسولَ اللهِ؟ قال: «**ولا أنا؛ إلَّا أن يَتغمَّدَني اللهُ برَحمَتِه**»[1]، فالإنسانُ لا يَصِلُ إلى الجَنَّةِ بالعَمَلِ، ووَجهُ ذلك أنَّه لو قوبِلَ العَمَلُ بالنِّعمَةِ الَّتي أَنعَمَ اللهُ بها على الإنسانِ لم يَكُنْ شيئًا، إذ إنَّ نِعَمَ اللهِ لا تُحْصَى ولا تُعَدُّ.

بل قال بَعضُ أهلِ العِلمِ: إنَّ شُكرَ نِعمَةِ اللهِ على النِّعمَةِ هو نِعمَةٌ يَحتاجُ إلى شُكرٍ ثانٍ، والشُّكرُ الثَّاني نِعمَةٌ يَحتاجُ إلى شُكرٍ ثَالثٍ وهَلُمَّ جرًّا، وعليه يَقولُ الشَّاعرُ[2]:

إذا كان شُكْري نِعمَةَ اللهِ نِعمَةً ... عَلَيَّ له في مِثلِها يَجِبُ الشُّكرُ
فكيف بُلوغُ الشُّكرِ إلَّا بفَضلِه ... وإن طالَت الأيَّامُ واتَّصلَ العُمرُ

فإنْ قالَ قائِلٌ: في الحَديثِ: «**لا يَدخُلُ الجَنَّةَ مَن كان في قَلْبه مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن**

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، رقم (٥٦٧٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، رقم (٢٨١٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) البيتان لمحمود بن الحسن الوراق، انظر: الفاضل للمبرد (ص:٩٥)، والصناعتين لأبي هلال العسكري (ص:٢٣٢).

كِبْرٍ»(١). هَلْ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ دُخولًا أوَّليًّا، أمْ لا يدخلُ الجنَّةَ أبدًا؟

فالجَوابُ: هَذا فِيه تفصِيلٌ؛ إنْ كان الكِبْرُ كُفرًا فَلا يَدخُل الجَنَّة أبدًا، وإنْ كان كِبْرٌ مَعَ الإيمانِ فَإنَّه لا يَدخُلُها الدُّخولَ المُطلَقَ الَّذي لمْ يُسبَق بعَذابٍ، وهَذا أيْضًا مِن آيات الوَعِيدِ، إذا شاء اللهُ تَعالَى عَفا عَنْه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء:٤٨].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ اسمَينِ مِن أَسماءِ اللهِ وهُما الغَفورُ الرَّحيمُ.

وهُنا قاعدَةٌ مُفيدَةٌ في الأسمـاءِ الحُسنى: الأَسْماءُ الحُسنـى تَدُلُّ على الذَّاتِ والصِّفاتِ دَلالَةَ مُطابقَةً وتَضمَنُ ودَلالَةَ التِزام، فغَفورٌ يَدُلُّ على أنَّ هُناك غافرًا وهو اللهُ، ويدُلُّ على صِفةِ المَغفرَةِ له إذ لا يُمكِنُ أن يُوجَدَ اسمٌ مُشتقٌّ لا يوجَدُ في مَوصوفِه أَصلُ الاشتِقاقِ، ولهذا لا تَقولُ للأعمى أنَّه بَصيرٌ ولا الأَصَمِّ أنَّه سَميعٌ.

فلا بدَّ إذن مِن إثباتِ الذَّاتِ المُتَّصِفَةِ بما دلَّ عليه الاِسمُ، ولا بدَّ مِن إثباتِ الصِّفَةِ الَّتي اشتُقَّ منها الاِسمُ، ولا بُدَّ أيضًا مِن إثباتِ لازم تلك الصِّفةِ، مِثالُ ذلك قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢].

فأَخبرَ أنَّه خَلَقَ وبيَّنَ أنَّه أخبَرنا بذلك لنَعلمَ أنَّه على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنَّ اللهَ قد أَحاطَ بكُلِّ شيءٍ عِلمًا، فكيف دَلَّت صِفةُ الخَلقِ على العِلمِ والقُدرَةِ؟ لأنَّه لا يُمكنُ أن يَخلُقَ إلا بِعلمٍ، فهو يَعلمُ كيف يَخلُقُ، ولا يُمكنُ أن يَخلُقَ إلَّا بقُدرَةٍ؛ ولهذا مَن لا عِلمَ له لا يُمكـنُ أن يَخلُقَ، ومَن عِنـدَه عِلمٌ ولكنَّه عاجِزٌ لا يُمكِنُ أن يَخلُقَ،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم (٩١)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أرأيتَ لو أنَّ شخصًا أرادَ أن يُلحَ مُسَجِّلًا، هل يُمكنُ أن يُصلحَه إلَّا بعِلمِ كيف يُصلحُه؟ لا يُمكنُ، وهل يُمكنُ أن يُصلحَه وهو عاجِزٌ أَشَلُّ؟ لا يُمكنُ.

إذن الخالِقُ مِن أسمـاءِ اللهِ تَتضَمَّنُ الدَّلالَةَ على الذَّاتِ وهو اللهُ، وعلى صِفَةِ الخَلقِ، وعلى صِفةِ العِلمِ، وعلى صِفةِ القُدرَةِ، فتَدُلُّ على صِفةِ الخالِقِ الَّذي هو ذاتُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وعلى صِفةِ الخَلقِ بالتَّضمُّنِ والمُطابَقةِ، فإذا أُخِذَ اللَّفظُ بكامِلِ معناه سُمِّيتِ الدَّلالَةُ مُطابِقةً، وإذا أُخِذَ ببَعضِ معناه صارت الدَّلالَةُ تَضَمُّنًا، وإذا أُخِذَ بما يَلزَمُ على ذلك صارت الدَّلالَةُ التِزامًا، فدَلالَةُ الخالِقِ على الذَّاتِ وصِفةِ الخَلقِ مُطابِقَةٌ، ودَلالَتُها على الذَّاتِ وحدَها تَضَمُّنٌ، وعلى الخَلْقِ وحدَه تَضَمُّنٌ، وعلى العِلمِ والقُدرَةِ التِزامٌ.

نَضرِبُ مَثلًا في المَحسوساتِ تَقولُ مَثلًا: (لي دارٌ) الدَّارُ كما نَعلَمُ تَتضَمَّنُ غُرَفًا وحُجَرًا وساحاتٍ وأبوابًا وشَبابيكَ وما إلى ذلك، دَلالَةُ هذه الكَلِمَةِ (دار) على مَجموعِ هذا دَلالَةُ مُطابِقَةٌ، ودَلالَتُها على كُلِّ حُجرَةٍ وغُرفَةٍ وشَبَّاكٍ تَضَمُّنٌ، ودَلالَتُها على أنَّ لهذا البَيتِ بانيًا التِزامٌ؛ وأسماءُ اللهِ تَعالى تَجرِي على هذا.

وكذلك أيضًا: يَقولون إذا كانَ الاسمُ مُتعدِّيًا فلا بدَّ منَ الإيمانِ به اسمًا من أسماءِ اللهِ، والإيمانُ بما دَلَّ عليه من صِفَةٍ، والإيمانُ بما يَترتَّبُ على تلك الصِّفَةِ من أفعالٍ.

فالغَفورُ لا يَتِمُّ الإيمانُ به حتَّى تُؤمِنَ بأنَّ اللهَ تعالى تَسمَّى بهذا الاسمِ، فتُؤمِنُ بأنَّ الغَفورَ اسمٌ من أسماءِ اللهِ، ولا بدَّ أن تُؤمِنَ بما تَضَمَّنه من صِفَةِ المَغفرَةِ، ولا بدَّ أن تُؤمنَ بأنَّ اللهَ يَغفِـرُ، يَغفِرُ بمُقتَضى هذا الاسمِ، ويَغفِـرُ لمَنْ يَشاءُ ويُعذِّبُ مَن يَشاءُ.

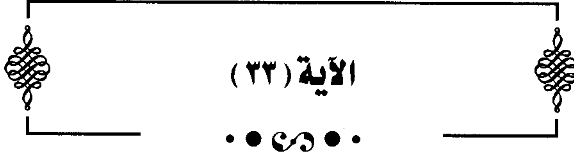
فهُنا قاعِدَتانِ:

١- الدَّلالَةُ دَلالَةُ الاسمِ على المَعنى تَتضَمَّنُ ثَلاثَةَ دَلالاتٍ: مُطابِقةٍ، تَضمُّنٍ، التِزامٍ.

٢- ثُمَّ الاسمُ من أسماءِ اللهِ إذا كان مُتعدِّيًا فلا يَتِمُّ الإيمانُ به إلَّا بثَلاثَةِ أُمورٍ: أن تُؤمنَ بأنَّه اسمٌ من أسماءِ اللهِ، أن تُؤمِنَ بما دَلَّ عليه مِن صِفةٍ، أن تُؤمِنَ بما يَترتَّبُ عليه مِن أَثَرٍ، فإذا كانَ الاسمُ غيرَ مُتَعَدٍّ فلا بُدَّ مِن الإيمانِ بأنَّه اسمٌ من أسماءِ اللهِ وبما تَضَمَّنه مِن صِفَةٍ، وليس له أَثَرٌ؛ لأنَّه غَيرُ مُتعَدٍّ.

فالحَيُّ مثلًا، الحَيُّ اسمٌ من أسماءِ اللهِ لا يَتِمُّ الإيمانُ به حتَّى تُؤمِنَ بأنَّه اسمٌ من أسماءِ اللهِ وبأنَّ اللهَ مُتَّصِفٌ بما دَلَّ عليه من صفة وهي الحَياةُ، ولا أَثَرَ لها؛ لأنَّ الحَياةَ صِفةٌ لازِمَةٌ لا تَتعَدَّى، لكنَّ السَّميعَ مُتعدٍّ، السَّميعُ ذو سَمْعٍ يَسمَعُ به، والبَصيرُ ذو بَصَرٍ يُبصِرُ به.





الآية (٣٣)

• قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣].

هذه ثَلاثةُ أوصافٍ إذا اتَّصفَ بها الإنسانُ، فلا أَحسَنَ من قولِهِ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ أي: لا أَحَدَ أَحسنُ قَولًا] تَفسيرُ المفسِّر بهذه الجُملَةِ يُفيدُ أنَّ (مَن) اسمُ استفهامٍ، لكنَّها بمَعنى النَّفيِ (من أحسن) يعني: لا أَحَدَ أحسنُ.

وإذا جاء الاستِفهامُ بمَعنى النَّفيِ فإنَّه مُشْرَبٌ معنى التَّحدِّي، أيُّهما أَبلغُ: أن تَقولَ لا أحدَ أحسنُ قولًا ممَّن دعا إلى اللهِ، أو أن تَقولَ: مَن أحسنُ؟ الثَّاني أَبلغُ؛ لأنَّ الثَّاني يَتضمَّنُ النَّفيَ ويَتضمَّنُ التَّحدِّي كأنَّه يَقولُ: ائتني ببيِّنَةٍ على أنَّ هُناك أحدًا أَحسنَ مِمَّن دعا إلى الله، فكُلُّ استِفهامٍ جاء بمَعنى النَّفيِ فإنَّه مُشرَبٌ مَعنى التَّحدِّي؛ لأنَّك إذا قُلت: مَن كذا؟ يَعني: مَعناها أتحدَّاك أن تَأتيَ لي بشَيءٍ سِوى ذلك.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾ أَشَدُّ نفيًا مِن قولِ: لا أَحَدَ أحسنُ، وذلك لأنَّها جُملَةٌ استِفهاميَّةٌ مُشْرَبةٌ مَعنى التَّحدِّي.

﴿أَحْسَنُ﴾ هذه خَبرُ مُبتدأٍ، و(مَن) هو المُبتَدَأُ و﴿قَوْلًا﴾ تَمييزٌ؛ لأنَّه كُلَّما جاءَكَ اسمٌ مَنصوبٌ بَعدَ اسمِ التَّفضيلِ فإنَّه تَمييزٌ له.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بالتَّوحيدِ]. وهذا لا شَكَّ حَسَنٌ، لكنَّ الآيَةَ أشمَلُ مِنَ التَّوحيدِ، ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بالتَّوحيدِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وغيرِ ذلك مِمَّا يُجعلُ إلى اللهِ، وقولُه: ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يَعني: إلى دينِ اللهِ، ودينُ اللهِ يَتضمَّنُ التَّوحيدَ والأعمالَ الصَّالحةَ.

ثانيًا: قال: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فبَدَأَ بإصلاحِ الغَيرِ ثُمَّ ثَنَّى بإصلاحِ النَّفْسِ مع أنَّ مَن دعا إلى اللهِ فهو مُصلِحٌ أيضًا.

قَولُه تعالى: ﴿صَٰلِحًا﴾ صِفةٌ لَموصوفٍ مَحذوفٍ، التَّقديرُ: وعَمِلَ عملًا صالحًا، ولا يَكونُ العَمَلُ صالحًا إلا بشَرْطينِ هما: الإخْلاصُ للهِ، والمُتابَعةُ لرَسولِ اللهِ ﷺ.

فعَمَلُ المُرائي فَقَدَ الإخلاصَ، وعَمَلُ المُبتَدِعِ فَقَدَ المُتابعةَ، وحينَئِذٍ نَقولُ لهؤلاء المُبتَدِعينَ الَّذين عِندَهم منَ الإخلاصِ للهِ ما عِندَهم: إنَّ عَمَلَكم حابطٌ، قال النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم-: «**مَن عَمِلَ عملًا ليس عليه أَمرُنا فهو رَدٌّ**»[1].

ثُمَّ نَقولُ: حَقيقَةُ الإخلاصِ تَستلزِمُ ألَّا تَعبُدَ اللهَ إلَّا بما شَرَعَ لا تَعبُدُه بهَواكَ؛ لأنَّك إذا عَبدتَ اللهَ بهَواكَ بالبِدعَةِ فأنت غَيرُ مُخلِصٍ، المُخلِصُ لا بدَّ أن يَعبُدَ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما شَرَعَ، فصار العَمَلُ الصَّالحُ ما تَركَّبَ من شَيئينِ: الأوَّلُ: الإخلاصُ، والثَّاني: المُتابَعةُ لرَسولِ اللهِ ﷺ.

فإنْ قال قائلٌ: كيف نَجمَعُ بين هذا وبينَ حَديثِ الرَّسولِ ﷺ: «**أنَّه يَخرُجُ مِنَ النَّارِ أُناسٌ لم يَعمَلوا خَيرًا قط**»[2]؟

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فالجَوابُ: أنَّ هذا عُذِّبَ على ما تَرَكَ، وما تَنزَّلت عليه المَلائِكةُ، ثُمَّ لا بدَّ أن يَكونَ عِندَ الإنسانِ عَقيدَةٌ إيمانيَّةٌ وإلَّا لقُلنا: إنَّ النَّصارى أيضًا يَخرُجون مِنَ النَّارِ بعَقيدتِهم.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ قال باللِّسانِ والقَلبِ بهما جَميعًا.

فإن قال قائِلٌ: قولُهُ: إنِّي مِنَ المُسلميـنَ هو مِنَ العَمَلِ الصَّالحِ لا شكَّ، فما الفائِدَةُ من ذلك؟

قُلنا: الفائِدَةُ أنَّه يُعلنُ هذا القَولَ ولا يُبالي بمَنْ خالَفَهُ؛ لأنَّ مِن النَّاسِ مَن يَعمَلُ صالحًا لكن تَجِدُه مُتستِّرًا ليس عِندَه الشَّجاعَةُ الَّتي تَجعَلُه يُعلِنُ ذلك.

أمَّا هذا فإنَّه يُعلِنُ ويَقولُ بلِسانِ المَقالِ غَيـرَ مُبالٍ: ﴿إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، والجُملَةُ ﴿إِنَّنِى﴾ مُؤكَّدةٌ بأنَّ.

ذَكَرَ بعضُ أهلِ العِلمِ أنَّ المُرادَ بذلك المُؤذِّنُ؛ لأنَّ المُؤذِّنَ يَدعو إلى اللهِ يَقولُ للنَّاسِ: حَيَّ على الصَّلاةِ حَيَّ على الفَلاحِ، ولأنَّه مُؤمنٌ عاملٌ صالحًا، ولأنَّه يَقولُ: أشهدُ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ، يُعلِنُها وأَشهَدُ أنَّ محمَّدًا رَسولُ اللهِ، وهذا معنى قولِه: ﴿إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

لكنَّ الصَّحيحَ أنَّ الآيَةَ عامَّةٌ تَشمَلُ المُؤذِّنَ وغَيرَ المُؤذِّنِ، الخَطيبُ على المِنبرِ يَدخُلُ في الآيَةِ، المُعلِّمُ في حَلْقةِ تَعليمِه يَدخُلُ في ذلك، فالآيَةُ أَعمُّ مِمَّا ذُكِرَ.

ولكنِ اعلَمْ أنَّ بعضَ السَّلَفِ يَذكُرُ للآيَةِ مَعنًى خاصًّا لا يُريدُ حَصرَها في هذا المَعنى، وإنَّما يُريدُ التَّمثيلَ، وهذه مَسألَةٌ قد تَفوتُ على بَعضِ النَّاسِ، دائمًا نَنظُرُ في تَفسـيرِ ابنِ كثيرٍ أو ابنِ جَريرٍ أنَّه قال فُلانٌ كذا الجُزءِ المَعنى، فهم لا يُريـدون أن

يَقْصُروا العامَّ على الخاصِّ؛ لأنَّهم أَعلمُ مِن أن يَقتَصِروا على بَعضِ أفرادِ العامِّ مثلًا، لكنَّهم يُريدونَ التَّمثيلَ.

مِثالُ ذلك: قال بَعضُ العُلماءِ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر:٣٢] قال: الظَّالمُ لنَفسِه الَّذي يُؤخِّرُ الصَّلاةَ عن وقتِها، الْمُقتَصِدُ الَّذي يُصلِّيها في آخِرِ الوقتِ، السَّابقُ بالخَيراتِ الَّذي يُصلِّيها في أوَّلِ الوقتِ.

هذا لا شكَّ أنَّه حَصرٌ بل لا شكَّ أنَّه تَخصيصٌ لعامٍّ، فنَقولُ: أَرادوا بذلك التَّمثيلَ.

ويَرِدُ علينا كَثيرًا سُؤالٌ: هل الأفْضلُ طَلَبُ العِلمِ أو الِاشتِغالُ بالدَّعوةِ؟

والواقعُ أنَّه سُؤالٌ غَيرُ مُحرَّرٍ:

أوَّلًا: أنَّه يُمكنُ الجَمعُ بين هذا وهذا، ونحن نَعلَمُ أنَّ الدَّاعيَةَ ليس يَشغَلُ وقتَه من صَلاةِ الفَجرِ إلى ما بعدَ صَلاةِ العِشاءِ وهو يَدعو أبدًا، هل أَحَدٌ مِنَ الدُّعاةِ يَفعلُ هكذا، يَدعو نِصفَ ساعَةٍ هُنا ونِصفَ ساعَةٍ هُناك، وأمَّا أن يَبقى لا يَسكُتُ من صَلاةِ الفَجرِ إلى أن يُصلِّيَ العِشاءَ، لا يُمكنُ لا بدَّ مِن فَتراتٍ، فلا يَتعذَّرُ الجَمعُ بينَ الدَّعوَةِ إلى اللهِ وطَلَبِ العِلمِ، يَطلُبُ العِلمَ ساعةً أو ساعَتين، ثُمَّ يَدعو نِصفَ ساعةٍ مثلًا فلا منافاةَ، هذه واحدةٌ.

ثانيًا: أنَّه لا يُمكنُ الدَّعوَةُ إلى اللهِ بلا عِلمٍ والدَّعوةُ إلى اللهِ عن جَهلٍ قد يكونُ فيها مِنَ الضَّررِ أَكثَرُ من عَدمِ الدَّعوةِ، فكَثيرٌ مِنَ الدُّعاةِ، يَكونُ عندَه غَيْرَةٌ ومَحبَّةٌ للخَيرِ فتَجِدُه يُحرِّمُ الحَلالَ أو يوجِبُ ما ليس بواجبٍ بِناءً على ما عِندَه مِنَ الغَيرَةِ،

ولو كان ذا عِلمٍ لحَصَلَ له الثَّباتُ، ولا يَخفى ما جَرى من عُمَرَ رَضِوَاللَّهُعَنهُ في صُلحِ الحُديبيَّةِ صار يُعارِضُ الصُّلحَ[1]، ويَأتي للرَّسولِ عَلَيهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ يُريدُ أن يَحُلَّ عُقدةَ الصُّلحِ، لكنَّ الثَّباتَ كَثباتِ أبي بكرٍ تَبيَّنَ بحَقٍّ، فلا يُمكنُ أن يَكونَ داعِيةٌ يَدعو إلى اللهِ بِلا عِلمٍ، هذا إذا أَردْنا العِلمَ بما يَدعو إليه، ولسنا نُريدُ أنَّه لا يُمكنُ أن يَدعوَ إلى اللهِ إلَّا مَن كان مُتبحِّرًا بالعُلومِ، لا، لو قُلنا هكذا ما صحَّ قَولُ الرَّسولِ: «**بَلِّغوا عنِّي ولو آيَةً**»[2].

فالجَوابُ إذن مِن وَجهينِ:

الوَجهُ الأَوَّلُ: أنَّه لا مُنافاةَ بين العِلمِ والدَّعوةِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّه لا تُمكنُ الدَّعوةُ إلَّا بعِلمٍ بما يَدعو عليه.

بَقِيَ علينا وَسائلُ الدَّعوةِ، ووَسائلُ الدَّعوةِ كَثيرةٌ يَعني: ليس الدَّعوَةُ مُختَصَّةً بأن يَقومَ الإنسانُ يَتكَلَّمُ، بل الدَّعوَةُ تَكونُ بالقَولِ وتَكونُ بالكِتابَةِ وتَكونُ بنَفْسِ الفِعلِ، الإنسانُ الَّذي تَثِقُ منه تَجِدُ أنَّك تَنظُرُ ماذا يَصنَعُ وتَفعَلُ مِثلَه، هذه دَعوَةٌ، هذا نَوعٌ مِنَ الدَّعوَةِ، بل قد تَكونُ الدَّعوَةُ بالفِعلِ والعَملِ أَقوَى تَأثيرًا مِنَ الدَّعوَةِ باللِّسانِ.

فإن قيل: طالِبُ العِلمِ الَّذي يُريدُ الدَّعوَةَ ولا سِيَّما الدَّعوةُ في الحاراتِ؛ لأنَّه يوجَدُ في الحاراتِ مُنكرٌ كَثيرٌ كتَركِ الصَّلاةِ ويَعرِفُ فُلانًا وفُلانًا وتَركَهم الصَّلاةَ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، رقم (٢٧٣١)، من حديث المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم رَضِوَاللَّهُعَنهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٦١)، من حديث ابن مسعود رَضِوَاللَّهُعَنهُ.

فإن مَشَى إليهم ضاعَ وَقتُه، فهل يَترُكُهم؛ لأنَّ الوَقتَ قَليلٌ؟ وهل يُعذَرُ الإنسانُ إذا غَلَبَ على ظَنِّه أنَّ هذا الشَّخصَ بَعيدُ الاستِجابَةِ أو بَعيدٌ أن يَقبَلَ منه، ولا يَجِدُ الوَقتَ المُناسبَ له؟

فالجَوابُ: هذه في الواقِعِ مَوعِظةٌ أو أمْرٌ، فالدَّعوَةُ تَكونُ بصِفةٍ عامَّةٍ، أمَّا أن تَذهَبَ إلى فُلانٍ وتَنصَحُه فهذا في الحَقيقَةِ مَوعِظةٌ، وإن كان لك سُلطَةٌ فهو أمرٌ، أمرٌ بالمَعروفِ، وهذا كما نَعرِفُ له أَحوالٌ، لا يَجِبُ على الإنسانِ أن يَترُكَ ما يَهُمُّه في دينِه ودُنياهُ من أجلِ أن يَذهبَ إلى النَّاسِ ويَقرَعَ أبوابَهم ليَأمُرَهم أو يَعِظَهم، هذا ليس بواجبٍ.

فإن قيل: قولُهُ ﷺ: «مَن رأى مِنكم مُنكرًا فلْيُغيِّرْه»[1]؟

فالجواب: نعم في: (مَن رَأى)، لكنَّ الرَّسولَ ﷺ ما ذَهبَ وما قال: تطلَّبوا رُؤيَةَ المُنكَرِ، وهذا الَّذي لا يُصلِّي يُمكنُ أن أَعِظَه في السُّوقِ أو في المَسجدِ؛ ولهذا نَجِدُ النَّاسَ الآنَ يَستثقِلونَ أن يَقرعَ عليهِمُ البابَ أحدٌ فيَعِظَهم أو يَأمُرَهم، ورُبَّما حَصَلَ من ذلك ما يُسَمَّى برَدِّ الفِعلِ.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَفاضُلُ الأعمـالِ؛ لقَولِه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾، وأحسنُ اسمُ تَفضيلٍ، ولا شكَّ أنَّ الأعمالَ تَتَفاضَلُ بثَلاثِ اعتِباراتٍ: باعتِبارِ الجِنسِ، وباعتِبارِ النَّوعِ، وباعتِبارِ الهَيئَةِ والكَيفيَّةِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، رقم (٤٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تَتفاضَلُ باعتِبارِ الجِنسِ: فمَثلًا الصَّلاةُ أفضَلُ مِنَ الزَّكاةِ، الزَّكاةُ أفضَلُ مِنَ الصَّومِ، الصَّومُ أفضَلُ مِنَ الحَجِّ، هذا باعتِبارِ الجِنسِ، وتَتَفاضَلُ أيضًا مِن وَجهٍ آخَرَ؛ واجِبُ العِبادَةِ أفضَلُ مِن نَفلِها، فصَلاةُ الظُّهرِ مَثلًا أفضَلُ مِن قيامِ اللَّيلِ، هذا تَفاضُلٌ باعتِبارِ الجِنسِ لكنَّه من وَجهٍ آخَرَ، ودَليلُ ذلك أنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم- قال عن اللهِ: «وما تَقرَّب عَبدي بشَيءٍ أحبُّ إلَيَّ ممَّا افترَضتُ عليه»[1].

وتَتفاضَلُ باعتِبارِ النَّوعِ: مِثلَ: الوِترُ أفضلُ من مُطلَقِ التَّهجُّدِ، والرَّواتبُ أفضَلُ مِنَ النَّفلِ المُطلَقِ، هذا باعتِبارِ النَّوعِ، وإن شِئتَ فاجعَلْ تَفاضُلَها باعتِبارِ الوُجوبِ والنَّدبِ من هذا النَّوعِ.

والثَّالثُ باعتِبارِ الهَيئَةِ: صَلاةٌ يَخشعُ فيها الإنسانُ ويَتدبَّرُ ما يَقولُ وما يَفعَلُ ويَطمَئِنُّ، وصَلاةٌ أخرى يَقتَصِرُ على الواجبِ وبدون خُشوعِ قَلبٍ مثلًا فالأُولَى أفضَلُ.

والُمهِمُّ أنَّنا نُؤمِنُ بأنَّ الأعمالَ تَتفاضَلُ وأنَّ بعضَها أَحبُّ إلى اللهِ من بعضٍ، لكن يَبقى النَّظرُ: هل يَلزَمُ مِن تَفاضُلِ العَملِ تَفاضُلُ العامِلِ؟ نَعَمْ، وعلى هذا فالعامِلُ أيضًا يَختلِفُ ويَتفاضَلُ، قال النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم-: «لا تَسُبُّوا أصحابي، فوالَّذي نَفسي بيدِهِ لو أَنفَقَ أحدُكم مِثلَ أُحُدٍ ذَهبًا ما بَلَغ مُدَّ أحدِهم ولا نَصيفَه»[2]. العَملُ واحدٌ لكنَّ العامِلَ مُختلِفٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فَضيلَةُ الدَّعوةِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ في قولِه: ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذا خليلا»، رقم (٣٦٧٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ رقم (٢٥٤١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الإشارَةُ إلى الإخلاصِ في الدَّعوَةِ نَأخُذُها من قولِه: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ الدَّاعيَ رُبَّما يَدعو ويَقومُ للنَّاسِ ويُذكِّرُهم ويَعِظُهم ويَحُثُّهم على الخَيرِ ويُحذِّرُهم مِنَ الشَّرِّ، لكن يُريدُ أن يَكونَ مَرموقًا بينهم، هذا دعا إلى نَفسِه، فلا بدَّ إذن مِنَ الإخلاصِ، فلو قال قائلٌ: هل يُسلَبُ الإخلاصُ ما لو أَرادَ بالدَّعوَةِ إِصلاحَ النَّاسِ؟ الجَوابُ: لا، لا يُسلَبُه؛ لأنَّ الأصلَ دَعوتُهُ من أجلِ إصلاحِ النَّاسِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فَضيلَـةُ العَمَلِ الصَّالحِ الَّذي جَمَعَ بينَ أمـرَينِ: الإخلاصِ والمُتابَعَةِ؛ لقَولِه: ﴿وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وُجـوبُ العِلمِ، نَأخُذُه مِن قَـولِه: ﴿وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾؛ لأنَّه لا يُمكِنُ أن تَعرِفَ أنَّ العَمَلَ مُوافِقٌ للشَّرعِ أو غَيرُ مُوافقٍ إلَّا بالعِلمِ، وهذا واضِحٌ، فيَكونُ في الآيَةِ دَليلٌ على وُجوبِ العِلمِ؛ لأنَّه إذا كان العَمَلُ الصَّالحُ مِنَ الواجِباتِ فلا بُدَّ أن تَعلَمَهُ بالشَّرعِ، وما لا يَتِمُّ الواجِبُ إلَّا به فهو واجِبٌ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّه يَنبَغي للمُسلمِ أن يَكونَ عَزيزًا بِدينِه وأن يُعلِنَ به وأن يَقولَ: ﴿إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وألَّا يَستحيَ إذا قيل له أنَّه مُسلِمٌ؛ لقَولِه: ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الإشارَةُ إلى تَجنُّبِ التَّزكيةِ الذَّاتيَّةِ؛ لأنَّه قال: ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، ولم يَقُلْ: وقال إنَّني مُسلِمٌ؛ لأنَّ الإنسانَ قد يَعتزُّ بقَولِه: إنَّني مُسلمٌ ويَفخَرُ أَكثَرَ ممَّا يَكونُ ذلك فيما لو قال: ﴿إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الإشارَةُ إلى المُؤاخاةِ بينَ المُسلمينَ؛ لقَولِه: ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ إشارَةٌ إلى أنَّني كواحدٍ من هَؤلاءِ، لا افْتِراقَ عنهم.

••۞••

الآيات (٣٤-٣٦)

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت:٣٤-٣٦].

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ في جُزئِيَّاتها؛ لأنَّ بعضَها فَوقَ بَعضٍ].

قَولُه: ﴿وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ فَسَّرها المفسِّر بأنَّ المَعنى: لا تَستَوي الحَسناتُ بعضُها مع بعضٍ، ولا السَّيِّئاتُ بعضُها مع بَعضٍ، وعلى هذا التَّفسيرِ تكونُ (لا) غيرَ زائدةٍ تكونُ أَصليَّةً، ويَكونُ المُرادُ بالآيةِ انتِفاءَ تَساوي الحَسناتِ وانْتِفاءَ تَساوي السَّيِّئاتِ.

وهذا أمرٌ لا إِشكالَ فيه أنَّ الحَسناتِ بَعضُها أَحسَنُ مِن بَعضٍ وأَفضلُ مِن بعضٍ وأَوكَدُ مِن بَعضٍ، وكذلك السَّيِّئاتُ بَعضُها أَسوَأُ مِن بَعضٍ وأَشَدُّ، لكنَّ هناك تفسيرًا آخَرَ، وهو أنَّ المَعنى أنَّ الحَسناتِ والسَّيِّئاتِ لا تَتَساوى بدَليلِ قَولِه: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ إلخ؛ وبِناءً على ذلك تكونُ (لا) زائدَةً للتَّوكيدِ كما هي في قَولِه تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:٧]، فإنَّ (لا) هُنا زائدةٌ

للتَّوكيدِ، ولهذا لو قُلتَ في غَيرِ القُرآنِ العَزيزِ لو قُلتَ: غَيرَ المَغضوبِ عليهم الضَّالينَ، لاستَقامَ الكَلامَ، فإذا قال قائِلٌ: هل هُناكَ تَرجيحٌ؟ قُلنا: المفسِّر رَجَّح المَعنى الأَوَّلَ وهو: أنَّ الحَسناتِ لا تَتَساوى والسَّيِّئاتِ لا تَتَساوى. وبَعضُهُم رَجَّحَ الثَّاني؛ لأَنَّه قال: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ﴾ إلخ.

ولو قيل بالمَعنيينِ جَميعًا لم يَكُنْ هُناكَ بَأسٌ، وذلك أنَّ الآيَةَ إذا كانت تَحتمِلُ مَعنَيينِ على السَّواءِ وهما لا يَتَنافيانِ، فإنَّها تُحمَلُ عليهما جَميعًا، هذه قاعِدَةٌ في أُصولِ التَّفسيرِ.

﴿ٱلْحَسَنَةُ﴾ هي ما يَحسُنُ ذِكرُهُ و﴿ٱلسَّيِّئَةُ﴾ هي ما يَسوءُ ذِكرُه، هذا التَّفسيرُ العَامُّ للحَسنَةِ وللسَّيِّئةِ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱدْفَعْ﴾ السَّيِّئَةَ ﴿بِٱلَّتِى﴾ أي بالخِصلَةِ الَّتي ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾] إلى آخِرِه.

الغَريبُ أنَّ كَلامَ المفسِّر في: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ يَقتَضي أنَّ مَعنى الجُملَةِ قَبلَها: لا تَستَوي الحَسَنةُ مع السَّيِّئَةِ، ﴿ٱدْفَعْ﴾ السَّيِّئَةَ ﴿بِٱلَّتِى﴾ أي: بالخِصلَةِ الَّتي هِي أحسَنُ.

أفادَنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ (الَّتي) صِفةٌ لِمَوصوفٍ مَحذوفٍ؛ أي: بالخِصلَةِ الَّتي هي أَحسَنُ مِنَ السَّيِّئَةِ، فإذا قال قائِلٌ: السَّيِّئَةُ ليس فيها حُسنٌ، فكيف يَقولُ: أَحسَنَ مِنَ السَّيِّئَةِ؟ قُلنا: إنَّ اسمَ التَّفضيلِ قد يَأتي وليس في الطَّرَفِ الآخَرِ منه شَيءٌ، كما في قَولِه تَعالى: ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤] مع أنَّ أصحابَ النَّارِ ليس في مُستقَرِّهم خَيرٌ ولا في مَقيلِهم خَيرٌ.

ويَكونُ معنى الآيَةِ أنَّه لـمَّا كان مِن المُعتادِ أنَّ الإنسانَ لا يَدفَعُ السَّيِّئَةَ بالَّتي هي أَحسَنُ أَمَرَه اللهُ أن يَدفَعَ بالَّتي هي أحسنُ وذلك؛ لأنَّ مُدافعَةَ السَّيِّئةِ تَكونُ من ثَلاثةِ وجوهٍ:

الوَجهُ الأَوَّلُ: أن يَدفَعَ سَيِّئةً بمِثلِها وهذا جائِزٌ، يَقولُ تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى:٤٠].

والثَّانيَةُ: أن يَدفعَ السَّيِّئَةَ بحَسَنَةٍ -لكنَّ هناك شَيئًا أَحسنَ منها- وهذا أيضًا جائِزٌ وهو أَعلَى مِنَ الأَوَّلِ.

الثَّالثُ: أن يَدفَعَ السَّيِّئَةَ ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ يعني: بأَحسَنِ ما يَدفعُها به، وهذا أَفضَلُ وأَطيَبُ، وهو الَّذي أَمَرَ اللهُ به. يَعني: إذا أَساءَ إليكَ إنسانٌ فلا تُقابلْه بإِساءَةٍ ولا تُقابلْه بحَسنَةٍ أيضًا، بل قابِلْه بما هو أَحسَنُ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ مُمثِّلًا: [كالغَضبِ بالصَّبرِ، والجَهلِ بالحِلمِ، والإساءَةِ بالعَفوِ]، هذه أَمثلَةُ الغَضبِ بالصَّبرِ يعني: إذا غَضِبَ عليك إنسانٌ فاصبِرْ وتَحمَّلْ، والجَهلِ بالحِلمِ إذا جَهِلَ عليكَ إنسانٌ بالإساءةِ فقَابلْه بالحِلمِ.

فإذا قال إِنسانٌ: الجَهلُ هل هو يُقابِلُ الحِلمَ أو يُقابِلُ العِلمَ؟

قُلنا: أمَّا الجَهلُ الَّذي هو عَدمُ العِلمِ فيُقابَلُ بالعِلمِ، وأمَّا الجَهلُ الَّذي هو ضِدُّ الحِلم بمَعنى أن يَكونَ الإنسانُ ذا عُدوانٍ على الغَيرِ فهذا يُقابَلُ بالحِلمِ، قال الشَّاعِرُ العَربيُّ(١):

ألا لا يَجهَلَــنْ أحــدٌ علينــا فنَجهلُ فوقَ جَهلِ الجاهِلينـا

---

(١) البيت لعمرو بن كلثوم من معلقته المشهورة، انظر: جمهرة أشعار العرب (ص:٣٠٠)، وشرح القصائد السبع لابن الأنباري (ص:٤٢٦).

وكذلك الإِساءَةُ بالعَفوِ، إذا أَساءَ إليكَ إِنسانٌ فاعفُ عنه، وقد سَبَقَ مِرارًا ونُكرِّرُه تِكرارًا: أنَّ العَفوَ إنَّما يَندُبُ إليه إذا كان فيه إِصلاحٌ؛ لقَولِه تَعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠].

فإِنْ قال قائلٌ: الَّذي لا يَقدِرُ على رَدِّ السَّيِّئةِ بمِثلِها هل يَدخُلُ في قَولِه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾؟

فالجَوابُ: لا، هذا ضَعفٌ وجُبنٌ، الَّذي لا يَقدِرُ على الاِنتِصارِ لنَفْسِه هذا لا يُحمَدُ، بل يُقالُ: هذا ضَعيفٌ، ولأنَّه لا يُحمَدُ إلَّا العَفوُ عندَ المَقدِرَةِ، والصَّفحُ عندَ المَقدِرَةِ. أمَّا إنسانٌ عاجِزٌ فيَجيءُ شَخصٌ ضَعيفٌ يَضرِبُه يَضرِبُه يَضرِبُه وهو يَقولُ: جَزاكَ اللهُ خَيرًا، عَفا اللهُ عنك، فهذا لا يُحمَدُ؛ لأنَّه عاجِزٌ.

قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فُصِّلَت:٣٤] فإذا فُجائيَّةٌ والفاءُ عاقِبَةٌ؛ أي: فإذا دَفعتَ بالَّتي هي أَحسَنُ فاجَأتك هذه الحالُ، وهي أن تَنقَلِبَ عَداوةُ الشَّخصِ الَّذي أَساءَ إليك، فيَصيرُ كأنَّه وَليٌّ حَميمٌ، يعني: صَديقًا قَريبًا.

وتَأَمَّلْ كَونَ الجَوابِ بـ«إذا» الفُجائيَّةِ لِيتبَيَّنَ لك أنَّ انقلابَ عَداوتِهِ إلى وِلايَةٍ حَميمَةٍ لا يَتأَخَّرُ كَثيرًا؛ لأنَّ إذا الفُجائيَّةَ تَدُلُّ على الفَورِيَّةِ: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ لو كان المُخبِرُ بذلك غَيرَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لكان الإنسانُ يَتردَّدُ، وكيف يَنقلِبُ العَدوُّ صَديقًا حَميمًا بهذه السُّرعَةِ، نَقولُ: إنَّ الَّذي أخبَرَ بذلك هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢].

ثُمَّ إنَّ الَّذي أخبَرَ بذلك هو الَّذي قُلوبُ بَني آدمَ بين أُصبُعينِ من أَصابعِهِ

يُقلِّبُها حيثُ يَشاءُ، لا تَستبعِدُ هذه الأمورَ بَيدِ اللهِ، وكم مِن عَدوٍّ انقلَب صَديقًا وصَديقٌ انقلَبَ عَدوًّا.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾، فيَصيرُ عَدوُّك كالصَّديقِ القَريبِ في محبَّتِه إذا فَعلتَ ذلك، فالَّذي مُبتدأٌ وكأنَّه الخَبرُ وإذا ظَرفٌ لِمَعنى التَّشبيهِ].

قال اللهُ تَعالى: ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ ﴾ أعرَبَها المفسِّر: يقولُ: ﴿ٱلَّذِى﴾ مُبتدأٌ ﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ﴾، هذا صيغَةُ المَوصولِ ﴿كَأَنَّهُۥ﴾ الخَبرُ خَبرُ المُبتدأِ ﴿ٱلَّذِى﴾، و(إذا) في قولِهِ: ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى ﴾ ظَرفٌ لمعنى التَّشبيهِ الَّذي هو ﴿كَأَنَّهُۥ﴾؛ لأنَّ التَّشبيهَ مُضَمَّنٌ مَعنى الفِعلِ؛ فلذلك صَحَّ أن يَتعلَّقَ به الظَّرفُ، هذا ما ذَهَبَ إليه المفسِّر بالنِّسبَةِ لـ(إذا)، والصَّحيحُ أنَّ (إذا) فُجائيَّةٌ لا تَحتاجُ إلى مُتعلِّقٍ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ ﴾ أي: يُؤتى الخِصلَةَ الَّتي هي أحسنُ، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ ﴾ ثَوابٍ ﴿عَظِيمٍ ﴾].

قال اللهُ تَعالى: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ ﴾ قال المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: يُؤتى الخِصلَةَ]. وقيل: مَعناها لا يُوَفَّقُ لها، والمَعنى مُتقارِبٌ، يَعني: لا يَنالُ أحدٌ هذه الخِصلَةَ، وهي الدِّفاعُ بالَّتي هي أَحسنُ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾.

وهذه الجُملَةُ فيها حَصرٌ، طَريقُه النَّفيُ والإثباتُ: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾.

وقَولُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ أي: حَبَسوا أَنفُسَهم وأَجبَروها على تَحمُّلِ هذا الأمرِ؛ وذلك لأنَّ هذا الأمرَ شَديدٌ إذ إنَّ النُّفوسَ تُحبُّ الانتِقامَ ممَّن أساءَ إليها، لكن قال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾؛ لهذا قال: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾، فكُلُّ إنسانٍ سوف

يُعاني مُعاناةً شَديدةً إذا سَلَكَ هذا الطَّريقَ وهي الدِّفاعُ بالَّتي هي أحسنُ، لا بُدَّ أن يَجِدَ عَناءً ومَشقَّةً فأثْنَى اللهُ تَعالى على الصَّابرينَ على ذلك.

والصَّبرُ لا يَحتاجُ إلى أن نُطيلَ الشَّرحَ فيه؛ لأنَّهم قالوا: يَكونُ ثَلاثَةَ أنواعٍ: يَكونُ صَبرًا على طاعَةِ اللهِ، وصَبرًا عن مَعصيتِه، وصَبرًا على أقدارِه.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ذُو حَظٍّ﴾ ثوابٍ]، والصَّوابُ أن يُقالَ: الحَظُّ النَّصيبُ، أي: وما يُلَقَّاها إلَّا ذو نَصيبٍ عَظيمٍ، ليس مِنَ الثَّوابِ فَحسْبُ، بل مِنَ الثَّوابِ والأخلاقِ والرَّزانَةِ وغيرِ ذلك، يَعني: مَن له نَصيبٌ عَظيمٌ مِنَ الثَّوابِ والأخلاقِ والرَّزانَةِ والتَّأنِّي وغيرِ ذلك، فلا يَنبَغي أن يَقتَصِرَ في ذلك على الثَّوابِ.

فإنْ قال قائِلٌ: قَولُه تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ هل يَكونُ ظاهِرًا أو معنَويًّا، لأنَّ الصَّفحَ في مَنظورِ النَّاسِ هو خَوفٌ وجُبنٌ؟

فالجَوابُ: لا، هذا هو الحِكمَةُ في أنَّ اللهَ قال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ لأنَّ الإنسانَ يَنالُ دَرجةً عَظيمَةً عاليةً مِنَ الأخلاقِ والرَّزانَةِ والرُّجولَةِ والثَّوابِ، وليس الحَظُّ العَظيمُ أنَّ الإنسانَ يَزدادُ دِرهمًا وديناراً، الأخلاقُ هي كُلُّ شيءٍ سَواءٌ مَع اللهِ أو مَع عِبادِ اللهِ.

وإنَّما الأُمَمُ الأخلاقُ ما بَقِيَت ... فإن هُمُ ذَهَبت أخلاقُهم ذَهَبوا

ولَمَّا ذَكَر اللهُ تَعالى دَفعَ العَدُوِّ مِن بني آدَمَ ذَكَر دَفعَ العَدُوِّ مِن غيرِ بَني آدمَ؛ فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ في مُدافعَةِ العَدُوِّ مِن غيرِ بَني آدَمَ، لم يَقُلْ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، بل قال: الجَأْ إلى اللهِ؛ لأنَّك لا تَستطيعُ أن تَدفَعَ

الشَّيطانَ إلَّا باللُّجوءِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ إذ إنَّ الشَّيطانَ ليس أَمامَك حتَّى تَلوِيَ عُنقه وتَقتُلَه، ولكنَّه لا يَدفعُه إلَّا اللهُ ولهذا قال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، فالُمناسَبةُ بين هذه الآيةِ والَّتي قَبلَها أنَّه لـمَّا ذكَرَ مُدافعةَ العَدُوِّ مِن بَني آدمَ ذَكَرَ مُدافعةَ العَدُوِّ من غَيرِ بَني آدمَ فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾.

يَقولُ الُمفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِمَّا﴾ فيه إِدغامُ نونِ (إنِ) الشَّرطيَّةِ في (ما) الزائدةِ].

﴿وَإِمَّا﴾ أَصلُها: وإنْ يَنزَغنَّك، لكن (ما) الزَّائدَةَ تُزادُ كَثيرًا في أدواتِ الشَّرطِ كقَولِه هنا: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾، وكقَولِه تَعالى: ﴿أَيًّا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ يَعني: إنْ يَنزَغْك مِن الشَّيطانِ نَزغٌ فاستَعِذْ باللهِ. يَقولُ الُمفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: يَصرِفُك عنِ الخِصلَةِ وغَيرِها مِنَ الخَيرِ صارفٌ ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾].

المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا نَظَرنا إلى تَفسيرِه وجَدْناه يَقْصُرُ هذه الآيَةَ على شَيءٍ مُعيَّنٍ وهو: إنْ صَرَفَك الشَّيطانُ عَنِ الُمدافعَةِ بالَّتي هي أَحسنُ فاستَعِذْ باللهِ، والصَّوابُ خِلافُ ذلك، الصَّوابُ أنَّ الآيَةَ عامَّةٌ، ولهذا قال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ أي: يُصيبنَّك مِن الشَّيطانِ نَزغٌ، -نَزغٌ- نَكِرَةٌ في سِياقِ الشَّرطِ فتكونُ عامَّةً سَواءَ كان في الُمدافعَةِ بالَّتي هي أَحْسَنُ أو غَيرَ ذلك، كُلَّما أَصابَك نَزغٌ مِنَ الشَّيطانِ فاستَعِذْ باللهِ، ولهذا أَمَرَ النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم- الَّذي شَكا إليه الوَسوسَةَ في الصَّلاةِ أَمرَه بأنْ يَستَعينَ باللهِ قال: يَتفُلُ عن يَسارِه ثَلاثًا ويَستعيذُ باللهِ(١).

الُمهِمُّ أنَّه متى نَزَغَك مِنَ الشَّيطانِ نَزغٌ فَالجأْ إلى مَن يَستطيعُ دَفعَه، وهو اللهُ عَزَّوَجَلَّ ولكن كيف أَعرِفُ أنَّ الشَّيطانَ نَزَغَ أحدًا؟ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب السلام، باب التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة، رقم (٢٢٠٣)، من حديث عثمان بن أبي العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة:٢٦٨] كُلَّما رَأيتَ أَنَّه أُلْقِيَ في رُوعِك أن تَفعَلَ مَعصيَةً فاعلَمْ أَنَّه نَزْغٌ مِنَ الشَّيطانِ، وكُلَّما أُلقِيَ في رُوعِك أَنَّك تَتْرُكُ طاعَةً فهذا نَزْغٌ مِنَ الشَّيطانِ استَعِذْ باللهِ؛ لأنَّ الشَّيطانَ ليس شَيئًا محَسوسًا يَحُسُّه الإنسانُ ويَسمَعُه لكنْ يُعرَفُ بما يُلقي في القَلبِ فاستَعِذْ باللهِ أي: اعتصِمْ به.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جَوابُ الشَّرطِ وجَوابُ الأمرِ محَذوفٌ، أي: يَدفَعُه عنك]، الأمرُ (استَعِذْ) يَعني: كأنَّ قائلًا يَقولُ: وإذا استَعَذْت فالنَّتيجَةُ أن يَدفَعَه اللهُ عَنك؛ لأنَّ اللهَ تَعالى لم يَأمُرْك بِالاستِعاذَةِ به، والاستِعاذَةُ كما هو مَعروفٌ هي الاستِجارَةُ ممَّا يَسوءُ استَعِذ باللهِ يَدفَعْه عنك.

قَولُه: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ جَوابُ الشَّرطِ اقْتَرَنَ بالفاءِ؛ لأنَّ الجُملَةَ طَلَبيَّةٌ، والقاعِدَةُ ذَكَرَها ابنُ مالكٍ[١]:

واقْرِنْ بفا حَتمًا جَوابًا لو جُعِل ... شَرطًا لـ(إن) أو غَيرِها لم يَنْجَعِلْ

يعني: إذا لم يَصِحَّ مُباشرةً جَوابُ الشَّرطِ لأَداةِ الشَّرطِ فإنَّه يَجِبُ اقتِرانُه بالفاءِ.

فإنْ قال قائلٌ: ما مَعنى قَولِه: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر:٤٢].

فالجَوابُ: السُّلطانُ هو الَّذي يَتولَّى الأمرَ بسُلطَتِه ويَغلِبُ، فالشَّيطانُ يَنْزِغُ حتَّى عِبادَ اللهِ الصَّالحينَ، ولكن ليس له عَليهم سُلطانٌ، أليس قَد تَفَلَّت على الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ شَيطانٌ يُريدُ أن يُفسِدَ عليه صَلاتَه؟ لكن ما له سُلطانٌ، فالسُّلطانُ يَقولُ ويَفعلُ، كما قال ابنُ الوَردي في المَنظومَةِ[٢]:

جانِبِ السُّلطانَ واحذَرْ بَطشَه ... لا تُخاصِمْ مَن إذا قال فَعَل

---

(١) الألفية (ص:٥٨).

(٢) شرح لامية ابن الوردي (ص:١٥٧).

فالمُـرادُ بأَنَّه ليس لك عليهم سُلطانٌ، يعني: لا يُمكِـنُ أن تَتَسـلَّطَ عليهم فتُغوِيَهم.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ للقَولِ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بالفعل]، هذه الجُملَةُ تعليلِيَّةٌ؛ لقَولِه: (استَعِذ باللهِ)، يَعني: فإنَّك إذا استَعذت مِنه باللهِ سَمِعَك، وإنَّه عَليمٌ بكيفيَّةِ دَفـعِ هذا الشَّيطانِ الَّذي نَزَغَك منه نَـزْغٌ فهو سَميعٌ لقولك إذا استَعَذتَ به، عليم بما يَدفَعُ به عنك هذا الشَّيطانَ.

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: انتِفاءُ تَساوي الحَسناتِ بَعضِها ببَعضٍ، وانتِفاءُ تَساوي السَّيِّئاتِ بَعضِها ببَعضٍ، فيَترَتَّبُ على ذلك فائدَةٌ: أنَّ الحَسناتِ تَتَفاوتُ والسَّيِّئاتِ تتفاوتُ، فمِن الحَسناتِ ما هو أُصولٌ في الإسلامِ كالأُصولِ الخَمسَةِ، ومنها ما هو دونَ ذلك، ومنه ما هو فَرائضُ ومنه ما هو نَوافلُ، كذلك في المُحرَّماتِ ما هو شِركٌ مُخرِجٌ عنِ المِلَّةِ وما هو شِركٌ دون ذلك، وكذلك يُقالُ في الكُفْرِ، منه ما هو فُسوقٌ ومنه ما هو دونَ ذلك، هذا إذا قُلنا: إنَّ المُرادَ أنَّ الحَسناتِ لا تَتَساوى والسَّيِّئاتِ لا تَتَساوى.

أمَّا إذا قلنا: لا تَستَوي الحَسنَةُ ولا السَّيِّئةُ فهي أنَّ الحَسَنَةَ والسَّيِّئةَ لا يَتساويانِ، فَيُفيدُ الحثَّ على فِعلِ الحَسناتِ في مُقابِلِ السَّيِّئاتِ، وليس الفائدَةُ أن يَعلَمَ أنَّ الحَسنَةَ لا تُساوي السَّيِّئةَ؛ لأنَّ هذا أمرٌ مَعلومٌ، ولا يُمكنُ في القُرآنِ ببَلاغتِه أن يَأتيَ بمِثلِ ذلك؛ لأنَّ هذا كقولكَ السَّماءُ فَوقَنا والأرضُ تَحتَنا، لكنَّ المُرادَ الحَثُّ على أن تُقابِلَ السَّيِّئةَ بحَسَنةٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الإرشادُ إلى مُدافعَةِ السَّيِّئاتِ، يُؤخَذُ من قولِه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الحَثُّ على المَقاماتِ في مُدافعَةِ السَّيِّئاتِ تُؤخَذُ من قولِهِ: ﴿أَحْسَنُ﴾ ولم يَقُلِ ادفَعْ بالحَسَنِ، بل قال: ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ اللهَ تَعالى مُقَلِّبُ القُلوبِ، فقد يَكونُ العَدوُّ صَديقًا والصَّديقُ عَدوًّا؛ لقَولِه: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّك لا تَأخُذُك العِزَّةُ بالإثمِ فتَقولَ: لا يُمكنُ أن أَسكُتَ أمامَ هذا الَّذي أَساءَ إِلَيَّ ولا بُدَّ أن آخُذَ بحَقِّي، نَقولُ: إذا أَخذْتَ بحَقِّك فذلك لك ولكن هُناكَ خُلُقٌ أفضَلُ وأكمَلُ وهو المُدافعَةُ بالَّتي هي أحسنُ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ المُدافعَةَ بالَّتي هي أَحسنُ شاقَّةٌ على النَّفسِ؛ لقَولِهِ: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ ولكِن اصبِرْ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ مَن سَلَكَ هذا الطَّريقَ وهي مُدافعَةُ السَّيِّئَةِ بالَّتي هي أَحسَنُ، فإنَّه ذو نَصيبٍ عَظيمٍ مِنَ الأخلاقِ والثَّوابِ والرَّزانَةِ والرُّجولَةِ والشَّهامَةِ وغَيرِ ذلك؛ لقَولِه: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ مَلجأَ الإنسانِ عِندَ الخَوفِ مِمَّا لا يُمكِنُه دَفعُه هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ لقَولِه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّك كُلَّما أَحسستَ بشيءٍ مِن نَزغاتِ الشَّيطانِ مِن تَهاوُنٍ بمَأمورٍ أو ارتِكابِ لَمحظورٍ، فعليك أَنْ تَلجأَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

فإن قال قائلٌ: نَجِدُ الاستِعاذةَ مَشروعَةً في غَيرِ هذا الحالِ، مَشروعَةً عندَ قِراءَةِ القُرآنِ مثلًا، مَشروعَةً عِندَ دُخولِ الخَلاءِ، فما الجَوابُ؟

الجَوابُ: أنَّ مشروعيَّتَها عندَ تِلاوتِه القُرآنَ؛ لأنَّ الشَّيطانَ يَتسلَّطُ على الإنسانِ

عندَ قِراءةِ القُرآنِ بأن يَصُدَّه عمَّا فيه مِنَ الذِّكرِ الحَكيمِ، يَصُدُّه عن تَدبُّرِه، عنِ الخُشوعِ فيه، عن كَونِ الإنسانِ يَلتزِمُ بأوامِرِه ونَواهيه ويُصَدِّقُ بإخبارِه. المُهِمُّ أنَّ الشَّيطانَ يَحرِصُ على الإنسانِ إذا أَرادَ قِراءةَ القُرآنِ، فناسَبَ أن يُؤمَرَ بِالاستِعاذةِ باللهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ وكَذلك عِند الخَلاءِ؛ لأنَّ الخَلاءَ مَوطِنُ الشَّياطِينِ، الشَّياطينُ تَكونُ في أَخبثِ الأماكِنِ، والمَلائِكةُ في أَطيبِ الأماكِنِ؛ ولهذا كانت المَساجِدُ بُيوتَ المَلائكةِ وكانت المَراحيضُ بُيوتَ الشَّياطينِ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثباتُ الشَّيطانِ وأنَّ له سُلطةً على بَني آدَمَ؛ لقَولِه: ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ وهو كذلكَ، واللهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ سَلَّطَ الشَّيطانَ على بَني آدَمَ وأَيَّدَ المُؤمنينَ بِالملائكَةِ، فإنَّ الشَّيطانَ إذا أَمَر بِالفَحشاءِ فإنَّ هناك أَمْرًا آخَرَ يُضادُّه وهو أَمْرُ المُلْكِ.

الْفَائِدَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّه لا يُستعاذُ إلَّا باللهِ؛ لقَولِه: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾، لكن هذا مُقيَّدٌ بما لا يَقدِرُ عليه إلَّا اللهُ، فإنَّه لا استِعاذَةَ منه إلَّا باللهِ، وكذلك أيضًا لا استِعاذَةَ بمَخلوقٍ غَيرِ قادرٍ، فمثلًا لو أنَّ الإنسانَ استَعاذَ بمَيِّتٍ لكان هذا شِركًا؛ لأنَّ المَيِّتَ لا يُمكنُ أن يُفيدَكَ، لكن لو استَعاذَ بحَيٍّ فيما يَقدِرُ عليه فلا بَأسَ بذلك؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**مَن وَجَدَ مَلاذًا فلْيَعُذْ به أو مُعاذًا فلْيَعُذْ به**»[1]، فالاستعاذَةُ بالمَخلوقِ فيما يَقدِرُ عليه كَالاستِعانَةِ به فيما يَقدِرُ عليه، وكالاستِغاثَةِ به فيما يَقدِرُ عليه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ السَّميعِ العَليمِ للهِ بأنَّهما مِن أَسماءِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وسَبَقَ أنَّه لا يَجوزُ الإيمـانُ بِالاسمِ إلَّا بثَلاثَةِ أُمورٍ إن كان مُتعَدِّيًا، وبأمرينِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦٠١)، ومسلم: كتاب الفتن، باب نزول الفتن كمواقع القطر، رقم (٢٨٨٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

إن كان غيرَ مُتعدِّيًا.

والسَّميعُ مُتعدٍّ فتُثْبِتُ السَّميعَ اسمًا والسَّمْعَ صِفةً وكَونُه يَسمَعُ أثرًا. وكذلك يُقالُ في العَليمِ.

وقَولُ المُفَسِّرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ للقَولِ]، هذا صَحيحٌ؛ لأنَّ مُتعلِّقَ السَّمعِ هي الأَقوالُ، [﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بالفِعلِ] فيه نَظَرٌ؛ لأنَّ اللهَ عَليمٌ بالفِعلِ، عَليمٌ بالقَولِ، عَليمٌ بما ليس بِفعلٍ ولا قَولٍ. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق:١٦] فقَصْرُها على الفِعلِ لا شكَّ أنَّه قاصِرٌ، فيُقالُ: الصَّوابُ العَليمُ بكُلِّ شَيءٍ مِنَ الأقوالِ والأفعالِ والإِرَاداتِ والحاضِرِ والمُستَقْبَلِ والماضي.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: بَلاغَةُ القُرآنِ بذِكْرِ المُتَقارِبَيْنِ في المَعنى وإن كان بَينَهما فَرقٌ مِن حَيثُ الحَقيقَةُ، وَجهُ ذلك أنَّه ذَكَرَ في الآيَةِ الأُولَى مُعاملَةَ المُسيءِ مِنَ الإنسِ بأن تَدفَعَه بالَّتي هي أحسنُ، وذَكَرَ في الثَّانيَةِ مُعاملَةَ المُسيءِ مِن غيرِ الإنسِ وهو الشَّيطانُ.



الآيتان (٣٧، ٣٨)

• • ◦ • •

❁ قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت:٣٧-٣٨].

• • ◦ • •

قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ﴾ أي: آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، والآيَةُ في اللُّغةِ العَلامَةُ وهي بالنِّسبَةِ لآياتِ اللهِ ما كان عَلامَةً على قُدرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وقُوَّتِه وحِكمَتِه وعِلمِه ورَحمَتِه وغَيرِ ذلك. وقَولُه: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ﴾ الدَّالَّةُ على قُدرَتِه وعِلمِه وحِكْمتِه ورحمَتِه وغيرِ ذلك مِمَّا دَلَّ عليه هذا اللَّيلُ والنَّهارُ.

﴿ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ اللَّيلُ بظَلامِه والنَّهارُ بضِيائِه، هذا من آياتِ اللهِ لا أَحَدَ يَستَطيعُ أن يَفعَلَ ذلك إطلاقًا يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص:٧١] الجوابُ: لا إِلَهَ، لا أَحَدَ يأتي بذلك، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص:٧٢] الجوابُ: لا أحَدَ.

فهذا مِن آياتِ اللهِ العَظيمَةِ الدَّالَّةِ على قُدرَتِـه وعلى رَحمَتِه وعِلمِه وحِكمَتِه وقُوَّتِه، بينَما اللَّيلُ قد غَشِيَ الأَرضَ بظَلامِه، وإذا بِالصُّبحِ قد كَشَفَ هذا الغِطاءَ،

فأصبحت الدُّنيا ضياءً.

كذلك مِن آياتِه الشَّمسُ والقَمرُ، وما أَعظَمَها من آيَةٍ، هذانِ الكَوكبانِ يَسيرانِ مُنذُ خَلَقَهما اللهُ عَزَّوَجَلَّ إلى أن يَأذَنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بخَرابِها يَسيرانِ على نَمَطٍ واحِدٍ لا يَتَعَدَّيانِه ولا يَتجاوَزُانَّه قال بَعضُ العُلماءِ: لو أنَّ الشَّمسَ بَعُدَت عن مَقَرِّها شَعرةً واحدةً لهَلَكَ النَّاسُ مِنَ البَردِ وجَمُدَت المَائعاتُ، ولو أنَّها نَزَلَت شَعرَةً واحدةً لَذابَت الأرضُ مِنَ الحَرِّ، وهذا مِن قُدرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ثُمَّ هذا الجِرمُ العَظيمُ له هذه الإضاءةُ العَظيمَةُ مع البُعدِ التَّامِّ.

وهذه الحَرارَةُ العَظيمَةُ مع البُعدِ التَّامِّ، لو أنَّك سَعَّرت أَقوَى نارٍ في الدُّنيا ما بَلَغَت مَسافةَ حَرِّها إلى مئةِ مِترٍ، ومعَ ذلك تَجِدُ مَسَّ الحَرارَةِ فقط لا أن يَصِلَ إلى هذه الدَّرجَةِ، وهذه بَينَك وبَينَها ما لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ وتَجِدُ هذا الحَرَّ في أيَّامِ الصَّيفِ، قال لي بَعضُهم: رُبَّما بَدَأَ المَاءُ يَغلي مِن شِدَّةِ الحَرارَةِ في بَعضِ المَناطِقِ، مِمَّا يَدُلُّ على عَظَمَةِ هذه الشَّمسِ.

والقَمرُ أيضًا عَظيمٌ، هذا القَمرُ الكَوكَبُ الكُتلَةُ يُضيءُ هذه الإضاءَةَ العَظيمَةَ مِن بُعدٍ مع ذلك هو باردٌ لا يُسخِّنُ الجَوَّ ولا يُسَخِّنُ الأرضَ؛ لأنَّه آيَةَ لَيلٍ. أرأيتم لو أنَّه كان حارًّا أيَتمتَّعُ النَّاسُ باللَّيلِ كما يَتمتَّعونَ اليومَ؟ لا يَتمتَّعونَ أبدًا، لكن مِن رحمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أن جَعَلَه نورًا باردًا حتَّى لا تَبقى حَرارَةُ الأرضِ طَوالَ أَربعٍ وعِشرينَ ساعةً، وحتَّى يَستقِرَّ النَّاسُ في مَنامِهم وذَهابِهم ومجيئِهم.

قال اللهُ تَعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ﴾ (مِن) هذه للتَّبعيضِ وعَلامَةُ مِنِ التَّبعيضِيَّةِ أن يَحِلَّ محلَّها بَعضُ، يَعني: بَعضُ آياتِه اللَّيلُ والنَّهارُ والشَّمسُ والقَمرُ، وذَكَرنا وَجهَ كَونِها هذه الأربع مِن آياتِه.

ثُمَّ قال اللهُ تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ الخِطابُ لجَميعِ العِبادِ نَهاهم أن يَسجُدوا للشَّمسِ ولا للقَمرِ؛ لأنَّ مِن النَّاسِ مَن يَعبُدُ الشَّمسَ والقَمرَ ويَسجُدُ لها، وقد أَخبرَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أنَّ الشَّمسَ تَطلُعُ بين قَرنَيْ شَيطانٍ فإذا طَلُعَت سَجَدَ لها الكُفَّارُ**»[1]؛ ولذلك نُهِيَ عنِ الصَّلاةِ عندَ طُلوعِ الشَّمسِ وعندَ غُروبِها، وقال بَعضُ العُلماءِ رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّ المُرادَ: لا تَسجُدوا للشَّمسِ ولا للقمرِ عندَ تَغيُّرِهما بالكُسوفِ.

ولكن في قوله تعالى: ﴿وَاسْجُدُواْ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: الآياتِ الأربعَ، ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾]، يَعني: إن كُنتُم صادِقينَ في عِبادتِه فلا تَسجُدوا لغَيرِه؛ لأنَّ مَن يعبُدُ اللهَ ويَعبُدُ غيرَه ليس صادقًا في عِبادَتِه، فالصَّادقُ في عِبادَتِه هو الَّذي يُخلِصُ العِبادَةَ للهِ عَزَّوَجَلَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَاسْجُدُواْ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ المُرادُ بِالسُّجودِ هُنا -واللهُ أعلمُ- ما هو أعمُّ مِنَ السُّجودِ الخاصِّ الَّذي هو وَضعُ الأعضاءِ السَّبعَةِ على الأرضِ؛ أي أنَّ المُرادَ بالسُّجودِ هُنا الذُّلُّ، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد:١٥].

ويَحتَمِلُ أن يَكونَ المُرادُ به السُّجودَ الخاصَّ؛ لقَولِه: ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ والقاعدَةُ في عِلمِ التَّفسيرِ أنَّه إذا كان اللَّفظُ يَحتَمِلُ مَعنيينِ أَحدُهما أوسعُ وأعَمُّ وأشمَلُ، فإنَّه يُحمَلُ على الثَّاني الَّذي هو أَوسَعُ وأعمُّ.

وقوله تعالى: ﴿وَاسْجُدُواْ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ الَّذي خَلَقَ هذه الأشياءَ، وفي

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب إسلام عمرو بن عبسة، رقم (٨٣٢)، من حديث عمرو بن عبسة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هذا إِشارَةٌ إلى أنَّ اللهَ هو المُستَحِقُّ لأن يُسجَدَ له؛ لأنَّه هو الخالِقُ، وأمَّا هذه فهي مخلوقَةٌ لا تَستَحِقُّ أن يُسجَدَ لها.

وقَولُه تَعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ أي: إن كُنتم ذَوِي عِبادَةٍ للهِ حقًّا فاسجُدوا للهِ ولا تَسجُدوا للشَّمسِ ولا للقَمرِ.

وقَولُه: ﴿إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ العِبادَةُ بمَعنى: الذُّلِّ، ومنه قَولُهم طَريقٌ مُعَبَّدٌ؛ أي: مُذَلَّلٌ لمَن سَلَكَه ليس فيه وُعورَةٌ لا طُلوعَ ولا نُزولَ ولا التِفافَ يَمينًا ولا شِمالًا، فالطَّريقُ المُعَبَّدُ يَعني: المُذَلَّلَ. إذن فَالتَّعبُّدُ للهِ هو التَّذَلُّلُ له محَبَّةً وتَعظيمًا. واعلَمْ أنَّ العِبادَةَ تُطلَقُ على مَعنيينِ:

المَعنى الأَوَّلِ: التَّعبُّدُ للهِ الَّذي هو فِعلُ العابِدِ.

والمَعنى الثَّاني: المُتَعَبَّدُ به الَّذي هي العِباداتُ، ولهذا قال شَيخُ الإسلام ابنُ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ العِبادَةَ اسمٌ جامعٌ لكُلِّ ما يُحِبُّه اللهُ ويَرضاه»[1] بناءً على أنَّ المُرادَ بها المُتَعَبَّدُ به.

قَولُه تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ قَدَّمَ المَفعولَ به لإِفادَةِ الحَصْرِ؛ لأنَّ مِن القَواعِدِ المُقَرَّرةِ في عِلمِ البَلاغَةِ وغَيرِها أنَّ تَقديمَ ما حَقُّه التَّأخيرُ يُفيدُ الحَصْرَ، فإذا قُلتَ مَثلًا: إيَّاك أَكرَمْتُ، المَعنى لم أُكْرِمْ غَيرَك، وقَولُ القائِلِ في سورَةِ الفاتِحَةِ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ يَعني: لم نَعبُدْ غَيرَك ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] يَعني: لا نَستَعينُ غَيرَك.

ثُمَّ قال تَعالى: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ يَعني: عن عِبادَةِ اللهِ والسُّجودِ له فإنَّ اللهَ تَعالى غَنيٌّ عنهم.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٩).

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ عَنِ السُّجودِ للهِ وَحدَه ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: فالمَلائِكةُ ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ يُصلُّون ﴿لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩﴾ لا يملون] يَعني: فإنِ استكبَرَ هَؤلاءِ عَن عِبادَةِ اللهِ فللهِ عِبادٌ آخَرون، كما في قَولِهِ تَعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام:٨٩].

ثُمَّ على فَرضِ أنَّه لا يُوجَدُ عابدٌ للهِ فإنَّ اللهَ تَعالى يَقولُ: ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ﴾ [الزُّمَر:٧] ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧] فهُنا شَيئانِ:

الشَّيءُ الأَوَّلُ: أن يَستكبِرَ طائفَةٌ مِن المَخلوقينَ عن عِبادَةِ اللهِ، فإنِ استكبَروا فهُناكَ طائفَةٌ أُخرى تَعبُدُ اللهَ.

الثَّاني: أن يَستكْبِرَ الكُلُّ وهذا مُحالٌ حَسَبُ ما نَعلمُ، لكن على فَرضِ أنَّ جَميعَ المَخلوقاتِ استكبَرَت عن عِبادَةِ اللهِ، فإنَّ اللهَ غَنِيٌّ عنهم، كُلُّ هذا أَفصَحَ اللهُ عنه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ﴾ ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾، هذا إذا كَفَرَ بَعضٌ وآمَنَ بَعضٌ.

﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ هذا إذا استكبَرَ بَعضٌ وذَلَّ بَعضٌ: ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾.

جُملَةُ ﴿فَٱلَّذِينَ﴾ هي جَوابُ الشَّرطِ وقُرِنت بالفاءِ؛ لأنَّ ما بَعدَها لا يَصِحُّ أن يَكونَ فِعلًا للشَّرطِ، وهذه قاعِدَةٌ: إذا كان جَوابُ الشَّرطِ لا يَستقيمُ أن يَكونَ فِعلًا للشَّرطِ وَجَبَ اقترانُه بالفاءِ كما قال ابنُ مالكٍ[1]:

واقرِنْ بفا حتمًا جَوابًا لـو جُعِـلَ شرطًا لـ(إن) أو غَيرِها لم يَنْجَعِلْ

(١) الألفية (ص:٥٨).

وقد ذَكَرَ بَعضُ الجامِعينَ لِـما يَجِبُ أن يَقتَرِنَ بالفاءِ جَمَعَ ذلك في بَيتٍ هو[1]:

اسمِيَّةٌ طَلبيَّةٌ وبجامِدٍ وبما قــد وبلــن وبــالتَّنفيسِ

قال اللهُ تَعالى: ﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ وهُم المَلائِكَةُ ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿يُسَبِّحُونَ﴾ أي: يُصَلُّون]، وهذا نَعَمْ له وِجهَةُ نَظَرٍ؛ لأنَّ السِّياقَ في السُّجودِ ويُمكِنُ أن نَقولَ: يُسبِّحونَ بما هو أَعمُّ مِنَ الصَّلاةِ أي: يَقولون: سُبحانَ اللهِ والحَمدُ للهِ وما أَشبَهَ ذلك مِن كُلِّ ما فيه تَنزيهٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ عمَّـا لا يَليقُ به.

وقَولُه: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ﴾ أي للهِ، واعْلَمْ أنَّ التَّسبيحَ مَعناه التَّنْزيهُ، فما الَّذي يُنزَّهُ اللهُ عنه؟

يُنزَّهُ اللهُ تَعالى عن كُلِّ نَقصٍ، فهو عَزَّوَجَلَّ مُنزَّهٌ عن كُلِّ نَقصٍ، لا يُمكِـنُ أن يَعتَرِيَه نَقصٌ بأيِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ.

ثانيًا: يُنزَّهُ عن كُلِّ نَقصٍ في كمالِه فلا نَقصَ في سَمعِه ولا بَصَـرِه ولا قُدرَتِه ولا قُوَّتِه.

الثَّالثُ: يُنزَّهُ عن مُماثَلةِ المَخلوقيـنَ فلا يُمـاثلُ المَخلوقَ أبدًا بأيِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ، والتَّماثُلُ بينَ الخالِقِ والمَخلوقِ مِن أكبرِ المُحالِ.

فما يُنَزَّهُ اللهُ عنه ثَلاثَةُ أشياءَ:

الأَوَّلُ: النَّقصُ لا يُمكنُ أن يَعتَرِيَه نَقصٌ إطلاقًا.

---

(١) انظر النحو الوافي (٤/ ٤٦٣).

والثَّاني: النَّقصُ في كَمالِه، فكَمالاتُه من عِلمٍ وقُدرةٍ وحَياةٍ وسَمْعٍ وبَصرٍ ورحمةٍ وغيرِ ذلك لا يُمكنُ أن يَعترِيَها نقصٌ بأيِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ.

والثَّالثُ: مُماثلَةُ المَخلوقينَ.

ولاحِظوا هذه المَسألَةَ فأكثَرُ الَّذين يُعبِّرون بمِثلِ هذا يُعبِّرون بمُشابهَةٍ، وهذا ليس بصَوابٍ، الصَّوابُ أن يُعبَّرَ بما عَبَّر اللهُ به عن نَفسِه فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١] وقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤]، ولم يَذكُرِ التَّشبيهَ بأيِّ حالٍ منَ الأحوالِ، ولهذا كان التَّعبيرُ بنَفيِ التَّمثيلِ هو الصَّوابُ دونَ التَّشبيهِ.

دَليلُ هذا أنَّ اللهَ مُنزَّهٌ عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ قولُه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠] المَثَلُ يعني: الوَصفَ؛ لأنَّ المَثَلَ يُطلَقُ على ذلك كما في قَولِه تَعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [محمد:١٥] مَثَلُ بمعنى: وَصفُها صِفتُها، ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ فإذا كان اللهُ له المَثَلُ الأعلى؛ أي: الأكمَلُ لَزِمَ أن يَكونَ مُنزَّهًا عن كُلِّ نقصٍ.

أمَّا النَّقصُ في كَمالِه فيَدُلُّ له قولُه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨] أي: مِن نَقصٍ على أنَّ هذه المَخلوقاتِ عَظيمَةٌ جدًّا، ومع ذلك ما لَحِقَ اللهُ تعالى فيها نَقصٌ. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الأحقاف:٣٣].

الثَّالثُ: عدمُ مُماثلَةِ المَخلوقينَ، يَقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٧٤]، ويَقولُ تَعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢].

إذن؛ التَّسبيحُ بمعنى: التَّنزيهِ، والَّذي يُنزَّهُ اللهُ عنه ثَلاثَةُ أشياءَ.

قال اللهُ تَعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ الباءُ هُنا بمَعنى (في)؛ لأنَّ المَقصودَ ﴿بِٱلَّيۡلِ﴾ يَعني: ظَرفَ اللَّيلِ، وعلى هذا تَكونُ الباءُ بمعنى (في) كما هي في قَولِه تَعالى: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨] باللَّيلِ يَعني: في اللَّيلِ.

فإنْ قال قائِلٌ: ما القَولُ في رَأيِ عُلماءِ البَصرَةِ الَّذين يُنكِرون تَقابُلَ الحُروفِ بَعضِها بَعضًا؟

فالجَوابُ: نَحنُ لَدينا قاعدَةٌ:

أَوَّلًا: أنَّه إذا دَلَّ القُرآنُ على شَيءٍ جائزٍ فلا عِبرَةَ بمَن خالَفَه.

ثانيًا: إذا اختَلَفَ النَّحويُّون في مسألَةٍ، فإنَّنا نتَّبعُ الأسهَلَ، لا يوجَدُ دَليلٌ شَرعيٌّ مَثلًا يُؤيِّدُ هؤلاءِ ولا هَؤلاءِ فنتَّبعَ الأسهَلَ، فإذا رَأيتُم عُلماءَ البَصرَةِ وعُلماءَ الكوفَةِ مُختلِفون في شَيءٍ فاتَّبعوا الأسهَلَ، وأَقولُ: الحَمدُ للهِ على الرَّاحةِ.

فإن قيل: هَل شَيخُ الإسلامِ يُغَلِّطُ مثلَ هذا؟

فالجَوابُ: لا، لا يَغلِّطُ بمثل هذا، شَيخُ الإسلامِ[(١)] يُغلِّطُ فيما إذا أَمكَنَ تَضمِينُ الفِعلِ مَعنًى يُناسبُ حَرفَ الجَرِّ مثل: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان:٦] منهم مَن يَقولُ ﴿بِهَا﴾ (الباءُ) بمَعنَى (مِن) أي: يَشرَبُ مِنها عِبادُ اللهِ. نحنُ نَقولُ: لا، الأَوْلَى أن تُضَمِّنَ الفِعلَ مَعنًى يُناسِبُ الحَرفَ، أمَّا الآيَةُ الَّتي مَعَنا ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ﴾ [فُصِّلَت:٣٨] فلا تَستَقيمُ.

وقَولُه: ﴿بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ يَعني: إذن كُلُّ الوَقتِ يُسبِّحونَ اللهَ.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢١/ ١٢٣-١٢٤).

ويَقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ۩﴾ هُم مَعَ كَونِهِم مُستغرِقينَ اللَّيلَ والنَّهارَ في تَسبيحِ اللهِ ﴿لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾. يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لا يَملُّون] وكذلك لا يَتعَبونَ؛ لأنَّ المَلَلَ يَكونُ مِنَ الضَّجَرِ والتَّعَبِ وذُلِّ النَّفسِ أَمامَ ما يَتحمَّلُه الإنسانُ، هؤلاء المَلائِكةُ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- ﴿لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾.

من فوائِدِ الآيتينِ الكَريمتَينِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ للهِ آياتٍ كثيرةً لا تَنحَصِرُ بآيتينِ أو ثَلاثٍ نُدركُ ذلك من قَولِه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ﴾ وما أَكْثَرَها في القُرآنِ الكَريمِ: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾ [الروم:٢٠] ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ [الروم:٢١] ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ﴾ [الشورى:٢٩] وهي كَثيرةٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ للهِ تَعالى آياتٍ مَحسوسةً تُعينُ على الآياتِ المَعقـولَةِ، وهذا من رَحمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أنَّ اللهَ أرى عِبادَه الآياتِ المَحسوسَةَ ليَستَعينوا بها على الآياتِ المَعقولَةِ.

فالآياتُ المَعقولَةُ كُلٌّ يَعلمُ أنَّ كُلَّ حادثٍ لا بدَّ له من مُحدِثٍ هذه آيَةٌ عَقليَّةٌ لا يُنكِرُها أحدٌ؛ ولهذا قال تَعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ [الطور:٣٥] الجَوابُ: لا هذا ولا هذا. هم لم يُخلَقوا مِن غيرِ شَيءٍ بل لا بدَّ لهم مِن خالقٍ ولا خَلَقوا أنفُسَهم، إذن لَهم خالِقٌ وهو اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا لـمَّا سَمِعَ جُبيرُ بنُ مُطعَم رَضِيَٱللَّهُعَنهُ هذه الآيَةَ وكان من أَسرى بَدرٍ، وسَمِعَ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم- يَقرَأُ بالطُّورِ يَقولُ: كاد قَلبي يَطيرُ[1]، يَعني: عَرفْتُ أنِّي على خَطأٍ وأنَّ المُشركينَ كُلَّهم يُخطِئونَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب سورة والطور، رقم (٤٨٥٤).

إذن آياتُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ إمَّا عقليَّةٌ وإمَّا سَمعيَّةٌ محسوسَةٌ هنا، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ الآياتُ هذه محسوسَةٌ، كُلٌّ يَعرِفُها، اللَّيلُ والنَّهارُ، وأنَّه لا يُمكِنُ لأحدٍ أن يَأتيَ بهما.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ اللَّيلَ والنَّهارَ والشَّمسَ والقَمرَ آياتٌ عَظيمَةٌ، ولهذا نَصَّ اللهُ عليهن، والأمرُ كذلكَ، هذه الشَّمسُ الكَوكَبُ العَظيمُ المُنيرُ الحارُّ لا يُمكِنُ لأيِّ مخلوقٍ أن يَصنَعَ مِثلَها إطلاقًا، وقد بَيَّنَّا في أثناءِ التَّفسيرِ وَجهَ ذلك.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: النَّهيُ عنِ السُّجودِ للشَّمسِ والقَمرِ؛ لقَولِه: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ مع أنَّهما مِن آياتِ اللهِ، لكنَّها مخلوقَةٌ، والسُّجودُ إنَّما يَكونُ للخالِقِ.

ونَنتَقِلُ مِن هذا إلى نُقطةٍ مُهمَّةٍ أشارَ إليها شَيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو أنَّ صِفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ليست هي اللهُ. فلا يَجوزُ دُعاءُ الصِّفةِ ولا السُّجودُ لِصِفاتِ اللهِ، ولهذا قال شَيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَن دعا صِفةً من صِفاتِ اللهِ فإنَّه كافرٌ بالاتِّفاقِ[1]، يَعني: لو قال قائِلٌ: يا رَحمَةَ اللهِ ارحَميني، كيف يا رَحمَةَ اللهِ ارحميني، هل الرَّحمَةُ شَيءٌ بائنٌ عنِ اللهِ يَستطيعُ أن يَرحَمَ؟ لا، فإذا قُلتَ: يا رَحمةَ اللهِ ارحميني، مَعناها أنَّك جَعلْتَ معَ اللهِ إلهًا آخَرَ وهذا كُفْرٌ.

وكذلك إذا قُلت: يا قُدرَةَ اللهِ أنقِذيني هذا حَرامٌ شِركٌ، قُل: يا اللهُ بقُدرَتِك أَنقِذني، ولا يَرِدُ على هذا قَولُه: اللهُمَّ برحمَتِك أستَغيثُ[2]؛ لأنَّ ليس مَعناها أنِّي أستَغيثُ بالرَّحمَةِ وكأنَّني أَعتَقِدُها شيئًا مُستقلًّا، لكنَّ المَعنى التَّوسُّلُ إلى اللهِ تَعالى برَحمَتِه كأنَّه يَقولُ: يا رَبِّ أَغِثني برَحمتِك. فيَجِبُ التَّنبُّهُ لهذه المَسألَةِ.

---

(١) انظر: تلخيص كتاب الاستغاثة (ص:١٨١).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٥٢٤)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ومن ذلك أيضًا مِنَ الخَطأِ في مِثلِ هذا قَولُ بَعضِ النَّاسِ: شاءَت قُدرَةُ اللهِ، شاءَ القَدَرُ، هذا حَرامٌ، لا يَجوزُ، القُدرَةُ نَفسُها ليس لها مَشيئَةٌ، المَشيئَةُ لله عَزَّوَجَلَّ أمَّا القُدرَةُ فليس لها مَشيئَةٌ؛ لأنَّها صِفةٌ في موصوفٍ والشَّائي والمُختارُ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ. أمَّا اقتضت قُدرَةُ اللهِ فهذا صَحيحٌ، يعني: أنَّ من مُقتَضَياتِ القُدرَةِ كذا وكذا، أمَّا المَشيئَةُ فلا تَكونُ إلَّا مِن شاءٍ له اختِيارٌ، وهذا لا يُمكِنُ أن يَكونَ من صِفةٍ.

فإنْ قال قائِلٌ: هُناك عِبارَةٌ شائعَةٌ بَينَ العامَّةِ قَولُهم: نَحمَدُ اللهَ ونَشكُرُ فَضلَه؟

فالجَوابُ: أليس اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقولُ: ﴿وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:١١٤]، والمُرادُ نِعمَةُ اللهِ المَخلوقَةُ لا الصِّفَةُ، يَعني: ما أَنعَمَ اللهُ، كذلك أَشكُرُ فَضلَ اللهِ ليس مَعناه أنِّي أَجعَلُ هذه الصِّفَةَ مَشكورَةً لكنَّ هذا الفضلَ الَّذي مَنَّ اللهُ عَلَيَّ أشكُرُه عليه، فهذه العِبارَةُ لا شَيءَ فيها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ من بَلاغةِ القُـرآنِ أنَّه إذا ذَكَرَ الحُكْمَ ذَكَرَ الدَّليلَ العَقليَّ عليه؛ لقَولِه: ﴿وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ اسجُدوا لله، هذا واضحٌ أمرٌ شرعيٌّ لكن: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ دَليلٌ كونيٌّ قَدَريٌّ على أنَّ المُستحِقَّ للسُّجودِ الَّذي خَلَقَ هذه الأشياءَ، كيف تَسجدونَ للشَّمسِ والقَمرِ ولا تَسجُدون للهِ الَّذي خَلقَهنَّ، ونَظيرُ هذا قَولُه تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة:٢١] وقَولُه تَعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فُصِّلَت:١٥] قال اللهُ تَعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾، لم يَقُل: أَوَ لَمْ يَروا أنَّ اللهَ هو أَشدُّ منهم قُوَّةً، بل قال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ﴾ ليَدُلَّ بذلك دَلالةً عَقليَّةً واضحَةً أنَّهم دونَ اللهِ تعالى في القُدرَةِ؛ لأنَّ اللهَ هو الَّذي خَلقَهم، وهذا مِن أساليبِ القُرآنِ المُعجزَةِ الَّتي تَدُلُّ على أنَّه من لَدن حَكيمٍ خَبيرٍ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الرَّدُّ على عابدِ الشَّمسِ والقَمرِ؛ لقَولِه: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ﴾، استنبَطَ بَعضُ العُلماءِ من تلكَ الآيَةِ فائدَةً وهي مَشروعِيَّةُ صَلاةِ الكُسوفِ، قال: لأنَّ اللهَ قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾، ولم يَقُلْ: للَّيلِ وللنَّهارِ وذلك لأنَّ الشَّمسَ والقَمرَ إذا تَغيَّرتا فَقدْ يَنشأُ في قَلبِ عابِدِهما أن يَسجُدَ لهما كالتائِبِ، فقال: لا تَسجُدوا للشَّمسِ ولا للقَمرِ واسجُدوا للهِ الَّذي خَلقَهما، وهذا الاستِنباطُ فيه شَيءٌ مِنَ البُعدِ لكنَّه ليس مُمتنعًا أنْ يَكونَ في ذلك إشارَةٌ إلى مَشروعِيَّةِ صَلاةِ الكُسوفِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّه لا يُمكنُ لإنسانٍ يَدَّعي أنَّه يَعبُدُ اللهَ حقًّا أن يَسجُدَ لغَيرِ اللهِ؛ لقَولِه: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: التَّحدِّي لَمنْ أَشرَكَ باللهِ -بأيِّ نَوعٍ مِنَ الشِّركِ- أن يَكونَ عابدًا حقًّا للهِ، فالمُرائي مَثلًا نَقولُ: إنَّك لم تَعبُدِ اللهَ حَقًّا لم تُفرِدْه بالعِبادةِ لأنَّك أَردتَ بعِبادتِك التَّقرُّبَ إلى المَخلوقينَ؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ المُستكبرينَ عن عِبادةِ اللهِ لن يَضُرُّوا اللهَ شيئًا؛ لقَولِه: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: كَشفُ تَحدِّي هَؤلاءِ الَّذين يَعبُدونَ غَيرَ اللهِ بأنَّهم إذا عَبدوا غَيرَ اللهِ فللهِ مَن يَعبُدُه عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: استدَلَّ بها بَعضُهم على أنَّ المَلائكَةَ أفضلُ مِنَ البَشرِ، وعَلَّلَ ذلك بأنَّ المَلائكَةَ ليس فيهم مُشرِكٌ؛ لقَولِه: ﴿الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ وبنو آدَمَ فيهم مُؤمنٌ وكافِرٌ والجِنسُ الَّذي ليس فيهم مُشرِكٌ خَيرٌ مِنَ الجِنسِ الَّذي يَكونُ فيه مُشرِكٌ ومُوحِّدٌ.

ولكن قد يُعارَضُ هذا الاستدلالُ فيُقالُ: عِبادةُ الجِنسِ الَّذي فيه مُشرِكٌ ومُوحِّدٌ أفضلُ مِن عِبادةِ جِنسٍ ليس فيه مُشرِكٌ، وذلك لمَشقَّةِ التَّوحيدِ في جِنسٍ فيه مُشرِكٌ والمُوحِّدُ فيكونُ المُوحِّدُ مِن بَني آدمَ أفضلَ مِن المَلائِكَةِ؛ لأنَّه عَبَدَ اللهَ في قَومٍ لا يَعبُدون اللهَ، أمَّا المَلائكةُ فكُلُّهم يَعبُدونَ اللهِ ولا يَستكبِرون عن عِبادتِه.

وهذه المَسألَةُ فيها خِلافٌ بينَ أهلِ العِلمِ ولكُلٍّ منهم أَدِلَّةٌ لكن جَمَعَ شَيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ بينَ الأَدِلَّة فقال: المَلائكَةُ أفضلُ باعتِبارِ البدايةِ وصالِحُ البَشَرِ أفضلُ باعتِبارِ النِّهايَةِ[1]، وهذا قَولٌ لا بأسَ به، جَمَعَ بين الأَدِلَّةِ الدَّالَةُ على التَّفضيلِ تَفضيلِ المَلائكَةِ على البَشَرِ والبَشَرِ على المَلائكَةِ، ولهذا قال السِّفارينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ[2]:

وعِندَنا تَفضيلُ أعيانِ البَشَرِ ... على مَلائكِ رَبِّنا كما اشتُهِرَ

قال: ومَن قال سِوَى هذا افْتَرَى ... .

قوله: «قال» الأُولى يَعني: الإمامُ أحمدُ- يَعني: مَن قال بغَيرِ تَفضيلِ أعيانِ البَشَرِ على المَلائكَةِ فهو مُفترٍ، لكنَّ الصَّوابَ أن نَقولَ كما قال شَيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ، أمَّا باعتِبارِ البِدايَةِ فالمَلائكَةُ أفضلُ؛ لأنَّهم خُلِقوا مِن نورٍ، و﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]. لكن في النِّهايَةِ يَكونُ لصالِحِ البَشَرِ مِنَ الثَّوابِ والأَجْرِ والقُربِ مِنَ اللهِ ما ليس للمَلائِكَةِ.

فإنْ قال قائلٌ: كيف تَكونُ المَلائكَةُ أفضَلَ بِدايَةً والبَشَرُ أفضَلَ نِهايَةً؟

فالجَوابُ: المَلائكَةُ أفضَلُ مِن حيثُ البِدايَةُ؛ لأنَّهم خُلِقوا مِن نورٍ وامتَثَلوا

(١) الاختيارات العلمية [المطبوع مع الفتاوى الكبرى] (٥/ ٣٧٩).
(٢) العقيدة السفارينية (ص:٩٠).

أمْرَ اللهِ، وليس فيهم مَن يَستكبِرُ عن عِبادَةِ اللهِ، لكن في النِّهايَةِ يَكونُ مآلُ البَشرِ أفضَلَ حتَّى المَلائِكَةُ عَملُهم في يومِ القِيامَةِ أنَّهم يَدخُلون عليهِمْ مِن كُلِّ بابٍ يُهنِّئونَهم يَقولُون: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد:٢٤] ولا يَنالون مِنَ النَّعيمِ مِثلَما يَنالُه المُؤمنونَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ للمَلائِكَةِ إِرادةً، يُؤخَذُ مِن ﴿يُسَبِّحُونَهُۥ﴾ ولا تَسبيحَ إلَّا بإرادَةٍ. ومِن هُنا نَقفِزُ إلى فائدَةٍ ثانيَةٍ:

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: وهي أنَّ جَميعَ المَخلوقاتِ مِن الأشجارِ والأحجارِ والأنهارِ والشَّمسِ والقمرِ والسَّماءِ والأرضِ لها إرادَةٌ؛ لأنَّها كُلَّها تُسبِّحُ اللهَ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤].

وبهذا نَرُدُّ على الَّذين قالوا: إنَّ قَولَه تَعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف:٧٧] يعني: الجِدارَ، هذا مَجازٌ؛ لأنَّ الجِدارَ ليس له إرادَةٌ، فيُقالُ: مَن قال لكم إنَّه ليس له إرادَةٌ؟ بل له إرادَةٌ، ومَيلُه يَدُلُّ على أنَّه أرادَ، ولقد قال النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في أُحُدٍ: «**إنَّه يُحبُّنا ونُحبُّه**»[1]، والمَحبَّةُ أخصُّ مِنَ الإرادَةِ وأثبَتَها الرَّسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ للجبَلِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّ بَعضَ أهلِ العِلمِ استَدَلَّ بها على عُلوِّ اللهِ، وأنَّ الأشياءَ ليست كُلُّها سَواءً بالنِّسبَةِ للقُربِ منه؛ لقَولِه: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾، والعِندِيَّةُ تَقتَضي القُربَ، وأنَّ بعضَ المَخلوقاتِ إلى اللهِ أَقرَبُ مِن بعضٍ، وهذا لا إشكالَ فيه، مَن يَقولُ: إنَّ مَن كان في الأرضِ السَّابعَةِ السُّفلى هو في القُربِ إلى اللهِ كالَّذي في السَّماءِ السَّابعَةِ لا أحدَ يَقولُ بهذا.

أمَّا مِن جِهةِ الإحاطَةِ بالخَلقِ فلا شَكَّ أنَّ القَريبَ والبَعيدَ عِندَ اللهِ على حدٍّ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب فضل الخدمة في الغزو، رقم (٢٨٨٩)، ومسلم: كتاب الحج، باب أحد جبل يحبنا ونحبه، رقم (١٣٩٣)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

سواءٍ، وأمَّا من جِهةِ الواقع فلا شكَّ أنَّ مَن كان في السَّمواتِ أَقربَ إلى اللهِ مِمَّن كان في الأرضِ، ولهذا قال: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾.

أَقولُ: إنَّ بَعضَ العُلماءِ استَدَلَّ بهذه الآيَةِ على عُلوِّ اللهِ، وقال: نحنُ في الأرضِ والَّذين عِندَ اللهِ لا بُدَّ أن يَكونوا في السَّماءِ؛ لأنَّه لولا عُلوُّه لكُنَّا نحن أيضًا عِندَه، فكَونُه يقولُ: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يُخاطِبُ مَن في الأرضِ يَدُلُّ على عُلوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وهذا لا شكَّ أنَّه استنباطٌ جَيِّدٌ، لكنَّنا لسنا بحاجَةٍ إلى أن نَأتيَ بهذا الدَّليلِ الَّذي قد تَخفى دَلالتُه على كَثيرٍ مِنَ النَّاسِ.

وعِندَنا أدِلَّةٌ كَثيرةٌ واضحَةٌ على عُلوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أدِلَّةٌ عَقليَّةٌ وأدِلَّةٌ سمعيَّةٌ وأدِلَّةٌ فِطريَّةٌ على عُلوِّ اللهِ، ولا أَحَدَ يُنكِرُ عُلوَّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ العُلوَّ الذَّاتيَّ إلَّا مَخبولٌ غيرُ عاقلٍ، وهو بَيْن أَمرينِ: إمَّا أن يَقولَ بالحُلولِ، وإمَّا أن يَقولَ بالعَدَمِ، وفِعلًا التَزِموا ذلك، فالَّذين أنكَروا عُلوَّ اللهِ انقَسَموا إلى قِسمَينِ:

قِسمٌ قال: إنَّ اللهَ في كُلِّ مَكانٍ، ولم يُنزِّهِ اللهَ عَزَّوَجَلَّ عَن الحُشوشِ والأقذارِ والأنتانِ والأسواقِ الَّتي بها اللَّغو والكَذِبُ والغِشُّ، وهذا فيما أَرى كُفْرٌ صَريحٌ، أنَّ من قال: إنَّ اللهَ بذاتِه في كُلِّ مكانٍ، فهو كافِرٌ لو مات ما صَلَّيتُ عليه ولا دَعوتُ له بالرَّحمَةِ؛ لأنَّه مُكذِّبٌ للقُرآنِ وللأدِلَّةِ العَقليَّةِ وواصمٌ لرَبِّه بكُلِّ عيبٍ.

ومنهم مَن يَقولُ: إنَّ اللهَ تَعالى ليس داخِلَ العالَمِ ولا خارِجَ العالَمِ ولا مُتَّصِلٌ بالعالَمِ ولا مُباينٌ ولا مُحايثٌ ولا فوقُ ولا تَحتُ ولا يمينَ ولا شِمالَ، بماذا وَصَفَ اللهَ؟ بالعَدَمِ، لو قيل لنا صِفوا المَعدومَ ما وَصَفناه بأكثرَ مِن هذا، فيُقالُ: أين هو ما دام لا داخِلُ العالَمِ ولا خارِجُه ولا مُتَّصلٌ بالعالَمِ ولا هو مُنفصِلٌ عنِ العالَمِ، ولا فَوقُ ولا تَحتُ ولا يَمينَ ولا شِمالَ أين يَروحُ إلَّا العَدمَ!؟

ولهذا لـما قال ابنُ فَورَكٍ لَمحمودَ بنِ سُبُكْتِكِين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنِّي لا أقولُ: إنَّ اللهَ فَوقَ العالَمِ ولا تَحتَ إلى آخرِه، قال: بيِّنْ لنا الفَرقَ بين وُجودِ رَبِّك وعَدمِه أو كَلِمَةً نحوَها[1] يَعني: مَعناه أنَّك إذا وَصَفْتَ اللهَ بهذه الأوصافِ فهذا هو العَدمُ تمامًا.

وتَقريرُ أنَّ اللهَ تَعالى في السَّماءِ يَعني: العُلوَّ الذَّاتيَّ أمرٌ لا إشكالَ فيه، والعَجَبُ أنَّك تَأتي العَجوزَ الَّتي لم تَدرُسْ ولم تَفهَمْ ولم تَعلَمْ وتَسألُها أين اللهُ؟ تَقولُ في السَّماءِ، إلَّا إذا كان الأمرُ كما قال النَّبيُّ ﷺ: «أبواه يُهوِّدانِه أو يُنصِّرانِه أو يُمجِّسانِه»[2] أي: إلَّا إذا كانت عائشَةُ بين قومٍ يُنكِرونَ العُلوَّ فرُبَّما تُنكِرُ بِناءً على أنَّ البِيئَةَ تُغيِّرُ، أمَّا لو أتينا إلى الإنسانِ مِن حيثُ الفِطرةُ لرأينا أنَّه لا يشكُّ في أنَّ اللهَ في السَّماءِ.

ولذلك أَفْحَمَ الهَمَذانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أبا المَعالي الجُوَينيَّ حين كان أبو المَعالي الجُوينيُّ يُنكرُ استِواءَ اللهِ على العَرشِ ويَقولُ: إنَّ اللهَ تَعالى كانَ ولا عَرشَ.

وهو الآنَ على ما كان عليه يُريدُ أن يُنكِرَ استواءَه على العَرشِ، واستواءُ اللهِ على العَرشِ دَليلُه سَمعيٌّ، يَعني: لولا أنَّ اللهَ أخبَرَنا أنَّه استَوى على العَرشِ ما عَلِمنا بخِلافِ العُلوِّ، فالعُلوُّ دَليلُه عَقلِيٌّ وسَمْعيٌّ وفِطرِيٌّ، أمَّا هذا فدَليلُه سَمعِيٌّ.

قال له الهَمَذانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يا شَيخُ دَعْنا مِن ذِكـرِ العَرشِ، وأَخْبِـرنا عن هذه الضَّرورَةِ، فما قال عارفٌ قطُّ: يا أللهُ إلَّا وَجَدَ من قلبه ضَرورَةً بطَلَبِ العُلوِّ، صَحيحٌ هذا أم لا؟

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٦/ ٢٥٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، رقم (١٣٥٨)، ومسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

يَعني: أيُّ إنسانٍ يَقولُ: يا أللهُ يَجِدُ قَلبَه يَتَّجهُ إلى السَّماءِ، وكَلِمَةُ (عارف) اصطِلاحٌ صوفيٌّ، العارِفُ عِندَهم هو العالِمُ الواسعُ العِلمَ، العابِدُ الكَثيرُ العِبادةَ.

فصَرَخَ أبو المَعالي وجَعَلَ يَضرِبُ على رَأسِه ويَقولُ: حَيَّرَني الهَمَذانيُّ حَيَّرَني الهَمَذانيُّ[1]، وعَجَز أن يَرُدَّ على هذا.

فنحن نَقولُ والحَمْدُ للهِ: إنَّ العُلوَّ أمرٌ لا غُموضَ فيه ولا إشكالَ فيه، ولا يُنكِرُه إلَّا شَخصٌ مَغموسٌ -والعِياذُ باللهِ- بالبِدعَةِ، ونحن نَرى أنَّه كافرٌ وأنَّه لا تَنفَعُه صَلاةٌ ولا صَدقةٌ ولا صيامٌ ولا حَجٌّ ولو مات ما صلَّينا عليه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ المَلائكَةَ مُستغرِقون الزَّمنَ كُلَّه في العِبادَةِ؛ لقَولِه: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، و(الباءُ) وإن كانت بمَعنَى (في) الَّتي للظَّرفِيَّةِ لكن فيها نَوعٌ مِنَ الدَّلالَةِ على الاِستيعابِ، كما قال اللهُ تَعالى في آيةٍ أُخرى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾[الأنبياء:٢٠].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: بَيانُ قُوَّةِ المَلائكةِ؛ لقَولِه: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ أي: لا يَملُّون ولا يَتْعَبون مِمَّا يَدُلُّ على قُوَّتِهم.

والأَدلَّةُ على قُوَّتِهم كَثيرةٌ منها قِصَّةُ سُليمانَ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حين جاءَه الهُدهُدُ بخَبَرِ مَلِكةِ سَبأٍ أنَّ لها عَرشًا عَظيمًا، فقال سُليمانُ: ﴿أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ۝٣٨ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ وكان له وَقتٌ مُحدَّدٌ يَقومُ فيه: ﴿وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾ [النمل:٣٨-٣٩] جِنِّيٌّ يَأتي به مِن أقصى اليَمَنِ إلى الشَّامِ وهو واحدٌ ويَقولُ: إنِّي عليه لقَوِيٌّ يُؤكِّدُ قُوَّتَه أمينٌ لن أَخونَ فيه: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٢٢٠).

عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل:٤٠] اللهُ أكبرُ! في الحالِ وَجدَه أَمامَه: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ [النمل:٤٠] و(الفاء) تَدُلُّ على التَّرتيبِ والتَّعقيبِ، ثُمَّ قال: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾، ولم يَقُلْ فلمَّا رآه عِندَه، ﴿مُسْتَقِرًّا﴾ كأنَّه وَضَع في هذا المَكانِ مِن سنواتٍ مُستقِرًّا، ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾، الآنَ حَضَرَ مِن هناك بلَحظَةٍ، يَعني: كأنَّ العَرشَ مثلًا على يَمينِك فنَقلتَه على يَسارِك بل أدنى، وهذا أشدُّ، قال أهلُ العِلم: لأنَّ هذا دَعا اللهُ عَزَّوَجَلَّ فحَمَلَته المَلائكَةُ، والمَلائكَةُ أقوى مِن الجِنِّ، وهذا لا شكَّ فيه أنَّهم أَقوى مِنَ الجِنِّ.

مسألةٌ: يَقولون عنِ السِّحْرِ أنَّه عِلمٌ ويَستدِلُّون بهذه الآيَةِ: ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النمل:٤٠] فكيفَ نَرُدُّ على هَؤلاءِ النَّاسِ؟

فالجَوابُ: نحنُ نَقولُ: السِّحْرُ عِلمٌ، أليس اللهُ تَعالى قال عَنِ المَلَكينِ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة:١٠٢] لا إشكالَ هُنا أنَّه عِلمٌ، أمَّا استِدلالُهم بهذه الآيَةِ فلا، ليس بصَحيحٍ، يَعني: كأنَّهم يُريدون أنَّ هذا الَّذي عِندَه عِلمٌ بالكِتابِ ساحِرٌ، وقد قال تَعالَى: ﴿عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وما قال عِلمٌ مِنَ السِّحْرِ، ثُمَّ إنَّ السِّحرَ لا يُمكنُ أن يُغيِّرَ الحَقائقَ، السِّحرُ يُخيِّلُ الأشياءَ، إمَّا أن يَجعلَ المَسحورَ يَرى السَّاكنَ مُتحرِّكًا أو المُتحرِّكَ ساكنًا.



الآية (٣٩)

• • ❁ • •

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩].

• • ❁ • •

قال اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ (مِن) للتَّبعيضِ و(آياتٌ) جَمعُ آيَةٍ وهي العَلامَةُ المُعيِّنَةُ لمَعلومِها، فكُلُّ عَلامَةٍ تُعيِّنُ مَعلومَها وتُحدِّدُه فهي آيَةٌ.

قَولُه: ﴿أَنَّكَ﴾ الخِطابُ هُنا لكُلِّ مَن يَتأتَّى خِطابُه وليس خاصًّا بالنَّبيِّ ﷺ واعلمْ أنَّ الخِطابَ المُوجَّهَ إلى واحدٍ يَنقَسِمُ إلى ثَلاثةِ أقسامٍ:

الأَوَّلُ: ما دَلَّ الدَّليلُ بأنَّه خاصٌّ برَسولِ اللهِ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم- فهو خاصٌّ به.

والثَّاني: ما دَلَّ الدَّليلُ على العُمومِ فهو للعُمومِ.

والثَّالثُ: ما لا دَليلَ فيه على هذا ولا على هذا، فيَصِحُّ أن يَكونَ خاصًّا بالرَّسولِ وأن يَكونَ مُوجَّهًا لكُلِّ مَن يتأتَّى خِطابُه.

ففي قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشَّرح:١-٢]، الخِطابُ خاصٌّ بالرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إذ إنَّ هذا لا يَتأتَّى لغَيرِه، وفي قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧] هذا أيضًا خاصٌّ به، وفي قَولِه تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ [الطلاق:١] هذا عامٌّ دَلَّ الدَّليلُ عليه؛ لأَنَّه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ثُمَّ قال: ﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ﴾.

وغالِب ما يَأتي أَلَّا يَكونَ فيه دَليلٌ لهذا ولا لهذا، فنَقولُ: إمَّا أنَّه مُوجَّهٌ للرَّسولِ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأُمَّتُه تَكونُ مُتأسِّيةً به في ذلك، وإمَّا أن نَقولَ: إنَّه خِطابٌ لكُلِّ مَن يَتأتَّى خِطابُه.

في هذه الآية: ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ﴾ الخِطابُ عامٌّ للرَّسولِ ولغَيرِه، إمَّا أنَّ غيرَه داخلٌ في ذلك في أصلِ المُخاطبَةِ وإمَّا بالتَّبَعِ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً﴾: يابِسةً] هامِدَةً ليس فيها نَباتٌ إطلاقًا، ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ﴾ يعني المَطَرَ [﴿ٱهۡتَزَّتۡ﴾ تَحرَّكت ﴿وَرَبَتۡ﴾ انتفَخت وعَلَت].

قال اللهُ تَعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ﴾ أي: ماءَ المَطَرِ ﴿ٱهۡتَزَّتۡ﴾ أي: اهتزَّ نَباتُها من فَوقِها، وليس المُرادُ أنَّ الأرضَ نَفسَها تَهتزُّ؛ لأنَّنا لا نَشعُرُ بذلك، وإن كنَّا نَجوزُ أن يَكونَ اهتِزازُها اهتِزازًا يَسيرًا، لكنَّ الَّذي يَظهرُ أنَّها اهتَزَّت بالنَّباتِ، ﴿وَرَبَتۡ﴾ أي: عَلَت.

وهلِ المُرادُ ما أشارَ إليه المفسِّر انتِفاخُ الأرضِ عِندما تُريدُ الحَبَّةُ أن تَخرُجَ، فإنَّ الحَبَّةَ تَنتفِخُ في باطنِ الأرضِ، ثُمَّ إذا أَراد غُصنُها أن يَخرُجَ رَفَعَ الأرضَ، فهل هذا هو مَعنى رَبَتْ، أو المُرادُ عَلَت بالنَّباتِ؟

الجواب: يَحتمِلُ هذا وهذا، أنَّها عَلَت بالنَّباتِ وأنَّه لـمَّا ذَكَر اهتِزازَها أوَّلًا اهتِزازُ النَّباتِ الخَفيفِ ذَكَر عُلوَّ النَّباتِ والأشجارِ الكَبيرةِ الَّتي تَعلو، كُلُّ هذا مُمكِنٌ.

ثُمَّ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا﴾ أي: أحيا الأرضَ الخاشعةَ ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ الجُملَةُ مُؤكَّدةٌ بمُؤكِّدينِ إنَّ واللَّامَ، و﴿ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ جمعُ مَيِّتٍ، والمُرادُ به كُلُّ مَن مات مِن بَني آدمَ وغَيرِهم، فهو قادرٌ على إِحيائِهم.

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أيضًا جُملَةٌ مُؤكَّدةٌ بإنَّ، و﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ كُلُّ شيءٍ، فاللهُ قادرٌ عليه قادرٌ على إِيجادِ المَعدومِ، وعلى إِعدامِ المَوجودِ وعلى تَغييرِ الثَّابتِ وعلى تَثبيتِ المُتغيِّرِ كُلُّ شيءٍ قادِرٌ عليه.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ مِن آياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على قُدرتِه أنَّ الأرضَ اليابسةَ الهامدَةَ إذا نَزَل عليها الماءُ نَبتَتْ واهتزَّت ورَبَت. وهل أحدٌ يَستطيعُ أن يَفعَلَ مِثلَ ذلك؟ أبدًا قال اللهُ تَعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٣-٦٤] لا أَحَدَ يَستطيعُ مهما بَلَغَ مِن القُوَّةِ أن يُنبِتَ ورقةً واحدةً، وقد تَحدَّى اللهُ عَزَّوَجَلَّ جَميعَ الخَلقِ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟﴾ [الحج:٧٣] وهذا تَحدٍّ بالأمرِ الكونيِّ القَدريِّ، وتَحدَّى اللهُ الخَلقَ بالأمرِ الشَّرعيِّ فقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء:٨٨] إذن فالإنسانُ عاجزٌ مهما كان.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الاستِدلالُ بالمَحسوسِ المَنظورِ على المَوعودِ المُنتظَرِ، وَجهُه أنَّ اللهَ استدَلَّ بالشَّيءِ المَنظورِ المَحسوسِ وهو نَباتُ الأرضِ بعدَ أن كانت هامدَةً على شَيءٍ مُنتَظَرٍ وهو إِحياءُ المَوتَى بعد مَوتِهم، وفيه أيضًا الاستِدلالُ بالأدِلَّةِ العَقليَّةِ أنَّ

الإنسانَ يَستَدِلُّ بالمَحسوسِ على المَعقولِ يَعني: أنَّ قُدرةَ اللهِ على هذا تَدُلُّ على قُدرَتِه على الآخَرِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: استِعمالُ القِياسِ وأنَّ القياسَ ثابتٌ؛ لأنَّ اللهَ تَعالى قاس إِحياءَ المَوتى على إِحياءِ الأرضِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَأكيدُ ما يَنبَغي تَأكيدُه سَواءٌ كان ذلك لإِنْكارِ مُنكَرٍ أو شكِّ شاكٍّ أو لأَهَمِّيَّةِ الأمرِ؛ لأنَّ التَّأكيداتِ تَكونُ: إمَّا لأَهَمِّيَّةِ الأمرِ، وإمَّا لرَفعِ الشَّكِّ والتَّردُّدِ في الشَّيءِ حتَّى يَكونَ أمرًا يَقينيًّا، وإمَّا لإثباتِ الشَّيءِ المُنكَرِ. فمثلًا إذا كانت الآيَةُ تُخاطِبُ الَّذين يُنكِرونَ البَعثَ، فهذا الإِثباتُ لِإثباتِ مُنكَرٍ يَعني لإِثباتِ شَيءٍ أنكَرَه قَومٌ.

وإذا كانت الآيَةُ تُخاطِبُ مَن يَتَرَدَّدون في ذلك فهي لرَفعِ الشَّكِّ والتَّردُّدِ، وإذا قَدَّرنا أنَّها تُخاطِبُ مَن لا شكَّ عندَه ولا إِنكارَ، فهي لأَهَمِّيَّةِ الأمرِ أوِ المَوضوعِ؛ لأنَّ الإيمانَ بذلك هو الَّذي يَحدو الإنسانَ إلى أن يَعمَلَ لو لا أنَّ الإنسانَ يُؤمنُ بأنَّه سوف يُبعثُ ويُجازى لكان غَيرَ نَشيطٍ على العَمَلِ، أكثَرُ ما يُنَشِّطُ الإنسانَ على العملِ هو خوفُ يومِ القيامَةِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: عُمومُ قُدرةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يُعجِزُه شَيءٌ لتَمامِ عِلمِه وتَمامِ قُدرتِه، قال اللهُ تَعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤] لأنَّ العاجِزَ إمَّا أن يَكونَ لعَدَمِ عِلمِه، وإمَّا أن يَكونَ لعَدَمِ قُدرتِه، فنَفَى اللهُ عَزَّوَجَلَّ العَجزَ وبَيَّن ذلك بسَببِ كمالِ عِلمِه وقُدرَتِه، إذن إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٍ.

ذَكَرَ الجَلالُ السُّيوطِيُّ -غَفَر اللهُ لنا وله- في سورَةِ المائدَةِ كلامًا مُنْكَرًا قال: [وخصَّ العقلَ ذاتَه فليس عليها بقادِرٍ]. يعني: كأنَّه يَقولُ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ إلَّا على ذاتِه فليس عليها قادرًا، وهذا لا شكَّ أنَّه قَولٌ مُنكَرٌ، كأنَّه يَقولُ مثلًا هل يَقدِرُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ على أن يُفنِيَ نفسَه على كَلامِه؟

فنَقولُ: هذا قَولٌ ساقطٌ؛ لأنَّ القُدرَةَ إنَّما تَتعلَّقُ بالشَّيءِ المُمكِنِ أمَّا الشَّيءُ المُستحيلُ فهو مُستحيلٌ وليس مُستَحيلًا على قُدرتِنا، لا، المُستَحيلُ على قُدرتِنا غَيرُ المُستَحيلِ على قُدرةِ اللهِ، لكنَّ المُستَحيلَ لذاتِه فإنَّه لا يُمكِنُ أن تتعلَّقَ به قُدرةٌ ولا غَيرُ قدرةٍ إلَّا العِلمَ؛ ولهذا قال السَّفارينيُّ في العَقيدَةِ[1]:

....واقتَدَرْ

بقُدرةٍ تعلَّقت بمُمكِنٍ ....

فيُقالُ للجَلالِ عَفا اللهُ عنَّا وعنه: إن أَردتَ أنَّ اللهَ ليس بقادِرٍ على أن يُفنِيَ نفسَه فهذا أمرٌ غيرُ واردٍ إطلاقًا؛ لأنَّ القُدرَةَ لا تُعلَّقُ بهذا، وإن أَردتَ أنَّه غَيرُ قادرٍ على أن يَنزِلَ إلى السَّماءِ الدُّنيا، وأن يَأتيَ للفصلِ بَينَ عِبادِه، وأن يَستوِيَ على عَرشِه ونحو ذلك مِنَ الأفعالِ الاختِيارِيَّةِ، فهذا كَذبٌ بل هو قادرٌ على ذلك، لكنَّ السُّيوطيَّ عفا اللهُ عنَّا وعنه ممَّن يَرونَ أنَّ الأفعالَ الاختِيارِيَّةَ لا تَقومُ باللهِ، يَعني: يَقولُ: اللهُ ما يُمكنُ يَنزِلُ ولا يَستَوِي ولا يَأتي يَومَ القيامَةِ؛ لأنَّ هذه على زَعمِه حَوادثُ والحَوادثُ لا تَتعلَّقُ إلَّا بحادِثٍ.

على كُلِّ حالٍ: هذه فَلسفَةٌ جاءَ بها أهلُ الكَلام، وما أكثَرَ ما جاؤوا به مِنَ الكَلامِ، وكَلامُهم كَلامٌ في كَلامٍ، لا فائدَةَ فيه، تَطويلٌ بلا فائدَةٍ، إضاعَةُ الوَقتِ

(١) العقيدة السفارينية (ص:٥٢).

بلا فائدَةٍ مُؤدٍّ إلى الشَّكِّ والتَّردُّدِ بلا فائدَةٍ، ولهذا قال بعضُهم: أكثرُ النَّاسِ شكًّا عندَ الموتِ أهلُ الكَلامِ نَعوذُ باللهِ، لماذا؟ لأنَّهم لم يَبنوا عَقيدَتَهم على الكِتابِ والسُّنَّةِ بَنَوْها على وَهْمِيَّاتٍ ظَنُّوها عقليَّاتٍ، فضلُّوا وأَضَلُّوا، نحنُ نَقولُ كما قال رَبُّنا عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة:١٤٨] فقط ويَكفي.

أمَّا العِلمُ فهو أَوسَعُ مِنَ القُدرةِ؛ لأنَّ العِلمَ يَتعلَّقُ بالواجبِ والمُستحيلِ والمُمكِنِ، يَعني: عِلمُ اللهِ مُتعلِّقٌ بكُلِّ شيءٍ يَتعلَّقُ حتَّى بالمُستحيلِ، قال اللهُ تَعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢] وهذا مُستَحيلٌ، ومع ذلك تَعلَّقَ به العِلمُ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ [المؤمنون:٧١] وهذا أيضًا مِنَ المُستَحيلِ على حِكمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الِاستِدلالُ بالعُمومِ على الخُصوصِ، فاللهُ تَعالى استَدَلَّ على قُدرَتِه على إِحياءِ المَوتى بدَليلَينِ أحدُهما خاصٌّ والثَّاني عامٌّ، الخاصُّ يُحيي الأرضَ بعدَ مَوتِها، والعامُّ: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

ويَنبَني على هذه الفائدَةِ: أنَّ العامَّ يَتناوَلُ جَميعَ أفرادِهِ، وقد ذَكَرَ ذلك النَّبيُّ ﷺ في قَولِه حينَ عَلَّمَ أُمَّتَه التَّشهُّدَ قال: «**إذا فَعلتُم ذلك فقد سَلِمْتُم على كُلِّ عَبدٍ صالحٍ في السَّماءِ والأرضِ**»(١) فمثلًا، إذا قال الرَّجلُ: دُورِي وَقفٌ، يَشمَلُ جَميعَ الدُّورِ، ولو قال: سَيَّاراتي لفُلانٍ، يَشمَلُ جَميعَ السَّيَّاراتِ، ولو قال: نِسائي طَوالِقُ، يَشمَلُ كُلَّ امرأةٍ له، ولو قال: عَبيدي أحرارٌ، شَمِلَ كُلَّ عبدٍ، المُهِمُّ أنَّ العامَّ يَتناولُ جَميعَ أفرادِهِ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب التشهد في الآخرة، رقم (٨٣١)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، رقم (٤٠٢)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (٤٠)

• ● ● •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [فصلت: ٤٠].

• ● ● •

ثُمَّ قال جَلَّوَعَلَا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ ﴾ يَقُولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِن أَلْحَدَ ولَحَدَ] مِن أَلحَدَ تكونُ يُلحِدون، ولَحَدَ يَلحَدون، وأصلُ اللَّحدِ أو الإلحادِ هو المَيلُ ومنه سُمِّيَ اللَّحدُ لحدًا؛ لمَيلِه إلى جانبِ القبرِ. إذن فهذه المادَّةُ (لامٌ حاءٌ دالٌ) مأخوذَةٌ مِنَ المَيلِ، فمَعنى: ﴿يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: يَميلون فيها، وآياتُنا جَمعُ آيةٍ، وآياتُ اللهِ تَعالى تَنقَسِمُ إلى قِسمَينِ: آياتٍ شرعيَّةٍ وهي الوَحيُ المُنزَّلُ على الأنبياءِ والرُّسلِ، وآياتٍ قَدرِيَّةٍ وهي المَخلوقاتُ، كُلُّ المَخلوقاتِ آياتٌ قَدريَّةٌ تَدُلُّ على خالِقِها وبارِئِها، وفي ذلك يَقولُ الشَّاعرُ الصَّادِقُ في قَولِه(١):

فوا عَجبًا كيف يُعصى الإلَهُ ... أم كيف يَجحَدُه الجاحِدُ
وفي كُلِّ شيءٍ له آيةٌ ... تَدُلُّ على أنَّه واحِدُ

كُلُّ المَخلوقاتِ آيةٌ من آياتِ اللهِ، والإلحادُ في الآياتِ الكَونيَّةِ يَكونُ بواحِدٍ مِن أُمورٍ ثلاثةٍ؛ إمَّا بإضافتِها إلى غَيرِ اللهِ، وإمَّا باعتِقادِ مُشارِكٍ للهِ فيها، وإمَّا باعتِقادِ مُعينٍ للهِ فيها.

---

(١) من شعر أبي العتاهية، انظر: ديوانه (ص:١٢٢)، ومعاهد التنصيص (٢/ ٢٨٦).

أمَّا الأوَّلُ: فنِسبتُها إلى غَيرِ اللهِ فيَقولُ مثلًا الَّذي خَلَقَ السَّماءَ القُوَّةُ الطَّبيعيَّةُ هذا إلحادٌ بالآياتِ الكَونيَّةِ.

والثَّاني: اعتِقادُ مُشارِكٍ للهِ فيها مِثل أن يَقولَ الَّذي يُدَبِّرُ الكَونَ هو اللهُ والإمامُ الفُلانيُّ كما تَقولُه بعضُ الرَّافضَةُ.

والثَّالثُ: اعتِقادُ مُعينٍ للهِ فيها يَعني: كأنَّ اللهَ عَجَزَ عن إقامَةِ السَّموات والأرضِ فأعانَه آخرُ، يَعني: أن يَكونَ عَزَّوَجَلَّ مُنفرِدًا بالخَلقِ لكنَّ هناك مَن يُساعِدُه، ولكنَّ هذا المُساعِدَ ليس له شَرِكةٌ في الخَلقِ، وبهذا نَعرفُ الفَرقَ بَينَ المُعينِ والمُشارِكِ.

هذا هو الإلحادُ في آياتِ اللهِ الكَونيَّةِ، وإلى هذا يُشيرُ قَولُه تَعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ [سبأ:٢٢] كُلُّ الثَّلاثَةِ نَفاهُنَّ، ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على سَبيلِ الاستِقلالِ ﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ﴾ على سَبيلِ المُشارَكَةِ، ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ أي: ما للهِ منهم من ظَهيرٍ أي مُعينٍ.

والآياتُ الشَّرعِيَّةُ قُلنا: إنَّما ما نَزلَ مِنَ الوَحيِ على رُسلِ اللهِ، الإلحادُ فيها يَكونُ أيضًا في ثَلاثةِ أُمورٍ: تَكذيبُها أو تَحريفُها أو مُخالفَتُها، هذا الإلحادُ في الآياتِ الشَّرعيَّةِ، فمَن كَذَّب وقال: إنَّ مُحمدًا مثلًا لم يَنزِلْ عليه الوَحيُ وإنَّما يُعلِّمُه بَشَرٌ فهو مُلحِدٌ، ومَن حَرَّفَها وغَيَّرَ مَعناها أو غَيَّرَ لَفظَها فهو مُلحِدٌ؛ لأنَّ التَّحريفَ يَكونُ لفظًا ويَكونُ مَعنًى، والثَّالثُ مَن خَالفَها فهو مُلحِدٌ، فمَن عصا اللهِ فهو مُلحِدٌ لكنَّه ليس الإلحادُ الَّذي نَفهَمُه وهو الخُروجُ مِنَ الدِّينِ، بل هو مُلحِدٌ إلحادًا بقَدْرِ ما فَعَلَ مِنَ المَعصيَةِ والمُخالَفَةِ، دَليلُ ذلك قَولُه تَعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۢ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ

عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥] هذا سَمعيٌّ، والدَّليلُ العَقليُّ: أَنَّنا قُلنا الإلحادُ في اللُّغةِ هو المَيلُ، والعاصي المُخالفُ للأوامِرِ مائلٌ بلا شَكٍّ.

هَؤلاءِ الَّذين يُلحِدون في هذا أو في هذا، يَقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ هذه صِفَةُ نَفيٍ ﴿لَا يَخْفَوْنَ﴾ نَفَى اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن يَخفى عليه هَؤلاءِ؛ لِكَمالِ عِلمِه.

واعلَمْ أَنَّه لا يُمكنُ أن يوجَدُ في صِفاتِ اللهِ نَفيٌ مَحضٌ، بل كُلُّ ما نَفى اللهُ عن نَفسِه فهو مُتَضَمِّنٌ للكَمالِ والإثباتِ، وهذه ضَعْها قاعدَةً عِندَك لا تُفرِّطُ بها: لا يوجَدُ في صِفاتِ اللهِ نَفيٌ محضٌ، بل كُلُّ ما نَفى اللهُ عن نَفسِه فإنَّه مُتضَمِّنٌ لكَمالٍ، فمثلًا ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ لماذا؟ لكَمالِ عِلمِه؛ لأنَّ اللهَ تَعالى كامِلُ العِلمِ مُحيطٌ بكُلِّ شيءٍ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠].

إذن ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ أي: لا تَخفى عَلينا حالُهم ولا أعيانُهم لكَمالِ عِلمِه، والمُرادُ بهذه الجُملَةِ التَّهديدُ، كما تَقولُ لابنِك: يا بُنيَّ اذهبْ لما شِئتَ فإنَّه لا يَخفى عَلَيَّ فِعلُك. فالمُرادُ بها التَّهديدُ وهي في غايَةِ التَّهديدِ؛ لأَنَّه إذا قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ فسوف تَرتَعِدُ الفَرائصُ من هذا الوعيدِ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ القُرآنِ بالتَّكذيبِ ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ فنُجازيهم].

في تَفسيرِ المفسِّر قُصورٌ:

أَوَّلًا: أنَّه جَعلَ الآياتِ هُنا الآياتِ الشَّرعيَّةَ وهذا غَلطٌ، فالآياتُ أعمُّ.

ثانيًا: أنَّه لم يَجعلِ الإلحادَ في الآياتِ الشَّرعيَّةِ إلَّا بنَوعٍ واحدٍ منَ الإلحادِ وهو التَّكذيبُ، وقد قُلنا: إنَّ الإلحادَ فيها يَكونُ بواحدٍ من ثَلاثةِ أُمورٍ؛ إمَّا التَّكذيبُ

أو التَّحريفُ أو المُخالفةُ.

ولم نَتكلَّمْ على الإلحادِ في الأسماءِ؛ لأنَّه ليس في الآيةِ، لكن إتمامًا للفائدةِ نَقولُ: الإلحادُ يَكونُ في أسماءِ اللهِ، وهو المَيلُ بها عمَّا يَجبُ؛ وذلك أوَّلًا أن يُسمِّيَ اللهَ تَعالى بما لم يُسَمِّ به نَفسَه كتَسميةِ الفَلاسِفَةِ له: عِلَّةٌ فاعلَةٌ. يَقولون: إنَّ اللهَ هو العِلَّةُ الفاعِلَةُ لهذا الكَونِ، وتَسميةُ النَّصارى إيَّاه أبًا يُسمُّونَه الأبَ والابنَ والرُّوحَ القُدُسَ.

الثَّاني: أن يُنكِرَ شَيئًا منَ الأسماءِ، أو مِمَّا دلَّت عليه وهذا عَكسُ الأوَّلِ، الأوَّلُ سَمَّى اللهُ بما لم يُسَمِّ به نَفسَه، والثَّاني أنكَرَ ما سَمَّى اللهُ به نَفسَه إمَّا إنكارًا كُلِّيًّا وإمَّا إنكارًا جُزئيًّا، أو يُنكِرُ ما تَضمَّنَته الأسماءُ مِنَ المَعاني والصِّفاتِ، فيُنكِرُ الأسماءَ أو بَعضَها أو ما دلَّت عليه مِنَ المَعاني والصِّفاتِ، فمثلًا الَّذين يَقولون: إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليس لَه أسماءٌ ولا صِفاتٌ كغُلاةِ المُعتزلَةِ والجَهميَّةِ، هؤلاءِ مُلحِدونَ، والَّذين يَقولونَ له أسماءٌ لكن ليس لها مَعانٍ هَؤلاءِ أيضًا مُلحِدون كما هو المَشهورُ مِن مَذهَبِ المُعتزِلَةِ، والَّذين يُنكِرون بَعضَ الصِّفاتِ كالأشاعِرَةِ هم أيضًا مُلحِدونَ فيَقولون مَثلًا: إنَّ اللهَ لا يَثبُتُ له مِنَ الصِّفاتِ إلَّا سَبعُ صِفاتٍ، زَعَموا أنَّ العَقلَ دَلَّ عليها وأنَّ الباقيَ لا يَدُلُّ عليه العَقلُ، وقد تَكلَّمنا على هذا كثيرًا ولا حاجَةَ لإعادتِهِ.

الثَّالثُ: أن يُشتَقَّ من أسمائِه أسماءٌ للأصنامِ، ومنه اشتِقاقُ اللَّاتِ مِنَ الإلَهِ والعُزَّى مِنَ العَزيزِ ومَناةَ من المَنَّانِ، هذا أيضًا مِنَ الإلحادِ في أسماءِ اللهِ.

كُلُّ الإلحادِ هذا وغَيرُه في أسماءِ اللهِ قد تَوعَّدَ اللهُ مَن سَلكَه في قَولِه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

قال اللهُ تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ استِفهامٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ والجَوابُ لا شكَّ أنَّه الثَّاني.

وفي قَولِه: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ﴾ هذا نَتيجةُ قَولِه: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ إذن فالمَعنَى لا يَخفَونَ علينا وسنُلقيهم في النَّارِ، يَعني: هذه هي النَّتيجةُ، وأخبِروني: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ والجَوابُ أنَّ النَّاسَ بصَوتٍ واحدٍ سيَقولونَ مَن يَأتي آمِنًا يومَ القيامَةِ هو الخَيرُ.

وقَولُه: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ﴾ ﴿يُلْقَىٰ﴾ يُفيدُ هذا أنَّ أهلَ النَّارِ والعِياذُ باللهِ إذا وَردوها لا يَدخُلوها طائِعينَ ولا مُختارينَ، ولكنَّهم يُلْقَون إلقاءً كما يُلقى الحَجَرُ مِن على الجَبَلِ، قال اللهُ تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ [المُلك:٨]، وقال تَعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور:١٣]؛ لأنَّهم لا يُريدون أن يَذهَبوا، ولكن قد ثَبَتَ أنَّ النَّارَ تُمَثَّلُ لهم كالسَّرابِ فيَأتونَ إليها سِراعًا، نَقولُ: لا مُنافاةَ هي تُمَثَّلُ لهم كالسَّرابِ وهم يُريدون الشُّربَ فيَأتونَ إليها سِراعًا، فإذا وَصَلوا إليها وعَرَفوا أنَّها النَّارُ فهُم حينَئِذٍ يَقِفونَ ثُمَّ يُدَعُّون إلى نارِ جهنَّمَ دعًّا -أعاذَنا اللهُ وإيَّاكم منها-، ثُمَّ يُلقَون فيها إلقاءً.

وقَولُه: ﴿خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وهم المُؤمِنونَ الَّذين لا يُلحِدون في آياتِ اللهِ هَؤلاءِ يَأتونَ يومَ القيامَةِ آمِنيـن، قال اللهُ تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ [الأنعام:٨٢] في الدُّنيا والآخِرَةِ.

﴿أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا﴾ إعرابُ ﴿ءَامِنًا﴾ حالٌ، والفاعِلُ مُستتِرٌ، التَّقديرُ: أمَّن يَأتي هو آمِنًا يومَ القِيامَةِ.

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يَعني: به يَومَ البَعثِ والنُّشورِ وسُمِّيَ يومَ القِيامَةِ لوُجوهٍ ثَلاثَةٍ:

الأَوَّلُ: أنَّ النَّاسَ يَقومون فيه مِن قُبورِهم لرَبِّ العالَمينَ، كما قالَ تَعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطفِّفين:٦].

الثَّاني: أنَّه يُقامُ فيه العَدلُ كما قالَ تَعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧].

والثَّالثُ: أنَّه يُقامُ فيه الأشهادُ، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١]، فلهذا سُمِّيَ يومَ القيامَةِ.

قال اللهُ تَعالى: ﴿أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ يَعني بَعدَ هذا الإنذارِ والتَّهديدِ والوَعيدِ: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ وهذه الجُملَةُ أيضًا تُفيدُ التَّهديدَ بِلا شَكٍّ، يَعني: اعمَلوا ما شِئتم مِنَ الخَيرِ أو مِنَ الشَّرِّ، ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

إذن ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ ليست إباحةً أنَّ الإنسانَ يَعملُ ما شاءَ كما يَدَّعي هَؤلاءِ أنَّ الحُرِّيَّةَ أن تَعمَلَ ما شِئتَ، عندَ هؤلاءِ الكُفَّارِ أنَّ الإنسانَ حُرٌّ في دينِه، يَدينُ بما شاءَ، حُرٌّ في أخلاقِه، يَتَخَلَّقُ بما شاءَ، حُرٌّ بأعمالِه يَعمَلُ ما شاءَ، هكذا عِندَهم، ونحن نَقولُ: لا، الحُرِّيَّةُ المُطلَقَةُ هي الرِّقُّ المُطلَقُ؛ لأنَّك إذا تَحَرَّرت من قُيودِ الشَّرعِ تَقَيَّدت بقُيودِ الشَّرِّ، ولهذا يَقولُ ابنُ القَيِّمِ في النُّونيَّةِ(١):

هَرَبوا مِنَ الرِّقِّ الَّذي خُلِقوا لـه ... وبُلـوا بِـرِقِّ الـنَّفسِ والشَّـيطانِ

الرِّقُّ الَّذي خُلِقنا له هو عِبادَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ وقوله: «وبُلوا» يَعني: ابتُلوا.

فصاروا عَبيدًا لأنفُسِـهم والشَّياطيـنَ. فَرُّوا من رِقِّهم للهِ إلى رِقِّهم للهَـوى والشَّيطانِ.

فنَقولُ: إنَّ قَولَه: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ ليس إطلاقًا بمَعنى ليس إباحَةً، ولكنَّه تَهديدٌ، وهو أُسلوبٌ عَربيٌّ مُبينٌ منذُ نَزَلَ القُرآنُ وإلى يَومِنا هذا، ولهذا أَكَّدَه بقَولِه:

(١) النونية (ص:٣٠٨).

﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تَهديدٌ لهم].

قَولُه: ﴿إِنَّهُۥ﴾ الضَّميرُ يَعودُ على اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وقَولُه: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: عَليمٌ، وقُدِّمَ على عامِلِه لسَببيـنِ: أحدُهما لَفظِيٌّ، والثَّاني مَعنَويٌّ.

أمَّا اللَّفظِيُّ: فهو لتَناسُبِ رُؤوسِ الآياتِ، والقُرآنُ الكريمُ نَزلَ بلِسانٍ عَربِيٍّ، يُراعي التَّناسُبَ اللَّفظِيَّ والمَعنويَّ.

والفائدَةُ الثَّانيةُ: أنَّه أَشَدُّ تَهديدًا مِمَّا إذا جاءَ مُتأخِّرًا عن عامِلِه كأنَّه يَقولُ: لو لم يَكُنْ عالِمًا بأيِّ شَيءٍ لكانَ عالمًا بأعمالِكم. فهُنا الحَصرُ لِبيانِ التَّهديدِ لهَؤلاءِ كأنَّه يَقولُ: لو خَفِيَ عليه كُلُّ شيءٍ لم يَخفَ عليه أَعمالُكم.

من فوائدِ الآيَةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تَحريمُ الإلحادِ في آياتِ اللهِ، وَجهُ ذلك أنَّ اللهَ تَعالى هَدَّد المُلحِدينَ في آياتِ اللهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إِثباتُ الآياتِ والتَّقسيمُ من عِندنا مَبنِيٌّ على التَّتبُّعِ والاستِقراءِ، يَعني: إِثباتُ أنَّ اللهَ تَعالى له آياتٌ كونِيَّةٌ وشَرعيَّةٌ، والآياتُ ليس فيها ذلك لكن بالتَّتبُّعِ والاستِقراءِ عَلِمنا أنَّ آياتِ اللهِ تَنقَسِمُ إلى قِسمينِ شَرعِيَّةٍ وكَونيَّةٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَهديدُ المُلحِدينَ بأنَّ اللهَ مُطَّلعٌ عليهم لا يَخفى عليهِ شَيءٌ مِن أحوالِهم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: سِعةُ عِلم اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وأنَّه لا يَخفى عليهِ شَيءٌ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الإلحادَ سببٌ لدُخولِ النَّارِ؛ لقَولِه: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ﴾ يَعني: مِثلَ المُلحِدينَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ أهلَ النَّارِ والعِياذُ باللهِ يُلْقَونَ فيها إلقاءً ويُدَعُّون إليها دَعًّا إهانَةً لهم وذُلًّا وإذلالًا؛ لقَولِه: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: جَوازُ المُفاضَلَةِ بينَ شَيئَينِ بَينَهما مِنَ التَّبايُنِ أكثرُ مِمَّا بَينَ السَّماءِ والأرضِ إفحامًا للخَصْمِ.

والدَّليلُ: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كُلٌّ يَعلَمُ أنَّ الثَّاني خَيرٌ وأنَّه لا حاجَةَ للاستِفهامِ لكن من أَجْلِ إفحامِ الخَصمِ وإقامَةِ الحُجَّةِ عليه، ونَظيرُ ذلك قَولُه تَعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩] كُلٌّ يَعرِفُ أنَّ اللهَ خَيرٌ لكنَّ هذا من بابِ إفحامِ الخَصمِ، ومنه قولُه تَعالى: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٤٠] كُلٌّ يَعلَمُ أنَّ الأعْلَمَ هو اللهُ لكنَّ هذا أيضًا من بابِ إفحامِ الخَصمِ، وهذه فائدَةٌ يُنتبَهُ لها: أنَّ المُفاضَلَةَ بَينَ شَيئَينِ التَّفاوُتُ بينَهما ظاهِرٌ لا يُرادُ به المُقارَنَةُ، ولكنْ يُرادُ به إفحامُ الخَصمِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ مَنِ استَقامَ في آياتِ اللهِ ولم يُلحِدْ فيها فإنَّه يَأتي يَومَ القِيامَةِ آمنًا؛ لقَولِه: ﴿أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ في مُقابلِ المُلحِدينَ الَّذين يُلْقَون في النَّارِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: عَظمَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وقُوَّةُ سُلطانِه؛ لقَولِه: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ فإنَّ مِثلَ هذا التَّهديدِ لا يَكونُ إلَّا من كاملِ السُّلطانِ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثباتُ يَومِ القيامَةِ؛ لقَولِه: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: ومنها أيضًا أنَّ النَّاسَ في يَومِ القِيامَةِ بينَ آمِنٍ وخائِفٍ؛ لقَولِه: ﴿أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: إِثباتُ المَشيئَةِ للعَبْدِ؛ لقَولِه: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ فيكونُ في ذلك رَدٌّ على الجَبرِيَّةِ.

فالجَبرِيَّةُ يَقولونَ: الإنسانُ مُجبَرٌ على العملِ، وليس له أيُّ إرادةٍ فيما يَفعَلُ، عَجبًا لهم يُصلِّي بِلا إرادَةٍ، ويَتوضَّأُ بِلا إرادَةٍ، ويَمشي بِلا إرادَةٍ، ويَقعُدُ بِلا إرادَةٍ، ويُؤمِنُ بِلا إرادَةٍ، ويَكفُرُ بلا إرادَةٍ، سُبحانَ اللهِ- مُجبَرٌ قال: نَعَمْ، مُجبَرٌ، فالحَركةُ هذه طَبيعيَّةٌ فيه كالإحراقِ في النَّارِ، هل النَّارُ تَحرِقُ باختِيارِها؟ لا، لكن أُودعَ فيها الإحراق، هم يَقولونَ: هذه الأفعالُ والحَركاتُ مِنَ الإنسانِ لا إرادِيَّةَ، لكنَّه جُبِلَ عليها.

ويَقولونَ: إنَّ حركَتَه الإرادِيَّةَ كحَركتِه الاضطراريَّةِ فنُزولُ الإنسانِ في الدَّرجِ مِنَ العُليا إلى السُّفلى وصُعودُه مِنَ السُّفلى إلى العُليا، كمَن دَحرَجَ دَحرجَةً على الدَّرجِ، والمُدحرِجُ ليس له اختِيارٌ، هم يَقولون هكذا، الَّذي يَنزِل باختِيارِه لا فَرقَ.

فقيل لهُم: إذا كان كذلك، فإنَّ مِن أظلَمِ الظُّلمِ أن يُعذِّبَ اللهُ الظَّالمَ؛ لأنَّ الظَّالمَ يَقولُ: أنا مُجبَرٌ ولا لي قُدرَةٌ ولا لي اختيارٌ قالوا: لا يُمكنُ، الظُّلمُ في حقِّ اللهِ مُستحيلٌ لذاتِه، لا لأنَّ اللهَ لا يُريدُه لكنَّه مُستحيلٌ لذاتِه لماذا؟ قالوا: لأنَّه تَصرُّفُ الخالِقِ في مُلكِه والمُتَصرِّفُ في مُلكِه ليس بظالِمٍ، ولهذا قال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ عنهم[1]:

والظُّلمُ عندهم المُحالُ لذاتِـه ....

ونحنُ نَقولُ: أخطَأتُم؛ لأنَّ اللهَ تَعالى شَرَعَ شَرائِعَ وأوعَدَ مَن خالفَها ووَعَدَ مَن وافقَها وأعطى الإنسانَ حُرِّيَّةً، والظُّلمُ مُمكِنٌ في حَقِّ اللهِ لكنَّه مُستحيلٌ عليه إرادَةً، بمعنى أنَّه لا يُريدُ الظُّلمَ ولو شاءَ لظَلَمَ لكنَّه لا يُريدُه وليس وَصْفَه إطلاقًا،

---

(١) النونية (ص:٨).

قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فُصِّلَت:٤٦] وقال: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق:٢٩]، وقال تَعالى في نَفيِ إرادَةِ الظُّلمِ ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر:٣١] وكيف يَتَمَدَّحُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بأمرٍ مُستحيلٍ هذا غَيرُ مُمكِنٍ، لولا أنَّ الظُّلمَ مُمكِنٌ ما كان وَصْفُ اللهِ به كمالًا فهو مُمكِنٌ، مُمكِنٌ أن يُعذِّبَ الإنسانَ الَّذي أمضى لَيلَه ونَهارَه في طاعَةِ اللهِ مُمكِنٌ عقلًا، لكنَّ اللهَ تَعالى لا يُريدُ هذا، لذلك بَطَلَ قَولُهم بأنَّ الظُّلمَ مُحالٌ في حقِّ الخالقِ؛ لأنَّه يَتصرَّفُ في مُلكِه.

وعلى كُلِّ حالٍ: في الآيَةِ هذه ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ دَليلٌ على إثباتِ المَشيئَةِ للعَبدِ وهو يَرُدُّ ردًّا واضحًا على الجَبريَّةِ، العَجبُ أنَّه قامَ أُناسٌ ضِدَّ الجَبريَّةِ فداوَوا البِدعَةَ ببِدعَةٍ، قالوا: الإنسانُ له مَشيئَةٌ وإرادةٌ واختِيارٌ لكنَّه مُنفَصِلٌ عن إرادَةِ اللهِ ومَشيئَتِه مُستَقِلٌّ بالعَمَلِ ما للهِ إرادةٌ فيه إطلاقًا كيف؟ قال: نعم أنت الآنَ تَذهَبُ وتَجيءُ باختِيارِك لا تَشعُرُ أنَّ أحدًا يُجبِرُك أو يُكرِهُك فإذن لا عَلاقَةَ للهِ بفِعلِك، فأنت تَفعَلُ مُختارًا مُستقِلًّا عن إرادَةِ الخالِقِ، والأقرَبُ إلى المَعقولِ هم القَدريَّةُ؛ لأنَّ كُلَّ إنسانٍ يَعرِفُ أنَّه يَفعَلُ الشَّيءَ باختِيارِه، وأنَّه يُحمَدُ على فِعلِه للخَيرِ، ويُذَمُّ على فِعلِه للشَّرِّ، ولو كان بِغيرِ اختِيارٍ ما استحَقَّ أن يُحمَدَ على الخيرِ ولا أن يُذَمَّ على الشَّرِّ، كُلٌّ يَعلمُ ذلك ولهذا يُسمَّونَ العَقلانِيِّينَ؛ لأنَّهم يُحكِّمون العَقلَ حتَّى في مِثلِ هذا الأمرِ.

إذن؛ نَقولُ: قوبِلَت بِدعَةُ الجَبريَّةِ ببِدعةِ القَدريَّةِ الَّذين أثبَتوا للإنسانِ إرادَةً استقلالًا؛ ولهذا يُسمَّونَ مَجوسَ هذه الأُمَّةِ؛ لأنَّ المَجوسَ يَقولون: الحَوادثُ لها خالِقانِ: الظُّلمَةُ والنُّورُ. كُلُّ ما في الدُّنيا مِن شَرٍّ فخالِقُه الظُّلمَةُ وكُلُّ ما فيها مِن خيرٍ فخالِقُه النُّورُ؛ لأنَّ الأشياءَ في الدُّنيا كُلِّها إمَّا خيرٌ وإمَّا شَرٌّ.

فيَجبُ أن يَكونَ هناك إلهانِ إلهُ الخيرِ وإلهُ الشَّرِّ، والمُناسِبُ للخَيرِ النُّورُ؛ لأنَّ

فيه سِعةَ الصَّدرِ والانشِراحِ، والأنسَبُ للشَّرِّ الظُّلمَةُ، قالوا: إذن جَميعُ ما يَحصُلُ في الكَونِ له خالِقانِ ظُلمَةٌ ونورٌ، الظُّلمةُ تَخلُقُ الشَّرَّ والنُّورُ يَخلُقُ الخيرَ، وفي هذا يَقولُ المُتنبِّي في مَمدوحِه[1]:

وكم لظَلامِ اللَّيلِ عِندَك من يدٍ تُحدِّثُ أنَّ المانَويَّةَ تكذِبُ

(كم) للتَّكثيرِ (كم لِظَلامِ اللَّيلِ عِندَك من يدٍ) أي: مِن نِعمَةٍ، (تُحدِّثُ أنَّ المانَويَّةَ) وهم فِرقَةٌ مِنَ المَجوسِ (تكذِبُ)؛ لأنَّ المانويَّةَ تَقولُ: الظُّلمَةُ تَخلُقُ الشَّرَّ والنَّعم خيرٌ، فيَقولُ لمَدوحِه: أنت تَجودُ ليلًا ونهارًا ممَّا يُكَذِّبُ المانويَّةَ الَّذين يَقولونَ: إنَّ الظُّلمةَ تَخلُقُ الشَّرَّ.

ونحن نَقولُ: إنَّ الجبريَّةَ قوبِلت بِدعتُهم ببِدعةٍ؛ واعلمْ أنَّ البدعةَ لا يُمكنُ أن تُقَاوَمَ ببدعة؛ لأنَّك إذا ابْتَدَعتَ ادَّعَوا عَليك، ومِنْ ذلك ما يَفعلُه بعضُ النَّاس في يومِ عاشوراءَ، فَيومُ عاشوراءَ عند الرَّافضةِ يومُ حزنٍ وبَلاءٍ فجاءَ أُناسٌ مِن أهلِ السُّنَّةِ قالوا: إِذنْ نَجعلَه يومَ فَرحٍ وسُرورٍ، وأنَّه يَنبغي أنْ نَتزيَّنَ ونَتجمَّلَ ونُوسِّعَ على العِيال، ضدَّ الحُزنِ، لكن هل هَذا صَحِيحٌ؟ لا؛ لأنَّا إذا فَعَلْنا هَذا قالتِ الرَّافضةُ: ما دَلِيلُكُمْ على هَذا؟ فلا يُمكِنُ أن تُقابَلَ البِدعةُ بالبدعَةِ أبدًا، لا تُقابَلُ إلَّا بالسُّنَّةِ.

مسألة: وَجدنَا ما يُسَمَّى الآنَ بالتَّمثيلِ السَّاقطِ، فَالبعضُ دعا إلى التَّمثيلِ الهادفِ، هل هَذا مُقابَلةُ بِدْعةٍ بِبِدعةٍ؟

فالجوابُ: هذا التَّمثيلُ ليس هو بِدعةٌ في حَدِّ ذاتِها، التَّمثيلُ تَقريبُ المَعاني بصورتِهَا الفِعليَّةِ، وقد وَرَدَ التَّمثيلُ في الحديثِ الصَّحيحِ في قصَّةِ المَلَكِ الَّذي جاءَ

(١) البيت للمتنبي، انظر: ديوانه (ص:٤٦٦).

إلى الأَقرعِ والأَبرصِ والأعمى بِصورَتِه الَّتي عليها[1] وقالَ: إِنَّهُ مسكينٌ وابنُ سبيلٍ، ولا أَبرصَ ولا أَقرعَ ولا أَعمَى، لكنَّ هذا للتَّقريبِ، إِنَّما المُبالغةُ في التَّمثيلِ بحيثُ لا نَدْعو النَّاسَ إِلَّا بِه، هَذَا هو الخطأُ.

فنَقولُ: الدَّعـوةُ إِلَى اللهِ تَعالى لَها وَسـائلُ، كُلُّ ما يَكونُ فيه تَصـويرُ الواقعِ والتَّحذيرُ منه بِدونِ أن يَشتملَ على كَذِبٍ أو مُحاكاةِ البَهائمِ أو مُحاكاةِ الرَّجُلِ المَرأةَ أو بالعكسِ، فَلا مانِعَ، فنَحنُ لا نُنكِرُ التَّمثيلَ مُطلقًا ولا نُحَبِّذُه، ونُنكِرُ أن يَكونَ هوَ الوَسيلةَ إلى الدَّعوةِ إلى اللهِ؛ لِأَنَّكَ إذا عَـوَّدتَ النَّاسَ على أَنَّك لا تَدعُوهم إلى اللهِ إِلَّا بِهَذه الوَسيلَةِ نَسوا الأَهَمَّ وهو مَوعِظةُ القُرآنِ والسُّنَّةِ.

نحنُ نُقابِلُ الجَبريَّةَ الَّذينَ يُنكِـرونَ مَشيئَةَ العبدِ بِدَلالةِ الكِتابِ والسُّنَّةِ أَنَّ لِلإنسانِ مَشيئَةً، ونُقابِلُ القَدَريَّةَ بأَنَّ اللهَ تَعالَى له مُلكُ السَّمواتِ والأَرضِ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان:٣٠].

إذن أَنا إذا شِئتُ شَيئًا وفَعَلتُهُ أَقولُ: إِنَّ اللهَ شَاءَ ذلكَ قَبْلَ أن أَشاءَه، لا يُمكِنُ أن أَشاءَ شَيئًا وأَفْعلَه دونَ أَنْ يَكونَ اللهُ شَاءَه أبدًا.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: أَنتَ إِذَا قُلتَ هَذَا، وأَنَّ مَشيئَتَك بَعْدَ مَشيئَةِ اللهِ وتَابعَةٌ لِمَشيئَةِ اللهِ لَزِمَ على ذَلكَ أن يَحْتَجَّ العَاصِي عَلينَا بِقَدَرِ اللهِ ومَشيئَتِه. العاصي يَشاءُ المَعصيَةَ ويَفعَلُ المَعصيَةَ. قُلنَا له: لِماذَا؟ قَالَ: لأنَّ اللهَ شَاءَ ذلك، أَنتم تَقُولُونَ: إِنَّه ما مِنْ مَشيئَةٍ لِلعبدِ إِلَّا وَهي مَسبُوقَةٌ بمَشيئَةِ اللهِ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، أَنا ماذا أَفعلُ! شَاءَ اللهُ أن أَفْعلَ ففَعلتُ، كيف تَلومونَني على أَمرٍ كَتبَه اللهُ عَلَيَّ وشَاءَهُ عَلَيَّ؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل، رقم (٣٤٦٤)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نَقولُ قَبْلَ كُلِّ شَيءٍ: مَن أَعْلَمَكَ أَنَّ اللهَ شَاءَ ذلكَ؟ هل أَحدٌ يَعْلمُ أَنَّ اللهَ شَاءَ الشَّيءَ إِلَّا بَعدَ وقوعِهِ؟ لا يعلَمُ ذلك أَحَدٌ: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان:٣٤]. أَنا مَثلًا عِندمَا أَقومُ وأُصلِّي، أَعْلمُ أَنَّني عِندما شِئتُ الصَّلاةَ وفَعَلتُ فقدْ شاءَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مِنْ قَبْلِي، لكن قَبْلَ أن أُصَلِّيَ هل أَعْلمُ أَنَّ اللهَ شَاءَ أَنْ أُصلِّيَ أم لا؟ الجَوابُ: لَا، فالعاصي حينَ يَفعلُ المَعْصيةَ هل يَعلَمُ أَنَّ اللهَ شاءَ له أَنْ يَفْعلَ المَعصية قَبْلَ أن يَفعلَها؟ لَا، إِذن لَا حُجَّةَ له، وما أَحْسَنَ مَا قال بَعضُ العُلماءِ: «إِنَّ القَدَرَ سِرٌّ مَكتومٌ لا يُعلَمُ إِلَّا بَعْدَ وقوعِ المَقدورِ» وهوَ كذلِكَ، هذا جَوابٌ مُفحِمٌ، لا يُمكِنُ أن يَتخطَّاه المُجرِمُ قِيدَ أُنمُلَةٍ.

ثم نَقولُ له: أَلَستَ الآنَ إذا كان أَمَامكَ نارٌ مُحرِقَةٌ أو أَوديةٌ مُغرِقةٌ، أَلَستَ تُحجِمُ عنها ولا تُقدِمُ عليها؟ فإن قيلَ: بَلَى، قُلْنَا: فلماذا لا تُقدِمُ وتُلْقي نَفسَكَ بالنَّارِ وتَقولُ: هَذِه مَشيئَةُ اللهِ؟ لا يُمكِنُ أن يُقْدِمَ لا على أَوْديةٍ مُغرِقةٍ ولَا على نَارٍ مُحرِقةٍ، ويَدَّعي أَنَّ ذلك مَشيئَةُ اللهِ، فلِماذا لم تَتجنَّبِ المعاصيَ الَّتي عَلِمتَ بِوَعدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أو وَعيدِه أَنَّها سببٌ لِدُخولِ النَّارِ؟ هذا نُخاطبُه عندَما نُريدُ منه أن يَجتنِبَ المَعاصيَ.

وأَمَّا عندما نُريدُ مِنْه أَنْ يَفعلَ الطَّاعاتِ نَقولُ: نَزَلَ في الصُّحُفِ مُسابقةٌ على وَظيفتَينِ؛ إِحداهُما عَشَرةُ آلَافِ رِيالٍ في الشَّهرِ، والثَّانيةُ عَشَرَةُ رِيالاتٍ في الشَّهرِ إلى أَينَ يَذْهبُ؟ هل يَذْهبُ إِلَى عَشَرَةٍ ويَقولُ هذا تَقديرُ اللهِ؟ أَلَستَ تَذهبُ لِلْعَشَرةِ آلَافِ تُريدُ هَذَا الرَّاتبَ الجيِّدَ؟

فإِنَّ العملَ الصَّالِحَ عُرِضَ عَليكَ بأَنَّ جَزاءَ الحَسنةِ بِعَشَرةِ أَمثالِها إلى سَبعِ مئةِ ضِعْفٍ، لِماذا لا تُقدِمُ عليها كَما كُنتَ تُقدِمُ على ما تَراه حظًّا لَك في الدُّنيَا، فَلماذا لَا تُقدِمُ على ما تَراه حظًّا لَكَ في عَمَلِ الآخرَةِ؟ وبهذا تَنقطعُ حُجَّةُ الظَّالمِ سَواءٌ ظَلَمَ

بفعلِ المُحرَّماتِ، أو بتَرْكِ الواجباتِ.

وقد تَعرَّضْنا لِهَذا وإنْ كان لَيسَ من خَصائصِ عِلْمِ التَّفْسيرِ؛ لِأنَّ هذا مِنْ عِلْمِ العَقيدةِ، المُهِمُّ رُبَّما يُشَوِّشُ على الإنسانِ مِثْلُ هذهِ الإراداتِ مِنَ الجَبريَّةِ أو مِنَ القَدَريَّةِ، فنَقولُ بِما تقدَّم، والأمرُ والحمدُ للهِ واضحٌ حتَّى إنَّ الرَّسولَ عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ حَلَّ هذه المُشكلةَ بكَلِمتَينِ فقط، قال عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ وهو على شَفيرِ قَبْرٍ لِإحدَى بَناتِه قال: «**ما مِنكُم مِن أَحدٍ إلَّا وقد كُتِبَ مَقعدُهُ مِنَ الجَنَّةِ ومَقعدُهُ مِنَ النَّارِ، قَالوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلا نَدَعُ العَمَلَ ونَتَّكِلُ على الكِتَابِ؟**»، هذا اعتِراضٌ لكنَّه اعتراضٌ في باديءِ الأَمْرِ كما قَالَ تَعالَى: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ ما دامَ الشَّيءُ مَكتوبًا فَلا حاجَةَ لِلعَمَلِ، هذا مَكْتوبٌ لهُ السَّعادةُ فلْيَنَمْ؛ لأنَّه من أَهْلِ السَّعادةِ، وهذا مِنْ أَهْلِ الشَّقاوَةِ فَلا يَعْمَلُ؛ لأَنَّه مِن أَهْلِ الشَّقاوَةِ، فَلا حاجَةَ أنْ يَعمَلَ!؟ فقال النَّبيُّ عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ كَلِمتَينِ: «**اعْمَلوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ لَهُ**»[1]. سُبْحانَ اللهِ لم يَأْتِ بِفَلسفَةٍ وتَطويلٍ بل كَلِمتَينِ: «**اعمَلوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له**»، هذا الَّذي مِنْ قِبَلِنا -أَنْ نَعمَلَ- ثُمَّ كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له.

فإذا وَجدتَ مِن نَفْسِكَ أنَّ اللهَ يَسَّرَ لكَ الخَيرَ والهُدَى والنَّشاطَ على العِبادةِ، فاعْلَمْ أَنَّكَ مِمَّن كُتِبَ من أَهلِ السَّعادةِ لِقَولِ النَّبيِّ ﷺ: «**أَمَّا أَهلُ السَّعادةِ فيُيَسَّرونَ لِعَمَلِ أهلِ السَّعَادةِ، وأَمَّا أَهلُ الشَّقاوَةِ فيُيَسَّرونَ لِعَمَلِ أَهلِ الشَّقاوَةِ**».

فَالأَمرُ -والحَمدُ للهِ- واضِحٌ جِدًّا أَنَّه لا حُجَّةَ للعاصي بالقَدَرِ على مَعصيتِه ولَا لِلمُتَهاوِنِ بِالواجِبِ بالقَدَرِ على تَهاوُنِه، فالأمرُ أَوضَحُ مِن أن يَحتاجَ إلى كَثيرِ كَلامٍ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾، رقم (٤٩٤٩)، وأخرجه مسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، رقم (٢٦٤٧)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بَقِيَ عَلينا أن يُقالَ: أَليسَ آدَمُ قَدِ احتَجَّ بالقَدَرِ؟ أَوَلَيسَ اللهُ تَعالَى قد احتجَّ بالقَدَرِ فقال لرسولِه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ فما هو الجَوابُ؟ الجَوابُ أن يُقالَ: أمَّا قولُه تَعالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [الأنعام:١٠٧]، فهَذا تَسليةٌ للرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، حيثُ قال اللهُ له: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾، فشِرْكُهمْ بمَشيئَةِ اللهِ، ومَعلُومٌ أنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سوف يَرْضَى بقَضاءِ اللهِ، ولِهَذا يَجِبُ عَلينا أن نَنظُرَ إلى أهلِ المَعاصي بنَظرينِ؛ نَظرٍ قَدَريٍّ ونَظرٍ شَرعيٍّ.

النَّظرُ القَدَريُّ أنْ نَرضى بِما وَقَعَ مِن مَعاصيهم؛ لأَنَّه بتَقديرِ اللهِ، والنَّظرُ الشَّرعيُّ أن نُلْزِمَهم بِشَرعِ اللهِ، فنُقيمُ عليهمُ الحُدودَ والتَّعْزيراتِ، وغَيرَ ذلك مِمَّا يَحمِلُهُم على فِعلِ الطَّاعاتِ وتَرْكِ المُحرَّماتِ، فانْتبِهوا يا إِخوانُ، هذه المسائِلُ مُهمَّةٌ جدًّا.

إذن نَقولُ: إنَّ قولَهُ تَعالَى للرَّسولِ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾، الغَرضُ منه تَسليةُ الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لأَنَّه إذا عَلِمَ أنَّ ذلك بمَشيئةِ اللهِ رَضِيَ، ولكنَّ اللهَ تَعالَى أَبطَلَ هذه الدَّعوَى منهم بقولِهِ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ [الأنعام:١٤٨] بعُقوبَةِ اللهِ، أَبطَلَ اللهُ هذه الحُجَّةَ؛ لأَنَّهم أَرادوا بذلك إِبطالَ الشَّرْعِ بالقَدَرِ، فبَيَّنَ اللهُ تَعالَى أَنَّه عذَّبَهم.

وأمَّا آدمُ لَمَّا احتَجَّ عليه موسى وقالَ له: خَيَّبْتَنا أَخرَجتَنا ونَفْسَكَ مِنَ الجَنَّةِ -بمَعصيتِه بأَكْله مِنَ الشَّجرةِ- فقال له آدَمُ: أَتَلومُني على شيءٍ كَتَبَه اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أن يَخلُقَني بأربعينَ سَنَةً؟ قال النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**فَحَجَّه آدَمُ**»[1]. وفي رِوايةٍ:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٢٦٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

«فحَجَّ آدَمُ موسى»(١)، ومعنى حَجَّه؛ أي: غَلَبَه في الحُجَّةِ.

فإنْ قال قائِلٌ: في احتِجاجِ آدَمَ على موسى وأَنَّهُ قال: «كَيفَ تَلومُني على شيءٍ قد كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبلَ أن أُخْلَقَ بأربعينَ سَنَةً»، ألا يَدُلُّ على أنَّ آدَمَ خُلِقَ قَبْلَ خَلْقِ القَلَمِ بأربَعينَ سَنةً؟

فالجوابُ: لا، هو يَقولُ: كُتِبَ عليه قَبلَ أن يُخْلَقَ، أي مَكتوبٌ قَبلَ خَلْقِ آدَمَ، فآدَمُ خُلِقَ بَعدَ أن كُتِبَ عليه بأربَعينَ سَنَةً، لكن كيف نَجْمعُ بَينَ قولِه بأربَعينَ سَنةً، وبَينَ أنَّ اللهَ تَعالَى خَلَقَ القَلمَ، وقال له: اكْتُبْ، قَبلَ أن يَخْلُقَ السَّمواتِ بخَمسينَ أَلْفَ سَنَةٍ، يُقالُ: إذا صَحَّتِ الكَلمةُ هَذهِ وكانت مَحفوظةً، فإنَّ هذه كتابَةٌ أُخْرَى خاصَّةٌ بآدَمَ.

فاحتجَّ آدَمُ بالقَدَرِ الَّذي كُتِبَ عليه قَبْل أن يُخْلَقَ وخَصَمَ موسى. هَذا الحَديثُ يَحتجُّ به أَهلُ المَعاصي على مَعاصيهم ويَقولونَ: إنَّ آدَمَ احْتجَّ بالقَدَرِ على موسى وحَكَمَ النَّبيُّ -صَلواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَليهِ- لآدَمَ وقال: إنَّهُ حَجَّه، فنحنُ نحتَجُّ بالقَدَر كما احْتجَّ أَبونا، نُجيبُ عَن هَذا بجَوابَينِ:

الجوابُ الأوَّلُ مِن شيخِ الإسلامِ ابنِ تَيْميَّةَ(٢) رَحِمَهُ اللَّهُ قال: إنَّ آدمَ لم يَحتجَّ بالقَدَرِ على المَعصيةِ، وإنَّما احْتجَّ بالقَدَرِ على الخُروجِ مِنَ الجنَّةِ، أَمَّا المَعصيَةُ فَقدِ اعْتذَرَ منها آدَمُ وقالَ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ﴾ [البقرة:٣٧]، فآدمُ لا يُمكنُ أن يَحتجَّ بالقَدَرِ على المَعصيةِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى وذكره بعد، رقم (٣٤٠٩)، ومسلم: كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، رقم (٢٦٥٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٣٠٣).

لا يُمكنُ إِطْلاقًا وهو أَجَلُّ قَدْرًا من أن يَحتجَّ بالقَدَرِ على مَعصيَةِ اللهِ، وإنَّما احْتجَّ بالقَدَرِ على إِخراجِهِ منَ الجَنَّةِ لا على سببِ الإِخراجِ، والاِحتجاجُ بالقَدَرِ على المَصائبِ أَمْرٌ جائِزٌ، وهو غايةُ التَّسليمِ لله عَزَّوَجَلَّ. أَرَأيتُم قولَ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**المُؤمنُ القَويُّ خَيرٌ وأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ المُؤمنِ الضَّعيفِ، وفي كُلٍّ خيرٌ، احْرِصْ على ما يَنفعُكَ واسْتَعِنْ باللهِ ولا تَعجَزْ، وإنْ أصابَكَ شيءٌ فلا تَقُلْ: لو أَنِّي فعلتُ لكانَ كَذا وكَذا، ولكنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ وَما شاءَ فَعَلَ**»[1]. وهذا احْتِجاجٌ بالقَدَرِ لكنْ بعدَ فِعْلِ الأسبابِ، فالاحتِجاجُ بالقَدَرِ على المَصائبِ أَمْرٌ جائِزٌ، والإنسانُ عِندما يُصابُ بالمُصيبَةِ ويَقولُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦]، فهَذَا يَعني: التَّسليمَ للقَدَرِ.

إذنِ احْتِجاجُ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالقَدَرِ على المُصيبَةِ لا عَلَى المَعصيةِ، هذا وَجهٌ.

وجهٌ آخَرُ: ما كانَ لموسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يَلومَ أَباه على ذَنبٍ تابَ منه وحَصلَ له بَعدَه أَنِ اجْتَباه رَبُّه وهداه، أدنى وَاحِدٍ منَ النَّاسِ إذا أُصيبَ بذَنبٍ ثُمَّ تابَ، فإنَّه لنْ يُوَجِّهَ اللَّومَ إليه، قال اللهُ تَعالَى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [طه:١٢١-١٢٢]، أَي: اصْطَفاه واختارَه ﴿وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢٢]، هذِهِ المَنزِلَةُ ما حَصَّلَها قَبْلَ أن تَحْصُلَ له المعصيَةُ.

إذن لا يُمْكِنُ لموسَى أن يَلومَ أَباه على ذَنبٍ تابَ مِنه وارْتَفَعَ بعد التَّوبةِ منه مَنزلةً عِندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، هذا لا يُمْكنُ أن يَكونَ لأدنَى وَاحِدٍ فَضلًا عن رَجُلٍ مِن أُولِي العَزمِ مِنَ الرُّسلِ، هذا جَوابُ شيخِ الإسلامِ ابْنِ تَيميَّةَ وهُو جَوابٌ جيِّدٌ لَا شكَّ.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، رقم (٢٦٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وذَهبَ ابنُ القَيِّمِ[(١)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى جَوابٍ آخَرَ وقالَ: «إنَّ الاحتِجاجَ بالقَدَر على المَعصيةِ بعدَ التَّوبَةِ منها والإقْلاعِ عنها مَقبولٌ، لا لرَفْعِ اللَّومِ واستِباحَةِ الاستِمرارِ»، فيقولُ: الاِحتجاجُ بالقَدَر نَوعانِ: نَوعٌ احْتجاجٌ بالقَدرِ بَعدَ فَواتِ الأَوانِ مَع الإقْلاعِ عنِ المَعصيَةِ وحُسْنِ الحالِ فَهَذا جائِزٌ، واحْتِجاجٌ بالقَدَر لِدَفعِ اللَّومِ والاستِمرارِ في المَعصيَةِ، فهذا ممنوعٌ. يَعني: إذا قَدَّرْنا أَنَّ احتجاجَ آدَمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالقَدرِ على المَعصيَةِ الَّتي تابَ مِنها وهَداه اللهُ واجْتَباه يَكونُ جائِزًا على هذا التَّقديرِ؛ لِأنَّ آدَمَ ما احْتجَّ بذَلكَ لِيَستمِرَّ، احتجَّ بذلك لِأمرٍ قَد فاتَ.

ونَظيرُ هَذا فيما عِندَنا الآنَ لَوْ أنَّ إنسانًا زَنَى -وَالعياذُ بِاللهِ- وَهو رَجلٌ خَيِّر، لَكِنْ غَلَبَتْه شَهْوَتُه وزَنَى ثُمَّ تابَ، وقُلْنا لَهُ: يا فُلانُ، كَيفَ يَقَعُ مِنك هذا الشَّيءُ؟ قَال: واللهِ هذا قَضاءٌ وقَدَرٌ، وإلَّا فَلَستُ من أَهلِ هَذا الأمرِ لكنَّ المُقَدَّرَ كائنٌ، نَقْبلُ مِنه، لَكنْ لَو كانَ يَزني ويَستمِرُّ نَقولُ: تُبْ إلى اللهِ، فَإنْ قالَ: هذا رَغْم عنه؟ قُلْنا: سُبحانَ اللهِ رغمًا عنك وأنت مُمارِسٌ لِهذا العَملِ، لَيسَ هذا رغمًا عنك.

يَقولُ ابْنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الاِحتجاجُ بالقَدرِ بَعدَ وقوعِهِ تَسليمًا للقَدرِ وَتفويضًا لِأمْرِ اللهِ، لا اسْتِمرارًا ولَا دَفعًا لِلَّومِ» فهَذا جائِزٌ، ثُمَّ استدَلَّ بِقِصَّةٍ وَقَعَتْ مِن عَليِّ بنِ أَبي طالِبٍ وزَوْجِه فاطمَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا حينَ دَخَلَ عَليهما النَّبيُّ ﷺ فقال لَهُما: «أَلا تُصلِّيانِ؟» قال عَليٌّ: يا رَسولَ اللهِ، أنفُسُنا بِيَدِ اللهِ لَو شَاءَ لَأَقامنا، احْتجَّ بالقَدرِ، فَخَرَجَ النَّبيُّ ﷺ أو تَوَلَّى عنهما وهو يَضرِبُ بيَدِه على فَخِذِه ويَقولُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾[(٢)]، فَالرَّسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هَل قَبِلَ مِنهما؟ إنْ قُلْتم: قَبِلَ على

(١) انظر: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر (ص١٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب تحريض النبي ﷺ على صلاة الليل، رقم (١١٢٧)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح، رقم (٧٧٥)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الإِطلاقِ، لَيسَ هَذا بصَحيحٍ، وإنْ قُلتم: قَبِلَ الواقِعَ لكنَّهُ كَرِهَ الجِدالَ، فَهَذا هو الواقعُ؛ لأنَّه لو أَرادَ الإِنكارَ عليهما لَقالَ غَيرَ ذَلِكَ، لقالَ: لا حُجَّةَ لَكُما في هَذا، لكنَّه جَعلَ ذلكَ مِن بابِ الجَدَلِ الَّذي نَهى عنه، فَقَدْ خَرجَ يومًا على أَصْحابِه، وهُم يَتجادلونَ في القَدَرِ، فَغَضِبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كأنَّما فُقِعَ في وجهِه حَبُّ الرُّمَّانِ، ونَهى عنِ التَّنازُعِ في القَدَرِ(١).

فإنْ قال قائلٌ: ما مَعنى: قَبِلَ الواقعَ وكَرِهَ الجِدالَ؟

فالجَوابُ: قَبِلَ الواقعَ وهو احْتجاجُهم بالقَدَر، النَّائمُ في الحقيقَةِ ما عليه لَومٌ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾ [الأنعام:٦٠] مِن اللهِ، فيَقولُ: أَنفسُنا بأَيْدي اللهِ لَو شاءَ أن نَقومَ لقُمْنا، هذا واقعٌ، أَمَّا الجَدلُ فكَونُه يُجادِلُ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالقَدَرِ، هَذا أَمرٌ لا يَنبغي، ولِهذا تَشْعُرُ أَنَّه ما هو راضٍ، يَضـرِبُ عَلى فَخِذِه ويَقولُ: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾ [الكهف:٥٤]، والجَدَلُ قَد يَكونُ بِحقٍّ ويُقبَلُ حَتَّى وإنْ كانَ فيهِ جَدَلٌ إذا كان بحقٍّ.

إِذَن المَخرجُ الثَّاني من قصَّةِ آدَمَ مع موسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أنَّ آدمَ احْتجَّ بالقَدَر على أَمرٍ مَضَى وانقَضى وتَخَلَّص منه، ولكِنْ قالَ: هَذا أَمْرٌ فَرط مِنِّي، ولِكُلٍّ مِنهما وِجهةٌ.

ولَكنَّ الوِجهةَ الأُولى في ظَنِّي أنَّها أَقْوى؛ لِأَنَّ موسَى لَا يُمكنُ أَنْ يَلومَ أَباه على أَمْرٍ تاب مِنه، لكنَّ الثَّانيَ لَه وِجهةُ نَظرٍ لا شكَّ، لكنْ لا نُنزِلُ قِصَّةَ آدَمَ وموسى عليها بَلْ نَقولُ: هي في سائِرِ النَّاسِ الآنَ لَو أَنَّكَ لُمتَ شَخصًا على أَمْرٍ فَعَلَه مِن مَعصيةِ اللهِ، ثمَّ احتجَّ بالقَدَرِ بَعدَ أنْ تاب، فأَنا أَقبَلُ مِنه، وهَذا يَقَعُ كَثيرًا، كثيرًا ما يَفعلُ الإِنسانُ

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ١٧٨)، وابن ماجه: كتاب المقدمة، باب في القدر، رقم (٨٥)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الذَّنبَ ثُمَّ يَتندَّمُ نَدامةً عَظيمةً، ثمَّ يَقولُ: قَدَّرَ اللهُ ومَا شاءَ فَعَلَ، كيف يَقَعُ منِّي هذا؟ كيف تَغْلِبُني نَفْسي وهذا أَمرٌ لا بأسَ به.

ولا بُدَّ لِطالبِ العِلم أَنْ يَكونَ عِندَه عِلمٌ بمِثلِ هَذهِ الأمورِ؛ لِيُخَلِّصَ بها نَفْسَه مِنَ الشُّبُهاتِ الَّتي يُورِدُها عليه الشَّيطانُ، ومِنَ الشُّبُهاتِ الَّتي يُورِدُها عليه أَولياءُ الشَّيطانِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ عِلْمِ اللهِ تَعالى بكُلِّ ما يَعملُ هَؤُلاءِ لِقولِه: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: تَخصيصُ الحُكمِ بما فيه النِّزاعُ، وإنْ كان الحُكمُ عامًّا، فَلَنا أَن نُخصِّصَ هذا الحُكْمَ بمَحَلِّ النِّزاعِ، يُؤخَذُ هذا من تَقديمِ المَعمولِ: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، لا نَقولُ: هَذَا الحصرُ حَقيقيٌّ أَنَّهُ لا يَعلمُ عَزَّوَجَلَّ إلَّا بما عَمِلوا، بَلْ يَعلمُ كُلَّ شَيءٍ، لكنْ لمَّا كانَ الكَلامُ في عَمَلِهم جاءتِ الآيَةُ، أو جاء الحُكمُ بِصيغةِ الحَصرِ مِن أَجْلِ شِدَّةِ التَّحذيرِ، وأَنَّهم لن يَفوتوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ واللهُ أعلمُ.

فإنْ قال قائلٌ: كيف نَرُدُّ على مَن قَالوا: إنَّ الظُّلمَ يُمكنُ أن يُطلَقَ على اللهِ تَعالى من بابِ المُقابَلةِ، أَيْ رَدَّ الظُّلم على الظَّالِمِ، واستَدلُّوا بالبَيتِ الجاهِليِّ[1]:

أَلا لا يَجْهلَنْ أحدٌ علينا ... فنَجهلُ فوقَ جَهلِ الجَاهِلينا

فالجَوابُ: أقولُ هذا مِنَ العَجبِ! أَين في القُرآنِ والسُّنَّةِ أنَّ اللهَ تَعالى وَصفَ نَفسَه بالظُّلمِ في مُقابلةِ الظَّالمِ؟ وإذا لم يَكُنْ، فَلِما نَصِفُ اللهَ بالظُّلمِ وَهو قَد نَفاه عَن نَفْسِه؟

---

(١) البيت لعمرو بن كلثوم من معلقته المشهورة، انظر: جمهرة أشعار العرب (ص:٣٠٠)، وشرح القصائد السبع لابن الأنباري (ص:٤٢٦).

فإن قيلَ: إنَّ الرَّدَّ عَلى الظَّالمِ كَمالٌ، نَقولُ: لا -أبدًا- الانتِقامَ مِنَ الظَّالمِ كَمالٌ، لكنْ أن يُرَدَّ على الظَّالمِ بظُلمٍ، ولهذا لم يأتِ بالقُرآنِ والسُّنَّةِ أنَّ: فَلَمَّا ظَلموناً ظَلَمناهم، بَلْ قالَ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل:١١٨]، وأمَّا الِاستهـزاءُ والخِداعُ والمَكرُ والكَيدُ، هذا لا بأْسَ بِه، فَقَدْ ذَكرَ اللهُ تَعالَى هَذِهِ الأَوصافَ في مُقابلةِ مَنْ عَامَله بِمِثْلِها.



الآيتان (٤١، ٤٢)

• • ☙ • •

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤١-٤٢].

• • ☙ • •

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ هَذِه جُملةٌ مُؤكَّدةٌ بِإِنَّ، يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِٱلذِّكْرِ﴾ القرآنُ] الكَريمُ كما قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء:٥٠]، وقال تعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزُّخرُف:٤٤]، وسُمِّيَ القرآنُ ذِكرًا؛ لأَنَّه يُذكِّرُ صاحبَه بما للمُتَّقينَ مِن خَيرٍ وَما للطَّاغينَ مِن شرٍّ، ولأَنَّه ذِكْرٌ لِصاحبِه أَيْ: يَرفعُ اللهُ به ذِكرَ مَنْ تَمسَّكَ به، ولِهذا قالَ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾، ولأَنَّه يُذكِّرُ الإنسانَ بِرَبِّه، فَإِنَّ أَقربَ النَّاسِ أو مِن أَقربِ النَّاسِ إِلَى اللهِ مَنْ تَلا كِتابَه، ولِهذا نَقولُ: إِنَّ تِلاوةَ الكتابِ أَفضلُ الذِّكرِ المُطلَقِ، وأمَّا الأذكارُ المُعيَّنةُ المُقيَّدةُ بشيءٍ مُعيَّنٍ، فهذه تَبعٌ لِما قُيِّدَتْ بِهِ.

وقولُه: ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي: حينَ جاءَهم.

واعْلَمْ أنَّ (لَمَّا) تَأْتي في اللُّغةِ العربيَّةِ لعِدَّةِ أَوجُهٍ:

١- منها أَنْ تَكونَ ظَرفًا كما في هَذهِ الآيَةِ، فَمعنى: ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أَيْ: حينَ جاءَهم.

٢- وَمِنها أَنْ تَأتيَ نَافيةً جَازمةً، لِكنَّها لِتُوقعَ ما بَعدَها، كَقَولِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ [ص:٨] لَـمَّا هُنا بِمعنى «لَمْ»، فَهي نافيةٌ لَكنَّها لَا تَدخلُ إِلَّا على شيءٍ مُتوقَّعٍ، فمعنى: ﴿لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ أي: لَمْ يَذوقوه، ولَكنَّهم مُستحِقُّون لَه، وَالعذابُ مِنهم قَريبٌ.

٣- وَمنها أَنَّها تَأتي بِمعنى «إِلَّا» كَقولِه تَعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:٤] أي: إِلَّا عليها حَافِظٌ.

٤- وَمنها أَنَّها تَأتي شَرطيَّةً كَقولِه تَعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [يوسف:٩٦] تَقولُ: لَمَّا زارَني أَكرمتُهُ.

فهذه أَربَعةُ أَوجُهٍ لِـ(لَـمَّا)، الوَجهُ الأَوَّلُ: ظَرفٌ، الثَّاني: نَافيةٌ جَازمةٌ، الثَّالثُ: بمعنى إِلَّا، الرَّابعُ: شَرطيَّةٌ.

لم يَذكُرِ اللهُ تَعالى خَبرَ «إِنَّ» بَل حَذَفَه من أَجْلِ أَنْ تَذهبَ النَّفسُ في تَقديرِه كُلَّ مَذهَبٍ، بِمعنَى أَنْ يُفكِّرَ الإِنسانُ فيما يَحصُلُ لهُم، فتَجدُ الإِنسانَ يُؤَمِّلُ ويُفكِّرُ كَذا أو كَذا، ولِهذا قَدَّرهُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بِقَولِه: [نُجازيهم]، فـ(نُجازيهم) على تَفسيرِ المفسِّر هي خَبرُ إِنَّ، ويَجوزُ أَنْ تُقدَّرَ، لِهذا يُمْكنُ أَنْ تَقولَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ سوف يُعاقَبون أو لَهُم نارُ جهنَّمَ، أو ما أَشْبهَ ذلكَ.

المُهمُّ أَنَّ حَذْفَه من أَجْلِ أن يَذهبَ الذِّهنُ كُلَّ مَذهـبٍ في تَقْديرِ الخَبَرِ، لكنَّنا نَعلمُ عِلمَ اليقينِ أَنَّه لا يُمكنُ أَنْ يُقدَّرَ خَبرًا سارًّا، يَعني لا يُمكنُ أن نَقولَ: التَّقديمُ أَنَّ الَّذينَ كَفَروا بِذِكري لَمَّا جاءَهم لَهُم جنَّاتُ النَّعيم، هذا مُستحيلٌ، إِنَّما يُقدَّرُ في أيِّ شيءٍ تُقدِّرُه مِنَ العَذابِ، وهذا مِنْ بَلاغةِ القُرآنِ أَنْ يَجعلَ الأَمرَ مَفتوحًا لِيُقدِّرَه الإِنسانُ كُلَّ تَقديرٍ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ منيعٌ].

قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ﴾ أَكَّدَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ هذا الكِتابَ أو عِزَّةَ هذا الكتابِ بمُؤكِّدينِ: إنَّ واللَّامِ. وموضعُ الفائدَةِ في الواقعِ ليس «كتابٌ» فقطْ، بَلِ الفائدةُ قَولُه: ﴿عَزِيزٌ﴾ هذا هو المُهِمُّ، أمَّا كتابٌ كُلُّ شيءٍ كتابٌ كُلُّ ما يُكْتَبُ فهو كِتابٌ، لقد قالَت مَلِكةُ سَبأٍ: ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾ [النمل:٢٩-٣٠]، لَكنَّ مَوضعَ الفائدَةِ قولُهُ: ﴿عَزِيزٌ﴾.

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ﴾ الضَّميرُ في «إنَّه» يَعودُ إِلَى الذِّكرِ وَهو القُرآنُ، وكتابٌ هُنا بمعنى مَكتوبٍ، وهو مَكتوبٌ في المَصاحفِ في اللَّوحِ المَحفوظِ، في الصُّحُفِ الَّتي بِأَيْدي الملائِكةِ.

إِذَن هو كتابٌ في ثَلاثِ مَواضعَ: في اللَّوْحِ المَحفوظِ، والثَّاني: في الصُّحُفِ الَّتي بأَيْدي المَلائكةِ، والثَّالثُ: في الصُّحُفِ الَّتي بأَيْدينا.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿عَزِيزٌ﴾ مَنيعٌ] ولا شكَّ أنَّ مَنيع من مَعاني عَزيزٍ، ولكنْ هيَ أَعمُّ ممَّا قال المفسِّر: «عَزيزٌ» بمعنى «مَنيعٍ»، أي: يَمتنعُ أَنْ يَنالَه أَحَدٌ بِسوءٍ إِلَّا فَضَحَه اللهُ.

الثَّاني: عَزيزٌ بمعنى غالِبٍ، فَالقرآنُ لا شكَّ أَنَّه غالبٌ على غَيرِه؛ لِقَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الفتح:٢٨]، فهوَ غالبٌ لكُلِّ شيءٍ.

إِذنْ هوَ مُمتنِعٌ أَنْ يَنالَه أَحَدٌ بسوءٍ إِلَّا فَضَحَه اللهُ. والثَّاني: أَنَّه غالبٌ، ولِهذا لَمَّا كانتِ الأُمَّةُ الإسلاميَّةُ مُتمسِّكةً به كانت غالبةً، هَدَّتْ عروشَ كِسْرى وقَيْصَرَ

وغَيرِهما مِنَ الجبابرةِ، وفَتَحتْ بِه مَشارقَ الأرضِ ومَغاربَها، فلَمَّا تولَّت عنه الأُمَّةُ الإسلاميَّةُ حُرِمَت مِن هذا الخَيرِ العَظيمِ الَّذي هو العِزَّةُ وَالغَلبَةُ والقَهرُ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي: لَيس قَبْلَه كتابٌ يُكذِّبه ولا بَعده] ﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾ ضِدُّ الصَّحيحِ وضِدُّ الحقِّ، فَعِند الفُقَهاءِ يَقولونَ: «الصَّلاةُ باطلَةٌ الصَّلاةُ صَحيحةٌ»، فيَجعلون البُطلانَ في مُقابلِ الصَّحيحِ، وَفي القُرآنِ الكريمِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢]، فجَعَلَ الباطلَ في مُقابلةِ الحقِّ، إذن لا يَأتيهِ الباطلُ الَّذي هو ضِدُّ الحقِّ.

وقولُه: ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ فَسَّرها المفسِّر بتَفسيرٍ غَريبٍ قالَ: [أَيْ لَيس قَبْلَه كتابٌ يُكذِّبه وَلا بَعده]، وفي هَذا نَظرٌ ظاهرٌ، والصَّوابُ أنَّه لا يَأتيه الباطلُ ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي: فيما يُخبِرُ به، ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ فيما أَخبرَ عنه، فكُلُّ ما أَخبرَ به فَهو حقٌّ، وكُلُّ ما أَخبرَ عنه بأنَّه سيكونُ فَهو حقٌّ.

أَيضًا لا يَأتيهِ الباطلُ مِن حَيثُ الأَحكامُ، فَكُلُّ ما حَكَمَ به فَهو حقٌّ وغايتُهُ حقٌّ، فيكونُ المعنَى أنَّ هذا القُرآنَ الكَريمَ ليس فيه شيءٌ مِنَ الكَذِبِ، لا في الإِخبارِ عن ما مَضَى وما هو بَيْن يَدَيه، ولا في الإِخبارِ عمَّا يُستقبَلُ وَهو قَولُه: ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ وإنْ شِئتَ اعْكِسْ، فقُلْ: ما بَين يَدَيه هو المُستقبَلُ وما خَلفَه هو الماضي.

كَذلكَ أَيضًا لا يَأتيه الباطلُ مِن حيثُ الأَحكامُ، أَحكامُهُ كُلُّها عَدلٌ ما فيها جَوْرٌ؛ ولهذا تَجِدُ القُرآنَ الكَريمَ كَما يُعطي الرَّبَّ حَقَّه مِن العِبادةِ يُعطي المَخلوقَ حَقَّه أَيضًا: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦] هَذا حَقُّ اللهِ، بَعدَه: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء:٣٦]. فَهو حقٌّ في أحكامِه، حقٌّ في أَخبارِه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ

وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فُصِّلَت:٤٢]، وَاقرَؤوا إِنْ شِئتُم قوله تَعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥] صِدقًا باعتبارِ الإِخبارِ، وعَدلًا بِاعتِبارِ الأَحكامِ.

قَولُه تَعالى: ﴿تَنزِيلٌ﴾ خبرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، والتَّقديرُ: هوَ ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، ولَعلَّ هذا التَّقديرَ أَوْلى؛ لِأَنَّه يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الجُملةَ استِئنافيَّةٌ لِبَيانِ عَظمةِ هَذا القُرآنِ، ويَجوزُ أَنْ تَكونَ خَبرًا ثانيًا أو ثالثًا لقَولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾، فقَولُه: ﴿عَزِيزٌ﴾ صِفةٌ لكتابٍ، وقَولُه تَعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ يَجوزُ أَنْ تَكونَ صِفةً لكتابٍ أيضًا، ويَجوزُ أَنْ تَكونَ خبرًا ثانيًا لـ«إِنَّ»، وعلى هَذا فتكونُ ﴿تَنزِيلٌ﴾ خبرًا ثالثًا.

قَولُه تَعالى: ﴿تَنزِيلٌ﴾ أي: مُنزَّلٌ من حَكيمٍ حَميدٍ، فإِذا فَسَّرنا ﴿تَنزِيلٌ﴾ بأَنَّه مُنزَّلٌ صارَ المصدرُ بِمَعْنى اسمِ المَفعولِ، والمَصدرُ يَأتي بمَعْنى اسمِ المَفعولِ، وبمَعْنى اسمِ الفاعلِ، والَّذي يُعيِّنُ ذلكَ هُو السِّياقُ.

قَولُه تَعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ حَكيم أي: ذي حِكمةٍ وذي حُكمٍ، فالحُكمُ للهِ، والحِكمةُ في أَحكامِه عَزَّوَجَلَّ، فالرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ مُتَّصِفٌ بالحُكمِ الَّذي لا مُعقِّبَ لَه، وبِالحُكمِ النَّافذِ الَّذي لا مانعَ لَه، وفي الدُّعاءِ المَأثورِ: «لا مانِعَ لِما أَعْطَيتَ ولا مُعطيَ لِما مَنعْتَ»(١)، وأيضًا هو مُتَّصِفٌ بالحِكمةِ، فكُلُّ أَحكامِه حِكمةٌ، فإِنْ نَظرتَ إلى الأحكامِ القَدَريَّةِ، وجدْتَها في غايةِ الحِكمةِ، وإِنْ نَظرتَ في الأحكامِ الشَّرعيَّةِ وَجدتَها كَذلكَ في غايَةِ الحِكمةِ.

فهو عَزَّوَجَلَّ حاكِمٌ وذُو حكمَةٍ، وكَمْ مِن حاكمٍ لا حِكمةَ لَه، وكَمْ من حَكيمٍ لا حُكْمَ لَه:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، رقم (٨٤٤)، وأخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، رقم (٥٩٣)، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

فكثيرٌ منَ الرِّجالِ حُكماءُ عُقلاءُ، ولَكن ليس عِندَهم حُكمٌ فلا يَستطيعُ أن يَحكُمَ ولا على امرَأتِه.

وكَمْ مِن إنسانٍ حاكمٍ ذي سُلطةٍ قَويٍّ، ولكنْ لَيس عِندَه حِكمةٌ.

ومِنَ النَّاسِ مَنْ ليسَ بحاكمٍ ولا بِحكيمٍ.

ومِنَ النَّاسِ مَنْ هو حاكمٌ حكيمٌ.

فالأقسامُ إِذَنْ أَربعةٌ.

لَكنَّ بَعضَ النَّاسِ يَكونُ عِندَه عِلمٌ ولَيس عِندَه حِكْمةٌ، وهَذا خَللٌ في تَوازنِ العبدِ، وسَيرُ العبدِ أَنْ يَكونَ عِندَه عِلمٌ ولكن مع الحِكْمة.

أمَّا الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ فَهو حاكمٌ حَكيمٌ.

فإنْ قال قائلٌ: هَلِ الإحكامُ صِفةٌ ثالثةٌ في قَولِه: حَكيمٍ؟

فالجَوابُ: لا، لأنَّ الإِحكامَ هو الحِكمَةُ.

وبَدَأَ بذِكرِ الحَكيمِ قَبْلَ الحَميدِ؛ وذلك لأنَّ الحَمدَ مُفرَّعٌ على الحِكمةِ، فإنَّ الحَكيمَ يَكونُ محمودًا.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: اللهُ المَحمودُ]، يَعني: كأَنَّه يُريدُ أنْ يَقولَ: المُرادُ بالحَكيمِ الحَميدِ هو اللهُ، وقَولُه: [المَحمودُ في أَمْرِه] أشارَ إِلَى أنَّ فَعيلًا هُنا بمَعْنى مَفعولٍ، وفي اللُّغةِ العربيَّةِ تَأتي فَعيلٌ بمَعْنى فاعلٍ ومَفعولٍ، فَإذا قُلتَ: فُلانٌ جَريحٌ بمَعْنَى مَجروحٍ، وإذا قُلتَ: فُلانٌ سَميعٌ بمَعْنى سامِعٍ، فهِيَ تَأتي في اللُّغةِ العربيَّةِ بمَعْنى فاعلٍ وبمَعْنى مَفعولٍ، وهُنا فَسَّرها المفسِّر بمَعْنى محمودٍ.

لكنَّ هذا التَّفسيرَ فيه قُصورٌ؛ لِأنَّ حَميدًا هُنا بمَعْنى فاعلٍ وبمَعْنى مَفعولٍ، فهو مَحمودٌ وهو أَيضًا حامِدٌ، أَليس اللهُ تَعالى يُثني كَثيرًا عَلَى المُؤمنينَ، وعَلَى الرُّسلِ، وعَلَى مَنْ شاءَ مِنْ عِبادِه؟ فهذا حَمْدٌ، فَوَصْفُ هَؤلاءِ المَخلوقينَ الَّذين أَثْنى اللهُ عليهم هو حَمدُهم في الواقِعِ.

وفي هذه الآيةِ الكَريمةِ تَهديدٌ لِلمُكذِّبين بِالقُرآنِ في قَولِه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ﴾ وحُذِفَ الخبرُ لِيَذهبَ الذِّهْنُ في تَقديرِه كُلَّ مَذهبٍ.

مِن فَوائدِ الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ القُرآنَ ذِكرٌ سَمَّاه اللهُ ذِكرًا؛ لِما ذَكَرنا في التَّفسيرِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هؤلاءِ كَذَّبوا بِالذِّكرِ بَعد أنْ جاءَهم وتَحقَّقوه وعَرَفوه، ومَعلومٌ أنَّ المُكذِّبَ بالشَّيءِ بَعدَ أنْ يَتحقَّقَ لَديهِ أَشدُّ إِثمًا ووَبالًا مِمَّن كَذَّب في أمرٍ مُشتبَهٍ عندَهُ، يُؤخذُ هذا مِن قولِهِ: ﴿لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ هذا القُرآنَ عَزيزٌ غالٍ، لا أحدَ ينالُه بِسوءٍ إِلَّا فَضَحه اللهُ، ولَا أحدَ يَقومُ أَمامَه إِلَّا كان مَهزومًا مَغلوبًا، ووَصَفَ اللهُ تَعالى القُرآنَ بأَنَّه عَزيزٌ، وبأَنَّه مَجيدٌ وبِأَنَّه كَريمٌ وبأَوصافٍ مُتعدِّدةٍ، مِمَّا يَدُلُّ عَلى عَظمةِ هَذا القُرآنِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ مَن تَمسَّكَ بالقُرآنِ فَلَه العِزَّةُ، وَجْهُه أَنَّه إِذا كَان القُرآنُ عَزيزًا، فلا بُدَّ أنْ يَنالَ العِزَّةَ مَن تَمسَّكَ بِه، وإِلَّا لكانَ القُرآنُ غَيرَ عَزيزٍ، ويَدُلُّ لهذا قَولُ اللهِ تَعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ القُرآنَ الكَريمَ حَقٌّ مُنتفٍ عنهُ الباطلُ مِن كلِّ وجهٍ؛ لقولِهِ:

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ هذِهِ الصِّفةُ للقُرآنِ مِن صِفاتِ النَّفي، وتضمَّنتْ بالإثباتِ أنَّه إذا انْتفَى الباطلُ عَنه مِن كُلِّ وجهٍ من بَيْن يَدَيهِ ومِن خلفه لَزِمَ من ذلكَ أنْ يَكونَ حقًّا من كلِّ وجْهٍ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ يُؤخذُ مِن قولِهِ: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ وَجْهُ كَونِه كَلامَ اللهِ أنَّ القُرآنَ صفةٌ، ليس عَينًا مُستقلَّةً مُنفصلَةً، فإذا كان صفةً وذَكَرَ اللهُ أنَّه نَزَلَ منه لَزِمَ أنْ يَكونَ كلامَه.

أمَّا لو كان الشَّيءُ الَّذي ذَكَرَ اللهُ أنَّه أنزلَه شَيئًا مُعيَّنًا مُنفصلًا عن اللهِ، فهذا لا يدُلُّ عَلى أنَّه مِن صِفاتِ اللهِ، كقَولِه تَعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الزُّمَر:٢١] هذا الماءُ مَخلوقٌ، وقَولُه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزُّمَر:٦] الأنعامُ مَخلوقةٌ؛ لأنَّها شَيءٌ مُنفصلٌ عنِ اللهِ، وقَولُه: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد:٢٥] الحديدُ مَخلوقٌ.

فإنْ قال قائلٌ: هل التَّنزيلُ هُنا بمَعْنى الخَلْقِ؟

فالجَوابُ: الفَرقُ أدقُّ مِن الخَلْقِ؛ لأنَّ هذه الأشياءَ لَولا أنَّ اللهَ سخَّرَها ما اسْتَطعنا أنْ نُسيطِرَ عليهَا، فهَذا عَلَى أنَّ نِعمةَ التَّسخِيرِ أَنْزَلَهَا مِنْ علياءَ إِلَى أسفلَ حتَّى تَكونَ مُسخَّرةً للخَلْقِ.

لكنْ إذا جاءَ التَّنزيلُ أَوِ الإنزالُ في أَمرٍ هو صِفةٌ، فإنَّه لَا يُمكنُ أنْ يَكونَ مَخلوقًا بائنًا عَنِ اللهِ بَلْ هو صِفةٌ من صِفاتِ اللهِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثباتُ عُلُوِّ اللهِ، وَجهُ ذلك أنَّه قَالَ: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَت:٤٢]، وإذا كانَ تَنزيلًا منه لَزِمَ أنْ يَكونَ عَزَّوَجَلَّ فوقُ، وهو كذلكَ، وقدْ ذَكَرنا

كَثيرًا وذَكَرَ غَيرُنا أَيضًا أنَّ عُلُوَّ اللهِ ثابتٌ بالأَدلَّةِ كلِّها، وهيَ الكتابُ والسُّنَّةُ والإجماعُ والعقلُ والفِطرةُ، كُلُّها مُتَّفِقةٌ على عُلُوِّ اللهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إِثباتُ هَذَينِ الِاسمَينِ -الحَكيمِ والحَميدِ- للهِ عَزَّوَجَلَّ، وإثباتُ مَا تضمَّناه مِنَ المَعاني والصِّفَاتِ.

فإنْ قال قائِلٌ: ما مَدَى صِحَّةِ تَسميةِ اللهِ تَعالَى بالطَّبيبِ والنَّظيفِ؟

فالجَوابُ: أمَّا الطَّبيبُ فوَرَدَ عن أَبي بَكْرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّه قالَ: «إنَّ الطَّبيبَ رَآني، فقالَ: إنِّي أَفعلُ ما أُريدُ»[1]، وهَذا لا بَأْسَ بهِ في مَقامِ الخَبرِ، لكنْ ليسَ في التَّسميةِ، وأمَّا النَّظيفُ فوَرَدَ أيضًا في حديثٍ[2].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّه لَا يَجوزُ لِأحدٍ أنْ يُشرِّعَ شَرعًا من عِندِه، يُؤخَذُ مِن قَولِه: ﴿حَكِيمٍ﴾ بمعنى حاكمٍ؛ لأنَّ مِن الحُكم الحُكمَ بينَ النَّاسِ، فالحُكمُ إمَّا أنْ يَكونَ حُكمًا في النَّاسِ أو أنْ يَكونَ حُكمًا بينَ النَّاسِ، فَلا يَجوزُ لِأحدٍ أنْ يَحكُمَ بينَ النَّاسِ إلَّا بِما أَنزلَ اللهُ؛ لأنَّ الحُكمَ للهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام:٥٧]، وليس لنا أنْ نَتجاوزَ حَدَّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ في الحُكم على أَحدٍ بالفِسقِ أو البِدعةِ أَوِ الكُفرِ أَوِ الإيمانِ وصِحَّةِ العَقيدةِ إلَّا بدَليلٍ مِن الشَّرعِ، يَعني: إلَّا إذا عَرَضنا ما عليه عَلَى الكتابِ والسُّنَّةِ، وإلَّا: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون:٧١].

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ اللهَ تَعالى محمودٌ، بِناءً على أنَّ (حَميد) اسمُ مَفعولٍ، واللهُ عَزَّوَجَلَّ يُحمَدُ على كلِّ حالٍ، فعَلى السَّرَّاءِ واضحٌ أنَّه يُحمَدُ؛ لأنَّهُ أَحْسَنَ إلَيكَ ورَأَفَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد رقم (٥٨٧).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الأدب، باب ما جاء في النظافة، رقم (٢٧٩٩)، من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

بك، وأمَّا على الضَّرَّاءِ فيُحمَدُ أولًا: على أَنَّهُ -لا شكَّ- ما قَدَّر هذا إلَّا لحِكمةٍ، ثانيًا: أنَّ ما يَترتَّبُ عَلى هذه الضَّرَّاءِ منَ المَصالحِ العَظيمةِ يَقتضي أنْ يُحمَدَ اللهُ عليها، فالإنسانُ إذا أصابَته الشَّوكةُ وتَألَّمَ بها يُحطُّ عنه مِن خَطيئتِه، وخَطيئَتُه مُثقِلةٌ عَظيمَةٌ مُخزيَةٌ في الآخرَةِ، والشَّوكةُ لَيست مُؤلِمَةً إلى ذاكَ ولَيست ظَاهرةً للنَّاسِ، ومع ذلك يُكفَّرُ بها مِنْ سيِّئاتِه.

ولِهذا قيلَ لِبعضِ العابِداتِ لَمَّا أُصيبَ أُصْبعُها ولَمْ تَتألَّمْ ولَمْ تَتأثَّرْ ولَمْ تَحزنْ قالت: إنَّ حَلاوةَ أَجرِها أنسَتْني مَرارةَ صَبرِهَا -الصُّوفيَّةُ لهُمْ كَلِماتٌ عَجيبةٌ فِي العبادةِ وَالأَخذِ باللُّبِّ-؛ لأنَّ الأجرَ أَعظمُ مِن المُصيبةِ، فإذن حتَّى ما يُصيبُ الإنسانَ مِنَ الضَّررِ، فإنَّ اللهَ تَعالَى محَمودٌ عليهِ؛ لأَنَّه لحِكمةٍ لا شكَّ، والإنسانُ عَبدُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يَفعَلُ به ما يَشاءُ ولِأنَّ العاقبَةَ حَميدةٌ.

ويُحمَدُ اللهُ تَعالَى حتَّى على وُجودِ الكافرينَ؛ لأَنَّه لَولا وُجودُ الكافرِ لَمْ يُعرَفِ المُؤمنُ، ولَمْ يَعْرفِ الإنسانُ قَدْرَ نِعمةِ اللهِ عَلَيهِ، ولَمْ يَقُمْ عِلمُ الجِهادِ؟ ولَمْ يَبْقَ للنَّارِ أحدٌ.

لكنَّ هُنا مَسألةً كانَ النَّبيُّ - صلَّى الله عليه وعلَى آلِه وسلَّم - إذا أَصابَه شَيءٌ يَسوؤه لا يَقولُ: الحَمدُ لله على الضَّرَّاءِ مَثَلًا أو على كَذا، بل يَقولُ: «الحَمدُ للهِ على كُلِّ حالٍ»[(١)]، فيَنبغي أنْ تَنتبِهَ لذلك، إذا أَصابتْكَ سَرَّاءُ تَقولُ: الحمدُ للهِ الَّذي بنِعمتِهِ تَتمُّ الصَّالِحاتُ، وإِذَا أصابتك ضَرَّاءُ تَقولُ: الحَمدُ للهِ عَلى كلِّ حالٍ.

وبهذا نَعرفُ خَطأَ مَن يَقولُ: «الحَمدُ للهِ الَّذي لا يُحمَدُ على مَكروهٍ سِواهُ» هذا غَلطٌ؛ لأنَّ هذه العِبارةَ تُنبئُ عن تَأَزُّمٍ نَفسيٍّ وعن كَراهةٍ لِمَا قَدَّرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ على

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، رقم (٣٨٠٣)، من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا.

الإنسانِ، ثُمَّ إنَّ فيها تَضادًّا مَكروهًا، وحَمدُ هذا غَيرُ مُستقيمٍ، ثُمَّ إنَّ فيهَا أيضًا مُخالَفةً لسُنَّةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقولُ: «الحَمدُ للهِ عَلى كلِّ حالٍ»، ولَا يَذكرُ المَكروهَ، ولَا يَشعُرُ بأنَّه مُتأزِّمٌ منه.

فأَنت إذا أُصِبتَ بسَرَّاءَ فقُلِ: الحَمدُ للهِ الَّذي بِنعمتِهِ تَتِمُّ الصَّالحاتُ، وَإنْ شِئتَ فعَيِّنْ، مثلًا: الحمدُ للهِ الَّذي رَزقَني وَلدًا، الحَمدُ للهِ الَّذي رزقَني نَجاحًا، الحمدُ للهِ الَّذي رَزَقني مَالًا ومَا أَشبهَ ذَلك؛ لأنَّ هذا خَيرٌ والثَّناءُ عَليه وَاضحٌ، لكنَّ الأمورَ المكروهَةَ لَا تَقُلِ: الحمدُ للهِ الَّذي أَمْرَضَني، الحمدُ للهِ الَّذي أَصابَني بمُصيبةٍ؛ بِفَقْدِ أَخي أو أَبي أو عَمِّي، وإنَّما تَقولُ: الحمدُ للهِ على كُلِّ حالٍ، وإنْ شِئتَ فَقُلِ: الحَمدُ للهِ على ما قَدَّرَ؛ لأنَّ هَذه بمَعْنى على كُلِّ حالٍ.

فإنْ قال قائلٌ: ما توجيه قوله ﷺ: «والشَّرُّ ليسَ إليهِ»[(١)].

فالجَوابُ: أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ خالقُ كلِّ شَيءٍ ولهذا جاءَ في الحَديثِ: «تُؤمِنُ بالقَدَرِ خيرِه وشَرِّه»[(٢)]، لكنْ لَا نَنسِبُ الشَّرَّ إلى اللهِ؛ لِأنَّ اللهَ لم يُقَدِّرْ هذا الشَّرَّ إلَّا لخَيرٍ، فالشَّرُّ إذن في مَفعولِه لا في فِعلِه، فمَثلًا إذا قَدَّر اللهُ عَزَّوَجَلَّ على النَّاسِ مَرضًا، فالشَّرُّ في نَفْسِ المَرَضِ، لكنْ في كَونِ اللهِ قَدَّرَه ليس بشَرٍّ بل هو خَيرٌ؛ لأنَّه من أكبرِ ما يَكونُ مِن مَصالِحِ الأَمراضِ؛ مثلًا تَكفيرُ السَّيِّئاتِ، ومنها أنَّ النَّاسَ يَرجِعونَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١]، ومنها أنَّ الإنسانَ يَعرفُ قَدْرَ نِعمةِ اللهِ عليهِ بالعافيةِ، فمَثلًا نحنُ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧١)، من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

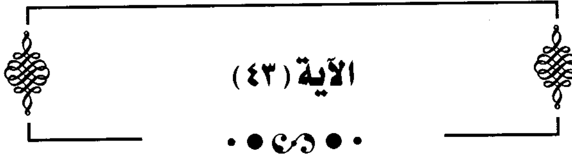
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآنَ لا نَعرفُ قَدْرَ النِّعمَةِ الَّتي أَنعمَ اللهُ بِها عَلينا في النَّفَسِ والحركَةِ وما أَشبَهَ ذَلكَ، لكنْ لو أُصيبَ الإِنسانُ مِنَّا بضِيقِ نَفَسِهِ عَرَفَ قَدْرَ نِعمةِ اللهِ بالنَّفَس، أو بِتَعبٍ في أَعضائِه فيَتكلَّفُ مِنَ الحَركةِ عَرفَ قَدْرَ نِعمةِ اللهِ عَليهِ، ولِهَذا قيلَ: وبضِدِّها تَتبيَّنُ الأَشياءُ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ كاملُ العدلِ بحَيثُ يَحمِدُ مَنْ يستحقُّ الحمدَ كَما أَنَّه يُحمَدُ؛ لأَنَّه أَهلٌ لِلحمدِ؛ بِناءً على أَنَّ «حَميدٌ» بمَعْنى حامدٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ جميعَ ما في القُرآنِ مُطابقٌ لِلحِكمةِ تَمامًا من تَحليلٍ أو تَحريمٍ أو إِيجابٍ أو إِطلاقٍ؛ لأَنَّه نَزَلَ مِن حَكيمٍ حَميدٍ، والنَّازلُ مِن حَكيمٍ لا بدَّ أَنْ يَكونَ مُشتملًا على الحِكمةِ.





الآية (٤٣)

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فُصِّلَت:٤٣].

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾ مِن التَّكذيبِ] يَعني: وَالاستهزاءُ والسُّخريةُ وغَيرُ ذلك: ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ ومِنه قَولُهم: إنَّه ساحرٌ ومجنونٌ، كَما قال تَعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢]، هَذهِ الكَلمةُ يَقولُها كُلُّ أحدٍ لِلرَّسولِ، ويَحتملُ أَنْ يَكونَ المعْنَى: مَا يُقالُ لَك مِنَ الوَحيِ إلَّا ما قد قيلَ للرُّسُلِ مِنْ قَبلك، أي مِثلَه، والآيةُ تَحتملُها ولا مانعَ من إرادتِها.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا﴾ مثل: ﴿مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾] زاد المفسِّر [مثل]، ومَعلومٌ أنَّ قولَه: ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ﴾ لا يُساويه قَولُه: إلَّا مثلَ، وإنَّما لجَأَ المفسِّر إلى ذلك؛ لأنَّ الَّذي قيلَ للرَّسولِ ﷺ لَيس هو بحُروفِه مَا قيلَ لِمَنْ قَبلَه، ولكنَّ الأَوْلى أنْ يُقالَ: الآيةُ على ظاهرِها أنَّ مَا قيلَ للرَّسولِ قَد قيلَ لِمَنْ قَبله، وكَما ذَكَرْتُ لكم آنِفًا: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢]، فيُقالُ: إنَّهم قَالوا نَفسَ الكلامِ لَكن بِلُغَتِهم ليس بِلُغَةِ العربِ.

قَولُه تَعالَى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ فيه

عَرْضٌ لِلمُكَذِّبين أَنْ يُؤمِنوا فَإِنْ لَمْ يُؤمِنوا فَقَدْ تعرَّضوا لِلعِقابِ، عَرَضَ أَنْ يُؤمِنوا بِقَولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ يعني: كأَنَّه يَقولُ: فَآمِنوا يَغفرْ لَكم، وهوَ قَولُه تَعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨]، ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ يَعْني: إنْ لم يُؤمِنوا، ففيهِ تَرغيبٌ وتَرهيبٌ، التَّرغيبُ في قَولِه: ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ والتَّرهيبُ فِي قَولِه: ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾، والعِقابُ هو الانتِقامُ، والأَليمُ بمَعْنى المُؤلِمِ، ففَعيلٌ تَأتي بمَعْنى مُفْعِلٍ كثيرًا في اللُّغَةِ العربيَّةِ كَما قَال الشَّاعرُ[1]:

أَمِنْ رَيْحانَةِ الدَّاعي السَّميعُ   يُـؤرِقُني وأَصْـحابي هُجـوعُ

السَّميعُ يَعني: المُسْمِعُ.

من فَوائِد الآيَة الكريمَة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَسليةُ الرَّسولِ -صلَّى اللهُ عَليه وعَلى آلِهِ وسلَّم-؛ لِأنَّه إذا عَلِمَ أنَّه قد قيلَ للرُّسلِ مِن قَبلِه مِثلَما قيلَ له سَهُلَ عَليه الأمرُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ سُنَّةَ اللهِ تَعالَى وَاحدةٌ، فَالمُكذِّبونَ قَولُهم وَاحدٌ وفِعلُهم وَاحدٌ لِقَولِه: ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إِثْباتُ صِفةِ المَغفرةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ وهيَ سَتْرُ الذَّنبِ والتَّجاوُزُ عَنه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إِثباتُ شِدَّةِ عِقابِه؛ لقَولِه: ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إِثباتُ رَحمةِ اللهِ بِالعبادِ، حَيثُ يَعرِضُ عَلَيهم مُوجبَ التَّوبةِ حَتَّى لا يَتمادَوْا في مَعصيتِهم؛ لِقَولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾.

---

(١) البيت لعمرو بن معدي كرب، انظر: الأصمعيات (ص:١٧٢)، الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٣٦٠).

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ هَذا القُرآنَ مِثلانِ، فَإذا ذُكِرَ فِيه جانبُ التَّرغيبِ ذُكِرَ مَعه جانبُ التَّرهيبِ؛ لِئلَّا تَطمعَ النَّفسُ وتَغلوَ فِي الطَّمعِ، فتَأمنَ مِنْ مَكرِ اللهِ، فَيَجمعُ اللهُ بَين هَذا وهَذا؛ لِئلَّا يَطْمعَ الإِنسانُ فِي الفَضلِ فَيأمنَ مِنْ مَكْرِ اللهِ؛ ولِئلَّا يَخافَ فَيَقْنطَ مِن رَحمةِ اللهِ، وعَلَى هَذا فيكونُ سَيرُه إِلَى اللهِ تَعالى بَينَ الخوفِ والرَّجاءِ؛ ولِهذا قالَ الإمامُ أَحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يَنبَغي لِلسَّائرِ إِلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ أنْ يَكونَ خَوفُه ورَجاؤُه واحدًا فأَيُّهما غَلَبَ هَلَكَ صاحبُه»(١).

وقالَ بَعضُهم: «يَنْبَغي أَنْ يَكونَ الخَوفُ والرَّجاءُ لِلْإنسانِ كَجَناحَي الطَّيرِ إِنِ انْخفَضَ أَحدُهما سَقطَ الطَّيرُ»، فَيكونُ الرَّجاءُ والخوفُ واحدًا مُتَساويًا تَرجو وتَخافُ، ولِهذا قالَ: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة:١٦].

وفَسَّر بَعضُ أَهْلِ العِلمِ فَقالَ: يَنبَغي لِلإنسانِ إِذا عَمِلَ الحَسناتِ أَنْ يَكونَ جانِبُ الرَّجاءِ في حَقِّه أَرجحَ؛ لِأنَّ هَذا مِن إِحْسانِ الظَّنِّ باللهِ، ووَجهُه أَنَّ اللهَ لَمَّا وفَّقكَ لِلعملِ فإِنَّه قَد وَعدكَ بِالثَّوابِ، ولَمَّا وَفَّقكَ لِلدُّعاءِ فَقدْ وَعدكَ بِالإجابَةِ، فَعَليه إِذَا فَعلتَ الخيرَ فَغَلِّبْ جانبَ الرَّجاءِ، وإِنْ فَعلتَ الشَّرَّ أو هَمَمْتَ به- فَغَلِّبْ جانبَ الخَوفِ؛ لِيردَعَكَ الخَوفُ عنِ التَّمادي في الشَّرِّ أو عَنْ مُواقعةِ الشَّرِّ.

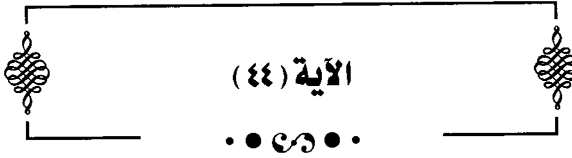
وبَعضُهم سَلَكَ مَنحًى آخَرَ فَقالَ: في حالِ الصِّحَّةِ يَنبَغي أنْ يَغلُبَ جانبُ الخَوفِ؛ لأنَّ الإِنسانَ الصَّحيحَ الَّذي قَدْ أَعطاه اللهُ صِحَّةً في بَدَنِه وعَقْلِه رُبَّما يَتَمادى فِي الشَّرِّ ولا يُبالي، وإِذا كُنتَ في المَرَضِ فَغَلِّبْ جانبَ الرَّجاءِ؛ لأنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليه وعَلَى آلِهِ وسلَّم- قالَ: «لا يَموتنَّ أَحدُكم إِلَّا وهو يُحْسِنُ الظَّنَّ بِربِّه»(٢)؛ لأنَّ اللهَ

(١) انظر: الاختيارات العلمية لابن تيمية [المطبوع مع الفتاوى الكبرى] (٥/ ٣٥٩).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، رقم (٢٨٧٧)، من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

تَعالَى عِندَ حُسْنِ ظَنِّ عَبدِه به.

والَّذي يَنبَغي أنْ يُقالَ: إنَّ الإنسانَ طَبيبُ نَفسِه، فَإذا خافَ مِن نَفْسِه التَّمادِيَ في المَعاصي والتَّهاوُنَ بِالطَّاعاتِ فَلْيُغَلِّبْ جانبَ الخوفِ، وإِنْ خافَ مِنْ نَفْسِه الزَّهوَ والخُيَلاءَ والأمنَ مِن مَكرِ اللهِ فَلْيُغلِّبْ جانِبَ الخَوفِ، فَالإنسانُ في الحَقيقةِ طَبيبُ نَفْسِه.





الآية (٤٤)

• ● ● •

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤].

• ● ● •

﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ الضَّميرُ يَعودُ عَلى القُرآنِ، يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أيِ الذِّكرُ] وإنَّما قالَ الذِّكْرُ؛ لأنَّه سَبقَ ذِكرُه قَريبًا في قَولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ﴾. والمَعْنى مُتَّفقٌ عَليه: أنَّ الضَّميرَ في الهاءِ في ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ يَعودُ إِلَى القُرآنِ.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ أي: بِلُغةِ العَجَمِ وهو قَدْ نَزلَ عَلى العَربِ: ﴿لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ ﴿لَّقَالُواْ﴾ أَي: المُكذِّبونَ لِلرَّسولِ ﷺ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَوْلَا﴾ هَلَّا ﴿فُصِّلَتْ﴾ بُيِّنَت ﴿ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ حتَّى نفهمَها]، ولكنَّ اللهَ تَعالَى قَد قَطعَ عَليهِمُ الحُجَّةَ، فقالَ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزُّخرُف:٣]، وقالَ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢].

وقَولُه: ﴿لَوْلَا﴾ بمَعْنى هَلَّا أَفادَنا المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ لَولا تَأتي لِلتَّحضيرِ وتَأتي شَرطيَّةً، ويُقالُ في إعرابِها حَرفُ امتِناعٍ لِوُجودٍ.

وهُنا تَتقاسَمُ هَذِه الحُروفُ لِلوُجودِ والعدَمِ، فَلو حَرفُ امتِناعٍ لِامتِناعٍ، ولَمَّا حَرفُ وُجودٍ لِوُجودٍ، ولَولا حَرْفُ امتِناعٍ لِوُجودٍ، تَقولُ: لَمَّا جاءَني أَكرَمتُه، هُنا

الإِكْرامُ وُجِدَ لِوُجودِ المَجيءِ، وتَقولُ: لَو جاءَ زَيدٌ لَأَكرمْتُه، هُنا امتنَعَ الإِكرامُ لامتِناعِ الوُجودِ، وتَقولُ: لَولا زَيدٌ لَهَلكتُ أو لَفَعلتُ كَذا وكَذا، فَلَولا هُنا امتِناعُ لِوُجودِ، أمَّا في الآيةِ الكريمَةِ فَلَولا لَيست مِن هَذا ولا مِنْ هَذا، لَولا هُنا انتَقلَت عَن مَعْنى الشَّرطيَّةِ إِلَى مَعْنى التَّحضيرِ.

فإِنْ قالَ قائلٌ: لَولا في قَولِه تَعالَى في سورَةِ يوسفَ: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف:٢٤] هَلْ هي شَرطيَّةٌ؟

فالجَوابُ: نَعَمْ، شَرطيَّةٌ لَكِن مَحذوفةُ الجَوابِ، يَقولُ تَعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ يَعْني: لِفِعْلِ.

فإِنْ قيل: هَلِ الهَمُّ حَصَلَ مِنه؟

فَالجَوابُ: لَا، فَلَولا بُرهانُ رَبِّه لَفَعَلَ، يَعْني: لَأَجابَها إِلَى ما دَعت، ولَيس المراد بـ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾: لَمَّا هَمَّ؛ لأَنَّه لَو كانَ كَذلكَ لَتناقَضَ الكلامُ، بَلْ هو هَمَّ بِها لَكن لَولا أَنَّه رَأى بُرهانَ رَبِّه لأَجابَها إِلَى مَا دَعت.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أ﴾ قُرآنٌ ﴿أعجمي و﴾ نَبيٌّ ﴿عربي﴾] استِفهامُ إِنكارٍ مِنهم، يَعني: لَوْ كانَ القُرآنُ بِلُغةِ العَجمِ لَقالوا: لَولا فُصِّلتْ آياتُه، وبُيِّنتْ باللُّغةِ العربيَّةِ، ثُمَّ لَقالوا: أَيضًا أَأَعْجميٌّ وعَربيٌّ، يَعني: لا يُمكنُ أَنْ يَكونَ القُرآنُ بِلُغةِ العَجمِ ونَزلَ عَلى نَبيٍّ عَربيٍّ، وهَذا الَّذي قَالوه استِفهامٌ حَقيقيٌّ، بمَعْنى أَنَّ قَولَهم حَقٌّ لا يُمكنُ أَنْ يَنزلَ قُرآنٌ أَعجميٌّ عَلَى نَبيٍّ عَربيٍّ، وقَد نَصَّ اللهُ عَلى ذَلكَ في قَولِه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤]، فكَلامُهم هَذا حَقٌّ ونَحنُ نَقبلُه.

أمَّا قَولُهم: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾، فنَقولُ: هي مُفصَّلةٌ، لَكنَّها حُجَّةٌ لو كانَ القرآنُ أَعجميًّا، وعَلى هَذا يَكونُ قَولُهم صَحيحًا لَوْ كانَ القرآنُ باللُّغةِ الأعجميَّةِ، حُجَّةً في قَولِهم: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾، وحقًّا في قولِهم: ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بتَحقيقِ الهمزةِ الثَّانيةِ] أَنْ تَقولَ: ﴿أأعجمي﴾ كَما هي القِراءةُ المَشهورةُ [وقَلْبُها أَلِفًا] ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ﴾ قَلَبْنا الثَّانيةَ أَلِفًا [بإشباعٍ ودونِه] يَعني: أنَّك تَمُدُّ الأَلِفَ مَدًّا طَبيعيًّا أو تَمُدُّها مَدًّا زائدًا عَلى ذَلكَ، والمَدُّ الطَّبيعيُّ قَولُه: ودونه، والمدُّ الزَّائدُ قَولُه: بِإشباعٍ، وعَلَى هَذا فَيَكونُ فيها ثَلاثُ قِراءاتٍ: «أأَعْجَمِيٌّ» «آأَعْجَمِيٌّ» ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ﴾ ثَلاثُ قِراءاتٍ.

والقِراءاتُ كَما هو مَعلومٌ كُلُّها سُنَّةٌ؛ لِأنَّها ثَبتتْ عَنِ النَّبيِّ ﷺ ويَنبغي لِلإنسانِ الَّذي أَتقنَها وحَفِظَها أنْ يَقرأَ بِهذا مَرَّةً، وبِهذا مَرَّةً كَما نَقولُ في العِباداتِ الَّتي وَرَدت عَلى وُجوهٍ مُتنوِّعةٍ: إنَّه يَنْبَغِي أَنْ تَفْعلَ هَذَا مَرةً وهَذا مَرَّةً.

ولَكنْ لا نَقرأُ بِما يُخالِفُ القُرآنَ الَّذي بَينَ أَيْدي العَوامِّ بِقراءةٍ أُخرى، فَنَرى أَنَّ مِن عَدَمِ الحِكمةِ ما يَفعلُهُ بَعضُ الطَّلبةِ إِذَا كَانَ يَعرفُ القِراءاتِ أَنْ يَقرأَ بِالقِراءةِ الَّتي لَيست بَينَ أَيْدي العَوامِّ، فإِنَّ هَذا خَطأٌ عَظيمٌ؛ لأَنَّ العامِّيَّ لا يُدرِكُ هَذِهِ الأشياءَ، وسَوفَ يَهبطُ قَدْرُ القُرآنِ في نَفسِهِ وتَقِلُّ عَظمتُه عِندَه، ثُمَّ رُبَّما يَتَّهِمُ هَذا القارِئَ بِأَنَّه أَخطأَ وغَلِطَ، فَإذا كانَ الصَّحابةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ تَنازَعوا وهُم مَنْ هُمْ في اخْتلافِ القِراءاتِ فَكيفَ بِعَوامِّ هَذا الزَّمانِ.

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: قُل يا مُحَمَّدُ في جَوابِهِم.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى﴾ مِنَ الضَّلالةِ ﴿وَشِفَآءٌ﴾ مِنَ الجهلِ]، ﴿هُوَ﴾ الضَّميرُ يَعودُ على القُرآنِ الذِّكرِ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى﴾ أي:

عِلمٌ ونورٌ، ﴿وَشِفَآءٌ﴾ . يَقولُ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنَ الجَهلِ] وهَذا فيه نَظرٌ؛ لأنَّ مِنَ الجَهلِ داخلٌ في قَولِه: ﴿هُدًى﴾، إذْ إنَّ الهُدى هو العلمُ وَضِدُّه الجَـهلُ، لَكن ﴿شِفَاء﴾ يَعني: مِن المَرَض مَرَضِ القُلوبِ، كَما قالَ تَعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس:٥٧]، فالصَّوابُ أَنَّ قَولَه: ﴿هُدًى﴾ مِن الضَّلالةِ وهي الجهلُ، فَهو هُدًى مِن الجَهلِ، وَالضَّلالةُ شِفاءٌ مِنَ المَرضِ مَرَضِ القُلوبِ، بَلْ هو أيضًا شِفاءٌ مِن مَرَضِ الأبدانِ، فَإِنَّ القُرآنَ يُستَشفَى بِه في أَمراضِ القُلوبِ، ويُستَشفَى بِه كَذلكَ في أَمراضِ الأَبدانِ، وكَمْ مِن إنسانٍ مَريضٍ مَرضًا بَدَنيًّا شَفاه اللهُ تَعالى بِالقُرآنِ.

وقِصَّةُ اللَّديغ -المَشهورةُ- الَّذي كَانَ سَيِّدَ قَومِه، ونَزَلَ به سَرِيَّةٌ مِنَ الصَّحابةِ ولَمْ يُضيِّفوهُم، فَسَخَّر اللهُ تَعالى عَقربًا كَبيرةً شَديدةً فلَدَغتْ سَيِّدَهمْ فطَلَبوا راقيًا مِنَ الصَّحابةِ، فَقالوا: لا نَرْقي لَكُمْ إِلَّا بكَذا وكَذا مِنَ الغَنَمِ فَأَعْطَوهم، فذَهَبَ أَحَدُهم يَقرأُ عَليهِ سورةَ الفاتحةِ حَتَّى قَام كَأَنَّما نُشِطَ مِنْ عِقالٍ، لَكنَّهمْ تَربَّصُوا فِي الغنمِ الَّتي أَخَذوها خافوا أَلَّا تَكونَ حِلًّا لَهمْ حَتَّى أَتَوُا النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليهِ وعَلى آلِه وسلَّم- فَسألوهُ فَقالَ: «خُذوا وَاضْرِبوا لِي مَعكُمْ بِسَهمٍ»[1]، قالَ ذَلكَ لا حاجةَ إِلَى اللَّحمِ ولَكن تَطييبًا لِقُلـوبِهم وَاطْمِئنانًا لِنُفـوسِهم؛ لِيَتبيَّنـوا أَنَّه حَلالٌ حَلالٌ لا إِشكالَ فيهِ.

الشَّاهدُ: أَنَّهم أَخبَروا النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليه وعَلى آلِه وسلَّم- أَنَّهم قَرؤوا عَلى هَذا اللَّديغِ الفاتِحةَ فَقالَ: «وَما يُدْريكَ أَنَّها رُقْيَةٌ»، فَتَبيَّنَ بِهَذا أَنَّ القُرآنَ شفاءٌ مِن

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب ما يعطى في الرقية، رقم (٢٢٧٦)، ومسلم: كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية، رقم (٢٢٠١)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

أَمراضِ القلُوبِ وَأَسقامِ الأَبدانِ لَكنْ، ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ آمَنوا بِالقُرآنِ وبأنَّه مِن عِند اللهِ وبأنَّه شِفاءٌ، أَمَّا رَجُلٌ لَمْ يُؤمِنْ به ولَمْ يَرفعْ به رَأسًا ولَمْ يَرَ بِمُخالفتِه بَأْسًا، فَإِنَّ هَذا لا يَنتفعُ بِه.

فإنْ قال قائلٌ: كَيفَ يُشترَطُ للرُّقيةِ أنْ يَكونَ المَرقيُّ -الَّذي يُتلى عليه القُرآنُ- مُؤمنًا بِه وزَعيمُ القَومِ هَذا لَمْ يَكُنْ مُسلمًا؟

فَالجَوابُ: هو مُؤمنٌ بأَنَّ قِراءَتَهم سَوف تُفيدُه، وهَذا لا بُدَّ مِنه؛ لِأَنَّه إذا لَم يُؤمنْ لَمْ تَنْفعلِ النَّفسُ وتَكُونُ قَابلةً لَه، فَلا يُمكنُ أَنْ تَنفعلَ النَّفسُ لِقَبولِ هَذا العِلاجِ إِلَّا إِذا آمَنَ بأَنَّه مُفيدٌ.

فَإن قيلَ: هَل يُعالَجُ الكافِرُ بِالقُرآنِ؟

فَالجوابُ: نَعَمْ، يُعالَجُ بِالقُرآنِ، ورُبَّما يَكونُ عِلاجُه بِالقُرآنِ أَوْلى مِن عِلاجِ المُؤمنِ بِه؛ لِأَنَّه إذا عَرَفَ أَنَّهُ مُؤثِّرٌ يَكونُ ذَلكَ سَببًا لِإِسلامِه.

وإِنْ قالَ قائلٌ: بَعضُ النَّاسِ يَتوسَّعُ في الرُّقيةِ الشَّرعيَّةِ ويُضيفُ فيها كَيفيَّاتٍ مِن عِندِه، فَهَلِ الرُّقيةُ مُتوقِّفةٌ عَلى ما جاءَ عَنِ السَّلفِ أَمْ لَهم أَنْ يَتوسَّعوا؟

فَالجوابُ: الأَوْلى بِالقارئِ أَنْ يَقتَصِرَ عَلى ما جاءَ بِهِ السَّلَفُ، أَمَّا غَيرُ ما جاءَ عَنِ السَّلفِ فَهَذا رُبَّما نَقولُ: إِنَّه خاضعٌ لِلتَّجربةِ إِذا جُرِّبَ ونَفعَ، فَالمَقصودُ النَّفعُ، وَإذا لَمْ يُجَرَّبْ ولكنَّ الإِنسانَ يَتخرَّصُ فَالظَّنُّ بَعضُهُ إِثمٌ.

وإِنْ سَأَلَ سائلٌ عَنِ اسْتِنطاقِ الجِنِّ بِالقُرآنِ، فَبَعضُ مَن يَرْقي يَقولُ أَنَّه اسْتَنطَقَ الجِنَّ، فَقالوا لَهُ كَذا وقَالوا لَهُ كَذا؟

فَالجَوابُ: أَنَّنا لا نَدري عَن هَذا شَيئًا، فَدائمًا يَقولونَ: إِنَّهم يَسْتَنطِقونَ ودائمًا

يُعالِجونَ بِالتَّخييلِ يَضعُ القَارئُ يَدَه عَلَى رَأسِ الإنسانِ ويَقولُ: غَمِّضْ عينَيك، مَاذا تَرى؟ يَقولُ: أَرى كَذا وكَذا. يَقولُ: مَنْ تَتَّهِمُ؟ فيَقولُ: أَتَّهِمُ فُلانًا.

هَذهِ طُرُقٌ غَريبةٌ تَحتاجُ إِلَى دِراسةِ أَحوالِ هَؤلاءِ القارِئينَ ومَعرفةِ كَيفَ يَتوصَّلونَ إِلى هَذا، وَمِنْ أَين جَاءَهم؟!.

ثم قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾ نَسأَلُ اللهَ العَافيةَ!.

قَولُه تَعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ مُبتدأٌ ﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ﴾ مُبتدأٌ وخَبرٌ، والجُملةُ خَبرُ المُبتدأِ الأوَّلِ الَّذي هو: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ يعني: كأَنَّه قال: هو للَّذينَ آمَنوا هُدًى وشِفاءٌ، وأَمَّا الَّذين لا يُؤمنونَ فَفي آذَانِهم وَقْرٌ لا يُؤمنونَ بِاللهِ ولا بِالرُّسلِ وَلا بِالكُتبِ هَؤلاءِ: ﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ﴾ يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ثِقْلٌ]؛ لأَنَّ الوَقْرَ بِمَعْنى الحِمْلِ الثَّقيلِ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾ [الذاريات:٢]، يَعْني: السَّحابَ تَحمِلُ الماءَ الكثيرَ، فَعَلى هَذا يَكونُ ﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ﴾ أي: ثِقْلٌ وصَمَمٌ فَلا يَسمعونَ وَالعياذُ بِاللهِ.

﴿وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾ فَلا يُبصِرونَ، فَصارتْ مَنافذُ الفَهْمِ عِندَ غيرِ المُؤمنينَ مَسدودةً لا يَسمَعونَ ولا يُبصِرونَ، فَلا يَصِلُ هُدَى القُرآنِ إِلَى قُلوبِهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾.

فَإذا قالَ قائلٌ: كيفَ يَكونُ الكَلامُ الواحدُ لِقَومٍ هُدًى وشِفاءً ولِآخرينَ عَمًى وضَلالًا، قُلنا: هَذا بِحَسَبِ ما في القَلبِ؛ لأَنَّ اللهَ قالَ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف:٥]، ونَحنُ نَرى الغِذاءَ الحِسِّيَّ يَكونُ لِقومٍ غِذاءً وَشِفاءً، ويَكونُ لِآخَرينَ

مَرَضًا وعِلَّةً، مَثَلًا: بَعضُ النَّاسِ يُحْجَبُ عَنِ التَّمرِ أَوِ العِنبِ أَوْ عَن كلِّ ما فيه حَلالٌ فَيَضُرُّه، وآخرونَ يَنفعُهم الحَلالُ، مَعَ أَنَّ الطَّعامَ واحدٌ لكنَّ المَحلَّ مُختلِفٌ، يَكونُ مَحَلَّ هَؤلاءِ قابلًا له، ومَحَلُّ آخرينَ غَيرُ قابلٍ.

قال اللهُ تَعالى: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المُشارُ إِلَيهِمُ الَّذينَ لا يُؤمنونَ وَأَشارَ إِلَيهِمْ بِصيغَةِ البَعيدِ لَيس رِفْعةً لِشأنِهم وَلَكِنْ إِظْهارًا لِلتَّبَرُّؤِ مِنهم وإِبْعادهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ يَعْني: كالَّذي يُنادَى مِن مَكانٍ بَعيدٍ، وَالَّذي يُنادَى مِن مَكانٍ بَعيدٍ يَعوقُه عَن الحُضورِ وَالِاستجابَةِ أَمرانِ:

الأمرُ الأَوَّلُ: أَنَّه لِبُعدِهِ قَد لا يَسمعُ النِّداءَ.

الأَمْرُ الثَّاني: أَنَّه لِبُعدِهِ قَد يَرى أَنَّ الِاستجابَةَ شاقَّةٌ عَليه فَلا يُجيبُ، وعَلَى هَذا فَكَونُهم يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعيدٍ يَتعلَّقُ بِنِدائهم آفتانِ:

الأُولَى: يَرَوْنَ المَسافةَ بَعيدةً فَيَكسِلونَ ويَرَوْنها مِن المَشقَّةِ فَيَدَعون إِجابَةَ المُنادي.

والثَّاني: أَنَّهم لَا يُدركُون المُناديَ لِبُعْدهم عَنه فَلا يُجيبونَ عَلَى الوَجْهِ المَطلوبِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أَيْ: هُمْ كَالمُنادَى مِن مكانٍ بَعيدٍ لَا يَسمَعُ].

من فوائدِ الآيةِ الكَريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: حِكْمةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ في كَونِ الوَحيِ النَّازِلِ عَلَى النَّبيِّ ﷺ على وِفقِ لُغةِ القَومِ الَّذين أُرسِلَ إِلَيهم يُؤخَذُ مِن قَولِه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ [فصلت:٤٤] إلخ؛ واللهُ تَعالَى جَعلَه قُرآنًا عَربيًّا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الحُجَّةَ لا تَقومُ حَتَّى يَفهمَ الإنسانُ مَعْنى هَذهِ الحُجَّةِ، وأَنَّ مُجَرَّدَ البَلاغِ لا يُعَدُّ حُجَّةً قائمةً حتَّى يَفهَمَها مَن بلُغتِه؛ لِأَنَّك لَو أَلقَيْتَ كَلامًا عَربيًّا بِأَفصحِ ما يَكونُ عَلى قَومٍ عَجَمٍ، وهُمْ لا يَعرفونَ مَقصودَكَ أَصلًا فَلا يَفهمونَ شَيئًا، وكَذَلكَ بِالعَكسِ لَو جاءَ رَجلٌ أَعجميٌّ وقامَ يَتكلَّمُ بِأَفصحِ ما يَكونُ من لُغةِ العَجمِ ونَحنُ لَا نَعرفُ مُرادَه لَمْ نَفهمْ مِنه شيئًا؛ ولِهَذا قالَ تَعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ [إبراهيم:٤].

فَإن قالَ قائلٌ: يَرِدُ عَلى قَولِكم هَذا -وَهو أَنَّه لا بُدَّ مِن فَهْمِ الحُجَّةِ بَعد بُلوغِها- قَولُه تَعالَى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩] ولَمْ يَقُلْ: ومَنْ بَلَغ وفَهِمَ.

قُلنا: هَذا مُطلَقٌ، لكنَّ الآياتِ الأُخرَى تُقيِّدُه أَنَّه لا بدَّ مِن البيانِ والمَعرفةِ، وكَذَلكَ لَو قالَ قائلٌ: يَرِدُ عَلى قَولِكم هَذا قَولُ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعَلى آلِه وسلَّم-: «**وَالَّذي نَفْسي بِيَدِه لا يَسمَعُ بي أَحدٌ من هَذِهِ الأُمَّةِ؛ يَهوديٌّ ولا نَصرانيٌّ، ثُمَّ لَا يُؤمنُ بِما جِئتُ به إِلَّا كانَ مِنْ أَصحابِ النَّارِ**»(١)، قال: «**لا يَسمعُ بي**»، فيُقالُ: لأَنَّه إذا سَمِعَ به يَجِبُ عليهِ أَنْ يَبحثَ حتَّى وإِنْ كانَ لا يَفهمُ يَجِبُ عَليه أَنْ يَبحثَ، أَمَّا أَنْ يَترُكَ الأمرَ فَهو لا يُعذَرُ لِتَفريطِه وتَهاونِه، وعَلى هَذا فَلا بدَّ مِنْ بُلوغِ الحُجَّةِ وَلا بدَّ من فَهمِها.

وإِنْ قال قائِلٌ: فَكَيف الجَوابُ عَن قَولِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ﴾ [البقرة:٧]؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، رقم (٣٣٤٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله: يقول الله لآدم أخرج بعث النار، رقم (٢٢٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

فالجَوابُ: خَتمَ عليها بَعد الفَهمِ؛ لِأنَّ الخَتمَ مَعناه قَدْ يَكونُ خَتْمٌ يَمنَعُ الفَهمَ، وقَدْ يَكونُ خَتْمٌ يَمنعُ الِانقيادَ كَقَولِه تَعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤].

ونَحنُ في الحَقيقةِ لا نَتهاونُ في تَكفيرِ مَن كَفَّره اللهُ، ولا نُبالي أَنْ نُكفِّرَ مَن كَفَّره اللهُ، لكنَّنا لا نَتجاسَرُ أَنْ نُكفِّرَ مَن لَمْ يُكفِّرْه اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فَالحُكمُ بِالتَّكفيرِ وَعَدم التَّكفيرِ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ لَيس إِلينا وَلا لِعَواطِفِنا، وإِلَّا لَوْ كانَ إِلَينا أَوْ إِلَى عَواطِفِنا لَكُنَّا نُكفِّرُ مَن كانَ فاسقًا، بَلْ قَد نُكفِّرُ مَن كان تاركًا لِلأَوْلَى؛ لأنَّ الإنسانَ لَا شكَّ أَنَّ مَعه غَيرةً يَبغُضُ بِها مَن خالفَ الشَّرعَ، لكن كَونُنا نَحكُم عليه بالكُفرِ أَو بِعَدمِ الكُفرِ لَيسَ إِلَينا، بَل هو إِلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، والخَلقُ عَبيدُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لَيسوا عَبيدَنا حتَّى نَحكُمَ عَليهم بِما نَرى، بل نَحكُمُ عَليهم بِمُقتضى كَلامِ اللهِ ورَسولِهِ.

فإِذا دارَ الأَمرُ بَين أَنْ نَقولَ: هَذَا كافرٌ وهو يَنتسبُ إِلى الإِسلامِ، وبَين أَنْ نَقولَ: لَيس بِكافرٍ، فَالأحوطُ أَنْ نَقولَ: لَيس بِكافرٍ لأَنَّنا بِهذا سالِمونَ، لَكنْ لَو كَفَّرناه ثُمَّ بِناءً عَلى تَكفيرِه نَستَبيحُ دَمَه ومالَه ولا نُصَلِّي عليه وَلا نَدعو لَه بِالرَّحمةِ، فَالمَسأَلةُ لَيست بِسَهلةٍ، والمَسأَلةُ صَعبةٌ جِدًّا.

ولِهذا خَطأُ مَن يَتسرَّعون بِالتَّكفيرِ أَشدُّ مِن تَهاوُنِ مَن لا يُكفِّرونَ؛ لِما يَترتَّبُ عَلَى التَّكفيرِ مِن المَصائبِ وَالبَلاءِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ التَّناقُضَ بَين الرَّسولِ وَالوَحيِ مُستَحيلٌ، والدَّليلُ قَولُه تَعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت:٤٤] وَهَذا مُستحيلٌ أَنْ يَتناقَضَ الوحيُ ومَنْ أُوحِيَ إِليه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ القُرآنَ يَكونُ لِأَقوامٍ رَحْمةً ولِآخرينَ نِقمةً، ويَشهَدُ لِهذا قَولُه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**القُرآنُ حُجَّةٌ لَك أَوْ عليك**»(١). رَحمةٌ لِلمُؤمنينَ ونِقمةٌ على الكَافرينَ، قال اللهُ تَعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الحاقة:٥٠].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّه لا يُمكنُ أَنْ يُبتغَى الهُدَى مِن غَيرِ القُرآنِ لِقولِه: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى﴾ [فصلت:٤٤]، فَمَنِ ابْتَغى الهُدَى مِن غَيرِ القُرآنِ أَضَلَّه اللهُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [طه:١٢٣-١٢٤].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ القُرآنَ شِفاءٌ مِن أَمراضِ القُلوبِ وَأَسقامِ الأَبدانِ لِقولِه: ﴿هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت:٤٤].

وقد فَهِمنا أَثناءَ التَّفسيرِ أَنَّ الفاتِحةَ رُقيةٌ، كَذلكَ أيضًا إذا أَردتَ أَنْ تَرقيَ أحدًا فَانْظُر مَع الفاتحةِ الآياتِ المُناسِبةَ، فمَثلًا إِذَا كنتَ تُريدُ أَنْ تَرقِيَه مِنَ السِّحرِ فَاقرأْ إِضافةً لِلفاتحةِ: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ و﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾؛ لِأَنَّهما السُّورَتانِ اللَّتانِ رُقِيَ بِهما الرَّسولُ ﷺ(٢).

كَذلكَ انظُرْ إِلَى آياتِ السِّحرِ الَّتي تُبطِلُ السِّحرَ مِثلَ قَولِه تَعالى عَنْ موسى: ﴿مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس:٨١]، وَأَمْثالِ ذَلكَ.

وَإِذَا كُنتَ تُريدُ أَنْ تَرقيَ مِن مَرَضٍ اقْرأِ الآياتِ المُناسبةَ مِثل: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم (٢٢٣)، من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل (٧/ ٩٢-٩٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء:٨٠]، لِأَنَّ التَّناسبَ بَين الآياتِ الَّتي هي الدَّواءُ وبَين المَرضِ الَّذي هو الدَّاءُ لا بُدَّ أَن يَكونَ أَمرًا مُهمًّا يُراعيه الإِنسانُ.

كَما يُراعي ذلكَ في الأَدويةِ الحِسِّيَّةِ، فَالحارُّ يُعالَجُ بِالباردِ، ولِهذا قال النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الحُمَّى: «الحُمَّى مِن فَيحِ جهنَّمَ فَأَبرِدوها بِالمَاءِ»[1]، وقَدْ شَهِدَ الأَطبَّاءُ الآنَ أَنَّ البُرودةَ لِمَنْ أُصيبَ بِالحُمَّى مِنْ أَكبرِ العِلاجِ حتَّى كانوا يَجعَلونَ المَريضَ أَحيانًا إِلَى جَنبِ المُكيِّفِ مِنْ أَجْلِ البُرودةِ، ويَضَعون أَحيانًا عَلى المَريضِ بِالحُمَّى ثَوبًا مَبْلولًا بِالماءِ مِن أَجْلِ تَبريدِه.

فَإِن قال قائلٌ: سَبقَ أَنَّ الأَصلَ إِبقاءُ المُطلَقِ عَلى ما جاء، وَهُنا بَعضُ أَهلِ العِلمِ يُقيِّدونَ بَعضَ الأَمراضِ بِآياتٍ مُعيَّنةٍ، يَقولُ: تَقرأُ آيةَ كَذا وكَذا وهَكَذا، فَهَلْ هَذا يُخالِفُ القاعدَةَ أَمْ لا؟

فالجَوابُ: هَذا لا يُخالفُ القاعدةَ فَهَذه مُوافِقةٌ لِلحِكمةِ، كَما ذَكرنا أَنَّ المَرضَ يُعالَجُ بِما يُناسبُه.

فَإِنْ قيلَ: مِنْ أَين عَرَفوا هَذا؟

فالجَوابُ: مِن حِكْمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فَيُعرَفُ هَذا مِنَ الحِكْمةِ.

الْفَائِدَةُ السَّابعَةُ: أَنَّ الإِنسانَ كُلَّما كانَ أَقوى إِيمانًا كانَ أَهدى وَأَشفى مِن قَولِه تَعالَى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت:٤٤]، وهُنا قاعِدةٌ مُفيدةٌ مُهمَّةٌ: أَنَّ كلَّ حُكمٍ مُعلَّقٍ بِوَصفٍ أَوْ مُرَتَّبٍ على وَصْفٍ، فَإِنَّه يَقوى بِقُوَّةِ ذَلك الوَصْفِ ويَضْعُفُ بِضَعفِ ذَلك الوَصْفِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، رقم (٣٢٦٣)، ومسلم: كتاب السلام، باب لكل داء دواء واستحباب التداوي، رقم (٢٢١٠)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: بَلاغةُ القُرآنِ بِتَصويرِ المَعقولِ بِصورَةِ المَحسوسِ، فَهَؤلاءِ الَّذين لا يُؤمنونَ لَوْ أَنَّك نَظَرتَ إِلَيهم نَظرةً حِسِّيَّةً لم تَجِدْ: ﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ﴾؛ لِأَنَّهم يَسمَعونَ، وَقَدْ يَكونونَ أَقوى سَمْعًا مِن المُؤمنِينَ، ولَمْ تَجِدْ أَيضًا أَنَّهمْ إِذا قُرِئَ عليهمُ القُرآنُ عَمِيَتْ أَعينُهم كَما قالَ: ﴿وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾، ولَمْ تَجِدْ أَنَّهمْ يُنادَون مِن مَكانٍ بَعيدٍ، بَل تُعْرَضُ عَليهم الدَّعوةُ إِلَى جَنْبِ الدَّاعي، لَكنَّ هَذا مِن بَلاغةِ القُرآنِ أَنْ يُصَوِّرَ الشَّيءَ المَعقولَ بِصورَةِ المَحسوسِ حتَّى يَكونَ أَقربَ إِلى الفَهمِ، فَهُنا صَوَّر اللهُ حالَ هَؤلاءِ بأَنَّهمْ صُمٌّ وبأَنَّهم عُمْيٌ وبِأَنَّهمْ بَعيدونَ مِن الدَّاعي.



الآية (٤٥)

• • • •

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [فصلت:٤٥].

• • • •

﴿ءَاتَيْنَا﴾ أَعْطَيْنَا، والإِيتاءُ هُنا إِيتاءٌ شَرعيٌّ قَدَريٌّ، إِيتاءٌ شَرعيٌّ؛ لِأَنَّه أُضيفَ إِلَى الوَحْيِ، وقَدَرِيٌّ؛ لِأَنَّه وَقَعَ فِعلًا.

وَموسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو أَفضلُ أَنْبياءِ بَني إِسرائيلَ، وهو بالنِّسبةِ لِأُولي العَزم بِالمَرتبةِ الثَّالثةِ؛ لِأَنَّ أُولي العَزمِ خَمسةٌ، أَفضلُهم مُحَمَّدٌ ﷺ ثُمَّ إبراهيمُ ثُمَّ موسى، وَهو -أَيْ مُوسَى- أَكثرُ الأنبياءِ أَتْباعًا بَعْدَ الرَّسولِ ﷺ لِحَديثِ: «**أَنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَأى سَوادًا عَظيمًا قَدْ سَدَّ الأُفقَ فَقيلَ: هَذا موسى وقَومُه**»(١).

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ التَّوراةِ] وسُمِّيتْ كتابًا لأنَّها مَكتوبَةٌ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف:١٤٥] فَهي نَزَلت مَكتوبةً.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ بِالتَّصديقِ والتَّكذيبِ كَالقُرآنِ]، اخْتَلفَ فيه أَقوامُه، قَومُ موسى اخْتَلفوا، فَمِنهم مَنْ صَدَّقَ، ومِنهم مَن كَذَّب، لكنَّ قَومَ موسَى مَشهورونَ بِالعُتُوِّ والطُّغيانِ والِاستِكبارِ العَظيمِ وَالجهلِ العَميقِ، لَـمَّا

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب من اكتوى أو كوى غيره، رقم (٥٧٠٥)، ومسلم: كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء، رقم (١١٣٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

مَرُّوا بأَقوامٍ يَعبدونَ غيرَ الله: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ [الأعراف:١٣٨]، وَلَمَّا صَنَعوا مِنَ الحُلِيِّ عِجلًا قالوا: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾، فَجعلوا العِجلَ الَّذي صَنَعوه بِأَيديهِمْ إِلَهًا، نَسأَلُ اللهَ العافيةَ.

قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ﴾ [فصلت:٤٥]، لَـمَّا ذَكَرَ اللهُ تَعالَى هَذا الكِتابَ العَزيزَ، وَأَنَّه لِلَّذينَ آمَنوا هُدًى وشِفاءٌ ولِلَّذين في قُلوبِهم مَرضٌ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾ بَيَّنَ ما كانَ مِنَ الأُممِ السَّابقةِ نَحوَ كُتُبِـهم فَقالَ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [فصلت:٤٥] ﴿آتينا﴾ بمَعْنى أَعْطَـيْنا، الجُملةُ هَذِه مُؤَكَّدةٌ بِثَلاثةِ مُؤكِّداتٍ وَهي:

القَسَمُ وَاللَّامُ وَ(قَدْ) وَتَقديرُ الكلامِ: وَاللهِ لَقدْ آتَيْنا، وَهو يَقعُ كَثيرًا في الكِتابِ العَزيزِ، أَيْ: مِثْلُ هَذِه الصِّيغَةِ تَقعُ كَثيرًا في القُرآنِ، وقَولُه: ﴿ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ هَذا الإِتيانُ إِتيانٌ كَونيٌّ وشَرعيٌّ، فاللهُ تَعالى قَد أَنزلَ عليه التَّوراةَ فِعلًا، وقَدْ آتاهُ الحُكمَ بِها.

و﴿مُوسَىٰ﴾ هو ابْنُ عِمرانَ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَفضلُ أَنبياءِ بَني إِسرائِيلَ، وَهو في المَرتبةِ الثَّالثةِ بِالنِّسبةِ لِأُولي العَزمِ؛ لِأَنَّ أُولي العزمِ هُم خَمسةٌ أَفْضلُهم مُحَمَّدٌ ﷺ، ثُمَّ إِبْراهِيمُ ثُمَّ موسى عليهم الصلاة والسلام.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ التَّوراةُ] وسَمَّاها اللهُ تَعالى كِتابًا؛ لأَنَّ اللهَ كَتبها بِيدِه تَباركَ كَمـا قالَ تَعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف:١٤٥].

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ﴾ بِالتَّصديقِ وَالتَّكذيبِ كَالقُرآنِ] أَي: اخْتَلفَ النَّاسُ فيه فَمِنهم المُصدِّقُ ومِنهم المُكذِّبُ كَما كان النَّاسُ أيضًا بالنِّسبةِ لِلقُرآنِ،

وهَكذا جَميعُ الأُممِ بِالنِّسبةِ لِما جاءت بِه الرُّسلُ مِنهمُ المُصدِّقُ وَمِنهمُ المُكذِّبُ، كَذلِكَ أيضًا جَميعُ ما جاءَتْ بِه الرُّسُلُ يَختلِفُ النَّاسُ فيه بَين مُؤمنٍ وكافرٍ، وهَذا تَسليةٌ لِلرَّسولِ -صلَّى اللهُ عليه وَعلى آله وَسلَّم-.

قال اللهُ تَعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ [فصلت:٤٥]، ﴿وَلَوْلَا﴾ هَذه حَرْفُ شَرطٍ، وَهي كَما قال النُّحاةُ: حَرفُ وُجودٍ لِعَدمٍ، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ﴾ هَذا مَوجودٌ ﴿لَقُضِىَ﴾ هَذا مَعدومٌ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتَأخيرِ الحِسابِ وَالجَزاءِ لِلْخلائقِ إِلَى يَومِ القِيامةِ]، فَإنَّ الجَزاءَ الكامِلَ إِنَّما يَكونُ يَومَ القِيامةِ، أَمَّا في الدُّنيا فَهو جزاءٌ لَا شكَّ يُعاقَبُ فيه المُجرمونَ ويُفلحُ فيه المؤمنونَ، لَكنَّه لَيس الجَزاءَ الكاملَ مِن كلِّ وَجهٍ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدُّنيا فيما اختَلفوا فيه]، وَالمُرادُ بِذلك القَضاءُ التَّامُّ فَلا يُنافي هَذا ما وَقعَ لِآلِ فِرعونَ مِنَ الغرقِ وَالهلاكِ لَمَّا كَذَّبوا موسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أَي: المُكذِّبينَ بِه ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ مُوقعٌ في الرِّيبةِ].

من فوائدِ الآيَةِ الكَريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَأكِيدُ الكَلامِ إذا دَعَتِ الحَاجةُ إِلَيه، إمَّا لِأَهمِّيَّتِه، وإمَّا لِلشَّكِّ فيه، وإمَّا لِإنكارِه، قالَ عُلماءُ البَلاغةِ: والمُخاطَبُ لَهُ ثَلاثُ حالاتٍ:

الحالُ الأُولَى: حَالُ ابتداءٍ وَهي أَلَّا يَكونَ عِندَ المُخاطَبِ عِلمٌ ولا تَردُّدٌ ولا إِنكارٌ،

هَذا تُلقى إِليهِ الجُملةُ غَيرَ مُؤكَّدةٍ؛ لأَنَّه لا حاجةَ لِلتَّوكيدِ، مِثلَ أَنْ يُقالَ: قَدِمَ فُلانٌ اليومَ لِإِنسانٍ لَمْ يَكُنْ في قَلبِه شيءٌ مِن قُدومِه إِثباتًا وَلا نَفيًا، وَتُسمَّى هَذِه الجُملةُ ابتِدائيَّةً.

الحالُ الثَّانيةُ: أَنْ يَكونَ المُخاطَبُ مُتردِّدًا في الأمرِ شاكًّا فيه لَكنَّه لَا يُنكِرُه، فَهَذا يَحتاجُ إِلى تَوكيدٍ لكنَّه لَيس بواجبٍ، مِثل أَنْ تُخاطِبَ رَجُلًا في أَمرٍ يَستَبعدُه لكنَّه لَا يُنكرُه، فهُنا يَحسنُ أَنْ تُؤكِّدَ لَه الكَلامَ من أَجلِ أنْ يَزولَ عَنه الشَّكُّ وَالتَّردُّدُ.

الحالُ الثَّالثةُ: أَنْ يَكونَ مُنكِرًا مُكذِّبًا، فَهذا يَتعيَّنُ تَوكيدُ الخبرِ لَه؛ لِأنَّ ذَلك أَبلغُ في إِقامَةِ الحُجَّةِ عَليهِ وَإِقْناعِه.

إِذن: أَحوالُ المُخاطَبِ ثَلاثةٌ: ابتداءٌ، وتَردُّدٌ، وإِنكارٌ، ولِكلِّ حالٍ حُكمُها فِيما يَتعلَّقُ بِالتَّوكيدِ.

فَإِنْ قال قائلٌ: يَرِدُ عَلى كَلامِكم هَذا قَولُه تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٥-١٦] وَالمُرادُ الجُملةُ الأُولى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ فَلا أحدَ يُنكرُ الموتَ حتَّى يُؤكَّدَ له، أَجابوا عَنْ ذَلك بأَنَّ تكذيبَهم وإِنكارَهم وَاستِكبارَهم وتَمرُّدهم يَفعلونَ ذَلِكَ فِعلَ المُنكِرِ فخوطِبوا خِطابَ المُنكِرِ، وهَذا لَا شكَّ أَنَّه جَوابٌ صَحيحٌ.

وقولُه تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ مُؤكَّدٌ بثَلاثِ مُؤكِّداتٍ؛ لِأَهمِّيَّةِ المَوضوعِ؛ لِأَنَّ المَوضوعَ مُهِمٌّ فَيحتاجُ إِلَى التَّوكيدِ لِتَسليةِ الرَّسولِ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلَامُ.

وإِنْ قال قائلٌ: هَلِ الجُملةُ الخَبريَّةُ تُؤكَّدُ لِلاهتِمامِ بِالأَمرِ؟

فَالجوابُ: أَنَّ تَوكيدَ الخَبرِ لِلاهتِمامِ بِه وَإِنْ كانَ المُخاطَبُ مُقِرًّا حالَ المُخاطِبِ

لا تَستدعي التَّوكيدَ؛ لِأَنَّه مُقِرٌّ لكنَّ الِاهتمـامَ بِه اقْتضَى التَّوكيدَ مَثلًا: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة:١] إِنْ خاطَبنا بِهِ المُؤمنَ فَهو لِلتَّوكيدِ فَقَطْ وَالِاهتمـامُ بِالأمرِ، وَإِنْ خاطَبنا بِه المُنكِرَ صارَ لِلإنكارِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إِثباتُ رِسالةِ موسَى تُؤخذُ مِن قولِه تَعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ ﴾، ووَجهُ ذَلك أَنَّ الكِتابَ لَا يُؤتَى إِلَّا لِنبيٍّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وُجوبُ الإيمانِ بِأَنَّ اللهَ تَعالى آتَى موسى كِتابًا؛ لِأَنَّ اللهَ أَخبرَ بِه وخَبرُه حَقٌّ، ولأنَّ ذَلك مِن الإِيمانِ بِكُتبِ اللهِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الخِلافَ لَم يَكنْ بِدْعًا فِي الأُممِ، وقَدْ سَبقَ هَذه الأُمَّةَ مَنِ اختلفوا في كُتُبِهم ورُسلِهم لِقَولِه: ﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَسليةُ المُصابِ بِذِكرِ المُشارِكِ لَه؛ لأنَّ الغَرضَ مِنَ الإِخبارِ بِأنَّ اللهَ آتى موسى الكِتابَ ﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِ﴾، تَسليةُ النَّبيِّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وعَلى هَذا فَينبَغي تَسليةُ المُصابِ، ومِنه ما يُسمَّى بِتعزيةِ المُصابِ بِالمَوتِ، فَمَن أُصيبَ بموتٍ، فَإِنَّ مِنَ السُّنَّةِ أَنْ يُعزَّى أي: يُقَوَّى على الصَّبرِ عَلى المُصيبةِ، وتَسليةُ المُصابِ سُنَّةٌ لِما في ذَلك مِن رَفعِ أَلَمِ المُصيبةِ عَن أَخيكَ المُسلمِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: حِكمةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بِتَأخيـرِ العَذابِ عن مَنْ كَذَّبوا الرُّسلَ؛ لِأنَّ اللهَ تَعالى جَعلَ لك شيئًا قَدرًا، فمِنْ حِكمَتِه تَأخيرُ العذابِ عَنِ الأُممِ لَعلَّهم يَرجِعونَ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: تَمامُ سُلطانِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأَنَّه جَلَّوَعَلَا هو المُدبِّرُ لِلأمـورِ أَخْذًا ورَفْعًا لِقولِه: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ [فصلت:٤٥].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: رِفعةُ مَنزلةِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عِندَ اللهِ تُؤخذُ مِن قَولِه: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ فَأضافَ الرُّبوبيَّةَ إليه، وَهذه رُبوبيَّةٌ خاصَّةٌ، وهي تُفيدُ عُلُوَّ مَنزلةِ المَربوبِ عِندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وقَدِ اجْتمعتِ الرُّبوبيَّتانِ العامَّةُ والخاصَّةُ في قَولِ السَّحرةِ مِن آلِ فِرعونَ: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:١٢١] ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٢] الأُولى: رَبُّ العالَمينَ عامَّةٌ، والثَّانيةُ: خَاصَّةٌ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ اللهَ تَعالى يُكَنِّي عَنِ الشَّرِّ بِبناءِ الفِعلِ لِما لَمْ يُسمَّ فاعِلُه لِقولِه: ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ ولم يَقُلْ: لَقَضى بينهُم، وهَذا هو المُطَّردُ في القُرآنِ وَالغالبُ، وَانْظُرْ إِلَى أَدَبِ الجِنِّ حيثُ قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن:١٠] أَدَبٌ عالٍ، فَقالوا في الشَّرِّ: ﴿أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وَلَمْ يُضيفوه إِلَى اللهِ، وفي الرُّشدِ قالوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ ولم يَقولوا: أَمْ أُريدَ بِهم رَشدًا.

وهَذا مِنْ أَدبِ الجنِّ، والجِنُّ أَحيانًا يكونونَ آدَبَ مِن الإنسِ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ [الأحقاف:٢٩]، أَوصى بَعضُهم بَعضًا أَنْ يُنصِتوا حتَّى يَستمِعوا استِماعًا تامًّا، ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾ أيضًا لَمْ يَتوقَّفوا أَوْ يَكسلُوا، ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف:٢٩] بادَروا إِلى قَومِهم مُنذِرينَ: ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا ...﴾ إِلَخْ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أَنَّ المُكذِّبينَ بكِتابِ مُوسَى في شكٍّ مُريبٍ مُوقِعٌ في الرَّيبِ، وهو الشَّكُّ مَع القَلقِ يَعْني: الفَرقُ بَينَ الرَّيبِ والشَّكِّ قَريبٌ؛ ولِهذا يُفسِّرُ بَعضُ العُلماءِ الرَّيبَ بِالشَّكِّ، ولكنَّ شَيخَ الإِسلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «هَذا تَفسيرٌ قَريبٌ»[1].

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٤٢).

والرَّيبُ أَخصُّ مِن مُطلَقِ الشَّكِّ إذْ إنَّ فيه قلقًا مَع ريبةٍ، وذَلكَ لِأنَّ الأمرَ المشكوكَ فيه إمَّا أَلَّا يَكونَ ذا أَهمِّيَّةٍ فتَجدُ الشَّاكَّ فيه يَقولُ: ما يَهُمُّنِي ثَبتَ أَم لَم يَثْبُتْ، وإمَّا أَنْ يَكونَ ذا أَهمِّيَّةٍ فحينئذٍ إذا شَكَّ فيه سيكونُ في قَلَقٍ أَيُؤمنُ بِهذا أَمْ يُنكرُ؛ لِأَنَّه أمرٌ هامٌّ، فَالغالبُ أَنَّ الرِّيبةَ لا تَأتي إلَّا في الأُمورِ الهامَّةِ، وأَمَّا الشَّكُّ الَّذي يُشَكُّ هَلْ فُلانٌ قَدِمَ أو ما قَدِمَ، وليس له أَهمِّيَّةٌ في قُدومِه أو غيابِه، فَهذا لَا يوجبُ الرِّيبةَ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ الإيمانَ يَجِبُ أَلَّا يُخالطَه شَكٌّ، وأَنَّه إذا وَرَدَ عَلَى القَلبِ شَكٌّ ولَو يَسيرًا بِشَرطِ أَلَّا يُدافعَه بَل يَركنُ إِليه، فَإنَّ هذا مُحبطٌ لِإيمانِه، أَمَّا لَو وَرَدَ الشَّكُّ عَلى القَلبِ وطَردَه وجاهَدَ نَفسَه عَلى دَفعِه، فَهذا لا يَضُرُّه شيئًا، ولِهذا أَخبرَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «**أَنَّ النَّاسَ يَتساءلونَ مَنْ خَلَقَ كذا مَنْ خَلَقَ كذا؟ حتَّى يَقولوا: مَنْ خلَقَ اللهَ؟**» وهذا شَكٌّ ولَكنَّ الرَّسولَ أَخبرَ قَالَ: «**فَإذا بَلَغَ أحدُكم ذَلكَ -أو كَلمةً نَحوها- فَليَستَعِذْ بِاللهِ ولْيَنْتَهِ**»[1]، وأَخبرَه الصَّحابةُ أَنَّهم يَجِدون في نُفوسِهِمْ مَا يُحِبُّونَ أَنْ يَكونوا حِمَمًا -أي: فَحْمةً مُحتَرِقَةً- ولَا يَنطقونَ بِه، فقالَ ﷺ: «**ذاكَ صَريحُ الإِيمانِ**»[2].

فالحاصِلُ: أَنَّ الشَّكَّ الواردَ عَلى القَلبِ إنِ اطْمأنَّ بِه الإِنسانُ ورَكَنَ إِليه، فَلْيَعلمْ أَنَّه ليس بِمؤمنٍ؛ لأنَّ الإِيمانَ يُنافيه شيئانِ: الشَّكُّ، والإِنكارُ. أَمَّا إذا وَرَدَ عَلى القلبِ وطارَدَه وجاهَدَ نَفسَه عَلى تَرْكِه، فَفي هَذه الحالِ لا يَضُرُّه، بَلْ هذا صَريحُ الإيمانِ وخالصُ الإِيمانِ، وذَلكَ أَنَّ الشَّيطانَ لا يورِدُ مِثلَ هذِه الأُمورِ عَلى قَلبٍ مَيِّتٍ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٧٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان، رقم (١٣٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان، رقم (١٣٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالقلبُ الميِّتُ مُستريحٌ مِنه، إنَّما يورِدُها على قَلْبٍ حَيٍّ لِيُميتَه، ولَّما ذَكَر اليَهودُ لابنِ مَسعودٍ أَوْ لِابنِ عَبَّاسٍ أَنَّهم لا يُوَسْوَسونَ في صَلاتِهِمْ، يُريدونَ بِهذا أَنْ يَفتَخِروا على المُسلمينَ، قال: صَدَقوا وما يَصنعُ الشَّيطانُ بِقلبٍ خَربٍ. وهذه كَلمةٌ عَظيمةٌ! يَعني: أنَّ قُلوبَهم خَرِبَةٌ، والشَّيطانُ ماذا يَصنَعُ في قَلبٍ خَرابٍ؟ أَيَأتي إِليه لِيُخرِبَه؟ الجوابُ: لا، إنَّما يَأتي الشَّيطانُ بِهَذه الوَساوسِ إِلى قَلبٍ حَيٍّ لِيُهلِكَه أو يُمْرِضَه.



الآية (٤٦)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦].

قوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ هَذه جُملةٌ شَرطيَّةٌ أَداةُ الشَّرطِ فيها ﴿مَّنْ﴾ وفِعلُ الشَّرطِ ﴿عَمِلَ﴾ وجوابُ الشَّرطِ ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ تَمامُ هَذه الجُملةِ شرطيَّةٌ، واقْتُرِنَتْ بالفاءِ لِأنَّها جُملةٌ اسميَّةٌ إِذِ التَّقديرُ: فَعَمَلُه لِنفْسِه، وقَدَّرَها المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بِقولِه: [﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ عمل]، ولَكِنْ إذا قَدَّرناها جُملةً اسميَّةً فَلا حَرَجَ.

﴿صَٰلِحًا﴾ صِفةٌ لِموصوفٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: عَملًا صالحًا، والعَملُ الصَّالحُ مَا اجْتَمعَ فيه أمرانِ:

الأوَّلُ: الإِخلاصُ للهِ عَزَّوَجَلَّ.

والثَّاني: المُتابَعةُ لِشَريعةِ اللهِ، وَلا نَقولُ هنا: المُتابَعةُ لِمُحمَّدٍ ﷺ لأَنَّنا نَتكلَّمُ عَن العَمَلِ الصَّالحِ في هَذه الأُمَّةِ وَفي غَيرِ هَذه الأُمَّةِ، فَنقولُ: الإِخلاصُ للهِ والمُتابَعةُ لِشَريعةِ اللهِ؛ لِيَشملَ ما كانَ في أُمَّةِ مُحمَّدٍ ﷺ وما كان في أُمَمٍ سابقةٍ.

إِذا فَقَدَ الإخلاصَ فَليس بِصالحٍ؛ لأَنَّه شِركٌ مَردودٌ على صَاحبِه، قال اللهُ تَعالى في الحَديثِ القُدسيِّ: «أَنا أَغنى الشُّركاءِ عَنِ الشِّركِ، مَنْ عَمِلَ عَملًا أَشْرَكَ فيه مَعي

غَيري تَركْتُه وشِرْكَه»(١)، ومَنْ أَخلصَ لكن عَلَى غَيرِ شَريعةِ اللهِ فَعَمَلُه بِدعةٌ مَردودٌ؛ لِقولِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عَليه وعلى آلِه وسلَّم-: «مَنْ عَمِلَ عملًا لَيس عَليه أَمرُنا فَهو رَدٌّ»(٢). وَفي رِوايةٍ: «مَنْ أَحدثَ في أَمرِنا هَذا ما لَيس مِنه فَهو رَدٌّ»(٣).

قَولُه: ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ يَعْني: فَالمَصلحةُ لِنفسِه، فَإِنَّ ذَلك لا يَنفعُ اللهَ شيئًا، ولِهَذا قال اللهُ تَعالى في الحَديثِ القُدسيِّ الَّذي رَواه أَبو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ اللهَ قال: «يا عِبادي لَو أَنَّ أَوَّلَكم وآخِرَكم وإِنْسَكم وجِنَّكم كانوا على أَتْقى قَلبِ رَجلٍ واحدٍ مِنكم ما زاد ذَلِكَ في مُلْكي شيئًا»(٤). لِماذا؛ لِأَنَّ اللهَ تَعالى لا يَنتفعُ بِطاعةِ الطَّائعينَ، وَلا يَتضرَّرُ بِمعصيةِ العاصينَ، فَالعملُ لِنفسِك.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: فَضـرَرُ إِساءتِه عَلى نَفسِه]، وَلَوْ قُلنا: التَّقديرُ فَإِساءَتُه عليها لَكفى، مَنْ أَساءَ، أي: عَمِلَ عَملًا غيرَ صالِحٍ، وَالَّذي يَدُلُّنا عَلى أَنَّ المُرادَ بِالإِساءَةِ هُنا العَملُ غَيرُ الصَّالحِ أَنَّهُ قُوبِلَ بِما سَبَقَ بِمَن عَمِلَ عَملًا صالحًا، وهَذا أَحدُ الطُّرقِ الَّتي يُعرفُ بِها تَفسيرُ القُرآنِ الكَريم بَلْ وغَيرُهُ مِن الكَلامِ، إِذا ذُكِرَ الشَّيءُ ثُمَّ ذُكِرَ ما بَعدَه عَلى وَجهِ المُقابَلةِ فيُفسَّرُ ما بَعدَه عَلى ضِدِّ ما قَبله، وَمِن ذَلكَ قَولُه تَعالى: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ [النساء:٧١] لَو أَنَّك

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تأمَّلتَ ما مَعنى ﴿ثُبَاتٍ﴾ هل مَعناها انفِروا ثَابِتينَ على الجِهادِ؟ لا، بَلْ يُفسِّرُها ما بَعْدَها: ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ فيكونُ مَعْنى ثُباتٍ أي: فُرادَى: ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾.

قال اللهُ تَعالَى: ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾، إذن الإساءَةُ تكونُ إمَّا بالإشراكِ بِاللهِ كالرِّياءِ مثلًا، وإمَّا بِالبدعةِ كَبِدَعِ الصُّوفيَّةِ وغَيْرِهم مِن أَصْحابِ الطُّرُقِ الَّذين هم مُخلصونَ إلى اللهِ ويَودُّونَ التَّقرُّبَ إلَى اللهِ لكن بغيرِ ما شَرَعَ اللهُ، فَكانوا ضالِّين كالنَّصارى تمامًا.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أَيْ: بذي ظُلمٍ] ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ هذه كقَولِه فيما سَبَق: ﴿سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ [فصلت:٤٥].

و﴿وَمَا﴾ هُنا حِجازيَّةٌ، فَكُلُّ ما في القُرآنِ حِجازِيٌّ؛ لِأَنَّهُ بِلُغةِ قُريشٍ، وعلى هَذا فمتى أَتَتكَ ﴿مَا﴾ فَهِي حِجازيَّةٌ، قال الله تَعالَى: ﴿مَا هَـٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف:٣١] وَلَو كانتْ تَميميَّةً لقالَ: ما هَذا بَشَرٌ، لكن قال: ﴿مَا هَـٰذَا بَشَرًا﴾.

إذن: كُلَّما أَتَتْكَ ﴿مَا﴾ الَّتي تَكونُ دائرَةً بَينَ الحِجازيَّةِ والتَّميميَّةِ فَاجعَلْها حِجازيَّةً، فهُنا نَقولُ: ﴿مَا﴾ حِجازيَّةٌ و(رَبُّ) اسْمُها وَ﴿بِظَلَّـٰمٍ﴾ خَبرُها لكنَّه جُرَّ بِحَرفِ الجَرِّ الزَّائِدِ.

وقَولُه: ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ هَلِ الخطابُ لِلرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وَليس عَامًّا، فسياقُ الآيةِ يَدُلُّ على أَنَّه خاصٌّ بِالرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولكن لِيعلمَ أَنَّ ما وُجِّهَ الخِطابُ فيه إلى رَسولِ اللهِ ﷺ، فَإِنَّهُ لا يَعْني: أَنَّ الحُكمَ خَاصٌّ به، بَلْ هو لَه ولِلْأُمَّةِ؛ ولِهذا نَقولُ: الخطابُ المُوجَّهُ إِلَى الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَنقسمُ إِلَى ثلاثةِ أَقسامٍ:

الأَوَّلُ: مَا دَلَّ الدَّليلُ على أَنَّه خَاصٌّ بِهِ كَقَولِه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشَّرح:١] هَذا خاصٌّ بالرَّسولِ.

الثَّاني: ما دَلَّ الدَّليلُ على أَنَّه عامٌّ كَقَولِه تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ وهَذا خطابٌ للرَّسولِ: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ [الطلاق:١] هَذا عامٌّ؛ لأَنَّه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ وَمِنه قَولُ اللهِ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [التحريم:١-٢] فأَوَّلُ الآيةِ خاصٌّ والثَّاني عامٌّ.

الثَّالثُ: ما لا دَليلَ فيه عَلى هَذا ولا عَلى هَذا، فَهو خَاصٌّ بالرَّسولِ، لَكن لَنا فيه أُسوَةٌ، وقيلَ: إنَّه للأُمَّةِ لكن خوطِبَ بِها الرَّسولُ؛ لأَنَّه قائدُها عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي: بذي ظلم] إشارَةٌ مِنه رَحِمَهُ اللَّهُ إِلى أنَّ «ظَلَّامَ» صيغةُ نِسبةٍ وليست صيغةَ مُبالغةٍ؛ لأَنَّ فعَّالًا تأتي للنِّسبةِ كنَجَّار وحدَّاد وخشَّاب، وما أَشبهَ ذَلكَ، وتأتي للمُبالَغةِ، فَهُنا (ظَلَّامٌ) يَتعيَّنُ أَنْ تكونَ للنِّسبةِ؛ لأَنَّك لو جَعلتَها لِلمبالغةِ لكان المَنفيُّ هو المُبالغةُ في الظُّلمِ دونَ أَصلِ الظُّلمِ؛ وَالمعلومُ أَنَّ اللهَ تَعالَى مَنفيٌّ عَنه الظُّلمُ أَصلُه والمُبالغةُ فيه، إِذن يَتعيَّنُ أَنْ نَقولَ: إِنَّ (ظَلَّام) صيغةُ نِسبةٍ ولَيست صيغةَ مُبالغةٍ؛ ولهذا فَسَّرها بِقولِه: [أي: بذي ظُلمٍ] واستَدلَّ لِذلكَ بِقَولِه تَعالى: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾] [النساء:٤٠]. وَمَنِ انتَفى عَنه الظُّلمُ في مِثقالِ ذرَّةٍ لا يُمكنُ أَنْ يَكونَ لَديه ظُلمٌ بأَكثرَ، وَلا بِمثقالِ ذرَّةٍ أيضًا، وَلا بِدونِ مِثقالِ ذرَّةٍ.

فَإِن قالَ قائلٌ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ مَفهومُه أَنَّ ما دونها يُمكنُ؟

قُلنا: لا؛ لأَنَّ مِثقالَ ذَرَّةٍ جِيءَ به على سَبيلِ المُبالغةِ لا التَّمثيلِ، وَما كانَ قَيدًا لِلمبالغةِ، فإِنَّه لا مَفهومَ لَه، أَرَأَيتُم قَولَ الرَّسولِ ﷺ: «مَنِ اقتطعَ شِبرًا مِنَ الأَرضِ ظُلمًا طُوِّقَه يومَ القيامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»(١)، فهَل نَقولُ: مَنِ اقْتطعَ نِصفَ شِبرٍ لا يُعاقَبُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئا من الأرض، رقم (٢٤٥٣)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض، رقم (١٦١٢/ ١٤٢) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا.

عليه؟ لا، لَكن ذَكَره على سَبيلِ المُبالغةِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ أي: بِذي ظُلم]. وقولُه: ﴿لِّلۡعَبِيدِ﴾ أي: العبيدِ كونًا لا شَرعًا، يَعني: لَنْ يَظلمَ أَحدًا حتَّى الكافرَ لا يَظلمُه اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

فإنْ قال قائلٌ: إنَّ اللهَ تَعالى -وحاشاه- يَظلمُ الكافرَ، فَالكافرُ مُتِّعَ في الدُّنيا ولنَقُلْ: أَلْفَ سَنَةٍ على كُفرِه وسيَخْلدُ في النَّارِ إلى الأَبَدِ آلافَ ومَلايينَ السِّنينَ مع أَنَّه لَمْ يكفُرْ إلَّا أَلفَ سَنَةٍ، فَالعُقوبةُ زائدةٌ عَلى العملِ، وَهَذا ظُلمٌ!

قُلنا: كَلَّا وَاللهِ إنَّ اللهَ تَعالى أَعذَرَ إلى هَذا الرَّجلِ بِبَعثِ الرُّسلِ وَإنزالِ الكُتبِ وأَعطاهُ عَقلًا وَقالَ: إنْ فعلتَ كَذا عذَّبتُك أَبد الآبِدينَ فَأقدمَ باختيارِه، فَإذا فَعَلَ ما يُوجبُ هَذه العُقوبةَ بِاختيارِه ثُمَّ عوقبَ بها لا يُقالُ: إنَّه مَظلومٌ، إلَّا إذا كان جاهلًا بِالعُقوبةِ لَقُلنا: نَعَم، الواجبُ أَلَّا يُعاقبَ إلَّا بِمِقدارِ ذَنبِهِ كَمًّا وكَيفًا، لكنَّا نَقولُ: إنَّ هذا الرجُلَ قَد عَلِمَ وأُعذِرَ إليه بِإرسالِ الرُّسلِ وبَيانِ ما يُعذَّبُ به، ومَع ذَلك أصرَّ كأَنَّه يَقولُ: أَنا لا أُبالي إذا عُذِّبتُ أَبَدَ الآبِدينَ، وحِينَئذٍ يَكونُ هو الَّذي جَنَى عَلى نَفسِه وفَعَلَ ما يوجبُ هذا العذابَ المؤبَّدَ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾.

مِنْ فَوائدِ الآيةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: الحثُّ عَلى العَملِ الصَّالحِ لِقولِه: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦ﴾؛ لِأَنَّك مَتَى عَلِمتَ أَنَّ عَمَلَك لنَفسِك فسوفَ تَجتهدُ في هذا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ كُلَّ عَمَلٍ لا إخلاصَ فيه فهو ضررٌ على صاحبِه ولَيس لَه، لِأَنَّنا فَسَّرنا العَمَلَ الصَّالحَ بأَنَّه ما جَمَعَ بَين شَرطينِ؛ الإخلاصِ والمُتابَعةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَنْ عَمِلَ عملًا بِدْعيًّا فعَمَلُه عليه لا له؛ لأَنَّه لا يَدخُلُ في

العَمَلِ الصَّالِحِ، وكَثِيرٌ مِن إِخوانِنا الَّذين يَعمَلون بهذه البِدَعِ تَجِدُهم يَبكون ويَخشَعون وتَلينُ قُلوبُهم، ولَهم مِنَ البُكاءِ ما لا يَكونُ عِندَ المُخلِصينَ المُتَّبِعينَ، فَهؤلاءِ نَقولُ لَهمْ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤]، فَلا يَخدعنَّكَ هذا الشَّيءُ الَّذي يَقَعُ مِنهم؛ لأنَّ هَذا مِنْ إِغْواءِ الشَّيطانِ لَهُمْ وغُرورِه إِيَّاهمْ.

فإِنْ قال قائلٌ: قولُه تَعالَى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ هل يُقصَدُ به قَولُه بَعدَه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ﴾؟

فالجَوابُ: أنَّ كلَّ مَنْ عَمِلَ عَملًا سَيِّئًا وهو يَظنُّ أَنَّه مُحسنٌ داخلٌ في الآيةِ وإِنْ كانَ بَعدَها قَولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ﴾، لَكنَّها تَشملُ حتَّى غَيرَهُمْ.

فإِنْ قالَ قائلٌ: هَل نتَّبعُ مثلَ هَذا السَّبيلِ الَّذي ذُكِرَ في الآيةِ؟

فالجَوابُ: نَعَمْ نَتَّبعُ هَذا فَنحكُمُ عَلى ما ثَبَتَ قُبحُه بِعَمَلٍ مُعَيَّنٍ أَنْ يُشارِكَه ما وافقَه في العِلَّةِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ لا يُمكنُ أَنْ يَصِلَ ثَوابُ العَمَلِ الصَّالِحِ إِلَى الغَيرِ لِقولِه: ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾، وبِهذا أَخَذَ أَكثرُ العُلَماءِ وَقالوا: إِنَّ الميِّتَ لا يَنتفعُ إِلَّا بِعَمَلِ وَلَدِه فَقطْ، أَمَّا غَيْرُهُ فَلا، يَعْني: لَو أَنَّك اعْتَمرْتَ لِصَديقٍ لَك مَيِّتٍ أو حَيٍّ لا يَستطيعُ العُمرةَ، فإِنَّ ذلكَ لَا يَنفَعُه؛ لأنَّ ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ لا يَتعدَّى غَيرَه، وما جاءتْ به السُّنَّةُ مِن صيامِ المَرأةِ نَذْرَ شَهرٍ على أُمِّها[1] أو حَجِّها عَن أَبيها الَّذي لا يَثبتُ على

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٣٨)، والنسائي: كتاب الأيمان والنذور، باب من نذر أن يصوم ثم مات قبل أن يصوم، رقم (٣٨١٦)، من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وفيه: عن أختها.

الرَّاحلةِ[١]، فهَذا إِنَّما وَقَعَ مِن الوَلَدِ، وقَدْ قال النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ أَطيبَ ما أَكَلتم مِن كَسبِكم وإِنَّ أَولادَكُمْ مِنْ كَسبِكم»[٢].

فالعملُ مِن كَسبِ الأبِ وَالأُمِّ، وهو جُزءٌ مِنْ أَبيه كَما قال النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم-: «فاطمَةُ بِضعةٌ منِّي يَريبُها ما رابَني»[٣]، قال ذَلكَ عَلى المِنبرِ، وأَشارَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في هَذا الحديثِ -وَهو حَديثٌ طَويلٌ- إِلى التَّنديدِ بِعليٍّ بنِ أَبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأَثنى على أَبي العاصِ بْنِ الرَّبيعِ زَوْجِ ابْنتِهِ زَيْنبَ فَقال: «حَدَّثَني فَصَدَقَني ووَعَدَني فوَفَّاني»، وانْتَقَدَ عَليًّا؛ لأَنَّه قيلَ: إِنَّه أَرادَ أَنْ يَتزوَّجَ بِنتَ أَبي جَهلٍ، فَقامَ الرَّسولُ وخَطَبَ النَّاسَ وَقال: «فاطمةُ بِضعةٌ مِنِّي يَريبُها ما رابَني»، وتَكلَّم بِكلامٍ غليظٍ، لكن عَليَّ بنَ أَبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَدَلَ عَنْ هَذا الأمرِ لَمَّا رَأى النَّبيَّ -صَلَّى اللهُ عَليه وعَلى آله وسلَّم- مُتأَثِّرًا هَذا التَّأَثُّرَ، وأَنَّه لا يُمكنُ أَنْ يجمعَ بَينَ بِنتِ نَبيٍّ اللهِ وبَين بِنتِ عَدوِّ اللهِ، يَعني: هَذا يَكونُ مُتحدَّثَ النَّاسِ.

ونَحنُ نَقولُ: إِنَّ بَعضَ أَهلِ العِلمِ أَخَذَ بمـا يُفيدُه ظاهرُ هذه الآيةِ، وَقال: لَا يَنفعُ العمَلُ لِأيِّ إِنسانٍ نَويْتَه إِلَّا مِنَ الوَلَدِ، ولَكِنَّ كثيرًا مِنَ العُلَماءِ قالَ: بَل إِنَّ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب وجوب الحج وفضله، رقم (١٥١٣)، ومسلم: كتاب الحج، باب الحج عن العاجز رقم (١٣٣٤)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ١٦٢)، وأبو داود: كتاب البيوع، باب في الرجل يأكل من مال ولده، رقم (٣٥٢٨)، والترمذي: كتاب الأحكام، باب ما جاء أن الوالد يأخذ من مال ولده، رقم (١٣٥٨)، والنسائي: كتاب البيوع، باب الحث على الكسب، رقم (٤٤٤٩)، وابن ماجه: كتاب التجارات، باب ما للرجل من مال ولده، رقم (٢٢٩٠)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب ذكر أصهار النبي ﷺ، رقم (٣٧٢٩)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة بنت النبي عَلَيْهَا السَّلَامُ، رقم (٢٤٤٩)، من حديث المسور بن مخرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الَّذي يَنتفعُ بِهِ الميِّتُ مِنْ وَلَدِه لا مانعَ مِن أَنْ يَنتفعَ به مِن غَيرِه، ورُبَّما يُستدلُّ لِذلك بِحديثِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ النَّبيَّ ﷺ سَمِعَ رَجلًا يقولُ: لَبَّيكَ عَنْ شُبرُمَةَ، قال: «مَنْ شُبْرُمَةُ؟» قال: أَخٌ لِي، أو قَريبٌ لِي[1]، فقال: أَخٌ أَو قَريبٌ وَهو مُحْرِمٌ عنه، قالوا: فَهذا يَدُلُّ على أنَّه يَجوزُ للإنسانِ أَنْ يَنوبَ عن غَيرِه فيُقالُ: هَذه نِيابةٌ عَن الغيرِ، والحجُّ أَيضًا يَسلَمُ له.

ولكنَّ الَّذي يَظهرُ لي أنَّه لا فَرْقَ بين الولَدِ وغَيرِه وبَين الحجِّ وغَيرِه، لكنَّ الَّذي نَنتقِدُه إِسرافُ النَّاسِ الآنَ بالأعمالِ لِلأمواتِ تَجِدُه يَخْتُمُ القُرآنَ في رَمضانَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ ويَقولُ: المرَّةُ الأُولَى لِأُمِّي والثَّانيَةُ لِأَبَوَيَّ والثَّالثةُ لِجَدَّتي وَالرَّابعةُ لِجَدِّي والخامسةُ لِأخي، وَالسَّادسةُ لِأُختي وَالسَّابعةُ لِعَمِّي وَالثَّامنةُ لعَمَّتي، ويَمضي رَمضانُ ولَيس لَه ثَوابٌ كُلُّه أَعطاه لِلنَّاسِ، هَذا غَلطٌ وإِفراطٌ ولَيس مِن هَدي السَّلفِ الصَّالحِ.

كَذلكَ أَيضًا بَعضُ النَّاسِ يُسرفُ ويُخالفُ السُّنَّةَ فِي إِسرافِه تَجِدُه يَذهبُ يَعتمرُ أَوَّلَ عُمرةٍ لَه، وَفي نَفس الوقتِ وَهو في مَكَّةَ ثَاني عُمرةٍ لِأُمِّه، وثَالثُ عُمْرةٍ لِأبيه كُلَّ يوم عُمْرةٌ، وَإِذا قَدَّرنا أَنَّه بَقِي عَشَرةُ أَيَّامٍ ولَهُ عَشَرَةُ أَقاربَ عَشْرَ عُمْراتٍ، هَذا غَلَطٌ ولَيس مِن هَدي السَّلفِ، والشَّرعُ لَيس حَسَبَ الذَّوقِ أو مَيلِ النَّفسِ أَوِ الهَوى، بل الشَّرْعُ مُحدَّدٌ، فهَلْ وَرَدَ عَنِ السَّلَفِ أَنَّهمْ يُكرِّرونَ العُمرةَ لا لأنفسهم ولا لِغيرِهم، لَمْ يَرِدْ إِطْلاقًا، فَأَصلُ تَكرارِ العُمرةِ في سَفَرٍ واحدٍ غَيرُ مَشروعٍ؛ ولِهَذا قال عَطاءُ بنُ أَبِي رَباحٍ وهو عَالمُ مَكَّة في زَمنِه: لا أَدْري هَؤلاءِ الَّذين يَخرُجونَ إِلى التَّنْعيمِ أَيَأْثمون أَمْ يَسلمونَ؟

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب المناسك، باب الرجل يحج عن غيره، رقم (١٨١١)، وابن ماجه: كتاب المناسك، باب الحج عن الميت، رقم (٢٩٠٣)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

يَعْني: مَعناهُ أَنَّه لَيس لهم أَجرٌ؛ لأَنَّه لَمْ يَرِدْ عن الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَلذلكَ يَجِبُ على طَلَبَةِ العلمِ أَن يُبيِّنوا لِلنَّاس حتَّى وإِنِ انتقدوهم، فَنحنُ دائمًا نُحذِّرُ مِن هَذا في الحَرَمِ، ونَقولُ: هَذا غَلطٌ ولَيس بمَشروعٍ، ثُمَّ يَذهبونَ إِلَى ناسٍ مِنَ النَّاسِ فَيقولُ لَهم: لا بأس، أَوَّلُ يَومٍ لكَ وثَاني يومٍ لِأُمِّك وثَالثُ يَومٍ لِأَبيك، أَعطِها العالَمَ كُلَّ واحدٍ عُمرةً، وإِنْ كَثُرَ أَقاربُكَ وقَلَّتْ أَيَّامُكَ في مكَّةَ فَلا بَأسَ أَنْ تأخُذَ عُمرتَينِ في يَومٍ لا مانِعَ فيه، وإِنْ كَثُروا أَكثِرْ، وقَلَّتِ الأَيَّامُ أَقِلَّ، اجْعلْ عُمرتَينِ في اليومِ وعُمرتَينِ في اللَّيلَةِ! فلا إِلَهَ إِلَّا اللهُ! ومَنْ قالَ بِهذا!

لكنَّ المُشكلَةَ أَنَّ بَعضَ العُلماءِ يَتهاونونَ في هَذه الأُمورِ ولا يُريحونَ عِبادَ اللهِ، فتَجِدُه مِسكينًا في أَيَّامِ مَوسمِ الحجِّ يَتكلَّفُ كُلفةً عَظيمةً في الزِّحامِ وَالمشقَّةِ، ومع ذَلك يُصِرُّ على أَنْ يَأتيَ بِعُمرةٍ لِأَبيه وأُمِّه مع أَنَّ هَذا ليس مِنْ هَدي السَّلفِ، ويُضيِّقُ عَلى النَّاسِ، يُضيِّقُ بَعضُهم على بَعضٍ، فنَسألُ اللهَ الهِدايةَ.

فإِنْ قال قائلٌ: هَلْ يُفْهمُ أَنَّه لا فَرْقَ بين الولَدِ وَغيْرِه، وبين الحَجِّ وغيرِه كرَجلٍ صلَّى رَكعتَينِ للهِ ويَقولُ: هُما لِأَبي؟

فالجوابُ: هُنا صيغتانِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَعمَلَ لِغيرِه:

الصِّيغةُ الأُولَى: أَنْ يَنويَ النِّيَّةَ لِلغيرِ مِن ابتداءِ العَملِ مِن الأَصلِ مِنْ حين ما أَرادَ أَنْ يُكبِّرَ نَوى أَنَّها لِأبيه أو لِأُمِّه، فَهذا يَصِلُ ولا إِشكالَ فيه؛ لأَنَّه كالَّذي يَحُجُّ ناويًا الحَجَّ عن أَبيهِ أو أُمِّه مِن الأَصلِ.

الثَّانيةُ: أَنْ يَعمَلَ العملَ ثُمَّ بَعد الفَراغِ مِنه يَنويهِ لِأَبيه أو أُمِّه هَذه اخْتَلفَ فيها العُلماءُ حتَّى الَّذين يَقولونَ بِجوازِ إِهْداءِ القُربِ اختلفوا، هَل يَصِحُّ هَذا أَمْ لا؟

ووَجْهُ الفَرقِ بَينَ هَذه وَالَّتي قَبْلَها أَنَّ الَّتي قَبلَها ابْتدَأَ النِّيَّةَ مِن أَوَّل الفِعلِ، فَهو يَفعلُ ويَتحرَّكُ ويَتكلَّمُ فَيشعُرُ أَنَّه قائمٌ به عَن الغيرِ، أَمَّا هَذا فقدْ صلَّى وَانتهى مِنْ صَلاتِه على أَنَّها لَهُ فَثَبَتَ الأَجْرُ لَه، وَإِذا ثَبتَ الأَجرُ لَه فَليسَ من حقِّه أَنْ يَتصرَّفَ في الثَّوابِ هُو يَتصرَّفُ فِي العملِ، أَمَّا الثَّوابُ فَلا، فَيَقولُ هَؤلاءِ: إِنَّه إِذا أَهدى العَملَ بَعْدَ فِعلِه لا يَصِلُ إِلَى المُهدَى إِلَيه؛ لِأَنَّ العملَ ثَبَتَ لِنفسِه وَانتهى العَمَلُ وَالنِّيَّةُ لِنفسِه، وَإِذا أَهداه لِغيرِه فَقدْ تَصرَّف فِي الثَّوابِ والتَّصرُّفِ فِي الثَّوابِ لَيس إِليه، وإِنَّما هو إِلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولَيس هَذا أَمْرًا ماليًّا تَقولُ: واللهِ أَبي أَعطَى فُلانًا عَشَرةَ دراهمَ أو مِئةَ دِرهمٍ، هَذا ثَوابٌ عِندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وكُتبَ لَكَ وانتهى الأَمرُ.

وهَذا التَّفريقُ تَفريقٌ جَيِّد ولَه مَعنًى لَطيفٌ، ولا شَكَّ أَنَّه معنًى جيِّدٌ التَّفْريقُ بَين أَنْ تَعملَ العَملَ من أَوَّلِه لصاحبِك، وبَين أَنْ تَعمَلَه لِنفسِك، ثُمَّ بَعدَ ذَلكَ تُهدي ثَوابَه لِصاحبِك، فَهُنا العملُ كُتِبَ لَكَ والثَّوابُ كُتِبَ لَكَ، فَلَا يُمكنُكَ أَنْ تَتصرَّفَ فيه التَّصرُّفَ في الثَّوابِ للهِ عَزَّوَجَلَّ واللهُ أَعلمُ.

إِذنْ قَولُه تعالى: ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ اسْتدلَّ بِها بَعضُ العُلماءِ على أَنَّ العَمَلَ الصَّالحَ لا يَتعدَّى الغيرَ؛ أَيْ: لا يَتعدَّى فَاعلَه ونَحنُ نَقولُ: ما جاءت به السُّنَّةُ فَهو مُخصَّصٌ لِهَذا، والسُّنَّةُ تُفسِّرُ القُرآنَ وتُبيِّنُه، ولكن هل يُقاسُ عَليهِ؟ هَذا مَحلُّ نَظرٍ، وعِندي أَنَّهُ لا بَأسَ أَنْ يُقاسَ عَليهِ؛ لِأَنَّ الَّذي وَرَدَ إِنَّما هو قَضايا أَعيانٍ، فَإِذا كَانتْ قَضايا أَعيانٍ، فَرُبَّما نَقيسُ على هَذه العَينِ ما شابَهها، لكنَّ الَّذي يُنكَرُ هو الإِسرافُ وَالإِفراطُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ مَن أَساءَ فَعَلى نَفسِه أَساءَ لا يَضُرُّ اللهَ شيئًا.

ولكن لَو قال قائلٌ: أَليس النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم- أَخبَرَ بأَنَّ مَن

سَنَّ في الإِسلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعليهِ وزرُهَا ووِزرُ مَنْ عَمِلَ بها إلى يَومِ القيامةِ[1]، إذن هَذا الإنسانُ صارتْ إساءَةُ غَيرِه عليهِ وَاللهُ يَقولُ: ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ على نَفسِه فَقَطْ؟

فيُقالُ: إنَّ كَونَه سَنَّ هَذه السَّيِّئَةَ هو عَمَلُه الَّذي تَبِعَه النَّاسُ عَليه، ولَو لا أَنَّه فَعَلَه ما فَعلَه النَّاسُ، فَالنَّاسُ إِنَّما فَعلوا اتِّباعًا لَه فَيكونُ هَذا في الحَقيقَةِ منْ فِعلِه؛ لِأَنَّه هو الَّذي سَنَّ هَذه السُّنَّةَ السَّيِّئَةَ؛ ولهذا ما مِنْ إنسانٍ يَقتُلُ نفسًا عَمدًا بِغيرِ حَقٍّ إلَّا كان على ابْنِ آدمَ الأَوَّلِ كِفلٌ مِنها، يَعني: قابيلَ حَيث قَتَلَ هابيلَ حَسَدًا بِدونِ إساءةٍ إِليه، قَرَّبا قُربانًا فتَقَبَّلَ اللهُ مِن هابيلَ ولَمْ يَتقبَّلْ من قابيلَ. فَقالَ لَهُ: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ حَسَدًا؛ لِأنَّ اللهَ قَبِلَ مِن صاحبِه ولَمْ يَقبَلْ منه، فأَرشدَه صاحبُه إلى ما يَكونُ بِه القَبولُ: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧]، ومَعنى الآيةِ حَثُّه على أَنْ يَتَّقيَ، ولَيس المعنى أَنَّه كان مُتَّقيًا فقُبِلَ، وإنَّما يحثُّه على التَّقوى كأَنَّه يَقولُ: اتَّقِ اللهَ يَتقبَّلْ منك. ثُم قال لَه: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة:٢٨].

ولَعَلَّ هَذا لَم يَكُنْ مَشروعًا في عَهدِهِمْ أَنْ يُدافعَ الإنسانُ عَن نَفسِه؛ لأنَّ في شَريعتِنا مَنْ أَرادَ قَتلَك يَجِبُ عَليكَ أَنْ تُدافِعَه حتَّى لو قَتَلْتَه فهو في النَّارِ، ولو قَتَلَكَ فأنت شَهيدٌ، لكن لَعلَّه في عَهدِهم لَم يَكُنْ ذَلكَ مَشروعًا، وهو مِنَ الآثارِ الَّتي كَتبَها اللهُ على مَنْ قَبلَنا ونَجَّانا اللهُ منها.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: انتفاءُ الظُّلمِ عَن اللهِ عَزَّوَجَلَّ لِقولِه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم (١٠١٧)، من حديث جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهَذه مِن صِفاتِ النَّفي، وصِفاتُ اللهِ تعالى نَوعانِ: صِفاتُ إثباتٍ، وصِفاتُ نَفيٍ، فصِفاتُ الإثباتِ كَثيرَةٌ جدًّا وصِفاتُ النَّفي أَقلُّ، ولكن مَعَ ذَلكَ صِفاتُ النَّفيِ هي في الحقيقةِ صِفاتُ إثباتٍ؛ لأنَّ المُرادَ بالنَّفيِ إثباتُ ضِدِّ ذَلكَ فَمثلًا: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ﴾ المُرادُ إثباتُ كَمالِ عَدلِه وأَنَّ عَدْلَه لا ظُلمَ فيه بِوَجهٍ مِنَ الوجوهِ.

إذن خُذْ قاعدةً عَريضةً: لا يوجدُ النَّفيُ المحضُ فِي صِفاتِ اللهِ أَبدًا، كُلُّ نَفيٍ في صِفاتِ اللهِ فَهو إثْباتٌ لِضدِّ النَّفيِ، فَكأَنَّه يَقولُ عَزَّوَجَلَّ: هو أَعدلُ الحاكمينَ وَلا ظُلمَ في حُكمِهِ إطلاقًا.

وقولُه تَعالَى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم:٦٤] مِن صِفاتِ النَّفيِ لكن لِإثباتِ كَمالِ عِلمِه، وَأنَّه لِكمالِ عِلْمِه لا يَرِدُ عليه النِّسيانُ إطلاقًا، وأَمَّا عِلمُنا نَحنُ فَيَرِدُ عليه النِّسيانُ، وَهو أيضًا حاصلٌ بعدَ جهلٍ سابقٍ يَقولُ اللهُ تَعالَى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل:٧٨] فعِلمُنا في الواقعِ مَعيبٌ مِن وجوهٍ:

الأَوَّلُ: أنَّه مَسبوقٌ بِجهلٍ.

الثَّاني: أَنَّه مَلحوقٌ بِنسيانٍ.

الثَّالثُ: أَنَّه لَيس شاملًا عامًّا.

ونَقولُ: هَذا النَّفيُ في صِفةِ الله لا يُرادُ به النَّفيَ المَحضَ، بَل هُو إثباتٌ في الواقعِ، إذ إنَّ المُرادَ به إثباتُ كَمالِ ضِدِّه؛ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ﴾ أي: أَنَّه عَدلٌ لا ظُلم في عَدلِه إطلاقًا.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثباتُ العدْلِ في أَعلى مَقاماتِه، حَيثُ قال: ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾؛ أَيْ: لِعبيدِه، وهَذا أَبلغُ لو قُلتُ لَكَ: أَنتَ لا تَظلِمُ عَبيدَك، فَهو أَبلغُ مِمَّا لَو قُلتُ: أَنت

لا تَظلِمُ النَّاسَ؛ لأنَّ عَدمَ ظُلمِك النَّاسَ؛ لِأنَّه لا سَيطرةَ لك عليهم لكن إذا كُنت لا تَظلِمُ عَبيدَك كان هَذا أَبلغَ في إثباتِ العدلِ، إذا كُنتَ لا تَظلمُ مَن لكَ سُلطةٌ عليهِ، فلِئلَّا تَظلِمَ مَن لا سُلطةَ لَك عليه مِن بابِ أَوْلَى.

إِذَنْ فَقابِلْ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ بقَولِ القائلِ: فُلانٌ لا يَظلِمُ النَّاسَ، أَيُّهما أَبلغُ؟ الأوَّلُ؛ لِأنَّه إذا كانَ لا يَظلِمُ عَبيدَه مع أَنَّهم عَبيدُه يَفعلُ بِهِمْ ما يشاءُ، فَلِئلَّا يَظلِمَ غَيرَهم، ولَكنَّ هَذا على سَبيلِ الفرضِ وإلَّا فكلُّ مَن في السَّمَواتِ والأرضِ آتي الرَّحمنَ عبدًا.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الرَّدُّ على الجبريَّة في قَولِهم: إنَّ الظُّلمَ في حَقِّ اللهِ مُحالٌ، وانتفاءُ المُحالِ ليس مَدْحًا؛ لأنَّ المُحالَ لا يُمكنُ وُجودُه لِذاتِه ولو أَرادَه الإنسانُ لَم يُوجَدْ؛ لأنَّه مُحالٌ، لكنَّ انتفاءَ المُمكنِ إذا كان الانتفاءُ مَدْحًا فهو مَدْحٌ.

وهُنا في قَولِه تَعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ﴾ تُفيدُ الآيَةُ أَنَّ الظُّلمَ في حقِّه مُمكنٌ، لكن لِكمالِ عَدلِه لا يُمكنُ، فَالظُّلمُ ليس مُحالًا لِذاتِه في حَقِّ اللهِ، بل هو مُحالٌ لِكمالِ عَدْلِ اللهِ، وبِهـذا يَتحقَّق المدحُ مَدحُ اللهِ تَعالَى بِانتـفاءِ الظُّلمِ عنه، أَمَّا لو كان شيئًا مُحالًا لا يُمكنُ فالمُحالُ لا يُمدَحُ به.

فإنْ قال قائلٌ: الأُمورُ الَّتي يُحدِّثُ بها الشَّخصُ نَفسَه غَيرَ الشَّكِّ -كالمَعاصي- إذا رَكَنَ إليها ولَمْ يَعملْ بها هل تَدخلُ في قولِ الرَّسولِ ﷺ: «**إنَّ اللهَ تَجاوزَ عن أُمَّتي ما حَدَّثتْ به أَنْفُسَها ما لَم تَعْمَلْ أو تَتكلَّمْ**»[1]؟

فَالجَوابُ: إن كان فَكَّر فيها ولكن ما هَمَّ بها هَذا لا شَيءَ عليه، ولكنَّ السَّلامَةَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والكره، رقم (٥٢٦٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَسلمُ، ولِهذا نَقولُ: إنَّ مَن أَرادَ المعصيةَ ولَمْ يَفعلْها له ثلاثُ حالاتٍ:

الحالُ الأُولَى: أَنْ يعجَزَ عنها ويَفْعلَ الأسبابَ الَّتي يُريدُ الوصولَ بها إليها ولكن يَعجَزُ كَرَجُلٍ سارقٍ هَمَّ بِالسَّرقةِ ووَضَعَ السُّلَّمَ على الجِدارِ لِيَصْعدَ منه، وبَينما هو في أَثناءِ الصُّعودِ إذا برجُلٍ يَمرُّ في الشَّارعِ فنَزَل وَهَرَب، هذا يُكتَبُ له عَمَلُ السَّيِّئةِ، كأَنَّه عَمِلَها تمامًا مَعَ أنَّه لم يَعملْها؛ لأنَّه أَرادَها وعَمِلَ لها لكن عَجَزَ.

والدَّليلُ على ذَلِكَ قَولُ النَّبيِّ ﷺ: «**إذا التَقَى المُسلِمانِ بِسَيفَيهِما فالقاتلُ وَالمقتولُ في النَّار**»، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، هَذا القاتلُ -يَعني: في النَّارِ- فما بَالُ المَقتولِ؟ قال: «**لأنَّه كان حَريصًا على قَتْلِ صاحِبِه**»(١).

إذنْ: مَن هَمَّ بالسيِّئةِ وعَمِلَ لها عَمَلها لكن عَجَزَ عن إتمامِها كُتِبَ له وِزْرُها كاملًا.

الثَّانيةُ: مَنْ هَمَّ بها وتَمنَّاها ولَكنَّه عَجَزَ عَنها بِدونِ أَنْ يَعْمَلَ عَمَلَها، فَهذا عليه وِزرُ النيَّةِ، والدَّليلُ على هَذا: «**أَنَّ النَّبيَّ ﷺ أَخبرَ عنْ رَجُلٍ آتاهُ اللهُ المالَ فَجعَلَ يَتخبَّطُ فيه، فقالَ الفقيرُ: لو أَنَّ لي مِثلَ مالِ فُلانٍ لَعمِلْتُ فيه عَمَلَ فُلانٍ، قال: فَهو بنِيَّتِه فَهُما في الوِزْرِ سواءٌ**»(٢)، في الوِزْرِ الإراديِّ لا العَمَليِّ؛ لِأَنَّ هذا لَمْ يَعمَلْ.

الثَّالثةُ: أَنْ يَكونَ هَمَّ بِالسَّيِّئةِ وعَـزَمَ عليها، ولكن تَذكَّـر خَشْيَةَ اللهِ فتَرَكَها

---

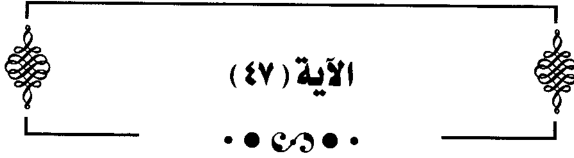
(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾، رقم (٣١)، ومسلم: كتاب الفتن، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، رقم (٢٨٨٨)، من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٣٠)، والترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، رقم (٢٣٢٥)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب النية، رقم (٤٢٢٨)، من حديث أبي كبشة الأنماري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

خوفًا مِنَ اللهِ، فَهذا تُكتَبُ له حَسنَةٌ كاملَةٌ.

وهُناكَ قِسْمٌ رابعٌ -لَكن لا يَدْخُلُ في تَقسيمِنا-، وَهو مَنْ لم تَطرأْ له المَعصيةُ على بالِه، فَهذا لا يُكْتبُ له ولا عَليه، كإِنسانٍ مُستقيمٍ، ولا يَطْرأُ على بالِه السَّرِقةُ ولا الزِّنا وَلا شُربُ الخَمرِ، هَذا لَيسَ له ولا عليه، لَكنَّ هَذا غَيرُ داخلٍ في تَقْسيمِ الإِرادةِ يَعني: مَنْ أَرادَ السُّوءَ.





الآية (٤٧)

۞ قال اللهُ تعالَى: ﴿ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّـٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ [فصلت:٤٧].



قوله: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إِلَى اللهِ وَحدَهُ، وإِنَّما قُلنا: وَحْدَهُ لِتقديمِ المَعمولِ، وتَقديمُ المَعمولِ يُفيدُ الحَصرَ، وذَلكَ أَنَّ المعمولَ مكانُه أَنْ يَكونَ بَعدَ العامِلِ، فَإذا تَقدَّمَ فَإِنَّه يَكونُ مِن بابِ تَقديمِ ما حَقُّه التَّأخيرُ، وَالقاعدةُ اللُّغويَّةُ البلاغيَّةُ: أَنَّ تَقديمَ ما حَقُّه التَّأخيرُ يُفيدُ الحَصرَ، وعلى هَذا فقولُه: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ﴾ المعنَى: إِليه لا إِلى غَيرِه، وأَخذنا النَّفيَ -لا إِلى غَيرِه- مِن تَقديمِ المعمولِ؛ لِأَنَّ المعمولَ حَقُّه أَنْ يَكونَ بَعدَ العاملِ، فَإذا قُدِّم كان هَذا مِن بابِ تَقديمِ ما حَقُّه التَّأخيرُ، وتَقديمُ ما حَقُّه التَّأخيرُ يُفيدُ الحصرَ، هَذه قاعدةٌ لُغويَّةٌ بَلاغيَّةٌ.

﴿يُرَدُّ﴾ أَيْ: يَرجعُ ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَتَى تكونُ لا يَعلمُها غيرُه]، أَخذَ هَذا الحصرَ لا يَعلَمُها غَيرُه مِن تَقديمِ المَعمولِ وهو ﴿إِلَيْهِ﴾.

وهَذا لا شَكَّ فيه أَنَّه لا يَعلَمُ مَتَى تَقومُ السَّاعةُ إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولِهذا قال اللهُ تعالَى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ [الأعراف:١٨٧]

يَعني: ما عِلْمُها إِلَّا عِندَ رَبِّي: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف:١٨٧].

وقال النَّبيُّ ﷺ: «**وقَدْ سَأَلَه جِبريلُ: أَخْبِرني مَتَى السَّاعةُ؟ قال: ما المَسؤولُ عَنها بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**»(١).

يعني: أَنَّه لا عِلمَ عِندي كما أَنَّك أنت ليس عِنْدكَ عِلمٌ، وعَلَى هَذا فَمَنِ ادَّعى عِلْمَ السَّاعةِ فهو كاذبٌ لا شَكَّ فيه ثُمَّ هو كافرٌ أيضًا؛ لأَنَّه مُكذِّبٌ للقُرآنِ وَالسُّنَّة.

قال اللهُ تَعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ قَوْلُه: ﴿وَمَا تَخْرُجُ﴾ قَدْ يَتراءى لِلإنسانِ أَنَّ (ما) اسمٌ مَوصولٌ يَعني: ويُرَدُّ إليهِ عِلْمُ: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ ولكنَّ هذا وَهْمٌ، وعَلَى هَذا فنَقُولُ: (ما) نافيةٌ.

يَقُولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [«وَما تَخْرُجُ مِن ثَمَرَةٍ» وَفي قِراءةٍ ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾]. المفسِّر فَسَّر على قِراءةِ «ثَمَرةٍ» مُفردةٍ، والقراءَةُ الَّتي بَين أَيْدينا في المصحفِ ﴿مِن ثَمَرَٰتٍ﴾، وَاعْلَمْ أنَّ للمُؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ اصطلاحًا وهو أَنَّه إذا قال: [وفي قراءةٍ] فَهي سَبْعيَّةٌ، وَإذا قال: [وقُرِئَ] فهي قراءةٌ شاذَّةٌ ليست مِنَ السَّبْعِ هَذا اصطلاحُ الجلالَينِ رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ.

إِذنْ: في قِراءةِ ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾ القراءةُ هَذه سَبْعيَّةٌ يَعني: أَنَّها ثابتةٌ تَجوزُ القراءَةُ بِها في الصَّلاةِ، وَتَكونُ حُجَّةً في الأحكامِ الشَّرعيَّةِ وَفي الأَخبارِ العلميَّة.

فَأَمَّا عَلَى صيغَةِ الجمعِ فَواضحٌ ﴿مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ كُلُّ الثَّمراتِ، وأَمَّا عَلى صيغَةِ الإفرادِ فَهي أيضًا تُفيدُ العمومَ؛ لِأَنَّ «ثمرة» نكِرَةٌ في سياقِ النَّفْي مُؤكَّدةٌ بِمِن الزَّائدةِ فتَشملُ جَميعَ الثَّمراتِ، وعَلَى هَذا فَلا اختلافَ في المَعنَى بين ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾ وَ«ثمرة».

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثمرة﴾، وفي قِراءةٍ ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾ ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

أَوعيتُها] الأكمامُ الأَوعيةُ يقولُ: [جَمْعُ كِمٍّ بِكسرِ الكافِ].

﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ الأكمامُ هي أَوعيةُ الطَّلِّ هَذا مَعروفٌ في النَّخلِ، وكَذلكَ مَعروفٌ في الأزهارِ تَجِدُ الزَّهرةَ عَليها غِلافٌ يُسمَّى كِمًّا، فما تَخرجُ مِن ثَمَرةٍ مِنْ كِمِّها إِلَّا بِعِلمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أَيُّ ثَمرةٍ تكونُ صَغيرةً أَوْ كَبيرةً مَأكولةً أَوْ غَيرَ مَأكولةٍ، فَهي بِعِلمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ووَجْهُ كَونِها بِعلمِهِ أَنَّ هَذه الثَّمراتِ مَخلوقةٌ للهِ، وكُلُّ مَخلوقٍ للهِ فَهو مَعلومٌ لَه لِقولِه تَعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

فأَنت مَتَى أَقْرَرْتَ أَنَّ اللهَ خالقُ هَذه لَزِمَ مِن إِقْرارِك أَنْ يَكونَ اللهُ عالمًا بِها؛ لِأَنَّه لا يُمكنُ أَنْ يَخْلُقَها وهو لا يَعلمُ، ولِهَذا استدَلَّ اللهُ لِذلك بِدَليلٍ عَقليٍّ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

قال اللهُ تَعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فصلت:٤٧]، ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ أَيْ: أُنْثى مِن بَني آدمَ أو مِن الحَيوانِ ما تَحملُ ولا تَضعُ إِلَّا بعِلمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فابتداءُ الحملِ مَعلومٌ عِندَ اللهِ، ووَضْعُه كَذلكَ مَعلومٌ عِندَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

نَرجِعُ إِلى قَولِهِ: ﴿مِنْ أُنثَىٰ﴾ وإِلَى قَولِه: ﴿مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ الإِعرابُ ﴿مِنْ﴾ حَرفُ جَرٍّ زائدٌ مِن حَيثُ الإِعرابُ وليس زائدًا مِنَ حَيثُ المعنَى؛ لِأَنَّه يُفيدُ مَعنًى وَهو التَّوكيدُ، وعَلَى هَذا فنَقولُ: ﴿مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ حَرفُ جَرٍّ زائدٌ وَ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾ فاعلٌ مَرفوعٌ بِضمَّةٍ مُقدَّرةٍ عَلَى آخِره مَنَعَ مِن ظُهورِها اشتغالُ حَركَةِ المَحلِّ بِحرفِ الجرِّ الزَّائِدِ، وكَذلِك يُقالُ: ﴿مِنْ أُنثَىٰ﴾ ﴿مِنْ﴾ حَرفُ جَرٍّ زائدٌ وَ﴿أُنثَىٰ﴾ فاعلٌ مَرفوعٌ بِضَمَّةٍ مُقدَّرةٍ عَلَى آخِره، مَنَعَ مِن ظُهورِها التَّعذُّر، وهو في مَحَلِّ جَرٍّ لَفظًا لِدخولِ ﴿مِنْ﴾ عَليهِ.

وقَولُه: ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ بعِلْمِهِ السَّابقِ؛ لِأنَّ عِلمَ اللهِ تَعالى مُحيطٌ بِكلِّ شَيءٍ أَزلًا وأَبدًا، فَهو يَعلَمُ ما تَخرجُ مِن ثَمَراتٍ مِن أكمامِها إلى يَومِ القِيامةِ، وَكَذلكَ ما تَحملُ مِن أُنثى وَما تَضعُ.

ثُمَّ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ ﴿وَيَوْمَ﴾ ظَرفٌ والظَّرفُ يَحتاجُ إِلَى ما يَتعلَّقُ بِه؛ لِأَنَّه مَفعولٌ فيه، وَإِذا كانَ مَفعولًا فيه فَلا بُدَّ مِن فِعلٍ يَكونُ عاملًا فيه، وَالعاملُ في هَذا مُقدَّرٌ، وَالتَّقديرُ: «وَاذْكُرْ يومَ يُناديهم أَينَ شُركائِي..» إلى آخرِه، ومِثْلُ هَذا التَّعبيرِ مَوجودٌ في القُرآنِ كَثيرًا.

وإِنَّما أَمَرَ اللهُ تَعالَى نَبيَّهُ بِذِكرِهِ تخويفًا لِهؤلاءِ المُكذِّبينَ، وتَسليةً لِرَسولِ اللهِ -صلَّى اللهُ عَليه وعَلى آلِهِ وسَلَّم-.

وقَولُه: ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ أَيْ: يَدعوهمْ بِصوتٍ رَفيعٍ؛ لِأَنَّ النِّداءَ يَكونُ بِصَوتٍ رَفيعٍ والمُناجاةُ تَكونُ بِصوتٍ أَدنَى، وفاعلُ ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ هو اللهُ بِدَليلِ قَولِهِ: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ يَعني: أَنَّ اللهَ تَعالى يُنادي هَؤلاءِ المُشرِكينَ يَقولُ: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾، وَهذا الِاستِفهامُ لِلتَّعجِيزِ وَالتَّوبيخِ أيضًا، فَهو جامعٌ بَينَ مَعنيَينِ: التَّعْجيزِ، وَالثَّاني التَّوبِيخُ. يَعني: أَينَ الَّذينَ أَشركتُم مَعي؟

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ﴾ أَعلَمناكَ الآنَ: ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾] آذَنَ بِمعنَى أَعلَمَ، ومنهُ قَولُه تَعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة:٣] أَيْ: إِعلامٌ مِنَ اللهِ ورَسولِه (فَآذَنَ) بِمعنَى أَعْلَمَ، ومِنه في الحَديثِ: أَنَّ الرَّسولَ -صلَّى اللهُ عَليهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّم- قالَ لِلنِّساءِ اللَّاتي يَغسِلْنَ ابْنتَه: «إِذا فَرَغْتُنَّ فَآذِنَّني»(١). أي: أَعلِمْنني.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما يستحب أن يغسل وترا، رقم (١٢٥٤)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب في غسل الميت، رقم (٩٣٩)، من حديث أم عطية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾، يَقولُ المفسِّر: [أَعْلمناكَ الآنَ] فَأفادَ المفسِّر بِقولِه: الآنَ أَنَّ الفعلَ الماضيَ ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ بمَعنَى المُضارِعِ، فَهوَ إذن جُملَةٌ خَبريَّةٌ حاليَّةٌ بِمعنَى الآنَ نُعلِمُكَ، ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾. وقيلَ: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ إنَّها فِعلٌ ماضٍ عَلى بابِها، فَهي بِمعنَى الخبرِ عن شَيءٍ ماضٍ.

فعِندَنا قَـولانِ هَلِ الإِعلامُ هُنا يَومَ القيامةِ كَما قال المفـسِّر: أَعْلمناكَ الآنَ، أَمْ هو إِعلامٌ سابقٌ في الدُّنيا؟

إِنْ نَظَرْنا إِلَى ظاهِرِ اللَّفظِ نُرجِّحُ أَنَّه إِعلامٌ في الدُّنيا يَعني: أَعلمْناكَ في الدُّنيا فَيكونُ عَلى ظاهِرِه، لَكنْ يَشكُلُ عَلى هَذا التَّفسيرِ أَنَّ واقعَ حالِهم لا يَدُلُّ عَلَى هَذا؛ لِأنَّهم مُشركونَ فِعلًا فَكيْفَ يُؤذِنونَه أَنَّه ما منهم مِن شَهيدٍ بِذلكَ، أَجابَ القائِلونَ بِهذا أنَّ المَعْنَى ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ بِحَسَـبِ الفِطرةِ وَما في قُلـوبِنا؛ لِأَنَّه ما مِن مَوْلودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَى الفِطرةِ.

﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ صيغَتُها فِعلٌ ماضٍ يَقتضي أَنْ يَكُونَ هَذا الإِعلامُ سابقًا عَن وَقْتِ الخِطابِ، هَذهِ واحدَةٌ. وَالثَّانيةُ: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ فِعْلٌ ماضٍ لَكنْ يُرادُ به الخَبرُ عَنِ الحالِ الحاضِرَةِ، فَهو بِمعنى نَحنُ نُؤذِنُك الآنَ، وهَذا التَّفسيرُ مُخالفٌ لِظاهِرِ اللَّفظِ لَكنَّه مُوافقٌ لِواقِعِ حالِهِمْ.

التَّفـسيرُ الأَوَّلُ مُوافقٌ لِلَّفظِ لكنَّه مُخالفٌ لِظاهِـرِ حالِهِمْ؛ لِأَنَّهم لا يُعْلِمونه بِذلِكَ، إذ إِنَّهم مُشركون فِعلًا، وأَجابَ هَؤلاءِ الَّذين يَقولون: إِنَّه آذَنَكَ في الدُّنيا أَنَّهمْ أَعْلَموه بِحسَبِ الفِطرةِ الَّتي فُطِرُوا عَليها؛ لِأَنَّه ما من مَولودٍ يُولَدُ إِلَّا على الفِطرةِ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أَيْ: شاهدٌ بِأَنَّ لَكَ شَريكًا].

﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ ﴿مَا﴾ نافيةٌ و﴿مِنَّا﴾ جارٌّ ومجرورٌ خبرٌ مُقدَّمٌ و﴿مِن﴾ حَرْفُ جَرٍّ زائدٌ إعْرابًا، وَ﴿شَهِيدٍ﴾ مُبتدأٌ مَرفوعٌ بِضمَّةٍ مُقدَّرةٍ عَلى آخِره مَنعَ مِن ظُهورِها اشْتغالُ المحلِّ بِحركَةِ حَرفِ الجرِّ الزَّائِدِ.

يَعني: أنَّنا قد أَقْرَرنا بِأنَّه لا أَحَدَ مِنَّا يَشهدُ بِأنَّ لَكَ شريكًا، وهم يَقولون هَذا الآنَ لَكنَّه لا يَنْفعُهم؛ لِأنَّه إقرارٌ بَعدَ مُعاينةِ العَذابِ، وَالإقْرارُ بَعدَ مُعاينةِ العَذابِ لَيس بِنافِعٍ؛ ولِهذا أَقرَّ فِرعَونُ حينَ أُغْرِقَ بِأنَّه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، ولكنَّه لمْ يَنفعْه فَقيلَ: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس:٩١].

مِن فوائِدِ الآيَةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ عِلمَ السَّاعةِ عندَ اللهِ وحدَه يُؤخَذُ مِن قَولِه تَعالَى: ﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾؛ لِأنَّهُ قَدَّمَ ما حَقُّه التَّأخيرُ وَهو المَعمولُ، وهَذا يُفيدُ الحَصرَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ مَنِ ادَّعى عِلْمَ السَّاعةِ فَهو كافرٌ؛ لأنَّه مُكذِّبٌ للهِ ورَسولِه -وتَكذيبُ اللهِ ورَسولِه مِنْ أَسبابِ الرِّدَّةِ؛ لأنَّ الرِّدَّةَ تَدورُ على شَيئين: إمَّا تَكْذيبٌ وَإمَّا استكبارٌ، فَكُلُّ رِدَّةٍ يَحكُم العُلمـاءُ بِها فإنَّها لا تَخرجُ عَنْ هَذَينِ الأَمرينِ: إمَّا التَّكذيبُ، وإمَّا الِاستكبارُ- وَمَنْ صَدَّقَه فَهو كافرٌ أيضًا؛ لِأنَّه صَدَّق ما هو تَكْذيبٌ لِلقُرآنِ الكريمِ، ومَنْ صَدَّقَ ما هو تكذيبٌ لِلقُرآنِ الكَريم فإنَّه كافرٌ بِلا شَكٍّ.

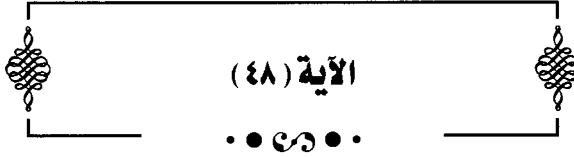
الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: عُمومُ عِلْمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لِقولِه: ﴿وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا﴾ إلى آخرِه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَوبيخُ الكُفَّارِ يَومَ القيامـةِ؛ لِقولِه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي﴾، وَهذا هو التَّوبيخُ في ذَلكَ المَكانِ مِن أَعْظمِ ما يَكونُ مِنَ التَّوبيخِ؛ لِأنَّه

اليَومُ المَشهودُ الَّذي يَشْهدُه اللهُ وَمَلائكتُه وجَميعُ خَلْقِه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إِقْرارُ هَؤلاءِ المُكذِّبينَ بِالبعثِ في ذَلكَ اليَومِ أَنَّه لا شَريكَ للهِ عَزَّوَجَلَّ لِقولِه: ﴿قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾.





الآية (٤٨)

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ [فصلت:٤٨].

• ● ● •

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَضَلَّ﴾ غاب ﴿عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ﴾] ﴿مِن قَبْلُ﴾.

قَولُه تَعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ﴾ ﴿مَّا﴾ اسْمٌ مَوصولٌ فاعلٌ بِمعنَى الَّذي.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ﴾ يَعبُدونَ ﴿مِن قَبْلُ﴾ في الدُّنيا مِن الأصنامِ] أَصْنامَهُم الَّتي كانوا يَتعلَّقونَ بِها ويَعْبُدونها لِتُقرِّبَهم إِلَى اللهِ زُلفى، في ذَلكَ اليَومِ الَّذي هُمْ أَشدُّ ما يَكونون حاجَةً لَهَا تَغيبُ عَنهم ولا تَنْفعُهم؛ وَلِهَذا قال: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أَيْ: ضاعَ وغابَ ما كانوا يَدعون، أَيْ: يَعْبُدونَ مِنْ قَبلُ، ويُريدُ بِذلكَ الأَصنامَ الَّتي كانوا يَعبُدونها في الدُّنيا.

مَثلًا النَّصارى يَعْبُدونَ عيسى ابنَ مَرْيمَ، وقُريشٌ تَعبُدُ اللَّاتَ والعُزَّى ومَناةَ وهُبَلَ، ومِنهم مَنْ يَعبُدُ النَّارَ كَالمَجوسِ، ومَنْ يَعبُدُ الشَّمسَ، ومَنْ يَعبُدُ القمرَ.. إِلَخ، هَذه الأصنامُ الَّتي تُعبَدُ مِن دونِ اللهِ لا تَنفعُهم يَومَ القيامةِ؛ ولِهذا قالَ: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ [فصلت:٤٨]، ورُبَّما نَفْهَمُ مِن قولِه: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أَنَّهم ذَهبوا يَطلُبونها يَبحثونَ عَنْها، ولَكنَّها ضَلَّت وضاعَت، ويَكونُ هَذا أَشدَّ حَسرةً في نُفوسِهم أَنَّهم طَلبوها في وَقتِ الحاجةِ وَلكنْ لَمْ يَجِدوها.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَظَنُّواْ﴾ أيقنوا ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾] ظَنَّ هُنا بمَعنَى أَيقنَ، والظَّنُّ يَأتي كَثيرًا بمَعنَى اليَقينِ، قال اللهُ تَعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف:٥٣] إذن ظَنُّوا بمَعنَى أَيْقَنوا، وقالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:٤٦] معنى يَظُنُّونَ: أي: يُوقِنون أَنَّهمْ مُلاقو رَبِّهم، ولو كانَ الظَّنُّ بمعنى الشَّيءِ الرَّاجحِ لَمْ يكونوا مُؤمِنينَ، لَكنْ يَظُنُّونَ بمَعْنى يُوقِنون، إذن الظَّنُّ في اللُّغةِ العربيَّةِ يَأتي بِمعنى اليَقينِ، ﴿وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أَيقَنوا.

وقَولُه: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ فِيها تَقديمٌ وتَأخيرٌ وتَوكيدٌ، التَّقديمُ والتَّأخيرُ أَنَّه قَدَّم فيها الخَبَرَ وَأَخَّر فيها المُبتدَأَ، وَالخَبرُ ﴿لَهُم﴾ وَالمُبتدأُ ﴿مَّحِيصٍ﴾، فيها أيضًا تَوكيدٌ وهو ﴿مِّن﴾ الزَّائدةُ؛ لِأنَّ مَحيصَ مُبتدأٌ مُؤَخَّرٌ ودَخلَتْ عَليه ﴿مِّن﴾ الزَّائدةُ للتَّوكيدِ، وإِعْرابُه أَنَّه مُبتدأٌ مَرفوعٌ بِالإبْتِداءِ، وعَلامَةُ رَفعِه ضَمَّةٌ مُقدَّرةٌ على آخِره مَنَعَ مِن ظُهورِها اشتِغالُ المَحلِّ بِحَركَةِ المُناسبةِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَّحِيصٍ﴾ مَهْربٌ مِنَ العَذابِ] يَعني: أَيقَنوا أَنَّه لا مَهْربَ لهم مِنَ العذابِ ولا مَفرَّ لَهمْ مِنه، وأَنَّه واقعٌ بِهِمْ لا مَحالَةَ.

ثُمَّ قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [والنَّفيُ في المَوضعينِ مُعلَّقٌ عَنِ العَمَلِ، وجُملةُ النَّفيِ سَدَّت مَسدَّ المَفعولَينِ].

النَّفيُ في المَوضِعينِ:

المَوضِعُ الأَوَّلُ: ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ هَذهِ ﴿مَا﴾ نافِيةٌ مُعلَّقةٌ عَنِ العَملِ؛ لِأنَّ ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ أَعْلمناكَ وَهي تَنْصبُ ثلاثةَ مفاعيلَ، تَقولُ مَثلًا: أَعْلمتُ زيدًا عَمرًا قائمًا، نَصَبتْ ثلاثةَ مَفاعيلَ زيدًا وعَمرًا وقائمًا، وهُنا ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ المفعولُ

الأَوَّلُ مَوجـودٌ وهو الكافُ، والمفعـولُ الثَّاني وَالثَّالثُ مُعلَّقٌ أَغنـت عَنهما جُملةُ الاِستفهام: ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾، وَعَلَى هَذا فتكونُ جُملةُ: ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ كُلُّها تَكونُ في مَوضعِ نَصْبٍ سَدَّت مَسدَّ مَفْعولَيْ آذَنَ.

المَوضعُ الثَّاني: ﴿وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ (ظَنَّ) هَذه تَنْصِبُ مَفعولينِ، وهُنا عُلِّقتْ عَنِ العَملِ بِجُملةِ النَّفي وَهي قَولُه: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾، وعَلَى هَذا فَيكونُ: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ جُملةً في مَحلِّ نَصبٍ سَدَّت مَسدَّ مَفعولَي (ظَنَّ)، وهَذا الإِعرابُ في الحَقيقَةِ لا يُدْرِكُه إِلَّا مَنْ كان عِنده عِلمٌ بِالمفاعيلِ لكنَّا نَحنُ الآنَ شَرحْناه، فَمَنْ فَهِمَه فَهذا المَطلوبُ، وَمَنْ لم يَفهَمْه فَإِنَّه لا يَضُـرُّه؛ لأَنَّه ليسـت لَهُ عِلاقةٌ بِالمَعْنى عِلاقَتُه إِنَّما هو بِالإِعرابِ فَقط.

مِن فَوائِدِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّ ما يُعبَدُ من دونِ الله فإِنَّه هَلاكٌ وضَلالٌ ولَنْ يُجدِيَ شيئًا عَن عابِديه؛ لِقولِه تَعالَى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هَـؤلاءِ المُكذِّبينَ يُوقنـون في ذَلكَ اليومِ أَنَّه لا مَفرَّ لَهُمْ مِن عذابِ اللهِ؛ لأَنَّه لَيس هُناكَ أَحدٌ يَدفعُ عَذابَ اللهِ تَعالى عَنْهم فَيوقنونَ بِأَنَّه لا مَحيصَ لَهُمْ مِنه.



الآية (٤٩)

• • ● • •

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت:٤٩].

• • ● • •

﴿لَّا يَسْـَٔمُ﴾ يَعني: لا يَمَلُّ فَهو دائمًا يَسألُ الخيرَ مِنَ المالِ والغِنى وَالجاهِ وغَيْرِ ذَلكَ.

و﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ هُنا يَحتَمِلُ أَنْ يَكُونَ المُرادُ بِهِ الكافرَ ويَحتملُ أَنْ يُرادَ بِه الجِنسُ أَيْ: جِنسُ الإِنسانِ سَواءً كان مُؤمنًا أم كافرًا، ثُمَّ تَنْزِلُ الأحوالُ على ما يَليقُ بِها.

﴿دُعَآءِ﴾ مُضافٌ وَ﴿ٱلْخَيْرِ﴾ مُضافٌ إِليهِ مِن بابِ إِضافةِ المَصدرِ إِلَى مَفعولِهِ، وهو أيضًا -أَعنِي الخَيرَ- مَفعولٌ لِدُعاء، وَالمَدعوُّ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ فعِندنا داعٍ ومَدعوٌّ ومَدعوٌّ به أي: مَطْلوبٌ، فالدَّاعي الإِنسانُ، والمدعوُّ اللهُ، والمَدعوُّ بِه الخيرُ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: لَا يَزالُ يَسألُ رَبَّه المالَ وَالصِّحَّةَ وغَيرَهما] مِنَ البَنينَ وَالزَّوجاتِ وَالجاهِ وَالشَّرَفِ، وغَيرِ ذَلكَ مِمَّا يَدعوه الإِنسانُ رَغبةً به.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ الفقرُ وَالشِّدَّةُ]، وتَخصيصُ الشَّرِّ بِالفَقرِ وَالشِّدَّة ليس على سَبيلِ الحَصْرِ، بَلْ هو على سبيلِ المِثالِ؛ لِأَنَّه يَشمَلُ الفَقْرَ والشِّدَّةَ وفَقْدَ الأولادِ، وفَقْدَ الجاهِ، وَالإيذاءَ مِنَ الخَلْقِ وأَشياءَ كَثيرَةً، فتَخصيصُ المفسِّر ذَلكَ بِالفَقْرِ وَالشِّدَّةِ مِن بابِ التَّمثيلِ.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ الفاءُ رابطةٌ لجِوابٍ وَهو (إن) و﴿فَيَـُٔوسٌ﴾ خَبرٌ لِمُبتدأٍ محذوفٍ، أي: فَهو يَؤوسٌ قنوطٌ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنْ رَحمةِ اللهِ وهَذا وما بَعدَه في الكافرينَ].

﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ هُناكَ فَرقٌ بين اليَأسِ والقُنوطِ، اليَأْسُ هو زَوالُ الرَّجاءِ بِحَيْثُ يَنقطعُ رجاءُ الإنسانِ، وَالقُنوطُ أَشَدُّ اليأسِ، وعَلَى هَذا فيكونُ قولُه: ﴿فَيَـُٔوسٌ﴾ هَذا ابْتداءُ القُنوطِ، وَ﴿قَنُوطٌ﴾ هَذا نِهايتُه.

وَقولُه: ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ أَعْرَبْنا ﴿فَيَـُٔوسٌ﴾ خَبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، وأَمَّا ﴿قَنُوطٌ﴾ فَنُعربُه عَلى أَنَّه خَبرٌ ثانٍ، وتَعدُّد الأخبارِ جائزٌ، واقعٌ في اللُّغةِ العربيَّةِ وَواقعٌ في القُرآنِ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٤-١٦] كُلُّ هذه أَخبارٌ مُتعدِّدةٌ وَلا يَصِحُّ أَنْ يَكونَ الثَّاني وَصفًا لِلْأَوَّل لأَنَّها كُلَّها تَعودُ عَلى مَوصوفٍ واحدٍ. وَعليه فَنَقولُ: ﴿قَنُوطٌ﴾ خَبرٌ ثانٍ لِلمُبتدأِ المحذوفِ، وَلا يَصحُّ أَن يَكونَ نَعتًا لِيَؤوسٍ؛ لأنَّ يَؤوسًا نَفْسَها نَعتٌ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَهذا وَما بَعده في الكافرينَ] هَذا المُشارُ إِليه اليأسُ وَالقُنوطُ، وما بَعدَه سَيُذكَرُ في الكافرينَ، وإِنَّما قالَ المفسِّر ذَلكَ؛ لأنَّ المُؤمنَ لا يَيأَسُ ولا يَقنَطُ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]، وَقال تَعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر:٥٦]، فَلا يُمكنُ لِلمُؤمنِ أَنْ يَيأسَ، وعَلى هَذا فَيكونُ هَذا الوصفُ لِلكافرينَ.

مِن فَوائِدِ الآيَةِ الكَريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّ الإِنسانَ شَحيحٌ وأَنَّه حَريصٌ على الخَيرِ شَحيحٌ بِبذلِ ما يُطلبُ منه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ الإنسانَ يُحبُّ الخيرَ دائمًا لِقولِه: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾، وَهذا بِطَبيعةِ الإنسانِ أَنَّه يُحبُّ الخيرَ وَهو ما يُلائمُ نَفسَه ومُرادَه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ الإنسانَ الَّذي لَيس عِندَه إِيمانٌ إِذا مَسَّه الشَّرُّ يَئِسَ وقَنَطَ مِن رَحمةِ اللهِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: ذَمُّ أَهلِ اليأسِ والقُنوطِ مِنْ رَحمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأَنَّ اللهَ ساقَ هَذا مَساقَ الذَّمِّ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّه لا يَنبَغي لِلإنسانِ أَنْ يَغلِبَ جانبُ اليأسِ وَالقُنوطِ، كَما أَنَّه لا يَغلِبُ جانبُ الرَّحمةِ؛ لأَنَّه إِنْ غَلَبَ جانبُ الرَّجاءِ وَالرَّحمةِ فإِنَّه يَدخلُ فيمَنْ لا يَأمنُ مَكرَ اللهِ، وَإِن غَلَبَ جانبُ اليأسِ وَالقُنوطِ دَخَلَ في أَهلِ اليأسِ وَالقُنوطِ.

وهَلِ الَّذي يَنبَغي لِلإنسانِ أَنْ يَغلبَه جانبُ الرَّجاءِ أوِ الخوفِ؟

اخْتلَفَ السَّالِكونَ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ في هَذا فَمِنهم مَنْ قال: يَنْبَغي أَنْ يَغلبَ جانبُ الخوفِ لِيَحذرَ المَعاصيَ ويَتجنَّبَها؛ لأَنَّه إِذا غَلَبَ جانبُ الخوفِ خافَ وحَذِرَ مِنَ المعاصي، ومِنهم مَنْ قال: يَغلِبُ جانبُ الرَّجاءِ؛ لأَنَّ اللهَ تَعالى عِندَ حُسنِ ظَنِّ عَبدِه بِه، وَإِذا غَلَبَ الرَّجاءُ ابتعدَ عَنِ اليأسِ وَالقُنوطِ.

ومِنهم مَنْ قال: إِنَّه لا يَنبَغي أَنْ يَغْلِبَ هَذا على هذا، وَأَنْ يَجعلَ خَوفَه وَرَجاءَه واحدًا، قالَ الإِمامُ أَحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يَنْبَغي أَنْ يَكونَ خَوفُه ورَجاؤُه واحدًا فَأَيُّهما غَلَبَ هَلَكَ صاحبُه[١].

وَقالَ بَعضُهمْ: إِنَّه يَنبَغي لِلإنسانِ أَنْ يَكونَ بَينَ الخوفِ والرَّجاءِ، كالطَّائرِ

---

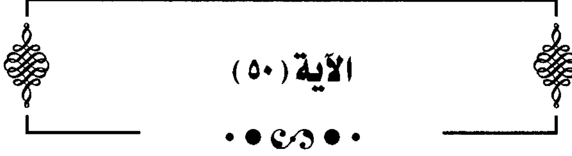
(١) انظر: الاختيارات العلمية لابن تيمية [المطبوع مع الفتاوى الكبرى] (٥/ ٣٥٩).

بين جَناحَيْه إِنِ انْخَفَضَ أَحدُهُمَا سَقَطَ، وقالَ بَعضُ أَهْلِ العِلمِ: يَنبَغي أَنْ يَغلِبَ جانبُ الرَّجاءِ عِندَ فِعلِ الطَّاعةِ فَيرجو القَبولَ والثَّوابَ، ويَغلِبُ جانِبُ الخَوفِ عِندَ الهَمِّ بِالمَعصيةِ حتَّى لا يَعصيَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ.

وَمِن العُلماءِ مَنْ يَقولُ: يَغلِبُ جانبُ الرَّجاءِ عِند المَرَضِ حتَّى إِذَا مَاتَ لَقِيَ اللهَ وَهو يُحسنُ بِهِ الظَّنَّ، وَفي حالِ الصِّحَّةِ يَغلِبُ جانِبُ الخَوفِ؛ لأَنَّ حالَ الصِّحَّةِ يَدعو الإِنسانَ إِلَى البَطَرِ وَالأَشَرِ فَلْيَغلِبْ جانبُ الخوفِ.

كُلُّ هَذه الأقوالِ الَّتي تَبلغُ سِتَّةً أو سَبعةً كُلُّها في الواقعِ تَنْظُرُ إِلى حالِ العبدِ؛ ولِهذا نَرى في هَذه المسأَلَةِ أَنَّ الإنسانَ يَنْظرُ إِلَى حالِه، فَإِنْ كانَ قَدْ عَمِلَ عَملًا صالحًا وكَدِحَ فيما يُرضي اللهَ فَلْيَغْلِبْ جانبُ الرَّجَاءِ، فَكُلَّما عَمِلَ طاعةً غَلَبَ جانبُ الرَّجاءِ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى تَجاوزَ عنها، وَأَنَّ اللهَ تَعالى قَبِلَها وسَيُثيبُه، وإِذا رَأى مِن نَفسِه العُلوَّ والتَّعاظُمَ فَلْيَغْلِبْ جانبُ الخَوفِ حتَّى يَصيرَ إِلَى اللهِ تَعالى صَيْرًا حسنًا.





الآية (٥٠)

• ● ● •

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [فصلت:٥٠].

• ● ● •

يَقُولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَئِنْ﴾ لَامُ قَسَمٍ] و(إِنْ) شَرْطِيَّةٌ [﴿أَذَقْنَٰهُ﴾ آتيناه ﴿رَحْمَةً﴾ غِنًى وصِحَّةً]، ﴿مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ﴾ ﴿مِّنَّا﴾ أي: مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ﴾ شِدَّةً وبَلاءً] ﴿مَسَّتْهُ﴾ يَعني: أَصابَته [﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾، أي: بِعملي] انْظُرْ إِلَى حالِ هَذا.

نَبدأُ أَوَّلًا بالإِعرابِ؛ لأنَّ فيه شيءٌ مِنَ الإِشكالِ، قَولُه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ﴾ إلى قولِه: ﴿لَيَقُولَنَّ﴾، ففي الجُملةِ الأُولَى ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ﴾ حَرْفُ شَرطٍ، والشَّرطُ يَحتاجُ إِلى جَوابٍ، وَفي سياقِ الآيةِ لَمْ نَجِدْ جوابًا لِلشَّرطِ، فَجوابُ الشَّرطِ في هَذه الآيةِ محَذوفٌ؛ لأَنَّه اجْتَمَعَ قَسَمٌ وشَرْطٌ، وَإِذا اجْتَمَعَ القَسَمُ والشَّرطُ حُذِفَ جوابُ المتأخِّر مِنهما. والقَسَمُ في اللَّامِ والشَّرطُ (إِنْ) والمتأَخِّرُ هو الشَّرطُ، فَيُحذَفُ جَوابُ الشَّرطِ؛ ولِهَذا جاءَ جوابُ القَسَم في قولِه: ﴿لَيَقُولَنَّ﴾.

قال ابْنُ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الأَلْفيَّةِ[1]:

(١) الألفية (ص:٥٩).

واحْذِفْ لَدى اجْتِماعِ شَرْطٍ وقَسَمٍ جَـوابَ مـا أَخَّـرتَ فَهـو مُلتـزَمٌ

فَهو: أَيْ هَذا الحذفُ.

قَولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَهُ﴾، آتيناه لَكِنْ عَبَّر بِالإذاقةِ عَنِ الإيتاءِ؛ لأَنَّ مَنْ ذاقَ شيئًا فَقدِ انتفعَ بِه، وَالإيتاءُ قَد يَنتفعُ بِه الإِنسانُ وَقَدْ لا يَنتفعُ، فَإِذا أَعطيتُكَ خُبْزةً مَثلًا قَد تَنتفعُ مِنهَا وقَد لا تَنتَفعُ، يَعني: قد تَأكلُها وقَد لا تَأكلُها لَكِنْ إِذا ذُقتَها فَقد أَكلْتَها وَانتفعـتَ بِها؛ فَلِهذا عَبَّر عَنِ الإتيانِ بِالإذاقةِ؛ لأَنَّه أَبْلغُ في المَاسَّةِ وَفي الانتفاعِ.

وقَولُه: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ فَسَّر المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ الرَّحْمةَ بِأَنَّه الغنَى وَالصِّحَّةُ، وهذا مثالٌ ولَيس هو الحصرَ، بَل تَشمَلُ الرَّحمةُ كُلَّ ما هو مَطلوبٌ لِلْإنسانِ مِن غِنًى وَصِحَّةٍ وَجاهٍ وأَمْوالٍ وبَنِينَ وغَيرِ ذَلِكَ.

وقَولُه: ﴿مِّنَّا﴾ إِشارةٌ واضحةٌ إِلَى أَنَّ هَذه الرَّحمةَ لَيست بكَسبِه ولكنَّها فَضْلٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَالغِنَى أَتاه مِن حيث لا يَحتسِبُ، والصِّحَّةُ أَتتْهُ مِن حيثُ لا يَحتسِبُ، والبَنونَ وغَيرُهم، هي مِن عندِ اللهِ، وَواضحٌ أَنَّها مِن اللهِ ولَيستْ بِكَسبِه.

وقَولُه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ﴾ رَحمةٌ مِنْ بَعدِ ضَرَّاءَ يَعني: مَعناه أَنَّه تَيقَّنَ الضَّررَ ثُمَّ جاءتِ الرَّحمةُ مِن عِندِ اللهِ، وهَذا أَبلغُ في النِّعمَةِ أَنْ تَأتِيَ بَعدَ الضَّررِ؛ لأَنَّ النِّعمةَ الدَّائمةَ لا يَحسُّ بِها، لَكنَّ النِّعمةَ الطَّارئةَ بَعدَ الضَّررِ هي الَّتي يَحسُّ بِها؛ ولِهذا مَنْ لَمْ يَذُقْ مَرارةَ المَرضِ، فَإِنَّه لا يَتذوَّقُ حَلاوةَ الصِّحَّةِ حتَّى في الأُمورِ الشَّرعيَّةِ، قالَ عُمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا يَنقُدُ الإسلامَ إِلَّا مَن لَمْ يَعرِفِ الجاهليَّةَ[1] أو كَلِمةً نَحوَها.

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٠١).

يَعْني: الَّذي لا يَعرفُ الكُفْرَ لا يَعرفُ قَدرَ الإيمانِ، كَذلكَ أيضًا الرَّحمَةُ إِذا كانت مُستديمةً مُستمِرَّةً لا يُحسُّ بِها الإِنسانُ، لَكنْ إِذا جاءَت مِن بَعدِ الضَّررِ أَحسَّ بها وذاق لَها طَعمًا، وأَضرِبُ لَكُمْ مثلًا الآنَ في النَّفس، النَّفس نِعمةٌ كَبيرةٌ مِن أَكْبرِ النِّعَمِ، الإنسانُ لا يُحسُّ بِه، ما دامتِ النِّعمةُ مُستَمِرَّةً لكن لو أُصيبَ بِكَتمِ النَّفس وحَجْبِهِ ثُمَّ فُرِجَ عَنْهُ لَوَجَدَ لِهذا النَّفَسِ نِعْمةً عَظيمةً وأثرًا عَظيمًا، كَذلكَ المَرضُ فَالإنسانُ الصَّحيحُ المُستمرُّ في صِحَّتِه لا يَعرِفُ قَدْرَها لكن لو مَرِضَ ثُمَّ شُفِيَ تَبيَّنَ له قَدْرُ النِّعمَةِ.

وَالرَّحمَةُ الَّتي ذَكرها اللهُ هنا رَحمةٌ مِنْ بَعدِ الضَّرَّاءِ، فَيكونُ لها أثرٌ بالغٌ أَعظمُ مِمَّا لو كانتِ الرَّحمةُ مُستمرَّةً.

إذا أَذاقَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ رَحمةً من عندِه مِنْ بَعدِ الضَّرَّاءِ ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾، ﴿هَٰذَا﴾ جوابُ القَسَمِ، يَعني: يَقولُ هَذا لِي.

قَولُه تَعالى: ﴿هَٰذَا لِي﴾ أَيْ: هَذا بِعَمَلي فتكونُ اللَّامُ بمعنى مِنْ؛ أي: هذا مِنِّي وليس مِن اللهِ، وقيل: اللَّامُ للاستِحقاقِ، يَعني: أَنِّي مُستحِقٌّ له فَلا مِنَّةَ للهِ عَلَيَّ به لأنِّي له أَهلٌ، فأنا حَقيقٌ به، المفسِّر مَشَى على القولِ الأوَّلِ وهو أنَّ اللَّامَ بمعنى مِن؛ أي: لَيَقُولَنَّ هذا مِنِّي وأَنا الَّذي اكْتَسبتُه أَنا الَّذي اتَّجَرْتُ، وما أَشبهَ ذلك. القولُ الثَّاني: يَقولُ: هَذا مِنَ اللهِ. لكن لا مِنَّةَ له عَلَيَّ به؛ لأنِّي مُستحِقٌّ له، والآيةُ تَحتملُ هذا وهذا.

والقاعدةُ في التَّفسيرِ: أَنَّه إِذا كانت الآيةُ تَحتَملُ مَعنيينِ لا يُنافي أَحدُهما الآخرَ، فإِنَّها تُحملُ عَليهما جَميعًا إِذا لَمْ يُوجَدْ مُرَجِّحٌ لِأَحدِهما.

قال اللهُ تَعالَى: ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ نَسأَلُ اللهَ العافيةَ، يَعني: ظَنَّ أَنَّه مُخلَّدٌ لـمَّا جاءَته هَذه الرَّحمةُ قال: إذن لا بَعْثَ ولا جَزاءَ، ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ ثُمَّ قال: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ يَعني: عَلى فَرضِ أَنْ تَقومَ السَّاعةُ وأُرَدُّ إِلَى اللهِ، فإنَّ الَّذي نَعَّمَني في الدُّنيا سَيُنعِّمُني في الآخرةِ؛ ولِهذا قال: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾، يَقُولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَي: الجنَّةَ].

نَقولُ في إِعـرابِ: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ ما قُلناه في: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ﴾؛ لأَنَّه اجْتمعَ قَسَمٌ وشَرْطٌ، وتَأَخَّر الشَّرطُ فَحُذِفَ جَوابُه وبَقِيَ جَوابُ القَسَمِ في قَولِه: ﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ فتَجِدُ هذا الرَّجلَ مِن غروره -وَالعِياذُ بِاللهِ- أَنَّه أَكَّدَ بِالقَسَمِ و﴿إِنَّ﴾ و(اللَّامُ) القَسَمُ في قولِه: ﴿وَلَئِن﴾ و﴿إِنَّ﴾ في قولِه: ﴿إِنَّ لِي﴾ واللَّامُ في قولِه: ﴿لَلْحُسْنَىٰ﴾ فَهو أَكَّدَ أَنَّه على فَرْضِ أَنْ يَرجِعَ إِلَى اللهِ فَسيجِدُ الحُسنى وهي الجنَّةُ كما قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأَخَذَ المفسِّر هذا التَّفسيرَ مِنْ تفسيرِ النَّبيِّ ﷺ في قَولِه تَعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] حَيثُ قَالَ: «إِنَّ الحُسنى الجنَّةُ والزِّيادةُ النَّظَرُ إلى وَجهِ اللهِ»(١).

إذن هذا الرَّجلُ مَغرورٌ في غايةِ الغُرورِ:

أَوَّلًا: أَنَّه أضاف النِّعمةَ الَّتي حَصلَتْ له في الدُّنيا أَضافَها إِلَى نَفْسِه، إمَّا مُباشَرةً هو الَّذي حصَّلَها من دونِ اللهِ، وإمَّا لأَنَّه مُستحِقٌّ لها فلا فَضْلَ للهِ عليه بها.

الغُرورُ الثَّاني: أَنَّه أَنكرَ البَعثَ لِقولِه: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، رقم (١٨١)، من حديث صهيب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الغُرورُ الثَّالثُ: أَنَّه على فَرْضٍ أَنَّ السَّاعةَ قائمةٌ فَسيَجدُ عندَ اللهِ ما هو أَحسنُ: ﴿إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾.

فإن قال قائلٌ: هَل للإنسانِ أَنْ يَنْسِبَ الخيرَ إِلى نَفسِهِ وهو يَعترِفُ بِفضلِ اللهِ عليه؟

فالجَوابُ: إِضافةُ العملِ إِلَى النَّفْس جائزةٌ حتَّى إِنَّ الرَّسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال في عَمِّه أَبي طالبٍ: «لَولا أَنا لكانَ في الدَّركِ الأسفلِ مِن النَّارِ»[1]، لكنَّ الإنسانَ يُضيفُه إِلى نَفسِهِ، كما قال هذا الكافرُ: ﴿هَٰذَا لِى﴾ هَذا بِعَملي أَوْ أَتاني مِنَ اللهِ لأنِّي مُستحِقٌّ له، هَذا لا يَصلُحُ.

قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ أي: نُخبرنَّ، والفاءُ عاطفةٌ واللَّامُ مُوطِّئةٌ للقَسَمِ المَحذوفِ، والتَّقديرُ: فَواللهِ لَنُنبِّئَنَّ.

إِذن الجُملةُ مُؤكَّدةٌ بثَلاثةِ مُؤكِّداتٍ ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ المؤكِّدُ الأَوَّلُ القَسَمُ، والثَّاني: (اللَّامُ)، والثَّالثُ: نونُ التَّوكيدِ في قَولِه: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ وَالضَّميرُ في قَولِه: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ يَعودُ عَلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ وعادَ إِليه بصيغَةِ الجَمعِ مِن بابِ التَّعظيمِ وَإِلَّا فاللهُ إِلهٌ واحدٌ.

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أَيْ: بالَّذي عَمِلوه نُخبرُهم بِذلكَ يَومَ القيامةِ، وكَيفيَّةُ هذا أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُحصي أَعمالَهم يَومَ القيامةِ، فَيُنادِي عَليهم على رُؤوسِ الأَشهادِ بِأَنَّه قَد أَخزاهُم الله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:١٨].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه، رقم (٢٠٩)، من حديث العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عم الرسول ﷺ.

ثم يَقولُ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يَعني: بَعدَ أَنْ نُنبِّئَهم ويُقِرُّوا بِذلكَ نُذيقُهم ﴿مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [شَديدٍ واللَّامُ في الفِعلَينِ لَامُ القَسَمِ] وَالفِعلانِ هما: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾.

في هَذه الآيَةِ وَالَّتي قَبلَها بَيانُ حالِ الإنسانِ الكافرِ وَهو كُفرُه بِنعمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ واعْتزازُه بِنَفسِه؛ لِقَولِه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾؛ فَإِنَّ هَذا يَدُلُّ على كُفرِه الشَّديدِ، وَاعتزازِه بِنفسِه وَإِعجابِه بِها.

مِن فَوائِدِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّ اللهَ تَعالى يَرحَمُ الكافرَ لِقَولِه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً﴾، ولَكنِ اعْلَمْ أَنَّ رَحمَةَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَوعانِ: رَحْمةٌ خاصَّةٌ، ورَحمةٌ عامَّةٌ.

فَما به قوامُ البَدنِ مِنَ الرَّحمةِ العامَّةِ؛ لأَنَّه يَشملُ المُؤمنَ وَالكافرَ وَالبَرَّ والفاجِرَ والإنسانَ وَالحيوانَ، هَذه رَحمةٌ عامَّةٌ، وَما بِهِ قَوامُ الدِّينِ مِنَ الرَّحمَةِ الخاصَّةِ، وَهَذا يَختصُّ بِالمُؤمنينَ.

وَالفرقُ بَينهما: أَنَّ الرَّحمَةَ العامَّةَ إِنَّما هي غذاءُ البدنِ فَقط وتَزولُ بزَوالِه، والرَّحمةُ الخاصَّةُ غذاءُ الرُّوحِ تَبقَى بِبقاءِ الرُّوحِ في الدُّنيا وَالآخِرةِ، وَالرُّوحُ مُنذُ خَلقَهَا اللهُ لا تَفنى كَالوِلْدانِ في الجَنَّةِ وَالحورِ العِينِ في الجنَّة، خُلِقت لِلبَقاءِ، بِخِلافِ الأجسادِ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:٢٦].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيانُ فَضلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عَلى الكافرِ؛ لِكَونِ الرَّحمةِ الَّتي أَصابتِ الكافرَ مِنْ عِندِ اللهِ؛ لِقَولِه: ﴿مِّنَّا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إِعجابُ الكافرِ بِنفسِه حَيثُ يُضيفُ هَذه الرَّحمةَ الَّتي هي مِنَ اللهِ

إِلى نَفسِه لِقَولِه: ﴿هَٰذَا لِى﴾ أَوْ يُضيفُها إِلى اسْتحقاقِه إِيَّاها، فكأَنَّ اللهَ لا مِنَّةَ له عليه على القولِ الثَّاني أنَّ مَعنَى قولِه: ﴿هَٰذَا لِى﴾ هذا مُستَحَقٌّ لي.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيانُ عُتوِّ الكافِرِ حَيثُ أَنكرَ ما قامتِ الأدلَّةُ الشَّرعيَّةُ والعقليَّةُ والحِسِّيَّةُ على ثُبوتِه في قَولِه: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾.

والأدلَّةُ الشَّرعيَّةُ على ثُبوتِ قيامِ السَّاعةِ كَثيرةٌ لا تُحصى، والأدلَّةُ العقليَّةُ هو أَنَّه ليس مِنَ الحِكمةِ أَنْ يُوجِدَ اللهُ هَذِهِ الخَليقةَ ويَأمُرُها ويَنهاها، ويُسلِّطُ بَعضَهَا على بَعضٍ بِالسَّيفِ، وَيُقاتِلُ المُؤمنُ الكافرَ ثُمَّ تَكونُ النِّهايةُ لا شيءَ، هذا سَفَهٌ، وقَدْ أَشارَ اللهُ إِلى ذلك في قَولِه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥] أيُّ فائدةٍ لِخَلقٍ يُوجَدُ ويُؤمَرُ ويُنْهَى ويُسلَّطُ بَعضُهُ على بَعضٍ في القتلِ العَمدِ، ثُمَّ النِّهايةُ لا شيءَ! لا فائدةَ مِن هذا، وحِكمةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ تَأْبى أَنْ يَقعَ مِثلُ ذَلكَ مِنَ اللهِ، هَذا دَليلٌ عَقليٌّ واضحٌ يُوجبُ أَنْ يُبعثَ النَّاسُ لِيُجازَوْا على أَعْمالِهِمْ.

أَمَّا الدَّليلُ الحِسِّيُّ على ثُبوتِ البَعثِ وإِمكانِه وجَوازِه، فَاللهُ تَعالَى يُقرِّرُه في القُرآنِ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ يَعني: هامدةً لَيس فيها نَباتٌ: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ أَي: ماءُ المَطرِ ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ فَصارت حَيَّةً بَعدَ أَنْ كانت مَيْتةً، قال اللهُ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩]، فَإِحياءُ الأَرْضِ مِنْ بَعدِ مَوتِها وَالنَّاسُ يُشاهدونَ دَليلٌ عَلى إِمكانِ إِحياءِ الموتى وبَعْثِهم، وهَذا دَليلٌ واضحٌ حِسِّيٌّ مُشاهَدٌ، كَذلِكَ أيضًا أَشْهدَنا اللهُ عَزَّوَجَلَّ في الدُّنيا إِحياءَ المَوتى، فَلْنَسْتَعْرِضْ هَذا في القُرآنِ:

المَشهدُ الأَوَّلُ: بَنُو إِسرائِيلَ قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥] فَأَخذَتْهمُ الصَّاعقةُ وَماتوا ثُمَّ بُعِثوا، هذا في الدُّنيا.

المَشْهَدُ الثَّانِي: القتيلُ الَّذي اخْتَلفتِ القَبيلتانِ فيهِ فَأَمَرَهُمُ اللهُ أَنْ يَذبَحوا بَقرةً وأَنْ يَضْربوا القَتيلَ ببعضِها، فَفَعَلوا فَحَيِيَ القَتيلُ وَقالَ: إِنَّ الَّذي قَتَلَهُ فُلانٌ، فَهذا إِحياءٌ بَعدَ الموتِ.

المَشهدُ الثَّالِثُ: ﴿ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [البقرة:٢٤٣] خافوا مِنَ الموتِ وخَرَجوا مِن دِيارهم ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾ فَماتوا ﴿ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ أَماتهم لِيَعْلموا أَنَّه لا مَفرَّ لَهُمْ مِن قَضاءِ اللهِ ﴿ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ لِيَقْضِيَ أَجَلًا.

المَشهَدُ الرَّابعُ: صاحبُ القَريةِ مَرَّ على قريةٍ: ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [البقرة:٢٥٩].

المَشْهَدُ الخامِسُ: إِبْراهيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٠] فَأَمَره اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَذبَحَ أَربعةً مِنَ الطُّيورِ وَيجعلَ على كُلِّ جبلٍ مِنها جُزءًا، وأَنْ يَدعوها فَفعَلَ، فَأَقْبلَت إِليه حَيَّةً إِمَّا أَنَّها تَطيرُ أو تَمشي بِسرعةٍ.

هَذِه خَمسةُ مَشاهِدَ مَذكورةٍ في البَقرةِ، كُلُّها تَدُلُّ عَلَى إِمْكانِ الإِحياءِ بَعْدَ المَوْتِ.

أَمَّا قِصَّةُ عِيسى فَكذلِكَ أيضًا، فَقَدْ كانَ عيسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يُحيِي المَوتى بِإِذْنِ اللهِ يَقِفُ عَلَى المَيِّتِ ويَقولُ: يا فُلانُ، قُمْ ويَقومُ بل يَقِفُ عَلَى قَبْرِ المَيِّتِ المَدفونِ، ويَأمرُه أَنْ يَخْرُجَ حَيًّا، فَيَخْرُجُ كما قال تَعالَى: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ [المائدة:١١٠].

وفي الدَّجَّالِ أَخبَرَنا النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَنَّهُ يَقْطَعُ رَجلًا جِزْلَتَيْنِ ويَمُرُّ بينهما ثُمَّ يَقِفُ ويَأمـرُه أَنْ يُقبِلَ يَأمُرُ هذا المَيِّـتَ القِطعَتينِ أَنْ يُقبِلَ فَيلْتئم حالًا ويَقومَ،

والنَّاسُ يَنظُرون[1]، هذا أيضًا شاهِدٌ محسوسٌ، فَالُمِهمُّ أَنَّ البعثَ دَلَّ عَليه السَّمعُ والعقلُ والحسُّ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ هذا الكافرَ عِندَه مِنَ العَجبِ وَالثِّقةِ بنفسِه على أَنَّه لَيس له شَيءٌ يَثِقُ بِه ما أَمْكنَه أَنْ يَقولَ: ﴿وَلَبِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الإِقرارَ بِالرُّبوبيَّةِ لا يُدخِلُ الإنسانَ في الإِسلامِ؛ لأنَّ هذا الُمنكِرَ مُقِرٌّ بِالرُّبوبيَّةِ، يُؤخَذُ من قَولِهِ: ﴿وَلَبِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾.

والُمشركون كانوا مُقِرِّينَ بِالرُّبوبيَّةِ: ﴿وَلَبِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف:٩]، لَكنَّ الإِقرارَ بِالرُّبوبيَّةِ لا يُغني عَنِ الإنسانِ شيئًا، ولقد فَخِرَ بَعضُ النَّاسِ الجُهَّالِ أَنَّ أحدَ رُوَّادِ الفَضاءِ شَهِدَ بِأَنَّ لِهذا الكونِ خالقًا لَمَّا صَعَدَ في الفضاءِ، ورَأى الأرضَ وَرَأى ما حولَه مِن الآياتِ شَهِدَ بأَنَّ لها خالقًا، فَصارَ بَعضُ النَّاسِ الجُهَّال يُطَنْطِنُ على إثباتِ أَنَّ للكونِ خالقًا بِشهادةِ هذا الرَّجُلِ الكافرِ.

وهذا -حَقيقَةً- يَدُلُّ على ضَعفِ إِيمانِه؛ لأَنَّ خَبرَ اللهِ ورَسولِه عَنْ ذَلك أَصدقُ وأَوجبُ لِلإيمانِ، نَعَمْ لو كُنَّا نُجادلُ شخصًا مُنكِرًا لا يُؤمِنُ بِالأديانِ فَنقولُ له: صاحبُك الَّذي هو مِثلُك أَقَرَّ بأَنَّ لِلكونِ خالقًا رُبَّما يَنفعُ، فَيكونُ هَذا مِن بابِ إقامةِ حُجَّته عليه، لَكنْ نَجعلُ هذا حُجَّةً مُطلَقةً، فيه نَظرٌ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: التَّأكيدُ على أَنَّ هؤلاءِ الكافرينَ سوف يُخبَرونَ بما عَمِلوا؛ لِقولِه: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ وَيكونُ هذا يَومَ القيامةِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب لا يدخل الدجال المدينة، رقم (٧١٣٢)، ومسلم: كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، رقم (٢٩٣٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فَإِنْ قال قائلٌ: هَلْ لِهذا القَيـدِ مَفهـومٌ أو هو لِبيانِ الواقـعِ: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؟

فَالجوابُ: لِبيانِ الواقـعِ لَيس له مفهومٌ لِأَنَّك لو جَعلْـتَ له مَفهومًا لكانَ المؤمنونَ لا يُنبَّؤونَ بما عَمِلوا مَع أَنَّهم يُنبَّؤونَ، قال اللهُ تَعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧].

وَثَبَتَ عَنِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عَليه وعَلَى آله وسلَّم- أنَّ اللهَ يَخلو بِعبدِه المُؤمنِ فيُقَرِّره بِذنوبِه عَمِلْتَ كذا فِي يَومِ كذا[1].

إذن: تَقييدُ الإنباءِ بِالكافِرِ لبَيانِ الواقعِ يَعني: أَنَّ هَؤلاء الَّذين كَذَّبوا واقعُهم أَنَّهم سَيُنبَّؤونَ بِما عَمِلوا.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّ كُلَّ شيءٍ مُقيَّدٌ محفوظٌ على الإنسانِ، نَأخذُه مِن قَولِه: ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ فَإِنَّ ﴿بِمَا﴾ اسمُ مَوصولٍ يُفيدُ العُمومَ، وقَدْ قال اللهُ تَعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨] فَأيُّ قَولٍ تَلْفِظُ بِهِ فَلَديكَ رَقيبٌ حاضرٌ عَتيدٌ يَعني: حاضرٌ يَكتبُ ما تَقولُ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ عذابَ هَؤلاءِ الكُفَّارِ سَيكونُ غَليظًا، أي: شَديدًا؛ لِأَنَّ الغِلظَةَ مَعناها القَسوةُ، وهي فِي كلِّ مَوضعٍ بِحسبِهِ، فَغِلَظُ الطِّباعِ لَيْس كَغِلَظِ الطِّينِ أو العَجينِ أَو ما أَشبهَ ذَلكَ، وغِلَظُ العذابِ ليس كَغِلَظِ الطِّينِ والعَجينِ وغِلَظِ القولِ، وَما أَشبهَ ذَلِكَ، كُلُّ غِلْظةٍ بِحَسَبِها.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، رقم (٢٤٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (٢٧٦٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثباتُ العذابِ في الآخرةِ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ فَهلْ هناك عَذابٌ قَبلَ الآخرَةِ؟

الجوابُ: نَعَمْ، يُعذَّبُ الإنسانُ في قَبرِه قَبْلَ أَنْ يُبعثَ، وَهذا ثابتٌ بِالقُرآنِ وَالسُّنَّةِ اسْتَمِعْ إِلَيهِ في القُرآنِ قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام:٩٣]، فَقولُه: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ يَدلُّ على أَنَّهم شَحيحونَ بِأَنْفسِهم لا يُريدونَ أَنْ تَخْرُجَ ولـهذا يُقالُ: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ توبيخًا، ثُمَّ يُقالُ لَـهم: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: يَومَ مَوتِكم: ﴿تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ وهَذه نَصٌّ في إِثباتِ عَذابِ القبرِ.

وقال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَن آلِ فِرعونَ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦].

وأَمَّا السُّنَّةُ فَطافِحةٌ في ذَلكَ وكَثيرةٌ، ومِنها ما أَجمعَ المُسلمونَ عَليه، فَكُلُّ المُسلمينَ يَقولون في الصَّلاةِ: أَعوذُ بِاللهِ مِنْ عَذابِ جَهنَّمَ ومِن عَذابِ القبرِ، وهل يُتصوَّرُ أَنَّ أَحدًا يَتعوَّذ مِن شيءٍ إِلَّا وهو يُؤمنُ بوجودِه! لا يُتصوَّرُ.

إِذَنْ: فَعذابُ القَبرِ ثابتٌ بِالقرآنِ والسُّنَّة وَالإجماعِ، وعليهِ فَيكونُ العَذابُ المَذكورُ في قولِه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ هو عذابُ الآخرةِ، وهو أَشدُّ مِن عَذابِ القبرِ، أَجارنا اللهُ وإِيَّاكم مِن ذلك.

الْفَائِدَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ مِن عِبادِ اللهِ مَن لا يَشكُرُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ ولا يَعْترفُ له بِالفَضلِ، فَإِذا جاءته الرَّحمَةُ بَعْدَ الضَّرَّاءِ ادَّعى أَنَّ هذا بِعمَلِه وأَنَّه محقوقٌ به وأَهلٌ له؛ لِقولِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾.. إلخ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ الرَّحمةَ إِنَّما هي مِن اللهِ عَزَّوَجَلَّ لا يَستطيعُ الإنسانُ أَنْ يَجلِبَ لِنفسِه نَفعًا ولا أَنْ يَدفَعَ عَنْهَا ضَررًا، بل ذلك إلى اللهِ، ولكنَّ اللهَ قَد جَعَلَ لِكُلِّ شيءٍ سببًا، فَللرَّحمةِ أَسبابٌ ولِلعذابِ أَسبابٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: بَيانُ حالِ هذا الإِنسانِ الَّذي إِذا أصابتْه الرَّحمةُ والخَيرُ: ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ ثُمَّ ادَّعَى دَعوَةً أُخرى أَنَّه لَو رَجعَ إِلى اللهِ لَوَجَدَ عِندَه خَيرًا من ذلك، مع أَنَّه يُنكِرُ قيامَ السَّاعةِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: تَهديدُ مَنْ هَذهِ حَالُه بِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ سَوف يُقَرِّرُه بِذنوبِه ويُذيقُه مِنَ العَذابِ الغَليظِ لِقولِه: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ الإِظهارَ في مَوضعِه خَيرٌ مِنَ الإِضمارِ يَعني: إِذا دارَ الأمرُ بَينَ أَنْ تَأتِيَ بِضميرِ المُتحدِّثِ عَنه أو بِاسْمٍ ظاهرٍ، فَإِنَّ الأصلَ أَنْ تَأتِيَ بِالضَّميرِ، لكن إِذا صارَ هناك فائدةٌ في الإِظهارِ في مَوضعِ الإِضمارِ فَهو أَوْلَى وأَحْسَنُ، الإِظهارُ في مَوضعِ الإِضمارِ في قَولِه: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وَلو أَضْمرَ لقالَ: فَلَنُنَبِّئَنَّهُمْ، لكنَّه أَظْهَرَ في مَوضِعِ الإِضمارِ، والإِظهارُ فِي مَوضعِ الإِضمارِ، ذَكَرْنا أَنَّ فيه أَربعَ فَوائدَ:

١- بَيانُ الصِّفَةِ أَو الوَصْفِ الَّذي اسْتحقَّ مِن أَجْلِه أَنْ يُعاقَبَ بِهذه العُقوبةِ.

٢- بَيانُ العُمومِ، يَعني: أَنَّ هذا الوعيدَ ليس لِهذا الرَّجُل وَحدَه بَل لكُلِّ كافرٍ، هذا بِالنِّسبةِ لِهذه الآيةِ.

٣- انْتباهُ المُخاطَبِ؛ لِأَنَّ الكلامَ إِذا كانَ على نَسَقٍ واحدٍ بضمائرِه ومُظهَراتِه، فإِنَّ الإِنسانَ لا يَنتبهُ لكن إِذا جاء شيءٌ يُخرِجُ الكلامَ عَن سياقِه، فَإِنَّه لا بُدَّ أَنْ يَنْتبِهَ.

٤- مُراعاةُ فَواصلِ الآياتِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: إِثْباتُ البعثِ لِقولِه: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: عُمومُ عِلْمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأنَّ الْمُنْبِئَ بِالعَمَلِ لا بُدَّ أَنْ يكونَ عالمًا به.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: بَيانُ عَظَمَةِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حَيثُ أَضاف الضَّمائِرَ إِليه بِصيغةِ الجَمعِ، والجَمعُ لِلواحِدِ يُرادُ به التَّعظيمُ.



الآية (٥١)

• • ● • •

❁ قال اللهُ تَعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت:٥١].

• • ● • •

قَولُه تَعالَى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ يَعني: أَعْطيناهُ نِعمةً والنِّعمةُ تَدورُ على شَيئَينِ: على حُصولِ المَرغوبِ، وعلى النَّجاةِ مِنَ المَرهوبِ. فَمَنْ سَقطَ في بَحرٍ ثُمَّ هيَّأَ اللهُ له مَن يُنقذُه مِنَ الغرَقِ فَتلكَ نِعمةٌ. وكَذلك أيضًا مَنْ رَزَقَه اللهُ مالًا وولدًا هَذه نِعمةٌ، فَالنِّعمَةُ إمَّا انْدفاعُ نِقمةٍ، وإمَّا حُصولُ مَحبوبٍ لِلإنسانِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾] المُرادُ [الجنس] يَعني: ليس المُؤمنُ ولا الكافرُ، بَل هذا الوصفُ يكونُ مِنَ المُؤمنِ ويكونُ أيضًا مِنَ الكافرِ. يَعني: أَنَّ جِنسَ الإنسانِ بالنَّظَرِ إلى كَونِه إنسانًا فقط هَذه حالُه، إذا أَنعمنا على إنسانٍ أَعرضَ عَنِ الشُّكرِ، والشُّكرُ حَقيقةً هو طاعةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ويَكونُ بِالقَلبِ وبِاللِّسانِ وبِالجَوارِحِ، ويَدُلُّ على أنَّ الشُّكرَ هو طاعةُ اللهِ قَولُ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعَلَى آلِه وسلَّم-: «إِنَّ اللهَ أَمَرَ المُؤمنينَ بِما أَمَرَ بِه المُرسَلينَ، فَقال اللهُ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون:٥١] وَقالَ لِلْمُؤمنينَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٧٢]»[1].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، بابِ قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فَجَعَلَ النَّبيُّ ﷺ الشُّكرَ لله هُوَ العَمَلُ الصَّالحُ يَعني: القيامَ بطاعَةِ اللهِ ويَكونُ بالقلبِ ويَكونُ باللِّسانِ ويَكونُ بالجَوارحِ، أَمَّا بالقلبِ فَهو شُعورُ الإنسانِ بأَنَّ هَذه النِّعمةَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأَنَّه لَولا فَضلُ اللهِ ما حَصَلَت له فيُقِرُّ بقلبه، ويَعترِفُ أَنَّ ذلك من عندِ اللهِ وليس بِحولِه وقُوَّته، وأَمَّا الشُّكرُ باللِّسانِ فالتَّحدُّثُ بِنعمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ اعترافًا بِفضلِه لا افتخارًا على خَلقِه بأنْ يَقولَ: الحمدُ لله قدْ رَزقَني اللهُ أَولادًا وَمالًا وعِلمًا وجاهًا وما أَشبهَ ذَلِكَ.

وَمِنَ الشُّكرِ باللِّسانِ جَميعُ الطَّاعاتِ القَولِيَّة، فَإنَّها مِنَ الشُّكرِ باللِّسانِ فَقراءَةُ القُرآنِ مِنَ الشُّكرِ؛ لأنَّ كُلَّ طاعةٍ باللِّسانِ فهي مِنْ شُكرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

والشُّكرُ بالجوارحِ العملُ؛ كَالرُّكوعِ والسُّجودِ والقِيامِ والقُعودِ والصَّدقةِ وَما إِلى ذلك، وفي هذا يَقولُ الشَّاعرُ[1]:

أَفَادتْكُم النَّعماءُ مِنِّي ثَلاثَةً ... يَدي ولِساني والضَّميرَ المُحَجَّبَا

يَقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [فصلت:٥١].

يَقُولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أي: ثَنَى عِطفَهُ مُتبخْتِرًا] يَعني: أَعْرَضَ بِبَدَنه وبقَلْبِه مُفْتخِرًا مُتعاظِمًا هَذا بالنِّسبةِ لِحالِه، وبِالنِّسبةِ لِمَا يُطلبُ مِنه مِنَ الشُّكرِ يُعرِضُ ولا يَشكُرُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، وهذه حالُ كَثيرٍ مِن بَني آدَمَ؛ ولِهذا عَمَّمها اللهُ قالَ: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾؛ لِأنَّ أَكثَرَ بَني آدمَ عَلى هذه الحالِ.

وقَولُه: ﴿وَنَـَٔا﴾ في التَّفسيرِ: [(ناء)] يَقُولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَفي قِراءةٍ بِتَقديمِ الهمزةِ] في قِراءةٍ سَبْعيَّةٍ، واعلمْ أنَّ اصطلاحَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه إذا قال: «وفي قِراءةٍ»

(١) انظره في غريب الحديث للخطابي (١/ ٣٤٦)، والفائق للزمخشري (١/ ٣١٤) غير منسوب.

فَهي سَبعيَّةٌ أي: مِنَ القِراءاتِ السَّبعِ، وإذا قال: «وقُرِئَ» فهي مِن القِراءاتِ الشّاذَّةِ.

إذن: (ناء) و(نأى) مَعناهُما واحدٌ كَأَيِسَ ويَئِسَ بِتَقديمِ الهَمزةِ وتَأخيرِها ومَعناهُما واحدٌ، أَيِسَ من كذا ويَئِسَ من كذا، وناءَ بِكذا أو نَأَى بكذا مَعناهُما واحدٌ، والمقصودُ أَنَّه كما قال المفسِّر: ثَنَى عِطفَه وانصرفَ مُتبختِرًا ومُتعاظِمًا.

قالَ الله تَعالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أَقبلَ: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾، يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كثير]. أي: إذا مَسَّه الشَّرُّ لجَأَ إلى اللهِ وأَطالَ الدُّعاءَ وأَكثرَ مِنهُ، وانظُروا ما حَكَى اللهُ تعالَى عَنِ المُشركينَ إذا كانوا في البَحرِ وهاجَ البحرُ: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس:٢٢]، ولكنَّهم يَعِدونَ ويَكذِبونَ إذا أَنجاهم اللهُ عادوا إلى كُفرِهم والعياذُ بِاللهِ.

من فَوائِدِ الآيةِ الكَريمَةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ الإنسانَ مِن حيثُ هو إنسانٌ بَطِرٌ عندَ النَّعماءِ لكنَّه مُقبِلٌ عند الضَّرَّاءِ لِقولِه: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ ما يَتمتَّعُ به الإنسانُ مِنَ النَّعيمِ، فإنَّما هو مِن عندِ اللهِ لقَولِه: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: التَّحذيرُ مِن هذه الحالِ، فإذا رَأى الإنسانُ مِن نَفسِه أَنَّه عند النِّعمَةِ يَفرحُ ويَبطُرُ ويَتهاوَنُ بِما أَوجبَ اللهُ عَليه، فَليَعلَمْ أَنَّه داخلٌ في هذا الإنسانِ المَذمومِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الإنسانَ يَعرفُ مِن نَفسِه الضَّعفَ إذا أَصابَه الضَّررُ ويَلجأُ إلى اللهِ حتَّى الكافرُ يَعرفُ مِن نَفسِه الضَّعفَ، ويَلجأُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الكُفَّارَ يُؤمنونَ باللهِ وبأنَّه هو كاشفُ الضُّرِّ لِقولِهِ: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾.

الإعرابُ في قَولِه: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ هـذه جُملةٌ شَـرطيَّةٌ، وجَوابُها: ﴿أَعْرَضَ﴾، و﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ مَعطوفٌ عليه. وأَمَّا في قَولِهِ: ﴿وَإِذَا مَسَّـهُ ٱلشَّرُّ﴾، فَجوابُه: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ وعامِلُه مُقَدَّرٌ أي: فَهو ذو دُعاءٍ عَريضٍ. واقْتُرِنتِ الفاءُ في جَوابِ الشَّرطِ؛ لِأنَّ جَوابَ الشَّرطِ جُملةٌ اسميَّةٌ، وَإذا كانَ جَوابُ الشَّرطِ جُملةً اسميَّةً وَجَبَ اقترانُها بِالفاءِ وَلا تَسقطُ إِلَّا نادرًا، والجُمَلُ الَّتي إذا وَقَعَت جَوابًا لِلشَّرطِ فَإنَّها تُقتَرَنُ بِالفاءِ مَجموعةٌ في قَولِ النَّاظمِ:

اســميَّةٌ طَلبيَّــةٌ وبِجامــدٍ ... وبِلَــن وقَــد وبِــالتَّنفيسِ

فَإذا وَقَعَ جَوابُ الشَّـرطِ جُملةً من هَذهِ الجُمَلِ السَّبعِ وَجَـبَ اقتِرانُه بِالفاءِ ولا تُحذَفُ إِلَّا نادرًا مثل قولِ الشَّاعرِ(١):

مَن يَفعلِ الحسناتِ اللهُ يَشـكُرُها ....

الأصلُ مَن يَفعلِ الحَسناتِ فاللهُ يَشكُرُها، لَكِنَّها سَقطت إِمَّا لِضرورَةِ الشِّعرِ وإِمَّا لِلقِلَّةِ؛ لِأَنَّها تَسقطُ حتَّى في النَّثرِ ولكن ذلك قليل.



(١) اختلف في قائله، فنسبه سيبويه في الكتاب (٣/ ٦٤-٦٥) لحسان بن ثابت، ونسبه ابن هشام في مغني اللبيب (ص:٨٠) لعبد الرحمن بن حسان، ونسبه جماعة لكعب بن مالك كما في خزانة الأدب (٩/ ٥١).

الآية (٥٢)

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٥٢].

ثم قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كَما قالَ النَّبيُّ -صلَّى الله عَليه وعلى آله وسلَّم-]: ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٥٢].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾، ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ بمَعنَى أَخبِروني، وقَولُه: ﴿إِن كَانَ﴾ يَعني: القُرآنَ: ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم﴾ وأَنكرتُم أن يَكونَ من عند اللهِ: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أَصلُ الجُملةِ مَن أَضَلُّ مِنكُم أَرأيتُم إِن كانَ مِن عندِ اللهِ وتَبَيَّنَ لَكُم أَنَّه مِن عندِ اللهِ: ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ الأَصلُ لا أَحَدَ أَضَلُّ مِنكُم ولَكنَّه أُظهِرُ في مَوضعِ الإضمارِ، وذَكَرنا أَنَّ لِلإظهارِ في موضِعِ الإضمارِ فَوائدَ مِنها:

أولًا: تَنبيهُ المُخاطَبِ.

ثانيًا: بَيانُ الصِّفةِ الَّتي استحقَّ بِها صاحبُ الضَّميرِ هذا الوَصفَ.

ثالثًا: بَيانُ العُمومِ.

رابعًا: مُراعاةُ فَواصلِ الآياتِ.

وقولُه: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: القرآن] وتَبيَّن لَكم ذَلكَ واتَّضحَ، ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ أتى بـ«ثُمَّ» الدَّالَّةِ علَى التَّرتيبِ والتَّراخي إشارةً إلى أنَّ هَؤلاءِ أنكروا وكَفَروا بَعدَ التَّروِّي وبَعدَ المُدَّة الَّتي يُؤمنُ بِها مَن أَرادَ الإيمانَ.

وقَولُه: ﴿بِهِۦ﴾ الضَّميرُ يَعودُ عَلى القُرآنِ ويَجوزُ أَن يَكونَ عائدًا إلى الرَّسولِ -صَلَّى اللهُ عليه وعَلى آلِه وسَلَّم-؛ لِأنَّه هو الَّذي نَزَلَ عليه القُرآنُ.

﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ يقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: لا أحد ﴿أَضَلُّ﴾]، إشارةٌ إلى أنَّ الاستفهامَ هُنا بمَعنَى النَّفيِ، واعلَم أنَّ الاستفهامَ يَأتي بِمعنَى النَّفيِ كَثيرًا وَإِتيانُه في مَوضعِ النَّفيِ أَعظمُ مِنَ النَّفيِ؛ لِأنَّه إذا أَتَى الاستفهامُ في مَوضعِ النَّفيِ صارَ مُشربًا مَعنَى التَّحدِّي كَأنَّه قالَ: أَروني أحدًا أَضَلَّ، وهذا لا شكَّ أنَّه مُشتَمِلٌ على النَّفيِ وعلى التَّحدِّي.

وقال: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ ﴿مَنْ﴾ مُبتدأٌ اسمُ استِفهامٌ وَ﴿أَضَلُّ﴾ خبرُهُ، ﴿مِمَّنْ هُوَ﴾ أي: مَنِ الَّذي هو في ﴿شِقَاقٍ﴾، يقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [خلافٍ ﴿بَعِيدٍ﴾] بَل شِقاقٍ أَخصُّ مِنَ الخِلافِ؛ لِأنَّه قَد يُخالِفُك ولا يُشاقُّك ولَكِنَّ هَؤلاءِ خالَفوا وشاقُّوا.

وقولُه: ﴿بَعِيدٍ﴾ يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بَعِيدٍ﴾ عَنِ الحقِّ أَوقعَ هَذا مَوقِعَ منكم بَيانًا لِحالِهِم]، يُريدُ أَوقعَ: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ مَوقِعَ مِنكُم؛ أي: مَوقِعَ الضَّميرِ، فَهو إظهارٌ في مَوضعِ الإضمارِ لِبيانِ حالِهم؛ أَي: بَيانُ أَنَّهم هُم أَضلُّ من كُلِّ أَحدٍ وأنَّ حالَهم الشِّقاقُ البَعيدُ فَفيهِ إظهارٌ في مَوضِعِ الإضمارِ.

من فوائِدِ الآيَةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَحَدِّي هَؤلاءِ الْمُكَذِّبينَ لِلرَّسولِ ﷺ الكافِرينَ بِالقُرآنِ، وأَنَّهم بَعدَ أن عَلِموا بِالحقِّ كَفَروا بِه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ لِقولِه: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وَجهُ ذَلِكَ أَنَّ القُرآنَ وَصفٌ لأَنَّه كَلامٌ، والوصفُ لا بُدَّ أن يَقومَ بِمَوصوفٍ، وإِذا كانَ مِن عندِ اللهِ لَزِمَ أن يَكونَ الْموصوفُ بِهِ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ثُمَّ زيادَةً على ذَلكَ وَجهُ الدَّلالَةِ كَونُه مِن عندِ اللهِ، وأَنَّ الكلامَ صِفةٌ ولَيس عَينًا قائمةً بِنَفسِها حَتَّى نَقولَ: إِنَّه مَخلوقٌ كَما في قَولِه تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٢٠٦].

وهذا ما نُؤمنُ بِه ويُؤمنُ بِه السَّلفُ أَهلُ السُّنَّةِ والجماعَةِ بِأَنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ تَكلَّمَ بهِ حَقيقةً بِحُروفِهِ، وسَمِعَه مِنه جِبريلُ وأَلقاه عَلى قَلبِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسَلَّم-.

ويَرى أَهلُ التَّعطيلِ أنَّ القرآنَ كَلامُ اللهِ لَكنَّه مَخلوقٌ، لَيسَ وَصفًا مِن صِفاتِه بل هو مَخلوقٌ مِن مَخلوقاتِه، وهذا رَأيُ الجَهميَّةِ والْمُعتزلَةِ، وهَذا الرَّأيُ يُبطِلُ الأمرَ والنَّهيَ ويُبطِلُ الشَّريعَةَ كُلَّها؛ لِأَنَّه إذا كانَ كَذلكَ صارَ مُجَرَّد أَصواتٍ أو مُجَرَّد حُروفٍ لا مَدلولَ لَها، كَما نَسمعُ صَوتَ الرَّعدِ مَثلًا لا نَستفيدُ مِنهُ شَيئًا، إِنَّما هو شَيءٌ يُسمَعُ فقط ولَيس لَه مَعنًى، أو حُروفٌ خُلِقَت عَلى هَذا النَّحوِ كَأَنَّها نَقشٌ في جِدارٍ أو في بابٍ، نُقوشٌ لَيسَ لَها مَعنًى؛ ولِهذا يُعتبَرُ هَذا القولُ مِن أَشدِّ الإلحادِ؛ لِأَنَّه تَبطلُ بِه الشَّريعَةُ.

فَمثلًا: كَلمَةُ (قُل) إذا قلنا: إِنَّها مَخلوقَةٌ إن رَسمتَها في وَرقةٍ صارت صورةَ كَلِمةٍ فَقط كَأَنَّها نَقشٌ؛ لِأَنَّها لَيست بِكلامٍ، وإِن تَكلَّمتَ بِها فالصَّوتُ مَخلوقٌ،

بَلِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ حينَ تَكلَّم بِها وأَوحاها إِلى جِبريلَ يُعتبرُ خَلَقَ صَوتًا ليس له مَعنًى؛ لِأَنَّه مَخلوقٌ مِنَ المخلوقاتِ.

واللهُ عَزَّوَجَلَّ فَرَّق بَينَ الخلقِ والأمرِ فَقالَ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤] وكَذَلكَ: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢] ولَم يَقُل: مِن خَلقِنا.

فالقائلونَ بِأَنَّ القرآنَ كَلامُ اللهِ لكنَّه مَخلوقٌ قد عَطَّلوا الشَّرائِعَ نِهائيًّا، إِذ إِنَّه لَيس هُناكَ أَمرٌ ولا نَهيٌ.

وهُناكَ قَولٌ آخَرُ لِلأشاعِرَةِ يَقولونَ: إِنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ، لكنَّه أَي: الكلامُ هو المعنَى القائمُ بِنفسِهِ أَمَّا ما سَمِعَه جِبريلُ فَإِنَّه مَخلوقٌ، فالقُرآنُ عندهُم كَلامُ اللهِ لَكِنَّ كَلامَ اللهِ هو المعنَى القائمُ بِنفسِه، وأَمَّا ما يُسمَعُ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ كَمُناجاتِه موسَى وكَلامِه بِالوحيِ إلى جِبريلَ فَإِنَّه مَخلوقٌ عِبارةٌ عَنِ المعنَى القائِمِ بالنَّفسِ.

وهذا المعنَى أَشدُّ وأَخبثُ مِن قَولِ المُعتزِلَةِ؛ لِأَنَّ المُعتزِلَةَ يَقولونَ: ما نَقرأُه في المَصاحفِ كَلامُ اللهِ حقًّا، والأَشاعِرَةُ يَقولونَ: عِبارةٌ عَن كَلامِ اللهِ ولَيس كَلامَ اللهِ، والكلُّ مُتَّفِقونَ عَلى أَنَّ ما نَقرأُه في المَصاحفِ مَخلوقٌ، لكنَّ المُعتزِلَةَ يَقولونَ: هو كَلامُ اللهِ، والأَشعريَّةُ يَقولون: عِبارةٌ عن كَلامِ اللهِ، فصاروا مِن هَذهِ النَّاحيةِ أَخبثَ وأَشَرَّ مِنَ المُعتزِلَةِ والجهميَّةِ.

أَمَّا نَحنُ فَنُؤمنُ بِأَنَّ ما كُتِبَ في المَصاحفِ وحُفِظَ في الصُّدورِ فَإِنَّه كَلامُ اللهِ وهو غَيرُ مَخلوقٍ.

فإن قالَ قائلٌ: أَرَأَيتَ القارئَ يَقرأُ نَسمَعُ صَوتَه بِالقـراءَةِ هَل هذا الصَّوتُ مَخلوقٌ أو غَيرُ مَخلوقٍ؟

قلنا: هو مَخلوقٌ؛ لِأنَّ صَوتَ الإنسانِ وَصفٌ مِن أَوصافِه فَهو مَخلوقٌ كَأصلِه لَكِنَّ الملفوظَ بِهِ والمُصَوتَ بِه غَيرُ مَخلوقٍ، وهُناكَ فَرقٌ بَينَ الصَّوتِ والنُّطقِ وبَينَ المُصوَّتِ به والمَنطوقِ به، فأَنا لَو قَرأتُ كِتابًا أَلَّفَه عالِمٌ مِنَ العُلَماءِ فالصَّوتُ صَوتي لَكِنَّ المَقروءَ لِلعالِمِ الَّذي كَتَبَ الكِتابَ؛ ولِهذا قالَ شَيخُ الإِسلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ في كِتابِه العقيدةُ الواسطيَّةُ: الكلامُ إِنَّما يُضافُ حَقيقةً إلى مَن قالَه مُبتَدئًا لا إلى مَن قالَه مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا[1].

فَلَو أَرادَ الإِنسانُ أَن يَستَفصِلَ، هَل لَفظُ الإنسانِ بِالقُرآنِ مَخلوقٌ أو لا؟

نَقولُ: لَفظُه الَّذي هو تَلَفَّظَه مَخلوقٌ؛ لِأَنَّه حَركاتُ الإِنسانِ وشَفَتَيه وصَوتِه، وأَمَّا المَلفوظُ بِه فَإِنَّه كَلامُ اللهِ غَيرُ مَخلوقٍ، ويَدُلُّ لِهذا أَنَّ اللهَ تَعالَى قالَ في القُرآنِ الكريمِ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢٠] الرَّسولُ هُنا جِبريلُ، وَقالَ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة:٤٠-٤١] الرَّسولُ هُنا مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولا يُمكنُ أَن يَكونَ كَلامٌ واحدٌ لِمُتَكَلِّمَينِ اثنَينِ لَكن أَضافَه إِليهِما لِأَنَّهما رَسولانِ مُبَلِّغانِ عَنِ اللهِ؛ ولِهَذا قال: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ في الآيتَينِ.

وذُكِرَ عَنِ الإِمامِ أَحمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ مَن قال: لَفظي بِالقُرآنِ مَخلوقٌ فَهو جَهميٌّ، ومَن قالَ: غَيرُ مَخلوقٍ فَهو مُبتَدِعٌ[2]، هكذا رُوِيَ عنه، وفي رِوايةٍ: مَن قالَ: لَفظي بِالقُرآنِ مَخلوقٌ يُريدُ القُرآنَ فَهو جَهميٌّ، ومَن قال: غَيرُ مَخلوقٍ فَهو مُبتَدِعٌ[3].

---

(١) العقيدة الواسطية (ص:٩٠).

(٢) انظر: سيرة الإمام أحمد لابنه صالح (ص:٧٠)، والكامل لابن عدي (٣/ ٢٤١)، طبقات الحنابلة (١/ ٧٥).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١٢/ ٧٤).

فالرِّوايَةُ الثَّانيةُ عنه فَسَّرتِ الرِّوايةَ الأولَى أي: مَن قالَ لَفظي بِالقُرآنِ مَخلوقٌ يُريدُ القُرآنَ الَّذي هو الملفوظُ به.

فإن قالَ قائِلٌ: هَل يُمكنُ أَن يُرادَ بِاللَّفظِ المَلفوظُ؟ قُلنا: نَعَم؛ لِأَنَّ لَفظَ مَصدرٌ والمَصدَرُ يَأتي أَحيانًا بمَعنَى اسمِ المَفعولِ كَما في قولِه -صلَّى اللهُ عليه وَعلَى آلِه وسَلَّم-: «مَن عَمِلَ عملًا لَيسَ عَليهِ أَمرُنا فَهو رَدٌّ»[1]. رَدٌّ بمَعنَى مَردودٍ. وكَما في قَولِه تَعالَى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ﴾ [الطلاق:٦] أي: أولاتُ محمولٌ، فالحَملُ مَصدَرٌ ويُرادُ بِه اسمُ المَفعولِ.

ونَحنُ نَقولُ في كَلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: إِنَّه كَلامٌ مَسموعٌ بِحرفٍ وصَوتٍ وأَنَّه غَيرُ مَخلوقٍ وأَنَّه صِفةٌ مِن صِفاتِه.

ولَكِن هل هو مِنَ الصِّفاتِ الذَّاتيَّةِ أو مِنَ الصِّفاتِ الفِعليَّةِ؟ نَقولُ: أَمَّا بِاعتِبارِ أَصلِه وأَنَّه تَعالَى لَم يَزلْ ولا يَزالُ مُتكلِّمًا فهو مِنَ الصِّفاتِ الذَّاتيَّةِ، وأَمَّا بِاعتِبارِ آحادِه فَهو مِنَ الصِّفاتِ الفِعليَّةِ؛ لِقولِه تَعالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] صارت ﴿كُن﴾ بَعدَ الإِرادَةِ، وَهذا دَليلٌ على أَنَّ كَلامَ اللهِ من حَيثُ آحادُه وأَفرادُه مِنَ الصِّفاتِ الفِعليَّةِ.

فإن قالَ قائِلٌ: قَولُ الأشاعِرَةِ هَل يُكَفِّرُهم؟

فالجَوابُ: يَجِبُ أَن نَعلَمَ قاعدةً مُهِمَّةً أَنَّ المُجتَهدَ مِن هَذهِ الأُمَّةِ ولَو أَخطَأَ فَإِنَّه مَغفورٌ لَهُ، هُم يُريدونَ بهذا أَنَّ اللهَ مُنزَّهٌ أن تَقومَ بِه الحوادِثُ؛ لِأَنَّهم يَعتَقدونَ بِعُقولِهم السَّخيفَةِ أَنَّ الحَوادثَ لا تَقومُ إِلَّا بِحادثٍ وهُم يَعلَمونَ أَنَّ الكَلامَ حادثٌ،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

كُلُّ حَرفٍ حَدَثَ بَعدَ الحَرفِ الَّذي قَبلَه، لكن لِعُقولِهم السَّخيفَةِ ظَنُّوا أنَّ مَن يَقومُ بِالحادثِ فَهو حادثٌ، وهَذا خَطأٌ، ولَكن لا نُكفِّرهم في هَذا، ولَو أنَّ إنسانًا تَبيَّن لَهُ الحقُّ وقالَ: إنَّه لا يُريدُ الحقَّ وإنَّما يَتَّبعُ هَواه فَقَد يكفر.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الكُفرَ بَعدَ التَّبَيُّنِ أَشـدُّ قُبحًا مِنَ الكُفرِ مع الجَهلِ بِدَليلِ قولِهِ: ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾، فإنَّ ﴿ثُمَّ﴾ تَدُلُّ على التَّرتيبِ والتَّراخي وأنَّ كُفرَهُم كان بَعدَ أَن تَبيَّنَ الأمرُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّه لا أَحَدَ أَضَلُّ مِمَّن شاقَّ اللهَ ورَسولَه حَيثُ إنَّه في شِقاقٍ بَعيدٍ لِقولِه تَعالَى: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَلاغَةُ القُرآنِ التَّامَّةُ حيثُ يَختارُ في كُلِّ تَركيبٍ ما يُناسبُ الحالَ؛ لِقولِه تَعالَى: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: وُقوعُ الِاستِفهامِ مَوقعَ النَّفيِ وأنَّ إيقاعَ الِاستِفهامِ مَوقِعَ النَّفيِ أُسلـوبٌ عَربيٌّ صَحيحٌ، وفائدتُه أَنَّه إذا كانَ بِصيغَةِ الِاستِفهامِ كانَ مُشـربًا بِالتَّحدِّي، فَقولُه: ﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ أَبلغُ مِن قولِه: لا أَضَلَّ.



الآيتان (٥٣، ٥٤)

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فصلت:٥٣-٥٤].

﴿سَنُرِيهِمْ﴾ السِّينُ لِلتَّنفيسِ، وهي تُفيدُ القُربَ والتَّحقيقَ، و(سوف) لِلتَّسويفِ وَهي تُفيدُ التَّحقيقَ مع البُعدِ؛ ولذلكَ يَجِبُ أن نُفرِّقَ بينَ سَوفَ والسِّين، إذا كان الشَّيءُ سَيكونُ قَريبًا فَقُل: سَيكونُ، وإذا كانَ بَعيدًا فَقُل: سوفَ يَكونُ، ولِهذا تَجِدونَ قَولَ اللهِ تَعالَى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر:٣-٤]؛ لأَنَّه لَم يأتِ بَعدُ وهو بَعيدٌ بِالنِّسبةِ لِكونِه في الدُّنيا.

﴿سَنُرِيهِمْ﴾ يَعني: عَن قُربِ قِراءَةٍ مُتحقِّقةٍ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ﴾ أي: نُظهِرُها لَهم حتَّى يَرونَها بِأَعيُنِهم أو حتَّى يَرونَها بِبَصائِرِهم.

﴿ءَايَٰتِنَا﴾ الآياتُ جَمعُ آيَةٍ وهي في اللُّغةِ العَلامَةُ، والمُرادُ بِآياتِ اللهِ عَلاماتُه الدَّالَّةُ عَلى كَمالِ عِلمِهِ وحِكمتِه وقُدرتِه وغَيرِ ذَلكَ مِن مُقتضياتِ رُبوبيَّتِه، واعلَم أَنَّ الآياتِ نَوعانِ:

١- آياتٌ شَرعيةٌ وَهي ما جاءت بِهِ الرُّسلُ ومِنها هَذا القُرآنُ الكَريمُ.

٢- وَآياتٌ كَونيَّةٌ: وَهي الدَّالَّةُ عَلى كَمالِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في العِلمِ والخَلْقِ وكُلِّ

ما يَتعلَّقُ بِرُبوبيَّته، وهي ما يَعجَزُ البَشرُ عَن مثلِه، فالبَشَرُ كُلُّهم عاجزونَ عَن أَن يَخلُقوا أَرضًا أو سَماءً أو نُجومًا أو شَمسًا أو قَمرًا؛ ولِهذا قال تَعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت:٣٧]، هذه آياتٌ كَونيَّةٌ؛ لأَنَّه يَعجَزُ عن مِثلِها البَشَرُ.

والآياتُ الشَّرعيةُ مِثلَ قَولِه تَعالَى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم:١٥].

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ﴾ أَقطارِ السَّمَواتِ والأَرضِ مِنَ النَّيِّراتِ والنَّباتِ والأَشجارِ].

قَولُهُ تعالى: ﴿فِى ٱلْـَٔافَاقِ﴾ ﴿ٱلْـَٔافَاقِ﴾ جَمعُ أُفُقٍ وَهو النَّاحيةُ، والآفاقُ هُنا جَمعٌ فتَدُلُّ على أنَّ هذِه الآياتِ سَتكونُ في كُلِّ ناحيةٍ مِنَ السَّماءِ والأَرضِ، فَفي السَّماءِ نُجومٌ وَفي السَّماءِ شَمسٌ وَفي السَّماءِ قَمرٌ، وفيها مَشارقُ وفيها مَغارِبُ، كُلُّ هَذه مِن آياتِ اللهِ مَن يَستطيعُ أَن يَخلُقَ مِثلَ الشَّمسِ؟ لا أَحَدَ. مَن يَستطيعُ أَن يُجريَها بِهذا الِانتظامِ البديعِ مُنذُ خَلَقَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ إلى أن يَأذنَ بِخرابِ العالَمِ؟ لا أَحَدَ يَستَطيعُ، مَن يَستطيعُ أَن يُزحزِحَها مِن مَشارِقِها الشَّرقيَّةِ الشَّماليَّةِ إلى مَشارِقِها الشَّرقيَّةِ الجَنوبيَّةِ؟ لا أَحَدَ، وهَلُمَّ جرًّا هذا في آفاقِ السَّماءِ.

ومِن آفاقِ السَّماءِ ما يَحصُلُ مِنَ الأمطارِ الغَزيرَةِ أَوِ الخَفيفةِ والرَّعدِ والبرقِ وغَيرِ ذَلكَ، المُهمُّ أنَّ آفاقَ السَّماءِ كُلُّ ما عَلا فَإنَّه داخلٌ في آفاقِ السَّماءِ.

كَذلكَ أيضًا آفاقُ الأرضِ فيها مِن آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ما يَدُلُّ على كَمالِ عِلمِه وقُدرتِه وحِكمتِه ورَحمتِه جِبالٌ وأَنهارٌ وبِحارٌ، فَيافي وأَوديةٌ، هِضابٌ إلى غَيرِ ذَلكَ، نَباتاتٌ مُختلِفَةٌ تَجِدُ النَّباتَ كَأَنَّه رُقعةُ ثَوبٍ موشَّى، هذا أَخضرُ وهذا بَنفسَجيٌّ وهذا

أَبيضُ، وزُهورُها مُختلِفةٌ وثِمارُها مُختلِفَةٌ تُسقَى بِماءٍ واحدٍ ويُفضِّلُ اللهُ بَعضَها عَلى بَعضٍ في الأُكُلِ.

كَذَلِكَ أَيضًا يَدخُلُ في قولِهِ: ﴿فِي ٱلْآفَاقِ﴾ ما يَحصُلُ في الآفاقِ مِن حَربٍ وَسِلمٍ وأَمنٍ وخَوفٍ وشِدَّةٍ ورَخاءٍ، كُلُّ هَذهِ مِنَ الآياتِ مِن آياتِ اللهِ في الآفاقِ.

كَذلكَ ما يحصُلُ مِن غَلَبَةٍ وانهِزامٍ وغَيرِ هَذا، فاللهُ تَعالَى وَعَدَ بِأن يُرِيَ العِبادَ آياتِه في الآفاقِ، فَكلُّ ما في الآفاقِ العُلويَّةِ والسُّفليَّةِ ممَّا لا يَستطيعُ الخَلقُ أَن يَأتوا بِمِثلِه فَهو مِن آياتِ اللهِ.

﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يَعني: ونُريهُم آياتِنا في أَنفسِهم وذَلكَ مِن نَواحٍ مُتعدِّدةٍ، أَولًا مِن جِهةِ الخِلقَةِ كَيفَ خَلَقَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الآدميَّ على هَذهِ الصِّفةِ البَديعَةِ الغَريبَةِ الَّتي لا يوجَدُ مِنَ الحيواناتِ مَن هو مِثلُه في حُسنِ القامةِ وحُسنِ التَّدبيرِ والعقلِ وغَيرِ ذَلكَ.

كَذلكَ أَيضًا في أَنفُسهم مِن طولٍ وقِصَرٍ وبَياضٍ وسَوادٍ وحُسنِ خُلُقٍ وسوءِ خُلُقٍ.

كَذلكَ في أَنفُسِهم مِن تَقلُّباتِ الأَحـوالِ وكَونِ الإِنسانِ أَحيانًا يُريدُ كَذا، وأَحيانًا يُريدُ كَذا وأَحيانًا يُريدُ الشَّيءَ ويُصمِّمُ عَليهِ، وإِذا به مَصروفٌ عنه هَذا مِن آياتِ اللهِ.

ولِهذا قيلَ لِعَرَبيٍّ: بِم عَرفتَ رَبَّك؟ قال: بِصَرفِ الهِمَمِ، يَعني: تَقليبَ القُلوبِ، تَجدُ الإنسانَ مَثلًا مُتَّجِهًا إلى أن يَنصرِفَ إلى الشَّمالِ، فَإذا به يَنصرِفُ إلى الجَنوبِ بِدونِ أيِّ سَببٍ لَكن بتقديرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

كَذلكَ أَيضًا مِن آياتِ اللهِ في الإِنسانِ تَركيبُ هذا البَدَنِ العَجيبِ البَديعِ، واسأَل أَهلَ التَّشريحِ عَن هَذا تَجدُ العَجَبَ العُجابَ إِن أَتيتَ إلى الرَّأسِ وَما فيه مِنَ

المُخِّ وما فيه مِنَ الأدواتِ، وإذا أَتيتَ إلى الأَمعاءِ وإلى المَعِدَةِ وإلى الكَبِدِ وإلى الغُدَدِ وإلى غَيرِها تَجِدُ العجَبَ العُجابَ، يَعني: أَنَّه دولَةٌ في الواقعِ، دولةٌ كُلُّ شَيءٍ مِنهُ لَهُ عَمَلُه الخاصُّ. مَن يَستَطيعُ أَن يُرَكِّبَ هَذا؟ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

كَذلِكَ أَيضًا مِنَ الآياتِ في الأنفُسِ: ما حَصَلَ لِقُريشٍ في بَدرٍ حَيثُ إنَّ قُريشًا في بَدرٍ خَرجت إلى بَدرٍ كَما وَصفَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[الأنفال:٤٧] يَقولُ القائلُ مِنهم: «واللهِ لن نَرجعَ حتَّى نَقدُمَ بَدرًا فنُقيمُ فيها ثَلاثًا نَنحرُ الجَزورَ ونَسقي الخُمورَ وتَعزفُ عَلينا القِيانُ وتَسمَعُ بِنا العَرَبُ، فَلا يَزالونَ يَهابونَنا أَبَدًا».

هَكَذا قالوا، ولَكِنَّ الأمرَ صارَ بِالعَكسِ -والحَمدُ لله-، صار العربُ يَتحدَّثون عَن هَزيمتِهم إلى أن يَشاءَ اللهُ مِن أَمَدِ الدُّنيا، هَذا مِن آياتِ اللهِ.

كَذلِكَ مِن آياتِ اللهِ تَعالَى في الإنسانِ: أَنَّ النَّاسَ يَختَلِفونَ اختلافًا عَظيمًا في الفَهمِ والحِفظِ والعملِ، تَجِدُ هَذا يَختارُ هَذا العَمَلَ، والآخرُ يَقولُ: كَيفَ يَصبِرُ هَذا الرَّجلُ عَلى هذا العَمَلِ، وَآخرُ بِالعَكسِ، هَذا مِن آياتِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

كَذلِكَ أَيضًا النَّاسُ يَختَلِفونَ في الفَهمِ: مِنَ النَّاسِ مَن إذا قَرأتَ عليهِ العبارَةَ فَهِمَها من أَوَّل مَرَّةٍ، ومِنَ النَّاسِ مَن لا يَفهمُها في أَوَّل مرَّةٍ، مِنَ النَّاس مَن إذا تَلَوتَ عَليهِ العبارَةَ حَفِظَها مِن أَوَّل مَرَّةٍ، ومِنَ النَّاسِ مَن لَيس كَذلكَ، كُلُّ هَذا مِن آياتِ الله، وإلَّا فالدَّمُ واحدٌ والعَصَبُ واحدٌ والعِظامُ واحدةٌ والجِلدُ واحدٌ، وكُلُّ شَيءٍ واحدٌ لَكن يَختلِفُ النَّاسُ هَذا الِاختلافَ العَظيمَ.

كُلُّ هَـذا داخلٌ في قَولِه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يَقـولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ مِن لَطيفِ الصَّنعةِ وبَديعِ الحِكمةِ]. ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ

لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ يتبيَّنُ بمعنًى يَتَّضحُ لَهُم أي: لِهؤلاءِ المُكذِّبينَ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أنه﴾ أَي: القُرآنَ]، ويَحتملُ أَن يُرادَ بِهِ الرَّسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ويَحتَمِلُ أَن يُرادَ المَعنيانِ جَميعًا.

قولُه تعالَى: ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ يقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْحَقُّ ﴾ المُنزَّلُ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِالبَعثِ والحِسابِ والعِقابِ فيُعاقَبونَ عَلى كُفرِهم بِه وبِالجائي به].

﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ الحقُّ في الأصلِ هو الشَّيءُ الثَّابتُ الواقعُ لا محالَةَ، ومِنه قَولُه تَعالَى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ [الحاقة:١-٢] يَعني: الشَّيءَ الثَّابتَ، ويُطلَقُ عَلى مَعانٍ مُتعدِّدةٍ مِنها: أَنَّه الصِّدقُ، فالصِّدقُ حَقٌّ وضِدُّهُ الكَذِبُ باطلٌ، ومِنها: العدلُ، فالعَدلُ حَقٌّ وضِدُّه الجَورُ وهو باطلٌ؛ ولِهذا قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ﴾ [الأنعام:١١٥] ومِنها -أي: مِن مَعاني الحَقِّ- أَنَّه الشَّيءُ الثَّابتُ الَّذي لا يُزَحزِحُه أَحَدٌ، وضِدُّه الشَّيءُ الَّذي لا يَثبُتُ ولا يَستَقِرُّ وكُلُّ إِنسانٍ يُبطلُهُ.

فَأنتَ الآنَ تَجِدُ أنَّ القُرآنَ الكَريمَ مَهما جادلَ بِهِ المُجادِلُ ليدفَعَه فَحُجَّتُه باطِلةٌ، ولا يُمكنُ لِأحدٍ أَن يَغلبَ القُرآنَ بل القُرآنُ غالبٌ، لَكنِ اعلَموا أَيُّها الإِخوةُ أَنَّ كَونَ القُرآنِ غالبًا إِنَّما هو بِحَسَبِ حامِلِه؛ ولِذلكَ تَجِدُ السَّيفَ البَتَّارَ بيدِ الجَبانِ لا يُغني شَيئًا، لا بُدَّ أن يَكونَ القُرآنُ بِحَسَبِ حامِلِهِ وإِلَّا فالقُرآنُ نَفسُهُ لا يُمكنُ أَن يُغلبَ أَبدًا إِلَّا أَنَّه قَد يُغلَبُ مِن جِهةِ حامِلِه، وهذا لَيسَ عَيبًا في القُرآنِ ولَكنَّه عَيبٌ في حاملِ القُرآنِ.

قَولُه تَعالَى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المُنزَّلُ مِنَ اللهِ بِالبَعثِ والحِسابِ]، وهذا التَّخصيصُ مِنَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ على سَبيلِ المِثالِ، وَإِلَّا فَإِنَّه

يَتبيَّنُ أَنَّه الحقُّ في كُلِّ شَيءٍ في كَونه يَغلِبُ ولا يُغلَبُ، وفي كَونِ أَحكامِه عَدلًا وأَخبارِه صِدقًا وغَيرِ ذلك.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فيُعاقَبونَ على كُفرِهِم بِهِ]، أَفادنا المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ المُرادَ بِالتَّبيُّنِ هُنا لازَمَـه وهو المُعاقَبَةُ؛ لِأَنَّه لَو كانَ المُـرادُ التَّبيُّنَ فقط بِدونِ عِقابٍ عَلى مُخالفتِه بَعدَ التَّبيُّنِ لَم يَكنْ هُناكَ فائدةٌ، وَمِن ذَلكَ أَيضًا -أَي مِن كَونِه يُطلَقُ البَيانُ أَوِ العِلمُ ويُـرادُ بِه اللَّازِمُ- قَـولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [الزلزلة:٦] أَي: ليرَوها ويُجازَوا عَليها، وهذه الآيةُ أَيضًا ﴿يَتَبَيَّنَ﴾ فيُعاقَبونَ على كُفرِهم به.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وبِالجائي به] الجائي بِهِ الرَّسولُ ﷺ.

قال اللهُ تَعالَى: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ لَمَّا بَيَّنَ اللهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أَنَّه سَيُظهِرُ الآياتِ حتَّى يَتبيَّنَ أنَّ هَذا القُرآنَ حَقٌّ وأَنَّ مُحَمَّدًا حَقٌّ ذَكَرَ شيئًا أَعظمَ دَلالَةً على أَنَّ القُرآنَ حَقٌّ، وعلى أنَّ الرَّسولَ ﷺ حَقٌّ، إِنَّه هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ ولِهذا قالَ: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾؟

والجَوابُ: بَلَى يَكفي ذَلِكَ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعالَى إِذا رَأَى هذا الرَّجلَ يَدعو النَّاسَ إلى ما يَدعوهم إِلَيه ويُقاتِلُهم بِهِ ويَنصُره اللهُ عَليهِم ويُمكِّنُ له في الأرضِ ويَتَّبِعُهُ النَّاسُ هَل يُمكنُ أن يُقِرَّ اللهُ ذَلِكَ وهو باطلٌ؟

لا يُمكنُ أَبدًا، لا يُمكنُ إِطـلاقًا، فَكَونُ اللهِ تَعالى يُمَكِّـنُ لِرسولِه ﷺ في الأرضِ، ويَجلِبُ قُلوبَ النَّاسِ إِليهِ ويَنصرُه عَلى أَعدائِهِ ويَفتَحُ بِدينِه آفاقَ الشَّرقِ والغَربِ، كُلُّ هَذا دَليلٌ عَلى أَنَّه حَقٌّ، وشَهادَةُ اللهِ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لِرسولِه نَوعانِ:

١- شَهادَةٌ قوليَّةٌ.

٢- وشَهادةٌ فِعليَّةٌ.

أَمَّا الشَّهادَةُ القوليَّةُ فَدَليلُها قَولُه تَعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[النساء:١٦٦] هذه شَهادةٌ مِنَ اللهِ.

أَمَّا الشَّهادَةُ الفِعليَّةُ فَهي تمَكينُ اللهِ تَعالَى لِمُحمَّدٍ ﷺ في الأرضِ ونَصرُه إِيَّاه وغَلَبَةُ دينِهِ عَلى جَميعِ الأديانِ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ فاعلُ يَكفي] والباءُ مَزيدَةٌ فيهِ لِتَحسينِ اللَّفظِ ونَظيرُها: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: وَكَفَى اللهُ شَهيدًا، وعلى هَذا فَنَقولُ في إِعرابِها: الباءُ حَرفُ جَرٍّ زائِدٌ إِعرابًا فائدَتُه تحَسينُ اللَّفظِ، ورَبُّ فاعلُ يَكفي مَرفوعٌ بِضَمَّة مُقدَّرةٍ على آخِره مَنعَ مِن ظُهورِها حَرفُ الجَرِّ الزَّائِدِ.

وقولُه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ أَضافَ الرُّبوبيَّةَ لِلرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهذا لِلتَّشريفِ والتَّكريمِ؛ لِأَنَّه رَبُّ كُلِّ شَيءٍ.

وانظُر إلى قَولِه تَعالَى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٩١]؛ لِئَلَّا يَظُنَّ الظَّانُّ أَنَّ الرُّبوبيَّةَ خاصَّةٌ بِهذه البَلدَةِ، كَذلِكَ أَيضًا إِضافَةُ الرُّبوبيَّة إلى الرَّسولِ مِن بابِ التَّشريفِ والتَّكريمِ، والإِشارَةُ إلى أَنَّه سَوفَ يَنصُرهُ على عَدوِّه؛ لِأَنَّ رُبوبيَّةَ اللهِ لِلرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ رُبوبيَّةٌ خاصَّةٌ.

وقَولُه تَعالَى: ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ بَدلٌ مِن قَولِه: ﴿بِرَبِّكَ﴾. والبَدلُ يَقولونَ في تَعريفِه: هو الَّذي إِذا أَسقطتَ المُبدَلَ مِنه استَقامَ الكلامُ. تَقولُ: أَعجبَني زَيدٌ خُلقُه هَذا بَدلٌ، أَسقِط زَيدًا: أَعجَبني خُلُقُ زَيدٍ. أَكَلتُ الرَّغيفَ ثُلُثَهُ: أَسقِطِ الرَّغيفَ، ويَستَقيمُ الكَلامُ، هَذا رابطُ البَدلِ، وهُنا نَقولُ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾

أَسقِط بِرَبِّكَ تَقولُ: أَوَلَم يَكفِ أَنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ شَهيدٌ، يَستَقيمُ، لَكن لا شَكَّ أَنَّ القُرآنَ الكَريمَ لا يُمكنُ أَن يُوجِدَ بَدلًا ومُبدلًا مِنهُ إِلَّا لفائدةٍ عَظيمةٍ، فيكونُ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ شَهادَةً ونُصرةً وتَثبيتًا وما أَشبهَ ذَلِكَ، ثُمَّ قالَ: ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ هَذا بَعضٌ مِن مُقتَضى رُبوبيَّتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ بَدَلٌ مِنه أي: أَوَلَم يَكفِهِم في صِدقِكَ أَنَّ رَبَّك لا يَغيبُ عَنه شَيءٌ ما؟]، والشَّهادَةُ هُنا نَوعُها فِعليَّةٌ، يَعني: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ وَقَد مَكَّنَ لَكَ في الأَرضِ وَثَبَّتك ونَصَرَك عَلَيهِم وعلى كُلِّ عَدوٍّ لَكَ؟

والجَوابُ: بَلَى، واللهِ إِنَّ هَذا لَكافٍ، وهذا كقولِه تَعالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت:٥٠] بَعدَها: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت:٥١]، الكِتابُ أَعظَمُ آيةً شَهادَةٌ مِنَ اللهِ عَلى صِدقِ رَسولِه.

ثُمَّ قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ ﴿أَلَآ﴾ أَداةُ استِفتاحٍ وتُفيدُ شَيئَينِ:

الشَّيءَ الأَوَّلَ: التَّوكيدَ.

والشَّيءَ الثَّانيَ: التَّنبيهَ ﴿أَلَآ﴾ وهي غَيرُ مُركَّبةٍ بَل هي كَلمةٌ واحدَةٌ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ﴾ شكٍّ ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ لِإنكارِهِم البَعثَ]، فَهُم والعياذُ بِاللهِ في شَكٍّ مِن لِقاءِ اللهِ ولَو كانوا يَرجونَ للهِ لِقاءً لاستقاموا وخافوا مِنه، كُلُّ إِنسانٍ يُؤمِنُ بِأَنَّه مُلاقٍ رَبَّه، فَإِنَّه سوف يَستقيمُ على أَمرِ اللهِ؛ لِأَنَّه يَعلمُ أَنَّ الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ سوف يُحاسِبُه على هذا.

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ﴾ ﴿أَلَآ﴾ أداةُ استفتاحٍ أُخرى تُفيدُ التَّنبيهَ والتَّوكيدَ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَلَآ إِنَّهُۥ﴾ تعالَى ﴿بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾ عِلمًا وقُدرةً فَيُجازيهم بِكُفرِهم].

هُم في شَكٍّ مِن لِقاءِ اللهِ لَكِن سوفَ يُنبِّئُهمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِما عَمِلوا؛ لِأَنَّه بِكُلِّ شَيءٍ مُحيطٌ وعلى هَذا فَصلَةُ قَولِه: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾ بما قَبلَها الإِشارةُ إلى أَنَّه سوفَ يُجازيهم.

من فوائِدِ الآيَتينِ الكريمَتينِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ اللهَ تَعالَى سَيُظهِرُ ما يَتبيَّنُ به صِدقُ الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الآفاقِ وَفي أَنفُسهم، نَأخذُها مِن قولِهِ: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ هذه الإِراءَةَ قَريبةٌ مُحقَّقةٌ، تُؤخَذُ مِن: ﴿سَنُرِيهِمۡ﴾ لِأَنَّها صُدِّرت بِالسِّينِ الدَّالَّةِ على التَّحقُّقِ والقُربِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ يَنبغي لِلإنسانِ أَن يُفكِّرَ في آياتِ اللهِ تعالَى وفي نَفسِه؛ لِأَنَّ ذَلكَ طَريقٌ إلى أن يَتبيَّنَ له الحقُّ، نَأخذُها مِن: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾، فأَنتَ كُلَّما ازددتَ تَأمُّلًا وتَدبُّرًا لِآياتِ اللهِ الآفاقيَّةِ والآتيَةِ بِنفسكَ فَإِنَّكَ لا شكَّ تَزدادُ إيمانًا ويَتبيَّنُ لَكَ صِدقُ الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الإِنسانَ ناقصُ العِلمِ نَقصًا عَظيمًا؛ وَجهُه: أَنَّ اللهَ تَعالَى يُريهِ آياتِه في نَفسِه، فالإنسانُ غَيرُ عالِمٍ بِنَفسِه إِلَّا إذا عَلَّمه اللهُ؛ ولِذلكَ النَّفسُ الَّتي هي مادَّةُ الحياةِ لا نَعرِفُها.

ولِهذا اختَلفَ فيها النُّظَّارُ مِنَ المُتكلِّمينَ والفَلاسِفَةِ وغَيرِهم، مِنهم مَن قال: إنَّ النَّفسَ هي الدَّمُ، ومِنهم مَن قال: إنَّ النَّفسَ جُزءٌ مِنَ البدنِ، ومِنهُم مَن قالَ: إنَّ النَّفسَ عَرَضٌ في البدنِ، ومِنهم مَن قال: إنَّ النَّفس لا توصَفُ بشيءٍ فَلا هي داخلُ العالَمِ، ولا خارِجُه ولا مُتَّصلَةٌ ولا مُنفصلَةٌ، إلى آخِر ما يَقولونَ في النَّفيِ المُطلَقِ، ومِنهم مَن قال: إنَّ النَّفس مَخلوقٌ مِن مَخلوقاتِ اللهِ وأَنَّها ذاتُ جُرمٍ وأَنَّها تَدخُلُ في البدَنِ وتَسيرُ فيهِ كَما تَسيرُ الجَمرُ في الفَحمِ أَوِ الماءُ في المَدَرِ.

وَيَدُلُّ لِذلكَ أَنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَخبرَ أَنَّ الإِنسانَ إِذا قُبِضَ أُخِذَت نَفسُه، أَخَذَتها المَلائِكَةُ وجَعَلَتها في كَفَنٍ وحَنوطٍ وأَنَّه إِذا قُبِضَ اتَّبَعهُ البَصرُ، وهَذا يَدُلُّ عَلى أَنَّها شَيءٌ مَخلوقٌ لَه جُرمٌ وجَسَدٌ، لَكِننا مَع ذلك لا نَعلَمُ مِنها إِلَّا قَليلًا، ولِهذا لَمَّا سَألوا عَنِ الرُّوحِ قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ القُرآنَ والرَّسولَ -صَلَّى اللهُ عَليهِ وعلى آلِهِ وسَلَّم- حَقٌّ؛ لقَولِه: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الآياتِ الدَّالَّةَ عَلى ذَلكَ: آياتٌ توصِّلُ إلى اليقينِ لِقولِه: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾ التَّبيُّن أي: الوُضوحُ والظُّهور، ومنه قَولُه تَعالَى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ [البقرة:١٨٧] فَإذا عَلِمتَ أَنَّك لَم تَصِل إلى اليَقينِ فاتَّهِم نَفسَكَ، وعَلَيكَ أَن تُعالِجَ هَذا المَرَضَ العُضالَ الخَطيرَ حَتَّى تَصِلَ إلى اليَقينِ؛ حَتَّى تَصِلَ إلى ما يَدُلُّ عَليه قَولُ الرَّسولِ -صَلَّى اللهُ عَليه وعلى آلِه وسَلَّم-: «**أَن تَعبُدَ اللهَ كَأَنَّك تَراهُ، فَإِن لَم تَكُن تَراهُ فَإِنَّه يَراكَ**»(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: كِفايَةُ اللهِ تَعالَى عَن كُلِّ شَيءٍ بِشهادَتِه لِقولِه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الِاستِدلالُ بِالآثارِ على مُؤَثِّراتِها، وَجهُ ذَلكَ أَنَّ اللهَ تَعالَى استدلَّ بِتَمكينِه الرَّسولَ عَلى أَنَّه حَقٌّ، فالإِنسانُ يَستَدِلُّ بِالآثارِ عَلى مُؤَثِّراتِها؛ ولِهَذا قيلَ: البَعرَةُ تَدُلُّ عَلى البَعيرِ، وَهذا جَوابٌ مِن أَعرابي سُئِلَ بِما عَرَفتَ رَبَّك؟ فَقالَ عَلى البَديهَةِ: «البعرَةُ تَدُلُّ على البَعيرِ -اختارَ هذا؛ لِأَنَّه أَعرابيٌّ ما يَعرفُ إِلَّا الإِبِلَ- والأَثَرُ يَدُلُّ عَلى المَسيرِ -إِذا رَأَيتَ مَثَلًا صورةَ القَدمِ عَلى الأَرضِ عَرفتَ أَنَّه قد سارَ على هَذا أَحَدٌ- فَسَماءٌ ذاتُ أَبراجٍ وأَرضٌ ذاتُ فِجاجٍ وبِحارٌ ذاتُ أَمواجٍ أَلا تَدُلُّ على السَّميعِ البَصيرِ؟»[1]، والجَوابُ: بَلَى هذا الأَعرابيُّ استدلَّ بِالآياتِ الآفاقيَّةِ عَلى وُجودِ اللهِ وعلى قُدرتِه.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: الحَذَرُ مِنَ المُخالَفةِ وهذه فائِدَةٌ تَربَويَّةٌ، تُؤخَذُ من: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ فَإِذا عَلِمتَ أَنَّ اللهَ شَهيدٌ على كُلِّ شَيءٍ عَلى نَفسِك أَفعالِك أَقوالِك كُلِّ التَّصرُّفاتِ، فَإِنَّكَ سَوفَ تُراقِبُ الله عَزَّوَجَلَّ، ومَن لَم يَتَّعظ بِمِثلِ هذه الآيةِ فَإِنَّه لَن يَتَّعِظَ، إِذا عَلِمتَ أَنَّ اللهَ شَهيدٌ عليكَ في خَلَواتِكَ في وَحدَتِك في جُلوسِكَ مَع أَهلِكَ في جُلوسِكَ مع صَحبِكَ، فَإِنَّك سوفَ تُراقِبُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ وهذا هو مَعنَى قَولِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَن تَعبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَراهُ فَإِن لم تَكن تَراهُ فَإِنَّه يَراكَ**»[2].

---

(١) انظر: زاد المسير (١/ ٢٦٦)، وتفسير ابن كثير (١/ ١٠٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: بَيانُ حالِ هَؤلاءِ المُكذِّبينَ وأنَّ سَببَ تكذيبِهم أَنَّهم في شَكٍّ مِن لقاءِ اللهِ، ومَعلومٌ أَنَّ مَن كانَ في شَكٍّ مِن لِقاءِ اللهِ فَلن يَعمَلَ للهِ؛ ولِهذا تَجِدونَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقرِنُ دائمًا بَينَ الإيمانِ بِه واليومِ الآخرِ؛ لِأنَّ مَن نَقصَ إيمانُه بِاليومِ الآخِرِ فَسوفَ يَنقُص عَملُه ومَن كَمُلَ إيمانُه بِاليومِ الآخرِ فَسوفَ يَكمُل عَملُه؛ لِأَنَّه يَرجو أن يَكونَ سَعيدًا في ذَلكَ اليومِ، أَنت حينَما تَركَعُ وتَسجُدُ اجعل عَلى بالِكَ أَنَّ هَذا الرُّكوعَ والسُّجودَ سَوفَ يَنفعُكَ يَومَ القيامةِ، وهو يَنفعُكَ مِنَ الآنِ؛ لِأنَّ الصَّلاةَ تَنهى عَنِ الفحشاءِ والمُنكرِ، لَكِنَّ الثَّمرةَ المَلموسَةَ يَومَ القيامَةِ الَّتي تَظهرُ لِكُلِّ أحدٍ، وفي الدُّنيا يَظهرُ لِلمُؤمِنِ الانتِفاعُ التَّامُّ بِالطَّاعاتِ، كَما قالَ شَيخُ الإِسلامِ ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما يَفعلُ أَعدائي بي! إِنَّ جَنَّتي في صَدري، حَبسي خُلوةٌ ونَفيي سياحَةٌ وقَتلي شَهادَةٌ»[1] رَحِمَهُ اللَّهُ، فالإنسانُ المُؤمنُ يَجِدُ هَذا في نَفسِهِ قَبلَ يَومِ القيامَةِ، وفي يَومِ القيامَةِ يَكونُ الظُّهورُ الكامِلُ يَكشِفُ عَن كُلِّ شَيءٍ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: بَيانُ إِحاطةِ اللهِ بِكلِّ شيءٍ: عِلمًا وقُدرةً، وسُلطانًا وتَدبيرًا، وغَيرِ ذَلكَ؛ مُحيطٌ بِكلِّ شَيءٍ بِأفعالِه وأَفعالِ العِبادِ، قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: تَحقيقُ مُراقبةِ اللهِ؛ لِأَنَّك إذا آمَنتَ أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيءٍ مُحيطٌ فَسوفَ تُراقبُه المُراقبةَ التَّامَّةَ، بِحيثُ لا يَفتقدُكَ حَيثُ أَمَرَك، ولا يَراكَ حَيثُ نَهاكَ.



(١) انظر: الوابل الصيب (ص:٤٨).

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث **الصفحة**

* * *

فهرس الفوائد

فهرس آيات السورة